المركز القومي للترجمة

داڤيد سولار

اليوم الأخير لأدولف هتلر

ترجمة: هالة عواد

مراجعة وتقديم: عبد السلام أحمد



2218

سلسلة الإبداع القصصي

اليوم الأخير لأدولف هتلر

(رواية تاريخية)

تأليف : دافيد سولار
ترجمة : هالة عواد
مراجعة وتقديم : عبد السلام أحمد

2014

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: رشا إسماعيل

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 2218
- اليوم الأخير لأدولف هتلر
- دافيد سولار
- هالة عواد
- عبد السلام أحمد
- اللغة: الإسبانية
- الطبعة الأولى 2014

هذه ترجمة:
El último día de Adolf Hitler
Por: David Solar

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

سولا، دافى.
اليـوم الأخـيـر لأدولف هـتـلـر/ دافى سـولار؛
ترجمة: هالة عواد، عبد السلام أحمد. ـ القاهرة:
الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٢.
٤٤٨ص؛ ٢٤ سم.
تدمك ٣ ٧٠٣ ٤٤٨ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ السياسيون الألمان.
٢ ـ هتلر، أدولف ١٨٨٩ ـ ١٩٤٥.
رقم الإيداع بدار الكتب ٢٣٨٨١/ ٢٠١٣

I. S. B. N 978 - 977 - 448 - 703 - 3

ديوى ٩٢٣,٢٠١٤٣

المحتويات

إهـــداء

إلى سهى، قمر ليلة الرابع عشر

تقديم المراجع

إن انتحار أدولف هتلر يعد واحدا من أكثر لحظات التاريخ مأساوية، فقد أطلق ديكتاتور ألمانيا النار على رأسه حتى يتفادى مواجهة مسئولياته الجسيمة، وهو الشخص الذى أثار العالم وأرعبه مدة اثنتى عشرة سنة كاملة، وقاده إلى وضع كارثى لم يسبق له مثيل. وقع الحدث فى نحو الساعة ٤٥: ١٥ يوم ٣٠ أبريل من عام ١٩٤٥. ويتناول كتابنا الستة وثلاثين ساعة السابقة لحادث الانتحار، عندما كانت ألمانيا تعانى آثار الدمار الشامل، وعندما لقى أكثر من خمسة ملايين شخص مصرعهم فى أتون الحرب العالمية الثانية، وعندما بدأ الجنود السوفييت فى الاقتراب من مقر المستشارية المتهاوى، ولاحت فى الأفق أمارات النهاية المحتومة.

مع بزوغ فجر يوم ٢٩ أبريل، أدرك هتلر أنه سيواجه الحقيقة لا محالة، الحقيقة التى كانت أبعد ما تكون عن عظمة أعمال فاجنر

الأوبرالية التى كان يعشقها. كانت الحقيقة، على عكس ذلك تماما، كانت واقعا حياتيا مبتذلا: ففى مواجهة الموت، نجده يقرّر أن يضفى الشرعية على علاقته بإيفا براون، عشيقته طوال خمسة عشر عاما؛ يكتب وصيته الشخصية والسياسية؛ يستمتع بطعامه ونومه، ويفقد أعصابه من الغضب والشعور بالعجز، ويغتم من جرّاء بُعد وضعف جيوشه المنهوكة، ويحدّد مصير جثمانه، ويستشعر لحظة من الأمل المطمئِن، وفى النهاية يقرّر، وفى جلَد، أن ينهى حياته.

ليس من اليسير أن يتسنى لنا فهم الشخصية والموقف والحقبة، دون إعادة بناء السيرة الذاتية واللحظة التاريخية. من ثم، ففى الصفحات التالية، سيتم سرد التفاصيل الدقيقة لساعات هتلر الأخيرة، بداية من زواجه وانتهاء بمماته، وذلك من خلال نسيج يلتف حول محطات فارقة فى حياته:

- الطفولة، تشكيل هتلر وشبابه، حتى بعد الحرب العالمية الأولى.

- انخراط هتلر فى السياسة، حتى محاولته القفز على السلطة بالقوة، فيما عرف: بالبوتش (putsh) ميونخ ١٩٢٣[١].

(١) بوتش ميونخ أوبوتش الحانة أ وبوتش هتلر : (Hitlerputsch) هو ما عرف فى اللغة العربية باسم: انقلاب بير هول (عن الإنجليزية: -Beer Hall (Putsch) كانت محاولة انقلابية فاشلة نفذها هتلر مع الحزب النازى من أجل الاستيلاء على السلطة فى بافاريا" وألمانيا، بدأت فى مساء يوم نوفمبر" ٨ نوفمبر فى حانة (Bürgerbräukelle) وانتهت ظهيرة يوم ٩ نوفمبر بالفشل الذريع وحُكم على إثرها بالسجن على أدولف هتلر.

- تحديد إيديولوچية النازية من خلال كتاب "الماين كامبف"[1] (Mein Kampf) والاقتراب من الصراع السياسى، داخل نطاق الشرعية، ومن المعارك الانتخابية، حتى حصوله على منصب المستشار.

- النازية فى الحكم: التطويع الشمولى لألمانيا وحشد جميع قوى البلاد وراء فكرة ثأرية عنصرية إمبريالية.

- الحرب الحتمية، مع بريق الانتصارات العسكرية الأولى، وردود فعل التحالفات والهزيمة المريرة النهائية: مراحل كشف خلالها هتلر عن الكثير من الرؤى العبقرية، وارتكب فى أثنائها العديد من جسام الأخطاء فى حق جيوشه، وأطلق فيها العنان لتصفية عرقية هوجاء، وعبّر على مداها عن استخفافه ببطانته -"ألمانيا لا تستحقنى"-، وتأليهٍ لذاته مما قاده وبلاده إلى الضياع.

يحاول كتاب (اليوم الأخير لأدولف هتلر) تسليط الضوء على الظروف التى صاحبت وصول الرجل إلى السلطة، وإعادة بناء

---

(١) ماين كامبف: تعنى كفاحى. هو عنوان الكتاب الذى ألَّفه أدولف هتلر" أدولف هتلر ليجمع بين عناصر السيرة الذاتية والشرح التفصيلى لنظرياته "النازية". نُشر المجلد الأول منه عام ١٩٢٥ والمجلد الثانى عام ١٩٢٦ أملى هتلر معظم المجلد الأول على نائبه "رودلف هس"، أثناء وجوده فى سجن لاندسبرج، حيث كان يقضى عقوبة السجن إثر فشل انقلاب بوتش ميونخ.

لحظاته الأخيرة بدقة متناهية: انهيار الجسد، الخوف، الكراهية، الآمال، الإحباطات وانعزاله التام عن الواقع الدولى الذى سيقرّر معيار الحكم على المهزوم، وإعادة رسم حدوده، احتلال أراضيه وكذا تقسيم ألمانيا. على ذلك، فهو كتاب تاريخى يستعين بوثائق سيرة ذاتية معترف بها وموثّقة، لا تخلو مع ذلك، من بعض اللمسات المزيدة مثل تفاصيل مخبأ[1] هتلر، فى محاولة لإعادة تصوير خطواته عبر تلك الأروقة المظلمة والغرف التى سيأتى ذكرها. لابد وأن نشير إلى أن هناك إضافات ولمسات تغتفر: فمثلا، عندما يُذكر أن هتلر جلس هنا، فذلك لأنه بالفعل كان هناك كرسى وحاجة هتلر للجلوس باستمرار؛ ولو ذكر أنه وقف يتأمل لوحة فذلك لأنه كانت هناك لوحة معلقة فى ذلك المكان، وكان يحلو له الوقوف أمامها وتأملها؛ ولو ورد ذكر خزينة أو سرير أو أريكة فهذا يعود لأن وحدات الأثاث تلك كانت موجودة حيث أتى ذكرها. وبطبيعة الحال، عندما يؤكد حدوث أمر ما فذلك لأن الشهود، ممن عايشوا الحرب، قد أوردوا تلك الأحداث تحت القسم، أثناء محاكمات نورمبرج.

رخصة أخرى استخدمها الكاتب، هى تلك التى تتعلق بإضفاء المزيد من التشويق على القصة، عن طريق صياغة حوار بين

---

(١) هو المعروف باسم فوهرربونكر (Führerbunker) بدأت أعمال بنائه تحت حديقة المستشارية عام ١٩٤٣، ولم تتم أبدا. اضطر هتلر لأن يقيم به أواخر الحرب العالمية الثانية، تحديدا من يوم ١٦ يناير حتى يوم انتحاره ٣٠ أبريل ١٩٤٥، وسيستخدم الكاتب لفظ "بونكر" فى هذا الكتاب للإشارة إلى مخبأ هتلر.

شخوص الحدث. إذا جاءت بين علامتى تنصيص، فذلك يعنى أنها منسوخة عن وثائق، أو برقيات، أو مذكرات، أو تحقيقات، فقد جاءت بطريقة أو بأخرى كما يتذكرها الشهود. أما عندما تأتى بحروف مائلة فذلك يعنى أنها من بنات أفكاره، وقد راعى فيها الالتزام، فى جميع الأحوال، بالمحتوى التاريخى مما تواتر ذكره، وإن لم تكن قد حُفظت بنصها.

سيلحظ القارئ أيضًا أن كتاب اليوم الأخير لأدولف هتلر لم يتناول فقط الأربع وعشرين ساعة الأخيرة للفوهرر، وأن هذه السيرة قد جاءت مشتملة على فترات زمنية واسعة، غطّت أحداث السياقين، المحلى والدولى؛ وأن القصة قد تشربت ببعض المناحى الأدبية، حيث إن كل ذلك يخدم النتيجة النهائية. إن محاولة فهم كيف تسنى لرجل من أسرة متوسطة الحال وذى ثقافة محدودة ودون موارد اقتصادية أن يملك قلب أوربا، هى من التعقيد بمكان حتى إن صياغة الكتاب كانت محاولة لإعادة فهم شخصية ذلك الرجل. ولا يدعى الكاتب تمكنه من التوصل لتفسير مبسط أو مباشر ولا جزمه بإزاحة النقاب عن أسرار تحريك إرادات شعوب وخلق الزعماء وصياغة الأساطير، غير أن ما سيرضيه لو استطاع إشباع رغبة القارئ فى التعرف على ملامح تلك الفترة، وأن يلتفت

إلى الإنذار الذى يطلقه الساسة الجدد من الوطنيين، بين ربوع أوروبا، حيث تبزغ نجوم رجال يسعون للحصول على القبول ويحاولون نشر إيديولوجيات شمولية.

عبد السلام عواد

المعادى ٢٠١١

الفصل الأول
زواج فى بونكر المستشارية

كانت جنبات المبنى ترتج بلا هوادة، بينما أصداء الانفجارات المكتومة تتوالى فى الخارج، غير أن تلك الأجواء المضطربة لم تكن لتزعج المجتمعين فى رواق البدروم الثانى لبونكر ومقر مستشارية الرايخ[1]. هناك، كان هتلر يقف مرتديا سروالا أسود، وسترة زرقاء داكنة ذات أزرار جانبية معدنية، يزينها وسام واحد من أوسمة عدة كان قد حصدها بصفته محاربا شارك فى الحرب العالمية الأولى. إلى جانبه وقف مرافقو ظله: مارتين بورمان وجوزيف جوبيلز يتبادلان أطراف حديث شيّق. على مسافة ليست بالبعيدة، وقفت العروس متوترة قلقة تحيط بها سكرتيراتا الفوهرر- فراو جونج وفراو كريستيان -، وكذلك ماجدة جوبيلز، والطاهية فراولين

(١) الرايخ الثالث أو ألمانيا النازية: هو اسم ألمانيا فى الفترة بين ١٩٣٣ إلى ١٩٤٥.

مانزيالى . كانت إيفا براون ترتدى فستان سهرة من الحرير الأسود، ذا فتحة صدر على هيئة سبعة، وتزين رقبتها ميدالية من الذهب. أمّا على الجانب الآخر من الرواق، البالغ عرضه ثلاثة أمتار وطوله ثمانية عشر مترا، وقفا جانبا الجنرالان كريبس، رئيس هيئة أركان حرب الفيرماخت(١)، وبورجدورف، مساعد هتلر.

فى نحو الساعة الواحدة من فجر يوم ٢٩ أبريل من عام ١٩٤٥. بدت على المجتمعين فى ذلك الرواق، علامات نفاد الصبر. كان هتلر متعجلا حتى يواصل كتابة وصاياه، وكانت إيفا براون تخشى ألا تتمكن من تقديم مأدبة طعامها. أخيرا، وصل والتر واجنر، موظف سجل مدنى العاصمة برلين، محاطا بجنود "الأس أس"(٢). كان شاحب اللون، متوسط القامة، يرتدى زيا عسكريا متسخا وسوار الفولكستروم (آخر الجيوش التى زج بها هتلر إلى المعركة ويتكوّن من كبار السن والأحداث).

---

(١) فيرماخت (Wehrmacht) هو اسم القوات المسلحة الموحدة لألمانيا من العام (١٩٣٥ إلى ١٩٤٥).

(٢) وحدات الأس أس أوشوتزشتافل (Schutzstaffel) : كانت منظمة للحزب النازى الألمانى أنشئت سنة ١٩٢٥، وكلفت بمهمة حماية أدولف هتلر. فى سنة ١٩٣٤ أصبحت "الأس أس" وحدة شبه عسكرية مستقلة تقوم بمهام بوليسية لحساب الحزب النازى. بعد هزيمة ألمانيا فى سنة ١٩٤٥، منعت هذه المنظمة وتم اعتبارها منظمة إجرامية.

افتقرت المراسم المدنية إلى الحماسة والأبهة. فقد تم اقتياد الموظف، غائر العينين ولحيته غير الحليقة لثلاثة أيام، وقسمات وجهه التى توحى بالإجهاد، إلى قاعة الخرائط: غرفة لا تتعدى مساحتها التسعة أمتار تحتل معظمها طاولة تراكمت عليها الخرائط العسكرية التى كان هتلر ومساعدوه يتابعون من خلالها تطورات المعركة. أزاحوا بعض الأوراق حتى يتمكن والتر واجنر من ملء الاستمارات التى كانت تمثل اللحظة التى تعيشها ألمانيا: مستندات مطبوعة بالآلة الكاتبة بها مسافات بيضاء لتسجيل البيانات. شطب الموظف أسماء والدى هتلر وتاريخ زواجهما، ربما لاختصار وقت مراسم بدت له سخيفة فى ذلك المخبأ الذى كان يئن تحت قصف القنابل السوفيتية، والذى لم يكف سقفه عن إسقاط قطع من دهانه الجيرى؛ أو لا بد أن يكون قد شك فى امتلاك الفوهرر للمستندات المطلوبة، ومن ثم تجنب الإحراج حتى إنه كتب عبارة "معروف معرفة شخصية" كغطاء للإجراء. وبعدها سأل: " تاريخ ميلادك يا سيادة الفوهرر، من فضلك".

آل هتلر

«وُلدت فى براوناو آم إن[1] ، يوم ٢٠ أبريل من عام ١٨٨٩، فى كنف أب يعمل موظفا بالجمرك يدعى: ألواس هتلر. كان تعليمى عبارة عن خمس سنوات من التعليم الابتدائى وأربع من المتوسط». هكذا بدأ هتلر كتابة مذكراته فى رسالة كتبها فى يوم ٢٩ نوفمبر من عام ١٩٢١ ثم واصل:

«كنت أتطلع فى شبابى لأن أكون مهندسا معماريا، وأعتقد أننى لو لم تستأثر بى السياسة لما مارست سوى تلك المهنة. وقد تعلم، فقد فقدت والدىّ قبل أن أبلغ السابعة عشر، ونظرا لانعدام مواردى، إذ لم أكن أملك سوى عشرين كورونة فقط عندما وصلت فيينا، فقد اضطررت لكسب عيشى، شأنى فى ذلك شأن كل العمّال. لم أكن قد أتممت الثامنة عشر عندما اشتغلت عامل بناء، وفى غضون سنتين كنت قد مارست كل أعمال الأجير اليومى. فى ذلك الوقت، واصلت دراستى، قدر استطاعتى، فدرست تاريخ الفن والحضارة والعمارة ولم تكن المسائل السياسية لتشغلنى إلا لمما».

---

(١) براوناو آم إن: وتعرف اختصارا ببرونو. هى مدينة نمساوية صغيرة تقع فى إقليم " النمسا العليا" على الحدود مع ألمانيا" جمهورية ألمانيا الفدرالية، إذ لا يفصل بينها وبين مدينة زيمباخ آم إن الألمانية سوى نهر الإن (الصفحة غير موجودة)". وقد استمدت هذه المدينة شهرتها من كونها مسقط رأس الزعيم الألمانى النمساوى الأصل، "أدولف هتلر".

وعلى الرغم من مرور هتلر مرور الكرام فى سطور هذه السيرة الذاتية على أصوله العائلية، فإنها شغلته فى السنوات اللاحقة حتى إنه أمر بإجراء بحث فيها، بعد أن وصل إلى سدّة الحكم. وُلد هتلر فى شمال شرق فيينا بين نهر الدانوب وحدود بوهيميا - مورافيا. فى هذه المنطقة النمساوية كان قد ظهر لقب هتلر فى القرن الخامس عشر، وإن كان قد تحرَّف لغويا حتى القرن العشرين: هيادلر، هياتلر، هودلر، هايتلر. كانت المشكلة لدى أدولف هتلر، الذى صاغ أقسى القوانين المعادية للسامية التى عرفتها الإنسانية، أن والده ألواس، كان ابنا غير شرعى، فلقب فى البداية بلقب والدته: شيكلجروبر، ثم تغيّر لقبه إلى هتلر عن طريق أبيه بالتبنى جوهان نيبوموك هيدلر. نقص المعلومات هذا حول جد هتلر سهل على أعدائه التشكيك فى أن له أصولاً يهودية، ربما لا يكون لها أى وجود. إن التقرير الذى سلّمه هانز فرانك، رفيق هتلر منذ بداياته وأثناء الحرب العالمية الثانية، وحاكم وجلاّد بولندا، لقوات الحلفاء - ربما فى محاولة لتبرئة ساحته - هو الذى زاد من قوة هذا الاحتمال، الذى أجرى أنهارا من الحبر فيما مضى.

الآن أثبت المتخصص فى سيرة هتلر، وارنر ماسر، أن ألواس هتلر كان، رسميا، ابنا لأبيه بالتبنى، جوهان نيبوموك هيدلر، الرجل المتزوج الذى لم يجرؤ على الاعتراف به. غير أنه، وعندما

بلغ ألواس التاسعة والثلاثين من عمره، فإن أباه الذى تبناه لجأ لحيلة ماكرة ليتمكن من إعطائه اسمه: ذهب بصحبة ثلاثة شهود لمقر السجل المدنى ليشهدوا أن ألواس هو أخ شرعى لأخيه الأكبر جوهان جورج هييدلر، المتزوج من ماريا آنا شيكلجروب عندما كان ألواس فى الخامسة من عمره. وتقبل الموظفون بالسجل المدنى هذه الرواية، وبالطبع لم يستطع أحد التشكيك بها، لأن فى ذلك الوقت كان جوهان جورج هييدلر وماريا آنا شيكلجروب قد توفيا. أما تغيير الاسم من هييدلر إلى هتلر، فربما يعود إلى خطأ مطبعى من جانب موظف السجل. وإذا صدقت هذه الرواية، فنحن هنا أمام حقيقة أن والدى هتلر هما فى واقع الأمر، عم وابنة أخيه.

كانت والدة هتلر تدعى كلارا بولزل، وهى حفيدة لجوهان نيبوموك، والد ألواس بالتبنى. كانت طويلة القامة، ذات عينين زرقاوين واسعتين، شعر كستنائى، هادئة، قليلة الكلام، شديدة التديّن، وأصغر من زوجها بثلاثة وعشرين عاما، وكانت قد ترملت مرّتين قبل أن تتزوجه ورزقت من قبله بابنين هما ألواس وآنجيلا.

تم الزواج فى السابع من يناير من عام ١٨٨٥، فى السادسة صباحا، حيث كان يستوجب على ألواس الوجود فى مقر عمله فى السابعة صباحا. وكان الاحتفال الوحيد هو عشاء عرس، حضره عدد قليل من أفراد عائلتى العروسين وبعض الأصدقاء؛ لا بد أنه

كان احتفالا متواضعا، لأن الشىء الوحيد الذى تذكره أحد الحاضرين، وذلك بعد بثلاثين عاما، ولم يستطع تذكر أية تفاصيل أخرى هو أن الحر كان شديدا فى ذلك المكان.

كانت حياة ألواس (١٨٣٧-١٩٠٣) وكلارا (١٨٦٠-١٩٠٧) كحياة أى زوجين عاديين ينتميان إلى الطبقة الوسطى ويعيشان فى النمسا فى تلك الحقبة. كان هو موظفا مجتهدا ونبيها، بيد أن المراكز القيادية فى الإدارة والجمارك كان لا يشغلها، نظرا لعدم استكماله لدراساته العليا. مع ذلك، وصل إلى أقصى الدرجات الوظيفية التى تُتاح لمن كانت له مثل شهاداته. من ناحيتها، كانت كلارا امرأة ريفية ذات ثقافة محدودة، إلا أن ذكاءها الفطرى وحكمتها عوضانها عن ذلك. سارت بهما مركب الزوجية فى بحار هادئة، فقد استقر ألواس بين ذراعى كلارا بعد أن كان زير نساء شهيرًا فى سنوات شبابه الأولى. وقد تجرع آل هتلر كأسا من العذاب المرير بعد أن فقدوا أربعة من أبنائهم الستة، وقد ولد ثلاثة منهم: جوستاف، وإيدا وأوتو فى السنوات الثلاث الأولى من عمر الزواج، وتوفوا قبل أن يكملوا عامهم الثانى. ثم رزقا بعدها بثلاثة أبناء: أدولفو وإدموند - الذى مات أيضًا خلال سنوات عمره الأولى - ثم باولا، آخر عنقود آل هتلر والتى توفيت دون أن تنجب فى عام ١٩٦٠.

وُلد أدولف، الذى جاء فى شهادة تعميده اسم أدولفوس، فى مساء يوم ٢٠ أبريل عام ١٨٨٩. اصطبغت طفولته بصبغتين

فارقتين: أولاهما، عناية مبالغ فيها من جانب والدته التى، فقدت ثلاثة من أبنائها، فكانت شديدة القلق على صحة الصغير. وثانيتهما، خوف مرضى من أب متسلط كثير الطلبات، متباعد، وذى صورة ذهنية فى عقل الصغير كشيخ عجوز. كانت خمسون عاما تفصل بينهما، وكان الصغير يخشاه لطباعه العابسة المتشددة، وضخامة حجمه، التى يبرزها شاربه الكبير.

عامل آخر أثر بشكل قوى فى حياة أدولف، هو التنقل المستمر لوالد هتلر، الذى ترقى عام ١٨٩٢. واضطر للانتقال إلى مدينة باسو الألمانية، المدينة الكبيرة التى تعود إلى العصور الوسطى، التى ظلت تحتفظ بمكانتها الاقتصادية والفنية حتى نهاية القرن التاسع عشر. وصل أدولف إلى باسو وهو فى الثالثة من عمره وخرج من تلك المدينة القديمة الأسقفية وهو فى السادسة، وقد تركت هذه السنوات الثلاث أثرا بالغا فى لهجته البافارية التى ميّزته حتى نهاية حياته، وفى تفوق حبه لألمانيا على حبه للنمسا. وفى عام ١٨٩٤ ترقى والده مرة أخرى وانتقل إلى لينز، فيما ظلت كلارا فى باسو مع الأطفال لمدة عام آخر، حيث كانت قد وضعت ابنها إدموند للتو.

تغير مفاجئ

عندما كانت الأسرة تستعد للحاق بألواس فى لينز، اتخذ هو قرارا من الأهمية بمكان: التقاعد، كان عمره وقتها ثمانية وخمسين

عاما أمضى منها أربعين عاما فى الوظيفة، فى العمل الجاد بالدائرة الجمركية، ومن ثم فقد كان يستحق التقاعد بمعاش جيّد. من ناحية أخرى، شعر أن لديه القوة والشجاعة لمواصلة حياته الريفية التى اضطر للتخلى عنها منذ نعومة أظفاره، من أجل أن يشق طريقه فى العمل الوظيفى. ابتاع مزرعة فى قرية هافيلد عام ١٨٩٥. العام الفاصل فى حياة أدولف الصغير، الذي انتقل من حياة الحضر إلى حياة الريف، عام بداية ذهابه إلى المدرسة، والعام الذى بدأ فيه إدراكه بوجود أبيه، والذى لم يكن يراه فيما مضى إلا قليلا وأصبح الآن يوجد فى البيت على مدار ساعات اليوم.

ظل يتذكر بحنين طوال حياته المسافات الطويلة التى كان يقطعها للوصول إلى المدرسة فى سنوات عمره الأولى، وهو برفقة أخته غير الشقيقة آنجيلا، التى تكبره بستة أعوام ويجمعها به الكثير من الود. أما زملاء دراسته، فقد تداعت ذكرياته لديهم، عندما حكم البلاد وتحدثوا عن كونه طفلا ذكيا جريئا وذا دور قيادى، فى أغلب الأحيان.

مكث آل هتلر فى هافيلد فقط قرابة عامين. فيها كانت الأرض قليلة الخصوبة والشتاء شديد البرودة، ومدرسة الأولاد بعيدة ومستوى التعليم بها لم يكن ليرضى ألواس، الذى أخذ يتابع عن قرب تحصيل أبنائه للدراسة. من ثم، انتقلت الأسرة عام ١٨٩٧ للعيش فى مدينة لامباخ لإقليمية، بعد أن زاد عدد أفراد الأسرة

بالمولدة الابنة الأخيرة، باولا، وتضاءل أعضاؤها باستقلال الابن الأكبر ألواس بحياته عندما بلغ السادسة عشر من العمر. كانت لامباخ تضم بين جنباتها ديرًا بنديكتيًا يحوى بدوره، مدرسة ارتادها أدولف وهو فى الثامنة من عمره. روى روبرت باين، أحد أهم المؤرخين لسيرة هتلر، أن أدولف قد يكون تعرّف هناك على شكل الصليب المعقوف، الذى تحول بعد ربع قرن إلى رمز للحزب النازى: كان الصليب المعقوف معروفا فى الثقافات الشرقية القديمة، فقد أدخله كبير القساوسة تيودوريخ فون هاجن على شعار أسلحته، ومن ثم فقد كان متناثرًا بين مختلف جنبات الدير. رآه هتلر رمزًا غامضًا وإن كان غير ذى تهديد، وذلك على مدى عامين كاملين، حيث رحلت الأسرة عام ١٨٩٩، إلى بلدة ليوندينح بالقرب من مدينة لينز.

عن هذه الفترة احتفظ هتلر بذكريات قليلة غير مهمة. كان تلميذا نابها يتقدم بسرعة، كما كان طفلا جريئا يثير قلق والديه ومعلميه. قال ذات مرة وهو منبهر من أبهة وجلال المراسم الدينية للرهبان البنديكتيين، إنه يود أن يكون راهبا، ليس لشعور بالتقوى كان يخامره، ولكن لما كان يرى من التقدير الذى يلقاه الرهبان فى الدير وفى المدينة.

فى ليوندينح تغيّرت طباع هتلر. هناك، عام ١٩٠٠. توفى أخوه إدموند بعد أن أصيب بداء الحصبة، مما سبب له صدمة عنيفة

لارتباطهما الوطيد فى تلك الفترة؛ علاوة على ذلك كم الحزن الذى خيّم على الأسرة لشهور عديدة تالية. وقد كانت مقابر المدينة تجاور منزل الأسرة، وشاهدت البلدة الطفل أدولف يجلس شاردا لساعات أمام سور المدفن. لقد اختفى الطفل المرح المنطلق ليحل محلّه فتى صامت متباعد لا مبالٍ وأكثر ميولا للتكبر والعربدة.

فى تلك الفترة ألتحق بمدرسة لينز المتوسطة، مدرسة التعليم الثانوى المتخصصة فى إعداد الطلبة للمدارس العليا لدراسة الهندسة والعلوم والاقتصاد. كتب فى رسالته حول سيرته الذاتية المذكورة عاليه؛ إنه قد أنهى أربعة أعوام من الدراسة الثانوية ولم يذكر أية تفاصيل أخرى، حيث كان يفضل تكتم تلك الفترة : كان تلميذا سيئا تكرر دخوله لأدوار شهر سبتمبر الثانية فى جميع السنوات، وفى النهاية طُرد من المدرسة عام ١٩٠٤. نتيجة تدنى مستوى درجاته. أنهى دراسته الثانوية وهو فى الثامنة عشر من عمره فى مدرسة أخرى ذات مستوى علمى أقل، ودون أن يحصل على الشهادة التى تخوّل له دخول الجامعة. أخفى هتلر دائما تلك الحقيقة القاسية، متعللا بقسوة معلميه وبعدم تفهم والده وبسبب فقره وضيق ذات اليد.

الحقيقة أنه لم يكن يستذكر دروسه، وكان يضيّع الوقت شاردا مع ذاته فى عالمه الخاص، وإنه لم يكن ليبذل أقل مجهود يذكر يتطلب المثابرة، ولا يهتم سوى بالرسم الذى رأى أنه موهوب فيه.

كذلك كان يبدّد الوقت فى القراءة لـ "لكارل ماى"، حيث أوحى له بطله - شاتراند العجوز الفظ - بطباع احتقار الضعيف وعدم الاكتراث بآلام الغير. عتاب والده له كان لا تنتهى. فلابد أن ألواس، وهو فى الثالثة والستين من عمره، كان يشعر بالإحباط عام ١٩٠١، عندما بلغه خبر رسوب أدولف، وأن عليه أن يعيد السنة الدراسية. كان ابنه الأكبر ألواس يقضى عقوبة سجن لنصف عام بعد أن حُكم عليه فى قضية سرقة، فى حين توفى ابنه الأصغر إدموند منذ قرابة العام، أصبح أدولف هو أمله الوحيد، غير أنه كان طالبا فاشلا. ذكر هتلر فى كتابه «ماين كامبف» حواره مع والده وهو يقترح عليه أن يترك الدراسة، ليكرّس وقته لدراسة الفن:

«دهش والدى وانعقد لسانه ثم صاح متعجبا:

رسام؟ فنان؟

اعتقد أنى قد جننت، أو أنه لم يسمع ما قلت جيدا أو أنه قد أساء فهمى. غير أنه، وبعد أن عرضت عليه أفكارى، وتبين له جدية ما أنوى، اعترض بحماسه المعهود:

فنان! لا، طالما أنا على قيد الحياة. لن يحدث ذلك أبدا!

وهكذا انتهى الأمر. تمسك والدى برفضه ولكننى لم أتخل عن تصميمى».

توفى ألواس هتلر بعد ذلك بعامين، فى يوم ٣ يناير١٩٠٣، ولم يكن أدولف قد بلغ الرابعة عشر من العمر. كانت علاقة الابن بالأب تتدهور من سيئ لأسوأ ليس بسبب ميول أدولف الفنية، وهو الأمر الذى تناوله فى كتاباته وذكرياته، وإنما لكسل الفتى وطباعه المضطربة التى ذكرها أحد معلّميه:

«كان موهوبا بصورة واضحة، وإن كان فى أضيق الحدود. كان عدم التزامه بالنظام غير مسبوق، إذ كان عربيدا عنيدا متكبرا وذا مزاج سىء. بطبيعة الحال، كان يواجه صعوبات فى التناغم مع جو المدرسة. وزاد ضعف مستواه الدراسى الطين بلّة، إذ كان حماسه للأعمال الجهيدة يفتر بسرعة. كانت تصرفاته خافية العدائية، وكان لا يتقبل النصح ولا اللوم. ووسط كل هذا، كان يفرض على زملائه الطاعة العمياء ويتفاخر بدوره القيادى».

إحباطات مريرة

لابد أن المعلّم كان متحاملا فى الحكم على الفتى هتلر، فالوصف قد يتفق، بما يقترب من الكمال، مع طباع الشخصية؛ ولكن الصواب يجانبه فيما يتعلّق بقدراته العقلية، وقد يعود ذلك إلى أن الفتى لم يهتم قط بإظهار ما لديه. كتب عنه الكاتب الصحفى ريمون كارتييه، وهو مؤرخ فرنسى لسيرة هتلر، ولم يعرف عنه قط أى تعاطف معه: «كانت لديه قدرات خارقة فى التعلّم وبالطبع كان يمتلك ذاكرة فولاذية لم يرزق بها بشر من قبل». غير أن مدرسة ريالتشولى فى لينز، لم تكتشف فيه أخطر عيوبه ألا وهى كونه محرّفًا بطبعه

ومتلاعب ماهر بالحقائق. ففى رسالة سيرته الذاتية، نجده يبرّر عدم استكماله لدراسته وتواضع مسيرته العلمية باليتم وبالثمانين كورونة التى كانت بجيبه عندما نزل بفيينا وبالأعمال المرهقة الكثيرة التى تعيّن عليه القيام بها لكسب العيش، وهو ما حال بينه وبين دراسة الهندسة التى طالما تاق إليها، وبطبيعة الحال، كل ذلك غير صحيح.

بعد وفاة والده، لم تعان أسرته من العوز. إذ توافر لها معاش مقبول يناسب مستوى الطبقة المتوسطة، ويكفى احتياجات كلارا وأدولف وباولا، حيث كانت آنجيلا قد تزوجت من ليوراوبال فى نفس السنة التى توفى فيها الأب. بالإضافة إلى ذلك، فقد قامت كلارا ببيع مزرعة ليوندينج وحصلت على مبلغ ٦٥٠٠ كورونة، وهو مبلغ كبير بالنسبة لتلك الفترة. استطاع أدولف أن يواصل دراسته التى راح مستواه فيها يتدهور، بسبب تساهل أمه، ممّا اضطره لترك الريالتشولى واستكمال دراسته فى مدرسة أخرى خارج لينز. كان هذا هوالسبب الحقيقى الذى لم يمكّنه من الالتحاق بكلية الهندسة: افتقاره للمستوى الدراسى الذى يؤهله لهذه الدراسة.

بين صيف عام ١٩٠٥، الذى أنهى فيه دراسته وشهر أكتوبر من عام١٩٠٧ الذى حدده تاريخًا لوصوله إلى فيينا، كانت حياة هتلر فى لينز، حياة شاب لا يرجى من ورائه أى نفع. مرض مع نهاية ذلك الصيف، وجزعت أمه لاحتمال أن تفقده مثل إخوته الأربعة، ومن ثم

أطالت فترة نقاهته وكرّست نفسها لتلبية رغبات ذلك الشاب الذى كان يفرط فى ارتداء الملابس الأنيقة، وينام حتى الضحى ويتمشى فى الأمسيات وهو ينتقد أداء بلدية المدينة ويحضر حفلات الأوبرا ليلا، ويسهر يقرأ أو يرسم مخططات لإعادة التخطيط الحضارى للينز حتى طلوع الفجر. بدأ الشاب هتلر يضع لنفسه نظاما للمواعيد سيمشى عليه لبقية حياته.

بين جنبات أوبرا لينز التى كانت تحتل المركز الثالث فى النمسا، بعد أوبرا فيينا وسالزبوج، تعّرف إلى صديقه الوحيد من تلك الفترة أوجست كوبيزك، ابن أحد صانعى السجاجيد وعاشق للموسيقى وعازف كمان لا بأس به. وعلى الرغم من كونه أكبر من هتلر ببضعة أشهر، فإنه تحوّل إلى رفيقه الدائم والشاهد على نوبات انفجار غضبه وكاتم أسرار ادعاءاته. حضرا معا ذات ليلة عرض أوبرا رينتسى لفاجنر التى كان البطل فيها يدافع عن حقوق الناس، مما أدى إلى ذيوع شهرته فى روما خلال القرن التاسع عشر وولاه العامة السلطة ثم رجموه بعد ذلك بسبعة أعوام. حكى كوبيزك فى كتابه المعنون: "هتلر، صديق شبابى" الذى نشره بعد نصف قرن من تلك الليلة: «تأثر هتلر بالعرض، حتى إن دموعه غلبته» وعندما غادرا المسرح كان تأثر هتلر كبيرا حتى إنه أصر على الصعود إلى قمّة فرينبرج - الجبل الذى يحوى المدينة، وكان الصديقان يقضيان الكثير من الوقت هناك للحصول على أحسن منظر من أجل إعادة

تخطيط لينز- وهناك راح هتلر يتحدث عن مستقبله. ثم أخبره، وهو خارج عن شعوره، أنه سيكون المدافع عن حقوق الألمان:

«فاجأني ذلك كثيرا، فقد كنت أعتقد أن ميوله الفنية هي التي تتصدر أهدافه، وهو ما كان جديرا بالكفاح من أجله. لكنه راح يتحدث عن مقاليد حكم سيسلمها له الشعب، في يوم ما، ليخلصه من عبوديته ويقوده إلى قمم الحرية».

وعندما ودعا بعضهما كانت الساعة تقارب الثالثة صباحا.

اهتم في تلك الفترة بدراسة العزف على البيانو، وهو الأمر الذي توافرت له ملكته وإن عجز عن الالتزام بالمواصلة والصبر الضروريين. كانت التدريبات التي يفرضها عليه مدربه تبدو له مضيعة للوقت وتناسب أشخاصا أقل مقاما منه. اشترت له والدته آلة بيانو جيّدة، ضمن محاولاتها المستمرة بتحقيق كل رغباته، إلا أنه لم يستمر أكثر من عام في تلك الدراسة.

خلال تلك السنوات عرف الحب طريقه إلى قلبه للمرّة الأولى: ستيفاني، رآها أثناء إحدى نزهاته مع كوبيزيك في ربيع عام ١٩٠٦. كان حبا رومانسيا مستحيلا، لأن هتلر لم يقترب قط منها كي يعترف لها بحبه؛ كان حبا يائسا تسبب في معاناته طويلا لاستحالة أن يتحقق: فقد كان هتلر في الثامنة عشر من عمره، من أسرة بسيطة ولا يدرس أو يعمل. وسواء كانت هذه الأسباب، أم خجل

المراهقة أم غرور الفتى بنفسه، فمن المؤكد أنه اكتفى بكتابة قصائد حب لها يبثها فيها يأسه ويغلب عليها الركاكة، ولم يكن ليجرؤ على إرسالها لها. تزوجت ستيفانى بعد عدّة سنوات من قبطان من لينز، ولعلّها ذكرت بعد نصف قرن، أنها قد تسلّمت رسالة من معجب مجهول يعرض عليها الزواج، ويطلب منها أن تنتظره حتى ينهى دراسته فى الفن فى فيينا. لم تتمكن ستيفانى من التعرف إلى شكل معجبها الولهان حيث لم تلتق به مطلقا. حاول كوبيزك أن يحمل هتلر على التعقّل، وأن يتصرف مثل باقى الشبّان ويحاول التعرّف إلى الفتاة. لكن هيهات، فهتلر كان مؤمنا بأن عواطفه ستصلها وستشعر بحبه لها، فيما يعرف بالإيحاء الشعورى. ذهن متقد الذكاء كذهنه، لابد أن يكون قادرا على أن يوحى بأفكار ومشاعر دون الحاجة إلى صياغتها فى كلمات، ولابد أنه كان يرى فى ستيفانى الكثير من الذكاء الخارق، الذى يمكّنها من استقبال رسائله الإيحائية.

كانت القوى الخارقة والقدرات السحرية ركيزة مهمة فى حياته، ومع السن راحت تتبوؤ مكانة مهمة ضمن مكونات شخصية هتلر فى تلك المرحلة. مشاهد روايات كارل ماى الغريبة والخيالية، وفانتازيا عوالم أوبرا فاجنر اللامعقولة، والقراءات الكثيرة غير المستوعبة وكتب ما وراء الطبيعة، التى مرّت بين يديه فى تلك السنوات، ثم فى سنوات فيينا، وكذا عقليته المفعمة بالآمال

العريضة التى لا يمكن تحقيقها إلا بالمعجزات، كل ذلك دفعه للاعتقاد فى القوى الخارقة لحل مشاكله، وكان يتخذ موقفا إيجابيا من القدر وهو ينتظر وقوع معجزته.

من الوضع الاقتصادى للأسرة ومن اهتمامات أدولف، نستطيع أن نستشف أسباب سفر هتلر إلى فيينا مع حلول ربيع عام ١٩٠٧. حيث ظل هناك شهرين يتنقل بين آثار المدينة ويحضر عروض الأوبرا. غير أن الأقدار كانت تخبئ له جرعة أكبر من المرارة. ففى شهر يناير من عام ١٩٠٧. أصيبت والدته بسرطان الثدى وتم إجراء عملية لها، غير أن المرض كان أقوى منها فما لبثت أن لفظت أنفاسها وفارقت الحياة. وسط هذه الأحداث، حلّ الخريف ومعه قرر أدولف الإقدام على أمر ما: استأجر غرفة فى فيينا، وراح يستعد لاختبار القبول بأكاديمية الفنون الجميلة. جرى الاختبار على مدى يومين ولم يتم قبوله: «قدرات فنية فى الرسم دون المستوى» وأصابه ذلك بإحباط كبير لم يفارقه طيلة حياته وهو ما انعكس فى الماين كامبف.

إحقاقا للحق، تقدم للاختبار ١١٣ طالبا، ولم يُقبل منهم سوى ٢٨. نجح هتلر فى التصفية الأولى، لكنه رسب فى الثانية: «وجوه ضعيفة» كان هذا هو تعليق المحكّمين وهو بالطبع صحيح، فهتلر كان فنانا فى رسم الأماكن، غير أنه كان عاجزا عن رسم الوجوه الإنسانية وتصوير التعبيرات عليها. اقترح عليه رئيس اللجنة أن

يحاول دراسة العمارة، حتى يتسنى له تطوير موهبته، غير أن مستوى درجاته لم تكن تؤهله لها.

عاد يجر أذيال الفشل إلى لينز، حيث كانت أمه تحتضر. توفيت كلارا فى ٢١ ديسمبر من عام ١٩٠٧، وأغرقت ابنها بموتها فى بحار من الحزن الأسود. كتب الطبيب بلوخ، الذى تابع حالة الأم منذ البداية: «لم أر طيلة حياتى شخصا مستسلما للحزن مثل أدولف هتلر». يُرجع بعض الباحثين بدايات معاداة السامية عند هتلر لأصول هذا الطبيب اليهودية، الذى تعامل معه بالكثير من الحب وتفانى فى علاج والدته. وعلى الرغم من معرفتنا اللاحقة بأن الطبيب كان قد أخطأ التشخيص، وأن هتلر علم بذلك وكره الطبيب وحقد عليه هو وكل طائفة اليهود، غير أن هذا الطرح لا يعدو كونه تخمينا.

عقب المراسم الجنائزية، تمنى هتلر أن يهرب إلى فيينا، غير أنه كان مضطرا للبقاء فى لينز حتى شهر فبراير من عام ١٩٠٨ لينهى إجراءات وصية والدته التى تضمن له معاشا شهريا يبلغ ٥٨ كورونة لمدة لا تزيد على ٢٠ شهرا، تضاف إليها ٢٥ كورونة إعانة يتم صرفها حتى عام ١٩١٣. استضافت آنجيلا روبال شقيقتها باولا التى حصلت على نفس المبالغ. وتناثرت حبات عقد أسرة ألواس هتلر. بقى أدولف وحيدا يائسا فانغمس فى صخب الحياة فى فيينا.

بالفعل كان يحتكم على مبلغ ٨٥ كورونة رأسمالاً، غير أن ما لم يذكره هتلر فى رسالته الشهيرة ولا حتى فى ماين كامبف، أن هذا المبلغ كان دخلا شهريا معقولا، قد يكون بمثابة راتب ملازم أول سلاح مشاه حديث التخرج فى الأكاديمية. كان المبلغ كافيا بالنسبة لطالب ملتزم، غير أن هتلر لم يكن طالبا ولم يكن ملتزما. تمكّن من دفع صديقه كوبيزك لأن يدرس الموسيقى فى فيينا، وقد نجح هذا فى الالتحاق بالكونسرفتوار وتشاركا الغرفة المستأجرة كبيرة المساحة، إلا أنهما وجدا صعوبة فى التحرك بها نظرا لوجود بيانو كوبيزك وطاولة رسم هتلر. كانت هذه الصداقة أحد الأسباب التى اعتمد عليها لوثار فى إثبات شذوذ هتلر الجنسى، وذلك فى كتابه الصادر عام ٢٠٠١، تحت عنوان: "سر هتلر". فى حقيقة الأمر لم يأت بأى دليل دامغ، حتى إنه قال بأن عدم اعتراف كوبيزك فى مذكراته بوجود تلك الممارسات الشاذة، يدل على أنها حدثت بالفعل. كانا يحضران حفلات الأوبرا مرة أو اثنتين أسبوعيا، وأحيانا يحضران كونشيرتو أو أكثر. وعندما يصلان إلى غرفتهما كان كوبيزك يقع خائر القوى فى سريره، فى حين يواصل هتلر القراءة لساعات بعد ذلك. وفى الصباح يخرج كوبيزك متوجها إلى الكونسرفتوار ولا يعود إلا مع المساء. هتلر بدوره كان ينام نهارا ويستعد لعودة كوبيزك ليخرجا لحضور العروض الموسيقية.

بادر كوبيزك هتلر ذات مرّة بسؤال استنكارى:

ألا تذهب إلى صفك أبدا؟ ألا تضع قدمك بهذه الأكاديمية أبدا؟

استشاط هتلر غضبا ورد عليه:

- لا تتدخل فيما لا يعنيك.

فى واقع الأمر لم يكن هتلر مسجلا بأية أكاديمية، ولا كان لديه عمل يذهب إليه. لم يكن عامل بناء ولا كان لديه أى عمل يومى. كان يعيش حياة متواضعة، حيث إن جُل دخله كان ينفقه على الأوبرا، بمعنى أنه لم يكن يقدر على تجديد دولاب ملابسه التى أحضرها من لينز، وبالكاد كان لديه ما يقيم أوده، فلم يكن يأكل غير الخبز واللبن. تعود إلى هذه الفترة رغبته فى تأليف أوبرا: "فيلاند الحدّاد" ، غير أن إمكاناته الضعيفة كانت تمنعه من إتمامها، ومن ثم كان يستعين بكوبيزك لكتابة نوتات موسيقية بها بعض الأفكار القيّمة، إلاّ أن العمل لم يكتمل بسبب تراخى الهمة وعدم القدرة على المثابرة، أحد طباع هتلر حينئذ.

على الرغم من ذلك، مارس هتلر نشاطات أخرى بطريقة غير منتظمة ولا معتادة، فقد كان يقرأ كل ما يقع تحت يديه، وكان كوبيزك يرى أنه يهتم بما يتوافق مع أفكاره، أما كارتييه، فعلى العكس، كان يرى أنه كان يعمل على بناء ترسانة جدلية قوية. كان يجبر نفسه على الرسم: قام برسم مسرح الأوبرا ذات يوم، وفى يوم آخر ارتاد شوارع فيينا البائسة الضيقة، ورسم المدينة المثالية

للعمال. كان يعيد تخطيط قطاعات عريضة من المدينة، بما فيها متاهات الحارات ويستبدلها بشوارع عريضة ذات طابع هندسى. كانت همومه الجمالية والاجتماعية والمدنية واهتماماته السياسية الأولى: ذات يوم، اصطحب كوبيزك إلى البرلمان، وعرض عليه معارفه العميقة فى الميكانيكا، وعرّفه المكان الذى كان يقضى فيه أغلب وقته:

فى تلك الحقبة كان أدولف يتبع الحزب الاشتراكى المسيحى بزعامة كارل لويجر الذى أعجب به لشعبيته وبساطة أفكاره وسرعة بديهته، وقدرته على السيطرة على الحشود. كان يتفق معه فى سياسته الاجتماعية وما عرف عنه من معاداته للسامية، على عكس مواطنه شوانرير؛ الذى كان متعصبا لألمانيا وعنصريا فظا يميل إلى العنف، فكان هتلر ينفر منه، على الرغم من أن برنامجه كان مندرجا ضمن أحد أحلامه: ضم النمساويين الألمان إلى إمبراطورية فيلهلم الثانى. بعد مرور أربعة أعوام وبعد أن أفل نجمه، أعاد هتلر اكتشاف أفكاره التى تدعو لأن تفرض ألمانيا سيطرتها على أوربا، وأن تضم إلى حدودها إمبراطورية النمسا والمجر وجزءا من بولندا وبوهيميا-مورافيا وسويسرا وشمال إيطاليا.

بائع البطاقات البريدية

مع مقدم صيف عام ١٩٠٨. عاد كوبيزيك إلى لينز لقضاء العطلة وبقى هتلر فى فيينا. تبادلا الرسائل لفترة، ثم انقطعت صلتهما بعد

ذلك. عندما عاد كوبيزك إلى الغرفة، كان هتلر قد رحل متخليا عن نصيبه فى الإيجار. لم يُعرف سبب قطع تلك العلاقة، وإن كان يُرّجح أن لها علاقة بفشل هتلر الثانى فى الالتحاق بدراسة الفنون الجميلة. لم ينجح حتى فى دخول امتحان القبول. قرّر أن يغيّر مسكنه فانتهى به المطاف فى نُزل آخر أكثر قذارة وأقل تكلفة. حول هذه النقطة هناك فترة زمنية، قرابة عام، لم نعرف فيها شيئًا عنه سوى تنقله من نزل إلى آخر. نعرف أيضا أن ثمة مشكلة بيروقراطية حدثت وأدت إلى انقطاع معاش والده عنه، وعليه اقتصر دخله على إعانة الدولة، التى تبلغ ٢٥ كورونة، والتى كانت بالكاد تكفيه لأن يشترى الخبز واللبن، ولا تسمح له أبدا بتسديد إيجار النزل، فكان يتنقل من واحد إلى الآخر، وزاد الأمر سوءا، فاضطر للنوم فى الحدائق العامة، عندما يسمح الطقس بذلك، وفى ملاجئ الصدقة فى غير تلك الحال.

فى أحد هذه الملاجئ، تحديدا فى ملجأ مايدلينج قابل رينهولد هانيش، الذى كتب عنه متمما سيرته* التى نجد فيها هتلر يعانى المرض والفاقة والجوع والتشرّد. مد له صديقه يد العون، فتوافر له طعام الأيام التالية، حيث كان يصطحبه إلى جمعيات الإحسان التى توزع الطعام على المحتاجين. ولأول مرّة يتجه للعمل اليدوى، حيث عمل كنّاسا، لكن بنيانه الضعيف لم يسمح له بالاستمرار فى العمل. فى تلك الفترة، شجعه هانيش على أن يرسم لوحات مائية وبطاقات

بريدية ليبيعها فى بعض المحلات بفيينا بأسعار تتراوح بين ٤و٢ و١٠ كورونات مقابل عمولة تصل إلى ٥٠.

تلك أيضًا فترة حاول هتلر إخفاءها فى مذكراته، وحرص أن يبرز فيها أن كرامته لم تكن لتسمح له بمد يده لكائن من كان، غير أنه اضطر، مع اقتراب أعياد الميلاد عام ١٩٠٩، لطلب المساعدة من خالته جوانا التى عاشت فى منزلهم حتى وفاة أمه كلارا. أرسلت له الخالة ٥٠ كورونة ابتاع بها، أخيرا، بعض الملابس المستعملة ومعطفا. وقد ساعده هذا المبلغ، إلى جانب ما تحصل عليه من بيع بطاقاته البريدية الأولى، على تغيير مسكنه والإقامة فى مسكن شباب مانيرهيم، حيث عاش قرابة خمسة أعوام. توافق ذلك المسكن مع ميول هتلر الإسبرطية، لأنه لا يدخِّن ولا يشرب، وكان قليل المأكل ولا يطيق الجنس الآخر، حتى إن ريمون كارتييه علّق على هذا الأمر على سبيل المزاح حول صعوبة تحديد تاريخ أول ممارسة له للجنس.

كان نظام السكن يجبر المقيمين على الخروج من الغرف فى التاسعة صباحا وعدم العودة حتى يحل الظلام، مع ضرورة إغلاق المصابيح الكهربائية مبكرا. استتبع هذا تغييرا فى نظام حياته. فكان يخرج من الغرفة، ليستقر فى غرفة القراءة ويلتهم كل ما يتوافر من صحف فى القاعة، وعندما ينتهى، يجلس بجوار النافذة ليرسم بألوانه المائية لوحات أو بطاقات بريدية، ولا يتوقف حتى

تهدأ العاصفة التى عادة ما تعتمل فى رأسه. حينئذ بدأ بإلقاء الخطب، سواء فى وجود جمهور أو حتى بدونه، وسواء اهتم مستمعوه أم لا، حاوروه أم لا - وهو ما لم يكن يعنيه مطلقا -: كان يعرب عما يريده، ثم يهدأ ويعود إلى الرسم. لم يكن فى مقدوره التناقش، فكان إذا ما عارضه أحدهم، نزل عن المنصة فى تعالٍ، كما لو كان يرى أنه لا يجب أن يهدر موهبته مع مثل ذلك الجمهور. فى هذه الفترة، فض شراكته مع هانيش، وسعى لتسويق لوحاته بنفسه، لكنه اتبع أساليب ملتوية تسببت فى انخفاض دخله. ومع ذلك، كانت أحواله المادية لا بأس بها فى الفترة ما بين نهاية عام ١٩١٠ ومنتصف ١٩١١.

عُرف هذا لأن فى مايو١٩١١، رفعت عليه أخته غير الشقيقة آنچيلا، التى ترملت فى العام السابق، قضية تطالب فيها بتحويل دعم الحكومة له إلى شقيقته الصغرى باولا، التى تعولها أرملة ذات دخل ضئيل، فى حين أن أدولف قد احتال للحصول بمفرده على إرث خالته "جوانا" البالغ نحو ٣٨٠٠ كورونة. لم يوضح هتلر قط هذا الموضوع، وفضل كتمان ما يتعلق بإرث الخالة "جوانا" واكتفى بتحسين صورته، عندما أشار فى سيرته إلى تبرعه بدعمه الحكومى على الرغم من ضائقته المالية. والحقيقة، هى أن آنچيلا كسبت القضية وتحوّل الدعم إلى باولا، وجاء فى الحيثيات أن أدولف قد تحصل على «مبالغ ضخمة».

فيم كان ينفق المال؟ كان هذا لغزا. ففى الحقيقة لم يغيّر مكان سكنه المتواضع ذاك، وكان رث الثياب ولا يأكل سوى الخبز والحليب والزيد النباتى، وفى بعض الأحيان يتناول بعض الخضروات والنقانق. تأكد مظهره المتواضع هذا، خلال زيارة قام بها إلى البارون لانز فون ليابنفيلز، أحد أشهر الأفاقين وكان يصدر مجلة تسمى"أوستارا". وقد قامت هذه المجلة، بمناسبة عيد القديس يوحنا عام ١٩٠٧، بوضع علم يحمل رسم الصليب المعقوف فوق أحد المبانى الرومانية القديمة، وهو الحدث الذى حظى بتغطية صحفية مكثفة فى الأوساط الوطنية والعنصرية. كانت مجلة أوستارا تتناول موضوعات العلوم الخافية، والتصوّف، والشهوانية، ومعاداة السامية، والعنصرية، وكانت تركز بصفة خاصة على العنصرية حيث كان شعارها: «يا شقر كل البلدان، اتحدوا».

تحدّث مؤرخو البارون لانز عن تأثير مجلة أوستارا على الفكر النازى. غير أننا، وإن كنّا نعترف بوجود بعض من هذا التأثير، إلا أنه فى الحقيقة، لم يكن لهتلر أى معلّم. فى إحدى المرات زار هتلر البارون لانز، وأثار إعجابه عدد من أعداد المجلة، الذى رآه مصادفة وابتاعه؛ فقد أراد الحصول على الأعداد كاملة فأهداها له لانز نظرا لبالغ ما بدى على زائره من اهتمام بالمجلة ومن مظهر الفقر.

تعود إلى هذه الفترة أيضا جذور معاداته للسامية. كانت لهتلر

بعض العلاقات مع يهود لينز بعضها ضارب فى العمق، مثل علاقته بطبيبه المعالج؛ فى ڤيينا أيضًا كانت له تعاملات مع العديد من اليهود، خاصة أنهم كانوا من أفضل العملاء الذين يشترون لوحاته وبطاقاته، بدافع الإحسان. تعددت لقاءاته معهم وكانت تخدم فى أغلبها مصالحه. يُرجح خطأ الفكرة الشائعة، حول تجارب شخصية مريرة له، أدت إلى خلق شعور لديه بكراهية السامية. على العكس، يمكن القول: إن معاداته للسامية كانت إيديولوچية واجتماعية فى الأساس. فقد سبق وأن أشرنا إلى الأفكار المقنعة والمعادية للسامية، الخاصة بعالم اجتماع المسيحية كارل لويجر، الذى كان يحظى بإعجاب هتلر، وكانت كتاباته تحوى مبادئ العداء السياسى للسامية. لكن دون شك، كان التأثير الأقوى للعداء الاجتماعى للسامية، وهو ما كان شائعا فى فيينا مع مطلع القرن.

كان يعيش بمدينة الإمبراطور فرانز جوزيف نحو مليونى نسمة، من بينهم قرابة مائتى ألف من اليهود. تكاثرت الجالية اليهودية بسرعة ملحوظة: ٤٠,٠٠٠ ألفًا عام ١٨٧٠، ١٠٠,٠٠٠ ألف عام ١٨٨٧. ثم تضاعفت فى غضون ثلاثة وعشرين عاما. تنامى تأثيرها وتبلورت مشاكلها بالسرعة نفسها. كان الساسة يتهمون الاشتراكيين الديمقراطيين باستغلال اليهود لتحقيق السيطرة على العالم؛ ومقتت الطبقة البرجوازية اليهود، وحقدت على ازدهارهم فى مجال الأعمال، والمال، والتجارة، والصناعة. أما الطبقة الدنيا، التى كان

يتعيّن عليها التعامل مع موجات المهاجرين اليهود القادمين من مختلف بقاع الإمبراطورية، فقد نظرت إليهم على أنهم مغامرون أتوا ليستولوا على لقمة عيشهم؛ كانوا لا يفهمون لغتهم، وعاداتهم، وملبسهم، وعزلتهم، وتزاوجهم من بعضهم بعضًا، أما فيما يخص أمر الدين، فكانوا يشكون فى تورطهم فى صلب المسيح. كان هذا هو المجتمع الذى عاش فيه هتلر فى فيينا. وكانت هذه إحدى الحجج التى لم يكن ليدحضها أحد مستمعيه فى غرفة القراءة بنزل مانيرهايم. كتب فى هذا الشأن آلان بوبوك، أحد أشهر المتخصصين:

«إن اليهودى – فى كتابات هتلر – ليس إنسانا، وإنما تحول إلى شكل أسطورى، إلى شيطان فائق القدرات الجهنمية. ثم خوّلت له قدراته تلك أن يتلاعب بكل شىء ويسخر منه. فصار تشخيصا للشيطان، ونسب إليه هتلر كل ما كان يكره ويمقت ويتمنى. ما استفز هتلر من اليهودى، ما كان ليبرّر عداءه للسامية جزئيا، وإنما كلّى شأنه فى ذلك شأن هواجسه الأخرى. ففى عالم هتلر، يظهر اليهودى فى كل مكان وهو المسئول عن كل شىء: الحداثة التى طالما أزعجت هتلر فى الموسيقى وفى الفنون الجميلة، الإباحية والزنا، والنقد الصحفى للوطنية، واستغلال الرأسمالية للحشود والعكس، أى استغلال الشعوب للاشتراكية، واليهودى هو المسئول عن عجز الشعوب عن الارتقاء».

لا يتواتر الشهود على حياة هتلر فى فيينا. أكد باين، وهو أحد مؤرخيه، على أنه قد قضى ما بين أربعة إلى خمسة أشهر فى ليفربول ما بين شتاء عام ١٩١٢ وربيع ١٩١٣. فى منزل أخيه غير الشقيق ألواس الذى كان يعيش بالمدينة فى تلك الفترة. يعود مصدر هذه المعلومات إلى مذكرات زوجة ألواس، ممثلة مغمورة من أصل إيرلندى، انفصلت عنه عام ١٩١٤. تضمنت المذكرات معلومتين تؤكدان صدق هذه القصة: الوصف الدقيق لطباع أدولف وعاداته وأساليبه من ناحية، ومطاردته من جانب الأمن النمساوى لتهربه، لسنوات عديدة، من أداء الخدمة العسكرية.

لم تكن هذه المعلومات معروفة حتى الثلاثينيات، عندما كتبت بريدجيت إليزابيث هتلر لتسجل تفاصيل إقامة نسيبها فى الجزر البريطانية، بعد أن كان قد بدأ يشتهر باعتبارها مستشارًا للرايخ الثالث. تقول إنه وصل إلى ليفربول فى ملابس متواضعة وبلا أمتعة. لم يكن يملك شيئا من النقود وقد قضى نصف الوقت ممددا على الأريكة التى ينام عليها. تعلّم بعض كلمات من اللغة الإنجليزية، ولم يبد أنه اهتم بغير الأسطول التجارى والحربى للمملكة المتحدة، حيث كان يشاهد قواربه تبحر وترسو على نهر ميرسى، أثناء نزهاته.

فى أبريل من عام ١٩١٣، ذهب من جديد إلى المانيرهيم بفيينا، حيث احتفل بعيد ميلاده الرابع والعشرين، إلا أن عاصمة إمبراطورية هابزبورغ كانت مكانا غير آمن بالنسبة له: فقد كان

يحدق به خطر القبض عليه وتغريمه وحبسه، ثم عليه تسليم نفسه للتجنيد الذى كان يؤجله منذ عام ١٩٠٩. اختفى من فيينا فى شهر مايو، وفى السادس والعشرين من الشهر نفسه ظهر فى ميونخ باعتباره مستأجرًا لغرفة متواضعة فى منزل الحائك جوزيف بوب.

واصل هتلر فى عاصمة بافاريا حياته المنعزلة الغامضة. فكان يرسم البطاقات البريدية واللوحات، كما كان يقوم ببعض الأعمال المنزلية بمنزل آل بوب، مقابل بعض الطعام. كان يتحصل على بعض الدخل، فقد سجّل فى إقرار الذمة المالية مبلغ ١٢٠٠ مارك فى العام، وهو المبلغ الذى كان يسمح له بأن يلبس ملابس لائقة ويأكل جيّدا حتى لو لم يكن يعطى الطعام حقه من التقدير: كان نباتيا فى الأساس، لا يأكل اللحوم ولا الأسماك، يحب النقانق ويتناول الحلوى بكثرة. أعجبته المدينة، فقد أحب ما بها من نظام، وأعجب بمستوى النظافة وبالسكّان الألمان، وقارن كل ذلك بالفوضى والقذارة والتعدّد العرقى واللغوى، مما كان يشيع فى عاصمة الإمبراطورية النمساوية. فى ميونخ، وحسبما أورد هو، أخذ هتلر يهتم بالسياسة الدولية باعترافه، وكان يحصل على معلوماته من الصحف الموجودة فى المقاهى والحانات، فكان يتابع من خلالها تطورات حرب البلطيق الثانية التى انتهت بهزيمة بلغاريا وتركيا وتوسع صربيا وأحداث الألزاس بين ألمانيا وفرنسا.

أخذ هتلر يطلق العنان لخياله ليحلّق عاليا معتمدا على تلك

المعلومات الضئيلة: لابد أن تتخلى ألمانيا عن تحالفها مع النمسا وتتحد مع إنجلترا وروسيا، وأن تقضى على حكم آل هابزبورغ، وتضع حدودا للفرنسيين. من الأفضل لألمانيا أن تتخلى عن أسطولها البحرى وعن مستعمراتها الأفريقية، مقابل الحصول على دعم بريطانيا. كانت توّجهات ألمانيا تتجه نحو أوربا الوسطى وتنحصر أطماعها التوسعية فى ممتلكات إمبراطورية النمسا والمجر فى بولندا وروسيا. من الواضح أن هتلر، عندما بدأ يهتم بالسياسة الدولية، تبنى مشروع شواينيرار المعظّم لألمانيا.

لم تتح له الفرصة لإمعان التفكير فى هذه الأفكار، فقد عثرت عليه الشرطة النمساوية فى ميونخ، بموجب اتفاقيات ترحيل المواطنين بين ألمانيا والنمسا، وتم إعلامه يوم ١٢ يناير ١٩١٤ بضرورة تسليم نفسه لأداء الخدمة العسكرية فى لينز فى يوم ٢٠ من الشهر نفسه. استاء هتلر من هذا الأمر، لكنه ظل على عهده وأسلوب تفكيره ولم يبرح مكانه فى ميونيخ، فى انتظار معجزة تحل مشكلته. فى ١٩ من يناير تم إلقاء القبض عليه بواسطة شرطة ميونخ، واقتيد إلى القنصلية النمساوية. وحدثت المعجزة: اقترح عليه محاميه أن يتقدم بالتماس يطلب فيه إعفاءه من الخدمة، نظرا لحالته الصحية المتدهورة، وظروفه الاقتصادية الصعبة وأحواله الاجتماعية المتردية فيما سبق ولحق. لقى الطلب قلبا حانيا، أخذته الرأفة بالحالة وقرّر لها كشفا طبيا للمراجعة، كان -

مجرّد إجراء شكلى، وتم توصيف الحالة على هذا النحو: «لا يصلح للحرب ولا للخدمات المعاونة».

عندما بلغ أدولف الخامسة والعشرين، استطاع أدولف أن يستمتع بميونيخ حيث تتمازج السياسة مع الفن والأدب. ففيها عاش قرابة عامين، فى الحقبة السابقة، الزعيم الروسى لينين بشحمه ولحمه: فيها نشر توماس مان موت فى البندقية، وفيها اكتشف كاندينسكى قبل ذلك بأربعة أعوام، أسرار الألوان، وبدأ مسيرته التجريدية. بيد أن تلك التفصيلات ربما لم يعرفها هتلر، فقد كان يكره الشيوعيين، ولا يعرف سوى القليل عن الرواية المعاصرة وكان لا يرى فى الفن المعاصر سوى: «أعراض تهاوى عالم يتحلّل ببطء». كان هناك شخص آخر أكثر فقرا وسوداوية يتفق مع هذه الرؤيا ويكافح من أجل البقاء حيا فى ميونيخ[1]: أوسفالد شبينجلر، الذى كان يعمل على كتابه انحدار الغرب.

بدأ هتلر يمارس مواهبه الخطابية فى حانات متواضعة يحيط به العمّال والبوهيميون من أمثاله. لقى قبولا هنا أكثر مما كان يلقى

---

(١) أوسفالد أرنولد غوتفريد شبينجلر (١٨٨٠ - ١٩٣٦) مؤرخ وفيلسوف ألمانيا ألمانى. يعرف بكتابه «انحدار الغرب»، الذى أصدره عام ١٩١٨، وعرض فيه نظرية سقوط وازدهار الحضارات، وأن ذلك يتم بشكل دورى. شهدت فترة الحرب العالمية الأولى وفترة ما بين الحربين العالميتين خصوبة فى إنتاجه الفكرى، وتأييده لسيطرة ألمانيا على أوروبا.

فى مانيرهيم بفيينا، حيث كان رفقاء السكن ينظرون إليه باعتباره مجنوناً ولم يكونوا يحترمون فكره. لم يكن مظهره الرث يسىء إليه فى الحانات، فقد كان فنانا وكان يستعرض فى خطبه الطنانة، مخزونا ثقافيا يتجاوز إمكانات هؤلاء المستمعين.

فى ميونيخ منذ عدة سنين بدأت تتضاعف أعداد المطالبين بتعالى القومية، وحركة توحيد الدول الجيرمانية، ومؤيدى العنصرية، ومعادى السامية، ومن ثم، فلم تكن أفكاره بالغريبة على الأسماع. وسط جلبة الحانات، سيطرت حنجرته الحماسية على اهتمام الموجودين، وعندما كان يتحدث، كانت صورته غير المعروفة تشتهر، وتحدد وجهه الدائرى، وأطلقت عيناه الزرقاوان ألسنة لهب. ومع كل ذلك، كان هتلر لا يزال مجهولا.

أما الصوت الصداح لتعالى القومية، فكان للشاعر المعروف جورج ستيفان، المهووس بأفكار الإنسان الخارق والسلطة والعنف. وكان من أهم أقطاب جماعته واحد من أعتى أعداء السامية، ألا وهو ألفرد شولر، الذى استمع إليه هتلر فى أكثر من مناسبة. لم يكن أحد من هؤلاء الرجال: شبينغلر وستيفان وشولر يعرفون هتلر، على الرغم من أنهم كانوا يمهدون له الطريق، لكن الوقت لم يكن قد حان بعد، ولا تزال هناك أحداث تاريخية لا بد أن تقع أولا. لم يلبث أولها أن وقع: قبيل الحادية عشرة صباحا، فى يوم ٢٨ يونيو١٩١٤. أطلق طالب صربى متشدّد، رصاصتين على الأرشيدوق فرانز فرديناند، ولى عهد النمسا، فى أحد شوارع سراييفو. لم يكن

ليخطئ هدفه على بعد خمسة أمتار. أصابت الرصاصة الأولى الأرشيدوق فى مقتل، وقتلت الثانية زوجته التى حاولت أن تحميه.

هتلر العرّيف

انتشر خبر حادثة سراييفو، فى غضون دقائق فى كل أوربا. فى ظهيرة ذلك اليوم المشمس الصيفى، كان هتلر فى علّيته يرسم بعض البطاقات البريدية، عندما دخلت عليه مقاطعة، السيدة بوب لتنبئه بمقتل إمبراطور المستقبل. فى البداية، تبادر إلى ذهنه أن حركة توحيد الدول الجيرمانية هى التى دبرت الاغتيال حتى تقضى على حكم آل هابزبورغ. هرع إلى الشارع للبحث عن المزيد من التفاصيل ولم يلبث أن عرف جنسية القاتل. شعر بسخرية القدر، إذ كيف يُقتل الأرشيدوق على يد صربى، وهو من عرف عنه ميله للسلافيين؟ وكان ذلك تحديدا أحد أسباب كراهية هتلر له. استشعر هتلر أن هذا الاغتيال سيكون سببا فى اندلاع حرب طالما توقعها، إلا أن الأحداث توالت فى إيقاع لم يكن ليتوقعه، وأخذت منحى لم يخطر له على بال.

قد لا تبدو أسباب تلك الحرب الكبيرة مقنعة الآن، ونحن نفندها بعد مضى تسعين عاما. كانت صربيا تسعى لإقامة دولة صربيا الكبرى، وخططت لاغتيال الأرشيدوق، حتى تستدرج النمسا لإعلان الحرب عليها، معتمدة على دعم روسيا لها ووقوفها فى الحرب إلى صفها، وذلك بموجب المعاهدات المبرمة بينهما، وبالتالى ستتمكن

من هزيمة إمبراطورية النمسا والمجر. من ناحية أخرى، أساءت بلجراد تقدير موقف ألمانيا التى رأت أنها ستقف موقف المتفرج، وأنها ستكتفى بإعادة فرض سيطرتها على بعض ما خسرت من أقاليم، بعد انهيار إمبراطورية آل هابزبورغ. من ناحيتها، حمت صربيا نفسها من اعتداء ألمانى متوقع باتفاقية مع فرنسا، التى قامت بدورها بتأمين نفسها ضد الألمان معتمدة على اتفاقياتها مع بريطانيا.

ما كان أى طرف ليقف فى صف صربيا لو كان النمساويون، بمجرد أن دفنوا وريث عرشهم، لجأوا إلى الثأر ودكوا بمدافعهم بلجراد لتأديب صربيا. كان ملوك روسيا وألمانيا وبريطانيا سيتفهمون أى رد فعل عنيف من جانب النمسا. المؤلم هو أن النمسا تحركت بغاية الغباء: تركت دم الأرشيدوق يبرد، وانتظرت أربعة أسابيع كاملة قبل أن تعلن بمنتهى سوء النية مهلتها قبل إعلان الحرب، منتهزة فرصة إبحار الرئيس الفرنسى ريمون بوانكاريه فى خليج فنلندا متجها إلى إستكهولم، حيث كان ينتظره استقبال حافل. ما حدث بعد ذلك، كان سلسلة من الأخطاء والأغلاط المتتالية التى حصدت عشرة ملايين من القتلى فى ساحة المعركة، وآخرين من مؤخرة الجيش الذين دمروا أوربا، وحرموها من مكانتها العالمية. أخطأت صربيا عندما خططت للاغتيال بحثا عن الحرب، كما اخطأت النمسا لعدم خبرتها السياسية فى إعلان الحرب، وفشلها

فى التفاوض بشأنه، وأخطأت ألمانيا عندما تركت نفسها تنقاد من النمسا، وسمحت لها بجرها مباشرة نحو الحرب. أما روسيا وإنجلترا وفرنسا فلم تكن موفقة فى عدم إجبار بلجراد على الاستجابة لإنذار النمسا، مع علمها بأن صربيا تسعى لاستدراج ثلاثتهم إلى نزاع لا يعلم مغبته إلا الله.

يبدو لنا الأمر الآن غير معقول، لكن هذا ما حدث فى ذلك الزمان، فقد كانت أوربا تعيش فى سلام وازدهار، ولديها وفرة الغذاء، فعرف الملل كيف يتسلّل إليها. كتب ونستون تشرشل عبارة بليغة: «بعد أن تشبع الأمم من الازدهار المادى، تسير مندفعة نحو الحرب» الحرب التى أمَّل كل طرف فيها أن يكسبها، حرب ستكون قصيرة، براقة وستنتهى لترضى نتائجها تطلعات الجميع. وقعت الأحداث بالترتيب التالى: أعلنت النمسا إنذارها لصربيا بالحرب فى ٢٣ يوليو، مع مهلة ٤٨ ساعة للرد على ما تضمنه الإنذار من شروط. لم توافق صربيا على بعض البنود يوم ٢٥. فأعلنت النمسا الحرب على صربيا يوم ٢٨. ردت روسيا بحشد كل قوّاتها، فطالبتها ألمانيا بالتراجع لاحتمال اشتعال فتيل الحرب، لكن روسيا تمسكت بموقفها، فأعلنت ألمانيا الحرب عليها فى ١ أغسطس. أعلنت فرنسا، حليفة روسيا، الحرب على ألمانيا والنمسا، فى ٣ أغسطس، وتلتها حليفتها إنجلترا فى يوم ٤ أغسطس.

سارت أوربا سعيدة على درب الحرب. عمّت موسكو مظاهرات

الاحتفال، وكذا فيينا وبلجراد ولندن، وتجاوزت السعادة كل الحدود فى ألمانيا وفرنسا. كانت ألمانيا قد انتصرت فى ثلاث حروب مهمة فى القرن التاسع عشر، أثناء سعى بسمارك لتوحيد ألمانيا: حرب ضد الدانمرك والنمسا وفرنسا. لم يكن الألمان قد خاضوا أية حروب على مدى أربعة وأربعين عاما. كان هناك جيلان من الألمان قد تفرغا لبناء بلد قوى، فاقت إمكاناته الصناعية ما وصلت إليه بريطانيا العظمى. فكان الوقت مناسبا لاختبار بعض الإثارة. كتب هتلر بعد ذلك بسنوات: «لا أخجل من الاعتراف بأننى قد تملكنى الشعور بالحماسة، حتى إننى صلّيت شكرا للسماء على إعطائى فرصة أن أعيش مثل هذه اللحظة». تظاهرت حشود كبيرة فى ٤ أغسطس من عام ١٩١٤، فى ساحة أوديون بميونخ، أمام قصر فيلدهيرن لتهتف بحياة الملك لويس الثالث، ولتحتفل بإعلان ألمانيا الحرب على روسيا فى اليوم السابق.

هناك كان هتلر، كما يظهر فى صورة الجماهير المتدفقة والتى التقطها هاينريش هوفمان، الذى أصبح صديقا لهتلر فيما بعد ومصوّره الرسمى. لو استعنا بعدسة مكبرة، يمكن أن نميّزه فى وسط الجموع. حسن الهندام، جيد المظهر، له شارب، وتعكس عيناه ومحياه تعبيرا يمكن أن نقول إنه إلهام أو تجل: بدا متحمسا وسعيدا. كانت الحرب بالنسبة له تحررا وسبيلا للخروج من حياة فاشلة بلا أحداث، تتسم بالملل واليأس. كان واثقا أن الحرب ستأتى

له بفرص قد يحقق من خلالها مفاخر كثيرة، ربما ترفعه إلى مصاف الأبطال وتدفعه إلى مراكز القيادة التى طالما تمنى، والتى ضنّت عليه بها الحياة حتى تلك اللحظة. تعيّن عليه أن يطلب تصريحا للالتحاق بجيش ألمانيا، حيث إنه لم يكن يحمل الجنسية الألمانية. وقد حصل عليه خلال ٢٤ ساعة.

فى ١٦ أغسطس أصبح الجندى رقم ١٤٨ من السرية الأولى للفرقة ١٦ البافارية. حملت السرية اسم رئيسها الأوّل، العقيد «ليست». ضمّت متطوعين من عامة الناس ومن قوات الاحتياط، فخرجت باعتبارها مجموعة غير متجانسة، من حيث الأصول، والوضع الاجتماعى، والثقافى، والأعمار. من ثم، لم يكن وجود هتلر، ذلك الفنان الفاشل، ذى الخمسة وعشرين عاما، ضمن أفرادها، بالأمر المستهجن.

لم يكن التدريب الذى امتد حتى شهر أكتوبر شاقا، حيث إن المسئولين عنه كانوا من قوّات الاحتياط ، بمن فيهم العقيد «ليست» ذاته. لا يذكر هتلر عن تلك الشهور الثلاثة سوى انتظاره، بفارغ الصبر لحظة خروجه إلى ساحة المعركة. نشرت الصحف فى تلك الفترة أنباء الانتصارات المتتالية للقوات الألمانية حتى وصولها إلى إقليم مارن. وقوات الاحتياط كانت تقرأ فى حنق أن سكّان باريس قد سمعوا أصوات قذائف المدافع الألمانية البعيدة، إذ بدا لهم أن الحرب ستنتهى قبل أن يتمكنوا من أن يدلوا بدلوهم فيها. غير أن

فرنسا وإنجلترا نجحتا فى وقف تقدم القوّات الألمانية، ولم يمض وقت طويل حتى ظهرت الحاجة للمزيد من التعزيزات الضرورية لمساندة الجنود المنهكين، الذين عملوا على مدى ثلاثة شهور متواصلة بلا يوم واحد راحة. فى يوم ٢١ أكتوبر من عام ١٩١٤، خرجت سرية ليست متجهة إلى فرنسا، وبعد عبور مدن فلاندر، التى دمرتها الحرب، وصلت إلى جبهة إيبريس يوم ٢٨. فى اليوم التالى، تعرّض أدولف لأوّل طلق نارى فى حياته.

«سرعان ما انطلق صف المدافع فاخترقت الغابة وقلعت الأشجار كما لو كانت شجيرات صغيرة. كنا نراقب باهتمام، دون أن نعى حقيقة الخطر المحدق. لم يخامر الخوف أيًا منا. كنا ننتظر جميعنا أمر "إلى الأمام". كانت الأوضاع تتوتر وسمعنا أن بعض قواتنا قد أصيبت، انعدمت الرؤية تقريبا وسط دخان الجحيم الذى كان أمامنا. وأخيرا صدر لنا الأمر الذى طالما انتظرناه: "إلى الأمام". قفزنا مجموعات من مواقعنا، وركضنا وسط الحقول حتى وصلنا إلى مزرعة صغيرة. كانت القنابل تتساقط عن يميننا وعن يسارنا، غير أننا لم نكن لنهتم بها. ظللنا هناك مرابطين نحو عشر دقائق، صدر لنا أمر التقدم من جديد. كنت أنا فى مقدمة فصيلتى. سقط قائد الفصيلة ستوفر مصابا. يا إلهى - لم يتسن لى الوقت للتفكير- بدأت المعركة الفعلية!».

هكذا وصف هتلر في رسالة عام ١٩١٥، معركته الأولى التى وقع فيها هؤلاء الجنود المستجدون، بلا حماية مدفعية، فرائس للقصف، حتى إن الفرقة انتهت بـ٦٠٠ جندى بعد أن بدأت بـ٣٥٠٠ جندى قبل ذلك بأربعة أيام. كما تمت إعادة تشكيل الكثير من الفصائل، لتحل محل أخريات دُمرت بالكامل، ولم يتبق سوى ثلاثين ضابطا قادرا على خوض المعارك. صدر أمر للفرقة بالتراجع إلى الخلف حتى يعاد تنظيمها، ثم عادت لتواصل عملها مع منتصف شهر نوفمبر.

لابد أن أداء هتلر فى ذلك الخضم قد تم تقييمه جيّدا، حيث ترقى إلى رتبة عريّف، وتسلم الصليب الحديدى الصف الثانى وأسندت إليه مهام المراسلة. وقد كانت هذه الأخيرة هى أهم التقديرات التى حصل عليها. فقد كانت القوّات التى تعانى العفن من الاحتجاز بالخنادق، تحقد على جنود المراسلة، وتعتبرهم من المحاسيب؛ لأنهم يعملون فى الصفوف الخلفية ويأكلون طعاما ساخنا، ويحصلون على ما يفيض من كميّات طعام أركان الحرب والسكان المدنيين، ينامون فى أماكن جافة متدثرين، وفى مأمن من طلقات المدافع والهجمات المفاجئة؛ لم يكن عليهم الخروج من الخنادق ببنادق معمّرة، ولا المغامرة بحياتهم وهم يتقدمون فتحصدهم المدافع. إن كان هذا صحيحا جزئيا، فمقابل ذلك، كانت خسائر الأرواح فيهم أكثر من باقى أفراد القوّة، حتى إنهم كانوا يعملون أزواجا لضمان أن تصل الرسائل إلى وجهتها، ومع ذلك فقد

يفقد الاثنان حياتهما فى الطريق. فى السنوات الثلاث الأولى من الحرب، فقد ١٢ عسكرى مراسلة منْ أصل ١٤ فى كتيبة هتلر. كان عليهم أن يتحلوا بالشجاعة لعبور ساحات معارك، تدكها نيران العدو، فى ثبات وأن يكون لديهم حسن تقدير للاتجاهات ليتمكنوا من تمييز المواقع المتقدمة والوصول إليها، وإن كان ليلا، أو فى أصعب ظروف الطقس، وأن يكونوا ذوى مكر ودهاء حتى يفلتوا من دوريات المراقبة الخاصة بالعدو.

امتلك هتلر كل هذه المهارات، لأنه تمكن من الحفاظ على حياته حتى بعد أن أدى مئات المهام، ولم يصب سوى بجرح واحد فقط. فكان، حسبما قال عنه رؤساؤه وزملاؤه، جنديا يتفوق على نفسه فى أداء واجبه، يتطوع فى الكثير من المهام الطارئة، ويرفض حتى ١٩١٧ التصاريح المصرح بها له. وقد حصل نتيجة كل هذا على العديد من الأنواط على مدى سنوات الحرب: الصليب الحديدى الصف الثانى، كما ذكرنا سالفا، صليب الاستحقاق العسكرى الصف الثالث وشعاره، دبلومة الفرقة العسكرية، والصليب الحديدى الصف الأولى - واحدا من أهم وأندر الأنواط فى فرقته - الشريط الأسود- الذى يمنح لمصابى الحرب - وميدالية الخدمة العسكرية الصف الثالث. لم يترق هتلر إلى درجة عرّيف على الرغم من كونه جنديا مقداما - باعتراف الجميع - منفذًا شديد الدقة للأوامر- حتى إنه كان يحضر الطقوس الدينية على الرغم من عدم تدينه،

لمجرّد أن الأوامر كانت تنص على ذلك - ومن أكثر جنود الجيش الألمانى تميزا. كان هذا لغزا حيّر أحد أهم مؤرخيه، لعدم تمشيه مع تلك الفترة. لماذا لم يتم تصعيد هتلر فى جيش خسر قرابة المليونى جندى ما بين ضابط وضابط صف فى الغالب؟ لا شك أنه كان عنصرا مشتتا وقلقا وسيئ المزاج، ولا بد أنه كان خطيبا أصاب زملاءه بالكثير من الملل من نظرياته الوطنية والمعادية للصهيونية، وحتما كان ينزوى أغلب وقته ليقرأ كتب شوبنهاور ونيتشه، فى حين كان زملاؤه يتسلون بلعب الورق. كان يبغض الجنس الآخر ولم يكن يكتفى بعدم مشاركة رفقائه اهتماماتهم النسائية، إنما كان يعاتبهم على مغامراتهم مع بنات فرنسا وبلچيكا. كانت هيئته الخارجية لا تمت بصلة للهيئة المتوقعة لعساكر الجيش: مترهلا، خجولا، ضعيف البنية، ولم تكن لديه الدقّة والوضوح اللتان تعجبان العسكريين. كان يعجز عن إعطاء إجابة سريعة وصحيحة، بل على العكس كانت تقاريره طويلة مشوشة، مليئة بالاستطراد.

كتب هانز ميند، أحد رفقائه فى الحرب ومن عساكر المراسلة، كتابا فى ثلاثينيات القرن الماضى، أسبغ فيه الكثير من المبالغة على مفاخر هتلر عنوانه: «أدولف هتلر على الجبهة من ١٩١٤ حتى ١٩١٨». برواية لوثار ماشتان. كان كتابا بناء على طلب ومدفوعا من قِبل الحزب النازى، الذى كان يسعى لتكريس المزايا العسكرية لذلك السياسى الذى يتطلع للمستشارية. بعد عدّة سنوات، تحديدا فى

عام ١٩٣٢، حاول ميند أن يبتز هتلر، فروى فى عدّة مناسبات أن الزعيم النازى كانت له خلال أعوام عديدة علاقة شاذة بزميل سلاحه شميدت، حيث سعى وراءه إلى ميونخ بعد تسريحهما. ذكر الشاهد، أن هتلر كان جبانا «مستترا» يدين بثروته لعدم تعرضه لنيران العدو؛ وبأوسمته إلى الكذب واستعداده التمثيلى وميوله اللوطية. بل والأنكى، أن عدم ترقى هتلر يعود لعدم رغبته فى فراق «خليله». كانت هذه القصة - التى جاءت على لسان ميند - كانت لتكون ذات شأن لو أن راويها يتمتع بمصداقية، بيد أنه شخص يقترض مبالغ مالية ويتهرب من سدادها ويبتز الكثيرين دون تردّد، حتى إنه قد حُكم عليه بالسجن عدة مرّات فى جرائم نصب وابتزاز، مما جعله شخصًا غير موثوق به. كل الدلائل تشير إلى أن ميند كان رجلا تم استغلاله تارة لصالح الدعاية الحزبية، ولصالح مخابرات كاناريس[١]، تارة أخرى، وربما أيضا مخابرات هيملر[٢]. كل جهة من تلك الجهات دفعت له ثمن الرواية التى تريد سماعها. تناقضت رواياته المحقّرة من قدر هتلر مع شهادات أخرى - قد تكون ملفقة هى الأخرى - حول نياشينه التى يصعب الحصول عليها بمجرّد التمثيل المسرحى. أيا كان الوضع، لابد أن نعترف أن أبرز عيوب

---

(١) فيلهلم فرانز كاناريس: رئيس المخابرات العسكرية الألمانية بين أعوام ١٩٣٥و ١٩٤٤.

(٢) هاينريش هيملر: واحد من من أقوى رجال هتلر، وأكثرهم شراسة. قاد فرقة القوات الخاصة الألمانية والبوليس السرى المعروف بالجيستابو.

شخصية هتلر كانت جلية أمام هانز ميند: كان كذّابا لا يكل، مخادعا لا يتورع عن المناورة من أجل الوصول إلى أهدافه، وممثلا يعرف كيف يرسم صورا ظاهرية له فى عيون الآخرين تغاير الواقع تماما.

بعيدا عن هذا المنظور، فإن الصورة التى احتفظ له بها كثير من زملائه، كانت صورة شخص انعزالى، قليل الأصدقاء، ولا يعرف كيف يستمتع مع زملائه؛ يقضى وقت فراغه فى رفقة الكتب أو رسوماته، التى تحسنت مما كانت عليه عند رسم البطاقات البريدية فى فيينا أو ميونخ. باختصار، كانت طباعه وعاداته ومظهره لا تتناسب مع الجيش الألمانى. ذكر بعض المؤرخين، أن معاداته للسامية قد تعود أحد أسباب تهميشه فى ترقياته بالجيش، فيكفى أن نعرف أن نحو مائة ألف يهودى كانوا يخدمون بالجيش وكانوا ذوى أداء عال، فقد تمت ترقية ثلاثة وعشرين ألفا منهم وحصول خمسة وثلاثين ألفا آخرين على أوسمة تميّز.

إلى جانب ما عرف عنه من انطواء ونظامية وبغض للجنس الآخر، فقد عُرف بين زملائه أيضا بكونه محظوظا ولا يمكن المساس به. فى حقيقة الأمر، فإن كتيبة «ليست» شاركت فى أضرى معارك الحرب العالمية الأولى وخسرت خسارة جسيمة بإصابة نحو ٦٠ بالمائة من عناصرها بإصابات، كان نصفها على الأقل، مميتة. فى هذه الكتيبة كان هتلر، عسكرى المراسلة، بمنأى عن مجال المدافع حتى معارك "سوم"، بين صيف وخريف ١٩١٦. والتى راح

ضحيتها نحو مليون جندى من الطرفين. هناك، مع نهاية شهر سبتمبر، تكرر حظ العريف هتلر جليا، حيث كان يجلس مع مجموعة من الجنود فى أحد المخابئ وألقيت عليهم قنبلة من جيش الإنجليز حصدت أرواح أربعة منهم، وأصابت ستة آخرين إصابات بالغة، ولم يصب اثنان بأذى، كان هو واحدًا منهما، وإن كان قد أصيب ببعض الخدوش فى وجهه. مع ذلك، ففى الخامس من أكتوبر من ١٩١٦، وبينما كان يقوم بمهمة مراسلة تطوّع لأدائها، أصابت شظية مدفع فخذه، وظل ملقى على الأرض لعدة ساعات، قبل أن يلتقطه رجال الرعاية الطبية. لم يغيّر زملاؤه رأيهم فى حظه حتى بعد أن تبيّن أن الإصابة تتطلب نقله للعلاج فى ألمانيا، وإن كانت لم تود بحياته ولا أثَّرت على حركة ساقه.

الطعنة فى الظهر

عندما استيقظ هتلر، وجد نفسه فى مستشفى بيليتز بالقرب من برلين. كان قد غاب عن ألمانيا قرابة العامين. عامان من القتال المتواصل ولم يلتفت لما يجرى فى الجبهة الخلفية. فى المستشفى، بدأ هتلر يستشرف المعالم الأولى للهزيمة: جنود سعداء بإصابتهم ويعربون، بلا مواربة، عن استعدادهم لعمل عاهات بأجسادهم حتى لا يعودون إلى الجبهة. هناك، بدأ العريّف، الذى لم يكن قد أصيب بأى أذى سابقا، يفقد أعصابه. فكان يرى أن طاقم الرعاية ليس على المستوى المطلوب، وأن التغذية كانت شحيحة، وفى أغلب

الأحوال ذات نوعية سيئة. افتقد بصفة خاصة الحلوى وكميات الشاى الوفيرة الساخنة التى كان يشربها هناك على الجبهة، بعد أن يضيف إليها الكثير من السكر.

خلال نقاهته، التى امتدت إلى شهرين، زار خلالها برلين لأول مرّة. لم تبهره عاصمة الرايخ، غير أن أكثر ما استرعى انتباهه، كان روح السخط والانهزامية التى كان يستشعرها أينما توجه. جاء شتاء (١٩١٦،١٩١٧) قارس البرودة، وكانت كميات وقود التدفئة مقنّنة، مثلما كان الغذاء: بدأ مظهر الناس يدعو للرثاء بعد أن أصابهم الهزال وخلت الشوارع من أى مظهر من مظاهر السعادة. كل ما وجده كان مجموعة من المنشورات السرية التى جاء فيها، على سبيل المثال: «يسقط تجّار الحرب على جانبى الجبهة! ضعوا بأيديكم نهاية لجريمة القتل الجماعى هذه».

تم شفاؤه فى ديسمبر، وعاد إلى كتيبة الاحتياط الكائنة بميونخ. لم يكن الوضع هناك مختلفا عنه فى برلين: تعب، خداع، ورغبة فى أن تضع الحرب أوزارها. كتب هتلر معربا عن انطباعاته، عند عودته إلى العاصمة البافارية: «بالكاد تتعرف على المكان! غضب، هياج، لعنات أينما ذهبت».

سياسيا، كان الوضع فى بافاريا أسوأ منه فى برلين. بدأ يقتنع أن مسئولية فشل المعارك يتحملها من يملكون مقاليدها. تحديدا البروسيون وجنرالات وسياسيو برلين، ولابد لبافاريا أن تطالب

بقيادة السياسة والحرب، إذا ما رغبت فى تغيير مجرى الأحداث. قابل أدولف فى ميونخ أولئك الذين يطلبون السلام بأى ثمن، وهؤلاء الذين يرغبون فى ضخ المزيد من المجهود الحربى، وآخرين يدّعون أنهم يملكون زمام الأمور. كان المستفيد الوحيد من هذا الوضع هو العدو. كان هناك من يسعى لتخريب وانقسام الجبهة الداخلية، وبطبيعة الحال، حمّل اليهود مسئولية كل المآسى.

من غير المؤكد أن يزداد عداؤه للسامية، فى تلك الفترة، فقد رأى اليهود يغذّون أتون الحرب بكل ما أوتوا من قوة مثلهم مثل بقية الشعب: تم تجنيد ١٢ بالمائة من اليهود مقابل ١٣ بالمائة من باقى الشعب الألمانى. مات ١٢,٠٠٠ يهودى (٢ بالمائة من عددهم) فى حين بلغ عدد خسائر الأرواح بين الشعب الألمانى ١,٧٧٣,٠٠٠ (٣,٥ بالمائة من سكان البلاد). لم تكن الفروق بين الجانبين عميقة حتى تدفع هتلر لأن يعتقد أن اليهود يتنصلون من الحرب، ويوفرون مجهودهم لمرحلة النصر. من المعروف أنه لولا اكتشاف العالم اليهودى فريتس هابر للأمونيا الصناعية، لظلّت صناعة المتفجرات فى ألمانيا «محلّك سر». لابد أن نذكر أيضا فضل يهودى آخر هو والتر راتنهو رئيس شركة AES، الذى قاد بمنتهى الكفاءة قطاع الصناعات الحربية، والذى يفسر كيف أن ألمانيا، على الرغم من الحصار الشديد الذى كان يمنع عنها الإمدادات، استطاعت أن تصمد وتنافس أسلحة الحلفاء على مدى أربع سنوات.

لم يكن هتلر معتادا على حياة الدعة، فطلب معاودة الالتحاق بوحدته. فرجع إلى الجبهة فى ١٠ فبراير١٩١٧، ولم يكن هناك توقيت أسوأ: كان الجوع قد بدأ ينتشر فى خنادق الألمان، فى حين عمّت الخيرات خنادق العدو. توافر لهم الغذاء والأسلحة وقامت آلة دعايتهم بإذاعة هذه الأخبار بين صفوف الألمان، بالإضافة إلى أخبار أخري محبطة حول إمدادات إضافية من الرجال والعتاد، كان جنرالات الحرب فى إنجلترا وفرنسا ينوون تقديمها مع بداية شهر أبريل.

خاضت كتيبة «ليست» أشرس معارك الحرب بلا توقف حتى ٣١ يونيو فى فلانديس وأرتوا، وواجهت تارة الفرنسيين وأخرى الإنجليز. فى مرتين وجدت بين حجرى رحى القوتين التى أوقفت تقدم المارشال الإنجليزى هايج وبين، التى هزمت الفرنسيين فى شومان دى دام، بيد أن فى الثالث من أغسطس أصدرت الأوامر بسحبها من الجبهة: من بين الـ١٥٠٠ رجل الذين كانوا موجودين فى البداية، بقى فقط ٦٠٠ جندى فى نهاية المعارك. تم تسريح الكتيبة بهدف إعادة تشكيلها، وعلى غير المتوقع، أخذ هتلر التصريح بإجازة وقضاها مع أعمامه أنطون وتيريزا فى سبيتال، المكان الذى اعتاد فيه قضاء إجازاته عندما كان طفلا صغيرا. عاد هتلر إلى منزل عائلته، بعد أن بلغ الثامنة والعشرين من عمره، وبعد غياب أحد عشر عاما. كان كل شىء قد تغيّر فى النمسا خلال هذه الفترة.

هرم عماه، وفى هذه المقاطعة التى شهدت طفولته الأولى ولم يجد فيها الآن سوى الفقر والشيخوخة. فى فيينا، كان الفقر قد غزا الشوارع: لاجئون من كتائب الجيش، متسولون، أشخاص يرتدون ثيابا مهلهلة ولهم وجوه شاحبة؛ توفى الإمبراطور العجوز فرانز جوزيف فى شهر ديسمبر من عام ١٩١٦. تاركا من بعده الإمبراطور كارل الذى سعى جاهدا لإخراج النمسا من الحرب التى تسببت فيها.

عاد هتلر من جديد إلى الجبهة التى باتت متأثرة بما يدور بين المدنيين. تبلورت لديه فكرة أن هناك عائقين يقفان بين ألمانيا والانتصار: الدعاية الفائقة التى كانت تتمتع بها كل من فرنسا وإنجلترا وكانت ألمانيا تعجز عن مجاراتهما فيها، وانخفاض معنويات الجبهة الداخلية التى كان ينخر فيها السوس اليهودى. مع ذلك، كانت الحرب قد بدأت تسير على جادة الصواب فى تلك الفترة. فقد هزم الألمان والنمساويون الإيطاليون فى كابوريتو، ووقّع الروس اتفاقية وقف إطلاق النار. كانت ألمانيا فى موقف يسمح لها بتوجيه كل جهودها لمواجهة قوّات فرنسا، وأن تتفوق عليها فى العدد والعدّة.

غير أن الأمور لم تكن لتسير بلا عراقيل، فقد أعلنت أمريكا الحرب على ألمانيا، بعد أن استفزتها بحرب الغوّاصات وبسياستها الخارجية. ثم ما لبثت أن راحت تمد فرنسا بالرجال والعتاد. من

ناحية أخرى، كانت أحوال ألمانيا الداخلية تعانى التدهور: انتشر الجوع، ونقصت المؤن التى لم يسبق لها مثيل، حتى إن الأطفال كانوا يلفون فى حفّاضات من مادة السيلولوز، المادة نفسها التى كانت تتغذى عليها خيول الجيش؛ وكانت الجثث تدفن بلا توابيت، وأطفئت الدفايات، وأصبحت وسائل المواصلات غير منتظمة. كل ذلك من أجل حرب لم تبد لنهايتها أية بوادر ولا للانتصار فيها. كان الألمان يراقبون على الخرائط كيف أن قواتهم لم تتقدم قيد أنملة عن مواقع عام ١٩١٤. ومع ذلك تكلفت تلك الوقفة إزهاق أرواح الملايين، حتى إنه كان من الصعب أن نجد أسرة لم تفقد أحد أعضائها فى تلك الحرب، كما تم تجنيد كل من يبلغ الثامنة عشر من العمر.

كانت الفرصة سانحة للاحتجاجات، وبدأها الديمقراطيون الاشتراكيون فى الرايخستاج(١)، إذ انشقوا بعد أن رفض ثلاثون من نوابهم التصويت لاعتمادات الحرب. كما كان حزب جماعة سبارتاكوس، المكوّن من مجموعة من الأعضاء اليساريين المعارضين للحرب، وعلى رأسهم بعض المفكرين الماركسيين، من أنشط القوى المكافحة من أجل سلام بلا توسعات ولا تعويضات، مما كان يعنى العودة إلى حدود ٣١ يوليو١٩١٤. كان الحزب يكتب ويوزع الكثير من

---

(١) الرايخستاج: اسم البرلمان الألمانى ومبناه.

المنشورات فى الفترة الأخيرة، فكان أن عرفهم العامة من المنكوبين بالحرب. دعوا إلى الإضراب العام فى ٢٨ يناير١٩١٨. استجاب نحو ثلاثمائة ألف عامل فى برلين، وقرابة المليون شخص فى ألمانيا كلها. مع ذلك، فشل الإضراب فى تحقيق أهدافه، وانتهى بعد ثلاثة أيام دون أن يتمكن من وقف إمدادات الحرب إلى الجبهة. لكن هذا الإضراب - الذى كان هتلر يرى أن المسئولين عنه هم الماركسيون واليهود- أمد هتلر بترسانة جديدة من الجدل، فبدأ فى صياغة أفكار ما عُرف باسم «طعنة فى الظهر».

مع ربيع عام ١٩١٨، لم يكن التفكير قد وصل بعد إلى فكرة التخوين. فداخل صفوف الجيش، كان الجنود يتنسمون عبير النصر، خاصة بعد أن أطلق القائد لودندورف هجومه فى ٢٧ مايو الذى اخترق صفوف الفرنسيين كنصل الخنجر. وصل الألمان ثانية إلى مارن، ذلك النهر الذى حمل عبر مجراه دماء أكثر مما حمل من مياه ما بين أعوام ١٩١٤ و١٩١٨. فى تلك الأيام عادت قلوب الفرنسيين لتنقبض، حيث كانت أخبار معارك الجبهة تنتشر فى الشوارع وتملؤ بالرعب لياليهم. لكن عبور مارن عاد ليكون صعب المنال على الألمان: ففى ١٩ يونيو، وبعد أن صمد أسبوعا على ضفته اليسرى، بدأت قوّات لودندورف التراجع. فى هذه الفترة، كان العريّف هتلر على بعد أربعين كيلومترا من باريس، ويتطلّع إلى استعراض قوّات انتصار ألمانيا بالشانزليزيه. وقد تحقق ذلك الحلم بعد مرور اثنين وعشرين عاما.

بعد فشله فى الهجوم، راح الجيش الألمانى ينتشر فى تؤدة ويهاجم كلما سنحت له الفرصة. فى يوم ٣١ يوليو نجحت بعض فرق من كتيبة «ليست» فى اختراق صفوف الإنجليز ومباغتتها فى هجوم مضاد لأحد الأجنحة، ولكن لسوء حظ الألمان، لم تكن مدفعيتهم قد بلّغت بهذا الموقع الجديد فراحت تدكه بالمدافع. تسببت «النيران الصديقة» فى مقتل الكثيرين، وأفشلت الهجوم المضاد الذى كان يقوده الملازم هوجو جوتمان الذى كان، لسخرية القدر، يهوديا، فيطلب هذا من هتلر أن يخترق أرض المعركة ويطلب وقف ضرب المدافع، ويعده بأن يطلب له الصليب الحديدى من الصف الأول، إن هو أنجز المهمة بنجاح. تمت المهمة الانتحارية بنجاح، ونورد هنا ما جاء بخصوصها فى دفتر أحوال الفرقة:

«أظهر فى مهمة المراسلة إقداما وبسالة مثاليين، سواء فى حرب الاستحواذ أم التحركات، ودائما ما كان يتقدم متطوعا لتوصيل الرسائل، حتى فى أحلك الظروف، مخاطرا بحياته فى سبيل ذلك. فى ظروف الخطر، وعندما تقطعت كل سبل الاتصال، كان عمل هتلر الشجاع، الذى لا يكل، يمكّن الرسائل من الوصول إلى وجهتها».

وقّع على التقرير البارون فون جودين، قائد الفرقة، بناء على تقرير رفعه الملازم أول هوجو جوتمان. لم تعرف هذه القصة بين

كثيرين، لأن هتلر حرص على عدم نشرها حتى لا يقال إنه حصل على أعلى وأرفع وأندر وسام، بين من هم فى رتبته على يد يهودى.

وعلى الرغم من أن هتلر لم يعترف قط فى أى من كتاباته، وهو الجندى المتعصب فى مثل تلك الظروف، بأنه قد سئم الحرب: حصل على الصليب الحديدى فى ٤ أغسطس، وقبل التصريح بالإجازة المتضمنة ليعود إلى أقاربه فى سبيتال. كانت هذه العودة منطقية، فهى تعنى الدفء العائلى والغذاء الصحى والابتعاد عن الجبهة، والأهم من كل ذلك التقدير: فها هو هتلر التلميذ البليد، والفنان الفاشل، والمشرّد الضال، يعود إلى أرضه وقد أصبح بطلا.

عاد هتلر إلى الجبهة فى سبتمبر ١٩١٨. فى الأماكن نفسها التى شهدت أول إطلاق النار فيها منذ أربعة أعوام. ما اعتبره دمارا فى ١٩١٤. كان مجرد محاكاة للحرب. مع خريف عام ١٩١٨، انهمرت أمطار غزيرة. دكّت المدافع مساحات شاسعة من الأراضى، وكوّنت بها حفرا عميقة متجاورة جعلتها تبدو كجمع من الأقماع التى تملؤها المياه. لم يعد فى الإمكان حفر الخنادق، وحلّت محلّها طبقات من أجولة التراب. وأصبح لا بد من عبور أرض المعركة على معابر خشبية، فقد كان من الخطورة بمكان وضع القدم فى البرك، حيث خطر الغرق داخل الحفر، يهدد من لا ينتبه. أصبحت القرى

مثل أكوام متناثرة من الأنقاض التى نمت وسطها الحشائش، ولم يكن أحد ليجرؤ على الاحتماء بأسقف المبانى المتهالكة، إذ سيكون هدفا سهلا لمدافع العدو. فى هذا المسرح الشبيه بعوالم الشاعر دانتى، والذى يعج بالرجال والأنعام المشرفة على الموت، والذى كانت رائحة الموت تتمسك بتلابيبه، وقعت آخر هجمات الحرب. سعى الإنجليز والفرنسيون إلى استدراج ألمانيا إلى الراين.

هناك كانت كتيبة «ليست» فى ٢٨ سبتمبر عندما استسلمت بلغاريا. الخبر، الذى لم يلتفت إليه أحد على الجبهة، أثار الحكومة الألمانية، التى بلغتها أنباء عن أن تركيا تتفاوض على انسحابها، وبعد أن أعلنت فيينا أنها تدرس طلب وقف إطلاق النار بعد أن نفدت مواردها البشرية والصناعية والاقتصادية. لم يكن الوضع فى ألمانيا أفضل: ففى ٢٩ سبتمبر، ونظرا لشح المؤن، ونقص الأفراد والغذاء وتفوّق العدو، أشار القائدان - لودندورف وهندنبورج - على حكومتهما بقبول وقف إطلاق النار حسب البنود الأربعة عشر التى وضعها الرئيس الأمريكى ويلسون. وقع الخبر وقوع الصاعقة، حتى بين أعضاء الحكومة، الذين لابد وأنهم كانوا على علم بالوضع الحرج. فى حين تقبّل الكثير من عقلاء ألمانيا الأمر بالارتياح، لكن خاب أمل الأغلبية أمام هذا النبأ: فقواتهم مازالت على أرض أجنبية وكانت تهدد باريس منذ فقط ثلاثة شهور؛ ومن ثم، ما الذى حدث حتى تقع كارثة كهذه؟

توصل العسكريون لتبرير فورى: «طعنة فى الظهر». بطبيعة الحال كان الاشتراكيون الديمقراطيون والشيوعيون واليهود هم من أمسكوا بالخنجر. نجحت الفكرة والصياغة، بدعم من الجيش، الذى تمكن بهذه الطريقة من التنصل من مسئوليته عن الهزيمة، ومن حفظ ماء وجهه، بعد أن وقّع له على الفور المنتصرون بموافقة لا شعورية على وقف إطلاق النار فى روتوندس فى ٨ نوفمبر ١٩١٨. بعد أن توجهت لهم لجنة مدنية يرافقها اثنان من العسكر من المراتب الثانية. حزن ريمون كارتييه على هذه النهاية للحرب، وعلى سلام فرساى اللذين مهدا لصعود النازيين وللحرب العالمية الثانية:

«بعد أن وقعت الحرب العالمية الأولى نتيجة أخطاء وهفوات، كان لا بد لها من نهاية يكون فيها النصر محققا للحلفاء ويعقبه سلام توافقى. ولو حدث العكس، فإن النصر المنقوص سيولّد سلاما أحمق السيادة».

علم هتلر بخبر انتهاء الحرب، بينما كان يعالج فى مستشفى باسوولك، المتخصص فى علاج الحالات الناتجة عن استنشاق الغازات. فقد بصره فى صبيحة يوم ١٤ أكتوبر، عندما تعرضت قيادة فرقة ليست، المرابطة عند بلدة لامونتانى جنوب إيبريس، لهجوم مطوّل من القوات البريطانية بقنابل الكلور الغازى. كانت الأخبار تصل متواترة إلى المستشفى حول نزع السلاح واستسلام القوات الألمانية وسقوط ونفى القيصر، لكن هتلر كتب بعد ذلك

بعدّة أعوام أنه بعد أن علم يوم ١٠ أكتوبر بخسارة ألمانيا للحرب، لم يرغب فى سماع التفاصيل:

«أظلمت الدنيا فى عينى، وعدت إلى مخدعى وأنا أتلمس طريقى وأتعثر، ثم دفنت رأسى المتوهج تحت الوسادة والغطاء».

العشيقة

يوم الـ٢١ من نوفمبر١٩١٨، وبعد أن تعافى نهائيا، خرج من المستشفى. عاد بعد بيومين إلى ميونخ ليبحث عن مصيره. وهناك، وبعد قليل، سيولد أدولف هيتلر من أجل السياسة، هناك، فى عشرينيات القرن، ستترسخ أسس الرايخ الثالث، الذى كان يسعى لأن يكون لألف عام، ومن هناك، فإن النازيين سيسطون على السلطة فى العقود التالية. سترفعه ميونخ إلى أقصى حدود الطموح. وستسكنه ميونخ حتى النخاع، حتى إنه فى ذلك الفجر من يوم ٢٩ أبريل ١٩٤٥، وحتى مع تأكد هزيمة النازية فى الحرب العالمية الثانية، ستقبله وتقول له إيفا براون الألمانية «نعم قبلت» وستصبح زوجا له، ويعقد قرانهما فى مخبأ المستشارية فى برلين.

يا لها من احتفالية غريبة! فالرجل الذى أحب، عام ١٩٠٦، الشابة ستيفانى ولم يجرؤ قط على أن يبوح لها بحبه، والذى رفض الكثير من نساء فيينا، وعُرف عنه بغضه للنساء أثناء الحرب، يتزوج وهو فى حكم الميّت. صحيح أنه كانت له بعض العلاقات العابرة وعرفت عنه

علاقته العاصفة بجيلى روبال، ابنة أخته غير الشقيقة، إلا أن أحدا لم يكن يعرف أن له علاقة عاطفية مستقرة منذ عام ١٩٣٢.

ولدت إيفا براون عام ١٩١٢، فى كنف أسرة صغيرة برجوازية. تربت فى مدرسة للراهبات لكنها لم تستطع أن تكمل دراستها، فلم تحصل على شهادة دراستها الثانوية. فى عام ١٩٢٩. التحقت بالعمل فى محل وستوديو المصوّر هاينريش هوفمان، الذى تحوّل إلى المصوّر الرسمى لهتلر بعد أن بدأ نجمه يصعد فى عالم السياسة الألمانية عام ١٩٢٣. كانت إيفا تتولى الحسابات وتستقبل العملاء، وأحيانا كانت تقوم بدور الموديل. كانت شابة شقراء، رياضية، ذات وجه مستدير، وعيون زرقاء، وابتسامة عريضة، وتميّز طبيعى وحب مشع للحياة. لم تكن ذات تعليم عال، لكن ذكاءها الحاد وطاقتها العالية وقدرتها على الإنجاز كانت تعوّضها عن ذلك.

تعرّف إليها هتلر فى ستديو هوفمان عام ١٩٢٩. وقد غمرته بانطباع عميق مؤثر، لم يخف عن ملاحظتها المصور. فيما بعد، كانت هى المسئولة عن توصيل الصور الأسبوعية التى كان المصوّر يرسلها لمستشار المستقبل. لم يُعرف مدى حميمية العلاقة أثناء حياة جيلى روبال، لكنه مع بداية عام ١٩٣٢ - بعد مجرّد ستة أشهر بعد وفاة ابنة أخته غير الشقيقة - اتخذها خليلة دائمة له. كانت إيفا فى العشرين من عمرها، فى حين كان هو فى الثالثة والأربعين. كانت له علاقات متعددة فى تلك الفترة، غير أنها كلها كانت تعد من

قبيل النزوات وسرعان ما كان يعود لإيفا براون. تعذبت هى من جرّاء ذلك حتى إنها حاولت الانتحار مرّتين، ثم انتهى بها المطاف بتفهم طبيعة تلك العلاقة. خاصة بعد عام ١٩٣٦ عندما أهدى لها الفوهرر شقة بميونخ، وخصص لها غرفًا فى مستشارية الرايخ وبمقر إقامته ببيرجهوف.

عاشت إيفا براون بعدها حياة منغلقة - حتى إنها لم تكن معروفة سوى للدائرة الضيقة من أصدقاء هتلر المقرّبين - وكرّست نفسها لمرافقته، ولأن تكون له بمثابة «استراحة المحارب» بلا طموح سوى أن يحبها وأن تحب هى «أعظم رجل فى ألمانيا، إن لم يكن فى العالم أجمع». كان هتلر يحبها وقد ظهر ذلك فى كل الصور وأشرطة السينما التى كانت تسجل حياته معها، حيث كانت تبدو عليه السعادة والراحة، ولم تكن الابتسامة تفارق محياه وهو بجوارها. معها لم يكن بحاجة للادعاء، وكان بمقدوره أن ينزع قناع الاستبداد الحديدى. وأكبر دليل على حبه لها هو؛ هداياه الكثيرة الباهظة الثمن التى أهداها إياها، وإنه فى وصيته لعام ١٩٣٨، أقر أنها المستحقة الأولى لميراثه؛ بل أكثر من ذلك، ففى عام ١٩٤٥ عندما توجه هو إلى برلين للدفاع عن عاصمة الرايخ، تركها فى بيرجهوف، مفضلا الحفاظ على سلامتها من مرافقتها له.

ومن جانبها هامت هى به عشقا - الرجل الذى كان يمكن أن يكون أباها نظرا لفارق السن بينهما-، حتى إنها اختارت الموت إلى جواره.

قدمت إلى برلين فى ١٥ من أبريل عندما كانت المدينة على وشك الوقوع فى الحصار، مع علمها أنها ستعيش فى مخبأ المستشارية غير المريح، والرطب وذى الرائحة غير المستحبة. استقبلها هتلر بسعادة ظاهرة، على الرغم من مخالفتها لأوامره، كما سعد بها سكان الملجأ حيث يخفف وجودها من حدّة طباع الفوهرر.

فى ٢٢ أبريل حاول هتلر حمايتها مجددا، أراد أن تستقل طائرة تتجه إلى الجنوب مع سكرتيراته. كان الجنود الروس يزحفون فى اتجاه قلب المدينة، على الرغم من المقاومة الشرسة، من كل بيت، من مقاومة العجائز والأطفال الذين جندتهم الفولكستورم، ومن حفنة من الجنود الأس أس(١) الأجانب. كانت ألمانيا على وشك أن تخسر الحرب، وكانت أيام المقاومة فى برلين معدودة. وصف دافيد إيرفينج المشهد التالى:

- كل شىء انتهى، لم يعد هناك أى بصيص من أمل. لابد أن ترحلى.

---

(١) وحدات الأس أس أو شوتزشتافل: كانت منظمة تابعة للحزب النازى الألمانى أنشئت سنة ١٩٢٥، وكلفت بمهمة حماية أدولف هتلر" أدولف هتلر. فى سنة ١٩٢٦، وضعت تحت إمرة الأس أس الجناح العسكرى للحزب النازى المعروف بقسم الهجوم (Sturmabteilung) فى سنة ١٩٣٤، أصبحت الأس أس وحدة شبه عسكرية مستقلة تضطلع بمهام بوليسية فى صلب الحزب النازى. فى سنة ١٩٤٥، منعت هذه المنظمة واعتبرت منظمة إجرامية للدور الذى قامت به فى محرقة المحرقة.

تُمسك إيفا بيده وترد:

- تعرف أننى سأبقى هنا إلى جوارك.

ظهر بريق جديد فى عينى هتلر، وأقدم على فعل شىء لم يسبق لأحد أن شاهده يفعله حتى ذلك الحين. اقترب منها وقبّل شفتى إيفا براون. وتتدخل فراو جونجى بتأكيدها:

- وأنا أيضًا سأبقى.

وأمّنت على كلامها فراوكريستيان فقال هتلر متأثرا:

- ليت جنرالاتى كانوا فى مثل شجاعتكن.

بعد هذا الموقف بأسبوع، بينما كان الجنود السوفييت على مقربة مئات الأمتار من المستشارية، بدأ هتلر يملى وصيته الخاصة على فراو جونجى، والتى كان أول بنودها مخصصة لموضوع الزواج من إيفا براون:

«على الرغم من أننى فى أيام الكفاح، لم أكن متأكدا من قدرتى على تحمل مسئولية الزواج فإننى الآن، قررت فى نهاية حياتى، الزواج من المرأة التى، بعد سنوات صداقة طويلة، أتت، بمحض إرادتها، إلى هذه المدينة وهى توشك أن تسقط محاصرة، لتشاركنى المصير. رغبت أن تموت إلى جوارى باعتبارها زوجة لى. لعل هذا يعوّضنا عما عانيناه بسبب عملى فى خدمة الشعب».

عند هذه العبارة، قطع وصيته ليرتدى حلة العرس، غير أن تأخر موظف السجل المدنى عن الحضور، مكّن هتلر من استكمال وصيته ليهدئ من توتره بسبب التأخير:

«كل ما أملك مما له قيمة، هو ملك للحزب، وإذا ما لم يعد للحزب وجود فهو للدولة، أما إذا اختفت هذه عن الوجود، فلا داعى لأن أتخذ أية قرارات».

«مجموعة اللوحات التى جمعتها على مدار السنين، لم يكن لها هدف معيّن، اللهم إنشاء معرض للوحات فى مسقط رأسى: لينز. أرغب بشدّة أن تتحقق رغبتى هذه».

«أعيّن باعتبارى منفذًا لوصيتى هذه أوفى رفيق لى فى الحزب: مارتين بورمان. يجوز له اتخاذ جميع الإجراءات القانونية الضرورية لتحقيقها، له حق توزيع كل ما له قيمة. سواء هدايا أو على سبيل مصاريف منزلية لبيت أخى وأخواتى، وأيضا وبصفة خاصة بيت أم زوجتى، وبيوت أخلص معاونىّ الذين يعرفهم جيدًا خاصة سكرتيراتى السابقات، فراووينتر وغيرها ممن ساعدونى فى عملى خلال سنوات عديدة».

«اخترت أنا وزوجتى الموت لتجنب عار الهزيمة أو الأسر. ونرغب بشدة أن يُنثر رمادنا على الفور فى المكان الذى قضيت فيه أكثر وقتى أعمل فى خدمة شعبى على مدى اثنى عشر عاما».

عندما انتهى موظف السجل «والتر واجنر» من تسجيل بيانات المتعاقدين، طلب بيانات مارتين بورمان وجوزيف جوبيلز بصفتهما شاهدى عقد زواج إيفا براون وأدولف هتلر. كانت الخطوة التالية فى طقس الزواج حسب النظام النازى هو؛ أن يقسم طرفا العقد على طهارة سلالتهما وخلوهما من أية أمراض وراثية من شأنها التأثير على الزواج. حلف الاثنان وتابع بعدها الموظف بسؤال كليهما إن كان يقبل الآخر زوجا له، فأجابا بالقبول. تبادل الزوجان خاتمين متواضعين من خواتم الزواج، يبدو أنهما قد تم التحصل عليهما على عجل، لإنقاذ الموقف، من حاجيات أحد أعضاء الأس أس من حرس الفوهرر، أو كانا بلا شك حصيلة نهب ما قاموا به. فى النهاية وقّع العروسان والشهود على المستند، الذى أكثر ما ميّزه هو شطب إيفا براون لحرف الـ (B) من لقبها وهى توقِّع لتتمكن من التوقيع باسم إيفا هتلر.

خرج الجميع إلى الردهة لتلقى التهانى ممن كانوا ينتظرونهم بالخارج، قرابة اثنى عشر شخصا. تناول الموظف والتر واجنر القبعة الفولكستورم المتربة التى كان يمدها له أحد أعضاء الأس أس، وتوجه برفقة نفس الجنود، الذين أحضروه إلى بونكر هتلر، لصعود السلالم المعتمة للمخبأ، والتى كان قد اعتاد على اهتزازاتها. لم يظهر له أى أثر بعدها، على الرغم من اجتهاد الباحثين، فإنه اختفى بين رحى معركة برلين التى كانت تدور على أوجها فى تلك اللحظات.

كان العروسان والمدعوون فى مشهد عرس طبيعى جدا. تتلقى إيفا التهانى من السادة والسيدات، فكان الرجال يقبّلون يدها وكانت النساء يقبلن خدها، وهى سعيدة بالجميع وتنظر من حين إلى آخر إلى زوجها، الذى أخذ يبتسم بدوره وقد تجدد شبابه وهو يتلقى مباركة الجميع. أحد الحاضرين كان معه آلة تصوير فوتوغرافية، فراح يسجل الحدث: وقف هتلر جادا وإن كان فى هيئة أفضل من تلك التى كانت تميّزه فى صور سابقة، ظهر فيها كعجوز قبل الأوان؛ تأبطت إيفا ذراعه وهى ترسم ابتسامة على محياها. فى الخلفية وقفت السكرتيرتان كريستيان وجونجى. تقدم الجمع بضع خطوات فى ممر البونكر الفسيح، محاولين عدم التعثر بخراطيم طفايات الحريق التى كانت تغطى الأرضية، ووصلوا إلى البهو الذى يسبق مكتب هتلر حيث أعدت مأدبة عشاء بارد تكثر بها الشمبانيا.

رافق العروسين على عشاء عرس بورمان، والسيّد والسيّدة جوبيلز، والسكرتيرتين، الطباخة، والجنرالان بورجدورف وكريبس. كانت المناقشة تفاعلية وتصدر السيّد والسيّدة جوبيلز جذبا الانتباه حيث كان حفل زواجهما، الذى قام فيه هتلر بدور الإشبين، من أجمل ذكريات الأيام الخوالى. واجه الفوهرر صعوبة فى وجود شبه بين صورة ماجدة جوبيلز الذابلة، ذات الهالات السوداء، الشاحبة، وشبه المريضة، بصورة تلك المرأة الطويلة الشقراء الأنيقة الجميلة

التى عرفها عام ١٩٣١ . كانت ماجدة قد انفصلت وأحبت بعنف جوبيلز الصغير القبيح. بادلها هو أيضا الشعور نفسه، غير أنه لم يكن فى إمكانه الزواج منها، حيث لم يتعد دخله الـ ٦٠٠ مارك، ولو تزوجت فستخسر معاشها ذا الـ٤٠٠٠ مارك الذى كان يوفر لها حياة برجوازية كريمة. تأثر هتلر بالقصة، فدعاها لتناول الشاى، ثم لمشاهدة الأوبرا. عاد إلى منزله وقد أصابه سهم كيوبيد، إلا أن تمسكه بعزوبيته انتصر على شعوره هذا. لن تكون تلك «الفالكيريا»(١)، من نصيبه، لكنه كان يود أن توجد دائما حوله. سعى لزيادة راتب جويلز حتى يتمكن من إتمام الزواج، الذى تم فى احتفالية فاجنرية نظمها ورتب لها المخرج والتر جرانزو، أحد أعضاء الحزب النازى. منذ تلك اللحظة، تحوّل لضيف مقيم لدى الزوجين. كان يستمتع بالاستماع للموسيقى فى بيتهما وكان يحب ما تطهوه ماجدة، خاصة الحلوى. كثيرا ما كان يتناقش مع جوبيلز حتى ساعات متأخرة من الليل، بينما تغفو ماجدة بينهما على الأريكة. تحوّل الفوهرر أيضا إلى المدافع عن الزوجين، وهو ما تثبته الخيانات المتكررة من جانب جوزيف والانتقام بنفس السلاح الذى كانت تمارسه هى، فقد تحوّلت ماجدة إلى ثانى أكبر حب فى حياته

---

(١) الفالكيريا: اسم ساقية للأبطال عند الجرمانيين القدماء.

- بعد چيلى روبال، وغالبا قبل إيفا براون - وفى بيتها عرف الحياة الأسرية الوحيدة فى برلين.

لم يتناول هتلر كثيرا من الطعام، واكتفى ليلة عرسه بشرب الماء. لكن، مع نهاية العشاء، تصادف قدوم العقيدين جونشى وبيلو - الأول هو المساعد الشخصى للفوهرر، والثانى، مساعد القوّات الجويّة - فدعتهما إيفا براون وهى منتشية بفعل الشمبانيا، إلى النخب وتمكنت من تشجيع هتلر ليشاركهم الشراب. ثم بدأت الحفلة تختتم. وانقسم الحاضرون إلى مجموعتين واضحتين: من ناحية جلس هتلر وبورمان وجوبيلز وانتقلوا من حوارهم عن أمجاد الماضى إلى الحديث حول عيوب الأصدقاء على مدى عقدين من الزمان فى الكفاح والسلطة. لم يكن فى استطاعة هتلر أن يتقبل خيانة جورينج وهيملر، واغتم وجهه ولم يعد يهتم بالمناقشة. كانت المجموعة الثانية قد فقدت روح المناقشة، بفعل الشراب، وتحولت إلى ما يشبه التأبين ولم تخل من بعض دموع التأثر. فى لحظات الصمت الطويلة كان بالإمكان سماع الزئير البعيد للحرب، على الرغم من أن سقف البونكر كان عبارة عن ثلاثة أمتار من الإسمنت المسلّح، تغطيها ستة أمتار من التراب المضغوط. وفى كل مرّة كانت مدفعية الروس الثقيلة تضرب، كان المكان يهتز كما لو كان تحت

تأثير زلزال، فتتساقط على الندماء قشور من جص السقف المتهالك، بينما يقرعون فيما بينهم كئوس الشمبانيا المصنوعة من كريستال بوهيميا الفاخر.

الفصل الثانى
وصيــة هتلــر

نهض هتلر متباطئا من على المائدة، ونادى على سكرتيرته الأمينة فراو جونجى، ليملى عليها وصيته السياسية. قرّر باقى المدعوين إنهاء ذلك الاحتفال الثقيل، وفضّل أغلبهم أن يأووا إلى مخادعهم. فقد الفوهرر مظهره الأنيق الذى كان عليه منذ ساعة، فى حفل الزفاف. استعاد هيئته السابقة، هيئة رجل هاجمته الشيخوخة مبكرا، ومرض خلال الأسابيع الأخيرة، فأضافت إلى أعوامه الستة والخمسين، التى بلغها منذ سبعة أيام، نحو عشرين عاما.

«هرِم، دب المشيب برأسه، محنى الظهر، تورم وجهه ومال لونه إلى الاحمرار كمريض كانت يده اليسرى ترتعش بشدة وتشى بارتعاش باقى جسده. فى لحظة ما حاول أن يرفع كوبا من الماء إلى شفتيه، إلا أن تشنج يده لم يساعده، فتخلى عن المحاولة».

هـذه الـتـشـنـجـات أصـابت أيـضـا سـاقه، فى نـفس الجـانب من الجسد. عندما كانت تفاجئه هذه النوبات كان يبادر بالجلوس. كان يمشى وهو يجر قدميه ويلهث ما إن يمشى بضع خطوات أو يصعد بضعة سلالم، حتى إنه قد يفقد معها صوته. فى هجوم فون ستوفونبرج فى راستنبورج، فى شهر يوليو من عام ١٩٤٤. أصيبت أذناه بشدّة، فتأثر توازنه من جرّاء ذلك، وأصبح يصاب كثيرا بالدوّار، وفى الأسابيع الأخيرة أصبحت مشيته السكارى. كان هذا الرجل، المدفون فى قبو على عمق عشرة أمتار فى قلب مدينة محاصرة تصارع حتى آخر بيت فيها، لا يزال الفوهرر، مالك ألمانيا، أو هكذا كان يعتقد هو. قبيل الساعة الثالثة فجرا من يوم ٢٩ أبريل من عام ١٩٤٥، جلس يملى وصيته السياسية، بعد أن تصورها مع جوبيلز وبورمان، فى جلسة بعد العشاء.

«مضت ثلاثون عاما، منذ أن بدأت تقديم خدماتى التطوعية عام ١٩١٤، فى الحرب العالمية الأولى، التى فُرضت على بلادنا. على مدى هذه العقود الثلاثة، لم يكن يحركنى سوى حبى وإخلاصى لشعبى فى كل أفكارى وتصرفاتى وفى كل حياتى. كل ذلك ساعدنى على اتخاذ أصعب القرارات التى يمكن أن تواجه أى إنسان. لقد أفنيت حياتى وجهدى وصحتى خلال هذه العقود الثلاثة».

«ليس صحيحا أننى أو أحد غيرى قد سعينا طواعية إلى الحرب عام ١٩٣٩. لم يرغب فيها أو يخطط لها سوى رجال الدولة من

الأصول اليهودية، أو أولئك الذين يعملون لحساب مصالح اليهود. تقدمت بالعديد من المبادرات لتقليل وتحديد التسليح، بما لا يدع مجالا للأجيال القادمة، لأن تلقى علىّ ملامة الدخول فى هذه الحرب. بالإضافة إلى أننى لم أكن أرغب، بعد معايشتى لأهوال الحرب العالمية الأولى، أن تكون هناك حرب عالمية ثانية ضد إنجلترا أو أمريكا. يمكن أن تمر قرون، إلا أن حطام مدننا وآثارنا الفنية سيفجر الكراهية تجاه المسئول الوحيد: اليهودية العالمية وأعوانها!».

كانت تراودل جونجى قد ترملت منذ أسابيع قليلة، لكنها راحت تكتب على الآلة كلمات هتلر الذى بدأها متلعثما، إلا أنه ما لبث أن تحمّس عندما تقدّم فيها. كان ذلك الرجل المريض المنهار، يلملم شتات نفسه ويعود لبداياته باعتباره ديماجوجيًا فى معسكرات ميونخ فى نهاية الحرب الكبرى. كم بدا بعيدًا عام ١٩١٩، مع ذلك كان يتذكر بمنتهى الدقة منشوره الأول فى مناهضة اليهود: كانت رسالة موجهة لشخص يدعى أدولف جمليخ.

لم يستطع هتلر أن يغالب، على الرغم من كل الظروف، شعوره بالرضا عن نفسه، فقد كانت لخطبه المعادية للسامية نتائج مبهرة، وها هو قد أوفى بوعده الذى قطعه على نفسه، بأن يطرد كل اليهود من ألمانيا، وأن يقضى على سطوتهم السياسية والاقتصادية. مع خريف عمره، تذكر هتلر كارل أى فون مولر، مدرّس التاريخ فى

جامعة ميونخ، الذى نهض فى محاضرته وألقى أولى خطبه المناوئة لليهود، مفاجئا الحاضرين الذين لم يكونوا من المتسولين - مثلما كانت الحال فى فيينا - ولا من العمّال - كما كانت الحال فى حانات ميونخ - وإنما من الأساتذة والطلبة ومن الضباط والعساكر المتعلمين. فى الحقيقة، فى ذلك اليوم، كان قد بدأ مسيرته فى عالم السياسة.

محاضر معاداة السامية

عاد هتلر إلى ميونخ بعد أن شفى من آثار غاز الكلور الذى ألقاه الإنجليز على كتيبة «ليست» فى ١٤ أكتوبر ١٩١٨. لم يكن يعرف له من مستقبل سوى معاودة رسم البطاقات البريدية، فلم يكن يجيد غير ذلك. كان لا يزال على قوّة الجيش. وكان لابد أن يسلّم نفسه لوحدته، وهو ما كان فى نيّته فعلا، بل كان يتمنى أن تمتد خدماته فى الجيش إلى ما لا نهاية، حيث المأكل، والمسكن، والدخل المقبول الذى يفى باحتياجاته المتواضعة. رجع إلى قاعدته فى الخدمة فى ٢٣ نوفمبر ١٩١٨، بعد أن أضاف إلى زيّه السوار الأحمر الذى يميّز الجيش الثورى عن جيش جمهورية بافاريا.

لم يكن هتلر يصدق ما كان يجرى فى ألمانيا عموما، وفى بافاريا خصوصا. فمنذ أن أعلنت ألمانيا وقف إطلاق النار، تداعت الأوضاع السياسية: تنازل القيصر ويليام الثانى عن العرش ناهيا بذلك حكم آل هوهينزوليرن، فلم تجد الأحزاب السياسية أمامها سوى إعلان الجمهورية وتحمل تبعات الهزيمة العسكرية. استوجب على

الجمهورية أن توقّع على وقف إطلاق النار وقبول الاستسلام وإعادة الجيوش إلى أرض الوطن، والأصعب من ذلك، إعادة تنظيم البلاد وتولّى مسئولية تبرير الهزيمة أمام الشعب، بعد أن وقفت جيوشه، قبل شهور قليلة، على أبواب باريس. حاول نفر من اليسار المتطرّف استغلال ظروف الفوضى والمجاعة والبطالة وحالة السخط العام وأعلنوا قيام جمهورية سوفيتية استولت على برلين لمدّة أسبوع، غير أن مجموعة من قدامى المحاربين، لم تلبث أن قضت عليها. لم تكن ردة فعل اليمين بأقل عنفا، إذ حنّ إلى الملكية وعظّم من امتيازاتها وأثار الذعر من الخلايا الثورية، وانطلق من قناعة أن الأحزاب الألمانية هى التى تسببت فى الهزيمة وباعت ألمانيا للإنجليز والفرنسيين، فراحت «طعنة فى الظهر» تجنّد المتطوعين على شكل قوّات خاصة، فى محاولة منها للاستيلاء على الحكم أو السيطرة على الدويلات الألمانية الصغيرة، التى انفصلت منها البلاد مع الهزيمة، أثناء محاولاتها تخفيف الأحمال عن المركب التى توشك على الغرق.

كانت بافاريا إحدى هذه الدويلات التى أعلن قيامها فى ٧ نوفمبر ١٩١٨، كجمهورية ديمقراطية واشتراكية، وذلك أثناء وجود هتلر فى مستشفى باسوولك، تم نفى الملك إلى النمسا وتسلّم كورت إيزنر مقاليد الحكم. كان ذا أصول يهودية كما كان روسى المولد. أخذ هتلر بدوره يراقب كل تلك التطورات الثورية من خلال ورديات

حراسته اليومية لمعسكر أسرى - أولى مهامه بعد عودته للخدمة - وجميعها كانت تؤكد نظريته حول بيع ألمانيا لحكم اليهود. كان شميدت، الشخص الوحيد الذى بقى على قيد الحياة من تلك الكتيبة التى خاضت الحرب، وكان موجداً معه فى ميونخ، ويتذكر عن تلك الأسابيع الأولى من الأحداث أن رفيقه «لم يكن يتكلّم كثيرا عن الثورة، ولكن من الواضح، إنه كان يكرهها».

مع نهاية يناير عام ١٩١٩، عاد الأسرى الذين كانوا فى حماية كتيبة ليست إلى بلادهم وتلقى هتلر الأوامر بفرز ملايين أقنعة الوقاية من الغاز التى استخدمت فى الحرب. ظل أثناء تأدية مهمته الروتينية تلك، على قناعة بمسئولية اليهود عن «طعنة الظهر»، وزاد من تأكيد قناعته أنه بعد اغتيال إيزنر تولى يهودى آخر منصبه، هو توولر، الذى لم يلبث أن أطيح به، وتم إسناد الحكم لحكومة شيوعية أكثر تطرفا، على رأسها يهودى ثالث قادم من روسيا هو أوجين لوفين.

انتهى عمر جمهورية بافاريا الديمقراطية الاشتراكية مع قدوم ربيع ١٩١٩. كان توالى الحكومات قد أدّى إلى فوضى إدارية تسببت، بالإضافة الى مساوئ فترة ما بعد الحرب، فى أن تعانى ميونخ من البطالة والجوع وأن تكون على حافة الهاوية. أدى تزامن الأزمة مع أعمال عنف اليساريين، التى حصدت العديد من الأرواح واستولت على الكثير من الثروات، إلى أن تطلب بعض العائلات المقتدرة مساعدة الجيش النظامى أو الخاص الذى انتشر بألمانيا.

قام أحد هذه الجيوش الخاصة، تحت قيادة الجنرال ريتر فون ريب وبمساعدة بعض القوّات النظامية له، بدخول ميونخ وأطاح بالمقاومة الشيوعية وبدأ عمليات تصفية حسابات خلقت فترة من الرعب الأبيض فاقت فى عنفها فترة الرعب الأحمر.

كانت أيام هتلر، خلال فترة الربيع تلك، تتوالى بين غبار ورتابة فرز أقنعة الغاز وبين الأوبرا التى كان ينفق عليها كل دخله من الجيش. أعلنت كتيبة «ليست» حيادها خلال الأزمة، ولم يتعرض هتلر لأية مضايقات خلالها، لكنه أبتدع لاحقا قصصا حول مطاردات تعرّض لها من قبل بعض قوى الشيوعية. مع نهاية الجمهورية الاشتراكية، عادت كتيبة ليست لتنضم إلى جيش ألمانيا النظامى، بعد أن تطهرت مما علق بها من عناصر شيوعية. وزعم بعض المؤرخين أن هتلر قام بدور استخبارى لصالح السلطات العسكرية الجديدة، وأن تقاريره قادت الى منصة الإعدام رميا بالرصاص بعضا ممن كانوا قديما رفاقه. والحقيقة أنه لا يوجد أى مستند يدعم هذه المزاعم.

فى هذه المرحلة، بدأ مشوار الفوهرر السياسى، سرعان ما تحول لوكيل الاستخبارات العسكرية، التى كانت بمثابة جهاز من جواسيس السياسة تم إنشاؤه من أجل إقصاء نشطاء الشيوعية من الجيش، والذين كانوا يسعون لتشكيل خلايا سوفيتية داخل القوات المسلحة. كان من أولى الخطوات الذى أرادها هتلر فى هذا الوضع

الجديد هى تشكيله، لذا التحق بفصل دراسى بجامعة ميونخ. هناك كان يستمع لمحاضرات رجال الاقتصاد الماركسيين وهم يتحدثون عن تجنب المطامع فى المال العام وعن التأميم من أجل السيطرة على الأنشطة الاقتصادية الأساسية للدولة؛ وهناك بدأ يقارن أفكاره المعادية للسامية مع أساتذة التاريخ والفلسفة، وراحت تتأكد نظرياته، وفى الوقت ذاته، بدأ يبنى نظرياته بعقلانية. حدث، فى إحدى محاضرات الدكتور كارل أى فون ميوللر، أن احتدم جدال بين الأستاذ وأحد الطلبة حول الجنس الألمانى المتفوّق على غيره، وحول طابع اللاوطن والتجارة اللذين يتميّز بهما اليهود. نهض هتلر وطلب الكلمة وأدهش الحاضرين بصلابة قناعاته وحماس وثبات نبرة صوته وقدرته الإقناعية التى ألجمت كل الحضور.

تصادف أن كان من بين الحضور أحد ضباط الاستخبارات الحربية، القائد كارل ماير، الذى انبهر ببلاغته، وسرعان ما رشحه ليحاضر فى معسكر لأسرى حرب من الألمان العائدين من روسيا، ممن كانوا بحاجة لاستعادة انتمائهم لألمانيا، والقضاء بصفة نهائية، على أية عدوى شيوعية قد تكون لحقت بهم، من جرّاء اتصالهم بالثورة الروسية. كان نجاح المحاضر هتلر كبيرا، حتى إنه طلب منه إلقاء ثلاث محاضرات فى اليوم الواحد. بعد انتهاء التدريب، كتب رئيس البعثة تقريرا عن هتلر قال فيه: «السيد هتلر كان محاضرا فريدا، وتعصبه للوطن وطابعه المباشر فى دحض الحجج، يجعل

الحاضرين فى حالة انتباه تام». وضعه فى الجيش، فى تلك الفترة هو لنا غير واضح؛ ربما منصبه كان يعادل الموظف المدنى فى القوات المسلحة؛ لأنه باعتباره عرّيفًا فقد تم تسريحه.

بتزكية من القائد ماير نفسه -الذى توفى فى أحد معسكرات التعذيب النازية فى نهاية الحرب العالمية الثانية - كتب فى ١٦ سبتمبر ١٩١٩، رسالته الشهيرة إلى أدولف جيمليخ، والتى كانت بمثابة وثيقة معادية لليهود، ساعدت الكثير من محاضرى الجيش على التركيز على مسألة السامية.

يستهل هتلر رسالته بنقد العداء العاطفى للسامية. ويحاول أن يضع أسس محددة للتصوّر العدائى الذى يراه منطقيا. فكلمة يهودى لا تصف دينًا ما، وإنما تشير إلى عِرق، يتفوّق على أية جنسية: «لن يظهر باعتباره ألمانيًا من أصل يهودى وإنما باعتباره يهوديًا ألمانيًا». لا يتقبل اليهود أى شىء من الشعب الذى يعيشون بينه سوى اللغة، فتجدهم يلجأون لتكوين مجتمعات منغلقة على نفسها، ترفض المجتمع الذى تعيش فيه وترفض التخلّى عن أى من المزايا التى تتمتع بها، ولذا، فهو عرق غريب؛ وعلى الرغم من ذلك، يتمتعون بنفس امتيازات الألمان. يظل اليهود يرقصون قرونا أمام «عجل الذهب» غير أن اهتمامهم الأساسى ينصب على الثروات المادية، يحقّرون من شأن المشاعر والقيم الروحية والأخلاق التى هى أساس نهضة وعظمة الأمم. وفى بحثهم عن الثروات ـ يواصل

هتلر حديثه ـ ليست عندهم ضمائر ولا يكبح تصميمهم أو يثنيهم عن بحثهم شىء معتمدين على حكام بعض البلاد ليستنزفوا ويمصوا ثروات هذه الشعوب، ويتحولون بذلك لمصاصى دماء شعوبهم. وفى البلدان التى تحكمها الديمقراطية نجدهم ينسحقون أمام سلطة الشعوب ولا يهمهم سوى سلطة المال. إنهم يدمرون الكبرياء الوطنى وقوة الشعوب عن طريق الرأى العام والصحافة التى يتحكمون فيه برأس المال. فالدين، والاشتراكية، والديمقراطية ليست سوى وسيلتهم للوصول إلى السلطة وجنى المال.

بعد أن ينتهى هتلر من وصف اليهود وانحرافاتهم، يتحوّل للبحث عن حلول للإشكالية. فهذا التكوين الخاص لليهود لم يؤد إلا إلى ظهور شعور عاطفى معاد للسامية، مصحوب بموجات من الغضب الشعبى والبغضاء، التى لم تستطع أن تقدّم حلولا. وها هو هتلر يقدّم لنا العلاج الناجع: فالمعاداة العقلية للسامية تقتضى تجريدهم من الامتيازات، التى تميّزهم عن باقى الأجانب وتنتهى بطردهم. هذا يمكن أن تقوم به حكومة قوية، قادرة على أن تعيد للأمة مجدها الأخلاقى والروحى. وهو ما لم يتم عن طريق الأغلبيات، «وإنما فقط بواسطة تدخل قوى من شخصيات وطنية تمتلك قدرات حاكمة وإحساسا عميقا بالمسئولية». أنهى هتلر رسالته وهو يأسف على أن الأمر بيد آخرين من الواقعين تحت تأثير اليهود،

الذين يعملون، بطبيعة الحال، على وأد «حركة معاداة السامية».

فى هذه الرسالة لشهر سبتمبر ١٩١٩، اكتملت أركان نظرية هتلر حول اليهود واحتقارهم للديمقراطية وتطلعهم إلى السلطة الشخصية ـ غير الرحيمة ـ وتأسست مبادئ إعادة بناء ألمانيا. كان فوهرر المستقبل قد بدأ ينطق أولى كلماته.

ففى تلك الأثناء، حدثت واقعتان مهمتان لمستقبله السياسى. ففى باريس، فرض منتصر والحرب الكبرى على ألمانيا اتفاقية سلام بدت كأنها دعوة لحرب أخرى: تستعيد فرنسا الألزاس ولورين اللتين خسرتهما فى حرب ١٨٧٠. طلبت التنازل عن سيليسيا العليا، والسيطرة على رينانيا، ونزع سلاح ألمانيا من المنطقة المحاذية للضفة اليسرى للراين، بعمق خمسين كيلومترا فى اتجاه اليمين. تسعيد بولندا جميع أراضيها التى استولت عليها ألمانيا وممر دانتزيج الذى يقسم بروسيا الشرقية ويثير الاستفزاز بشكل متواصل. تولد دول جديدة مثل تشيكوسلوفاكيا ويوغسلافيا، وهى حبلى بمشاكل عرقية من الأصليين والأقليات فى الجزء الجرمانى. كان لابد أن تعترف ألمانيا، صراحة، بأنها الدولة الوحيدة المسئولة عن اشتعال الحرب، ومن ثم فهى التى ستدفع فاتورة الإصلاح كاملة. وحتى لا تعاودها مطامع التوسع، سيتم نزع سلاحها بتقليل قوة جيشها إلى ١١٥،٠٠٠ جندى، وحل أركان حربها، وتدمير كل طيرانها ومدفعيتها الثقيلة والمتوسطة ومدرعاتها وسفنها، التى تزيد

على ١٠,٠٠٠ طن، هذا بالإضافة إلى التزامها بتسليم كل مجرمى الحرب الذين سوف يطلبهم المنتصرون.

بما أن حكومة فايمار ـ المدينة التى كانت الهيئة التنفيذية والبرلمان يجتمعان بها نظرا لانعدام الأمن السياسى فى برلين ـ قد رفضت تلك البنود، قام المنتصرون بإرسال إنذار أخير ينتهى مع منتصف ليلة ٢٢ يونيو١٩١٩. قبل استئناف القتال. قبل نهاية المهلة بست ساعات، وبعد أن راح الفرنسيون يحددون مجال مدافعهم من أجل استئناف القتال، رضخت ألمانيا ووقعت على صلح فرساى المجحف. زرعت هذه الحماقة السياسية فى ألمانيا بذور الرغبة فى التحرر والثأر، وكلتاهما عملت باعتباره رافعة على طريق صعود أدولف هتلر إلى سدّة الحكم.

تزامن ذلك، مع ميلاد جمهورية فايمار التى سمح دستورها الديكارتى - ٦٠,٠٠٠ صوت ومقعد برلمان - بإنشاء الأحزاب الصغيرة، وأدى خلق ٣٥ نطاقا انتخابيا إلى تقسيم البلاد إلى وحدات أكبر من اللازم. كان هذا يستتبع، وفقا لوسائل الاتصال المتاحة حينها، ألا تكون للناخبين أية علاقة بالمنتخبين. وفى معظم الأحيان لم يكن أحد يعرف من هم، فكان الناخبون يعطون أصواتهم لرقم معيّن من الكثير الذى كانت تعرضه وسائل إعلام السياسية، التى انتشرت بألمانيا مثل انتشار الفطر. كانت حكومة فايمار التى عبرت بالبلاد فترة ما بعد الحرب، تتخبط فى فوضى سياسية عارمة،

خلقت بيئة باتت تنمو فيها يوما بعد يوم فكرة الحاجة إلى «مبعوث من العناية الإلهية». كان مسرح الأحداث يستعد لاستقبال هتلر الذى كان يهم بدخول عالم السياسة رسميا، مع نهاية عام ١٩١٩.

هتلر يفرض سطوته على الحزب

حدث ذلك بطريقة عفوية. صدرت أوامر للنائب هتلر بالتوجه يوم ١٢ سبتمبر لحضور اجتماع حزب صغير: Deutsch Arbiter - Partei، أى «حزب العمّال الألمانى» الذى كان يستخدم حروف الاختصار (DAP) وذلك ليكتب تقريرا عن نشاطاته وتوجهاته السياسية. فى نهاية الاجتماع، الذى كان منعقدا فى إحدى الحانات بحضور واحد وأربعين شخصا، دخل هتلر فى نقاش حاد مع أستاذ كان ينادى بفكرة فصل بافاريا عن ألمانيا وضمها للنمسا. تصاعد غضب هتلر وانفعاله النقاشى إلى عنان السماء، وفى معرض دفاعه عن قدسية ألمانيا العظيمة غير القابلة للانقسام، تفوّقت حماسته باعتباره خطيبًا، على التقنيات الأفضل والمعلومات الأغزر لخصمه، وحصل على تصفيق وتأييد الحاضرين.

جاء لتهنئته، بعد نهاية المناقشة أنطون دريكسلر، مؤسس الحزب. كان عامل تعدين طويل القامة، غير رشيق، يعانى من قصر النظر. قدّم له مطبوعة حول تاريخ وإيديولوچية الحزب. لم يعره هتلر أى اهتمام، حسب اعترافه، وعاد لمقر إقامته منتشيا من السعادة: «عرفت كيف أتكلم! أنا خطيب! لا أستطيع أن أتمالك

نفسي من السعادة!».

تسلم بعدها رسالة تفيد تقييده، بصفة مؤقتة، باعتبره عضوًا في (DAP) وتدعوه لحضور اجتماع، حيث مجلس إدارة الحزب، أربعة أشخاص، وكان جدول أعماله يتضمن قراءة البريد - ثلاث رسائل - والتصديق على رصيد الخزينة - ٧ ماركات و٥٠ بفنجا -. بدا له الأمر كتجمع أصدقاء وليس حزبا، فقرّر تغيير الوضع على الرغم من بعض المقاومة السلمية من جانب الأعضاء الذين كان يبلغ عددهم خمسة وخمسين عضوا بمن فيهم هتلر ذاته، غير أنها لم تثنه عن عزمه. بدأ يكتب بخط يده دعوات المحافل ويضع نفسه باعتباره نجم لأى تجمع سياسى. حضر اجتماعه الأول ثمانية أشخاص، «ثم أخذ العدد في التزايد بعد ذلك: ١١ شخصا، ١٣، ١٧، ثم ٢٣،فـ ٣٤....». كان يحدّث الحاضرين عن الهزيمة وعن «طعنة الظهر» وقضية اليهود ومشكلة الشيوعية. ثم لم يلبث أن تجرأ وأعلن عن اجتماع سياسى، بإعلان في الصحافة واستجاب له امائة وثلاثون شخصا، ملأوا القاعة وأعجبوا جميعا بخطاب هتلر وقدموا لخزينة الحزب المتواضعة ٣٠٠ مارك. بعد ذلك، كانت الاجتماعات تعقد مرّتين فى كل شهر، ويتم نسخ الدعوات على الآلة الكتابة وأصبح توزيعها يستهدف مئات الحضور الذين كانوا يدفعون ثمن تذاكر دخولهم، فكانوا مصدر الدخل الوحيد لذلك الحزب الصغير.

فى تلك الفترة، بدأ هتلر يجمع حوله بطانته الأولى من

الأصدقاء والمعاونين: القائد إرنست روهم (الذى أصبح رئيسه العسكرى وأحد المعجبين به)، وضباط الصف بيجيل وتشوسلر، والملازم رودولف هيس، والصحفى إيسير، والمؤلف المسرحى إيكار، والجاسوس شيبنر ذو الأصل الروسى، وطالب العمارة الأستونى ألفرد روزنبرج... إلخ، جميعهم كان لهم تأثير قوى على هتلر وأسهموا فى إضفاء الأهمية على الـ DAP، غير أن الفضل يرجع إلى الكاتب إيكارت الذى حول هتلر إلى رجل خبير محنك، منقحا أسلوبه الأدبى وخطبه، وقام بتعليمه بأصول التعامل: بداية من كيفية تقبيل أيادى السيّدات، حتى التعامل مع أطقم الموائد. فى هذه الفترة كذلك - بدايات ١٩٢٠ - بدأ هتلر يتلقى بعض الدعوات المهمة وأكثر اكتشاف وجده على موائد الأغنياء كان الكافيار، الذى أحبه كثيرا حتى أواخر أيامه. غير أن متعته الكبرى لم تبرح مائدة السياسة، التى استطاع أن يفرض عليها أسلوبه فى الإلقاء وشروحه وأفكاره: فى ٢٤ فبراير من عام ١٩٢٠ تقدم الـ DAP ببرنامجه الشهير الذى ضم «خمسًا وعشرين نقطة»، تمت الموافقة عليها بفضل خطبة هتلر أمام ألفى شخص.

اقترح أن يتوحَّد جميع الألمان، وأن يتم إلغاء معاهدة فرساى، والعمل على إيجاد أراض للتوسع، واشترط نقاء الدم للحصول على الجنسية الألمانية، وطرد غير الألمان، وإيجاد فرص عمل للجميع، والمساواة فى الحقوق والواجبات، وإلغاء فوائد رؤوس الأموال،

وتجريم الحرب، وتأميم الشركات الكبرى وتوزيع أرباح الصناعة وزيادة معاشات التقاعد، ودعم الطبقة المتوسطة، والإصلاح الزراعى، وإعادة تنظيم التعليم، وتحسين الخدمات الصحية، وإنشاء جيش وطنى، وإصلاح الصحافة، حرية ممارسة الشعائر الدينية ومركزية سلطة الدولة... باختصار، كانت هواجسه الدائمة: إنهاء تبعات الهزيمة، القضاء على وجود اليهود فى ألمانيا، التوسع نحو الشرق، وحدة كل الأراضى التى يعيش عليها الألمان، إعادة هيكلة الجيش، إنشاء دولة قوية، وحزمة إجراءات موروثة عن الاشتراكية، إلا أنها ستختفى من فكره، شيئا فشيئا.

كتب هتلر بسعادة فى الماين كامبف:

«عندما انتهيت من عرض الخمس والعشرين نقطة المقترحة، شعرت بأن القاعة التى كانت تمتلئ بأبناء الوطن، قد توافقت على قناعة جديدة، وعلى إيمان جديد وعلى إرادة جديدة. لقد أوقدت شعلة، خرج من وهجها سيف كانت مهمته استعادة حرية الألمانى سيجفريدو(١) وبعث الحياة لدى الجرمانيين».

فى الوقت الذى كان فيه هتلر يطير مرتفعا على أجنحة القدر، كانت ألمانيا تغوص فى وحل أسوأ أيامها بعد الهزيمة. فى ١٩١٩. بلغ انخفاض القدرة الشرائية للمارك ١,١٠٠ فى المائة، وبدأت

---

(١) سيجفريدو: اسم لأحد أبطال الأدب والأساطير الجيرمانية.

مطالبات المنتصرين لألمانيا بتنفيذ أجحف بنود الاتفاق، منها مثلا: تسليم عدد ٨٩٥ «مجرم حرب» الذى من بينهم كل الجنرالات والأميرالايات، كل قادة الغواصات، أحد عشر أميرا وكبار ساسة ودبلوماسى القيصر ويليام الثانى. كانت حكومة ألمانيا قد تعهدت أمام اللجنة التنفيذية، بالتزامها بتنفيذ بنود الاتفاقية، على الرغم من كون بعضها - مثل هذا - صعبة التنفيذ، كما سعت لإرضاء المنتصرين فى مجالات أخرى: فى ١٠ أبريل، تم تسريح ستين ألفا من الجنود، وقبل نهاية العام، خرج من الجيش حوالى ثلاثمائة ألف جندى، إلا أن كل ذلك كان يتم وسط قلاقل سياسية بالغة فى داخل البلاد وخارجها.

فى ١٣ مارس ١٩٢٠، أدى السخط العسكرى إلى انقلاب كاب الذى وقع كما يلى: طلبت الحكومة حل لواء، أنشئ، بعد الحرب بواسطة ضابط بحرى يدعى هيرمان إيهرهاردت، لكن قائد المنطقة العسكرية رفض إعطاء الأمر، فخرج، فجر يوم ١٣ مارس، جنود إيهرهاردت - كانوا بالمناسبة، يحملون رسم صليب معقوف على زيهم- ودخلوا برلين وقدموا عرضا عسكريا أمام باب براندينبورج تحت بصر الجنرال لودندورف، أحد أكفأ جنرالات ألمانيا وأكثرهم وطنية وتعصبا. فما كان من أعضاء الحكومة إلا أن هربوا من برلين، فقام قادة الانقلاب بتسليم السلطة إلى وزير من بروسيا هو وولفجانج كاب، الذى كان أول قراراته إلغاء اتفاقية فرساى وإسقاط

دستور فايمار.

لم تدم تلك المغامرة المتهورة أكثر من أربعة أيام: لم ينضم الجيش لقادة الانقلاب، ولم تمنحهم البنوك أية اعتمادات وأعلن العمّال الإضراب العام وسيطروا على الوضع فى مناطق كثيرة مثل منطقة روهر الصناعية. كانت التبعات خطيرة: تقسيم أكثر لألمانيا، مواجهات جديدة بين العسكريين، عمليات شغب قوية فى المناطق التى يسيطر عليها الشيوعيون الذين مولوا الإضراب العام الذى تسبّب بدوره فى أزمة دولية جديدة: بعد أن استعادت الحكومة سيطرتها على منطقة روهر الصناعية، طلبت من اللجنة التنفيذية المسئولة عن تنفيذ اتفاقية فرساى السماح لها بإرسال الجيش إلى تلك المنطقة منزوعة السلاح. وكما تأخر وصول الرد وكان الوضع متأزمًا، اضطر الجنود لفرض دون انتظار الإذن، غير أن فرنسا انتهزت ذلك الخرق لاتفاقية فرساى وقامت باحتلال مدينتين مهمتين فى المنطقة: فرانكفورت ودارمستادت.

رفعت هذه الأزمة هتلر لدرجة أعلى، فلعب دورا مهمًا فى تغيير حكومة بافاريا. ونتيجة لانقلاب كاب، قام العديد من القوى السياسية باستخدام القوة فى طرد الحكومة الاشتراكية وتنصيب أحد الوطنيين المحافظين، جوستاف فون كاهر، والذى احتفظ بمنصبه حتى بعد عودة الأمور إلى نصابها. فى تلك الفترة كان هتلر مسافرا إلى برلين، بمرافقة ناصحه الأمين إيكارت. كانت مغامرة

للذاكرة: سافر لأول مرّة بالطائرة، وتعرّف إلى الجنرال لودندورف، وأقام فى ضيافة الكونت فون ريفنتلو، ودخل أكثر أوساط بروسيا وطنية ومعاداة للسامية.

عندما عاد إلى ميونخ، وجد فى انتظاره رسالة تسريحه من الجيش. لم يعد لديه أى دخل من الجيش، ولا وجبات ولا مسكن مؤمّن. فقام باستئجار غرفة شديدة التواضع وكرّس حياته للعيش من وإلى السياسة، فكان يلقى خطبتى الشهر فى اجتماعات الحزب الذى راح يستسلم له مع مرور الوقت.

بدأ طالب الرسم الفاشل يكتسب بمنتهى السرعة مهارات الخطابة، والدعاية، والديماجوجية، والمانوية، والسيطرة على الجماهير. فكان يتعمد الوصول متأخرا، حتى يتطلّع الجميع لحضوره، ويبدأ خطبه بصوت خفيض، بحيث لا يسمعه سوى جلوس الصف الأول، فيتوق جلوس الصفوف الخلفية لسماع كلماته، ثم لا يلبث أن يهز بصوته الجهورى جنبات القاعة حتى يكاد يصيب الحاضرين بالصمم. حرص على أن يبدو متباعدا وغامضا ومحاطا بقوة، التى كان يمثلها مجموعة من الحرّاس الشخصيين الذين يعملون تحت شعار الصليب المعقوف. كان يستمتع بوجود الكثير من أعدائه فى خطبه، بالذات الشيوعيين، حتى يستفزهم وينهى خطبته بصراع وحشى يقوم فيها رجال أمنه بكيل الضربات لهم. فكانت تلك الأخبار تصل إلى الصحافة وتجذب الوطنيين ومعاديو السامية

حتى إنه، ما بين ربيع عام ١٩٢٠ ونهايته، قامت شرطة ميونخ بحصر حضور اجتماعات هتلر بـ ١٨٠٠ شخص فى الاجتماع الواحد. كان يكرّر ويكرر الأفكار نفسها حتى تثبت وتستقر، بما لا يدع مجالا لأى شك، فى وجدان كل من يستمع إليه. كان يستدر تعاطفهم حتى يثيرهم وينتزع تصفيقهم وهتافهم بحياته وهو يحدّثهم عن العجز، وعن مواجهة العدو الخارجى الذى يسيطر على أقدار ألمانيا، وعن النعيم الذى يرفل فيه أغنياء اليهود فى حين يعانى الشعب من الجوع، وعن كراهية البلشفية الذين كانوا يرهقون الاقتصاد بالإضرابات، وعن الانتقام من الاشتراكيين المسئولين عن االطعنة فى الظهر».

لم يكن هناك أى ادعاء أو خدعة تبدو له مرفوضة طالما كانت تخدم أهدافه، فعندما كان يخطب كان يتحدث بنبرة أسى تعبر عن المآسى التي يعانيها الشعب: البطالة، الجوع، انخفاض القوة الشرائية، اغتصاب النساء الألمانيات فى الأراضى التى يحتلها الفرنسيون، إذلال العسكريين الأكفاء بالعوز بعد تسريحهم. كان يتحدث عن هذه المصائب - التى يعرف الحضور بعضها والبعض الآخر كان من ابتداعه - والمآسى حتى يجلجل صوته الحديدى؛ بعدها مباشرة يشير بأصابع الاتهام إلى المسئولين عنها: حكومة برلين الاشتراكية واليهود والشيوعيين، كان الشجار ينشأ عادة عند هذه المرحلة، إذا ما وُجِدَ بالاجتماع أحد ممن كان يتهمهم. بعد

انتهاء الشجار وتطهير القاعة من أعداء الوطن كان هتلر، بصوته الرنّان، يأخذ حضوره ويطير بهم إلى ألمانيا المستقبل، فيرونها قوية تخشاها الأمم الأخرى، ألمانيا خالية من اليهود ومن الشيوعيين ومن فسدة الحكومة الاشتراكية؛ توفر فرص العمل للجميع ويعيش فيها الشعب فى بيوت منارة فى أحياء جيّدة التهوية تحيط بها الحدائق الغنّاء. إنها أفكار شبابه الاجتماعية القديمة حول إعادة تخطيط أحياء العمّال فى لينز وفيينا، ها قد خرجت الآن، برّاقة لامعة ناضجة، جديدة تنبع من المدينة الفاضلة، فكانت تصيب حضور العمّال بالقشعريرة وتأسر وجدانهم. لم يكن ليكتفى بذلك، فكان يدوس على جرح التعليم، فيعد بمدارس لكل أبناء الوطن ومسارح وعروض أوبرا ومعارض فنية للجميع.

مع منتصف عام ١٩٢٠. كانت قبضته قد سيطرت كلية على الحزب، حتى إنه أعاد تسميته حزب العمّال الألمانى الوطنى الاشتراكى واستخدم الرموز (NSDAP) وأصبح شعاره الصليب المعقوف الذى يعكس غموض شعار القس تيودوريش فون هاجن الذى طالما رآه فى طفولته، وكذا ذكرياته مع مجلة أوستارا – العنصرية والمناهضة للشيوعية والتى تهتم بالغيبيات– وأعجبته عندما كان يقيم فى فيينا؛ وعمل على التوافق مع العسكريين غير المتوافقين مع حكومة برلين.

ثبت دليل سيطرة هتلر على الحزب فى ٣ فبراير ١٩٢١، حيث كان

هتلر بصدد الإعداد لاجتماع ضخم ليسجل اعتراضه على حجم التعويضات التى كان المنتصرون على وشك أن يفرضوها على ألمانيا. كان قد استقر على سيرك كرون كمقر لعقد الاجتماع، وخلال يوم واحد، تمكن هتلر من كتابة اللافتات وطباعة المنشورات التى تم توزيعها فى جميع أنحاء المدينة. لأول مرّة ظهر الصليب المعقوف شعارًا للحزب فى هذه المنشورات. كان النجاح غير مسبوق: حضر الاجتماع سبعة آلاف شخص هتفوا جميعا باسم هتلر وأنهوا اجتماعهم معه بمشاركته إنشاد النشيد الوطنى (Deutschland uber Alles)، بعد مداخلة استمرت ١٥٠ دقيقة.

أوضح هتلر للجنة إدارة الحزب أنه قد صار هو الحزب. فتح بذلك أبواب الصراع . كان دريكسلر لا يزال يعتبر هتلر مصدر دخله الأساسى، لكنه لم يكن راضيا عن تدهور الوزن النسبى للعمّال بين أعضاء الحزب، إذ لم يكن يتعدى الـ٢٥ بالمائة مع بدايات ١٩٢١؛ من ناحية أخرى، لم يكن موافقا على فرض هتلر باستمرار لإرادته ولا على تصرفاته المنفردة باسم الحزب. لم يكن قادرا على مواجهة هتلر، فسعى إلى تهميشه عن طريق إدماج الحزب مع مجموعات سياسية أخرى ذات إيديولوجيات شبيهة، ولها مقرّات فى برلين بهدف أن يسعوا فيما بينهم للحصول على تمثيل برلمانى فى الرايخستاج.

ابتعد هتلر عن الحزب فى ربيع ١٩٢١، وانتقل للعيش فى برلين

فى شهر يونيو وبدأ فى إلقاء بعض الخطب، إلا أنه لم يلبث أن عاد إلى ميونخ فى ١١ يوليو، ليعلن استقالته من الحزب.

وجد مجلس إدارة الحزب نفسه أمام تحد يفوق كل قدراته. وزادت الأمور سوءا، إذ بمجرّد أن عُرف خبر استقالة هتلر، تواترت على مقر الحزب استقالات الكثير من الأعضاء، وبدا للجميع أنه بدون خطب هتلر والدخل الذى كانت تدره تذاكر الدخول إليها، كان الحزب سيتقهقر إلى المربع صفر، الذى كان قد انتشله منه الخطيب المفوّه.

سارع المؤلف إيكارت لمساعدة إدارة الحزب وعرض خدماته للتوسط لإقناع هتلر بأن يتراجع عن استقالته: بطبيعة الحال، سيطلب هتلر إجراء بعض التعديلات على أداء الحزب، وأنا لن أتدخل فى الأزمة ما لم تكن لديكم النية للموافقة عليها. استغرق إيكارت يوما لكى يعود برد هتلر. فى هذه الأثناء تواصل نزيف مئات من الاستقالات الجماعية. عندما أخبرهم الكاتب بأن هتلر مستعد للعودة، تنفس أعضاء المجلس الصعداء. لم يكن يطلب سوى رئاسة الحزب، ببعض الصلاحيات الديكتاتورية، وطبعا اضطرت اللجنة إلى الموافقة، بعد أن دخلوا معه فى تلك الحارة المسدودة.

دامت الأزمة بضعة أيام. فتحت بعض الصحف باب الجدل بين مؤيدى هتلر ومؤيدى دريكسلر، وكانت ضربة النهاية لهتلر يوم ٢٩ يوليو. فى ذلك اليوم كان دريكسلر قد دعى لاجتماع فى حانة

يوليو. فى ذلك اليوم كان دريكسلر قد دعى لاجتماع فى حانة ستيرنبيكر حضره نحو ستة من الأعضاء، فى نفس الوقت، دعى هتلر لاجتماع فى قاعة أخرى من نفس الحانة، حضره نحو خمسمائة وأربعة وأربعين شخصا. وكانت أصوات التصفيق تتجاوز حدود القاعة لتصل إلى اجتماع دريكسلر الذى كان يتابع، من موقعه ذاك، خطبة هتلر الذى طلب أن يظل دريكسلر رئيسا شرفيا للنادى، وأن يحظر اندماج الحزب مع أية أحزاب أخرى (فمن يريد أن يقف إلى جوار الـ (NSDAP)، لا بد أن ينصهر فيه)، تثبيت ميونخ باعتباره مقرًا رسميًا للحزب، وبالطبع رئاسة الحزب بصلاحيات ديكتاتورية. تمت الموافقة على طلباته بأخذ أصوات الأغلبية، فرفع الجميع أيديهم، ما عدا شخص واحد: حصل هتلر على حزبه الذى لم يعد مجرّد تجمع سياسى: فى نهاية ١٩٢١. وبلغ عدد أعضائه فى ميونخ فقط ٤٥٠٠. زاد إلى ٦٠٠٠ شخص فى جميع أنحاء ألمانيا. لم يعد وجود دريكسلر سوى شكل ديكورى، وسرعان ما تم تهميشه، ثم نسيانه فى النهاية. فى فترة الصراع على السلطة، كان دريكسلر يقول: إن هتلر اغتصب الحزب منه، وعندما صعد الحزب إلى الحكم، واصل انتقاده بصورة حصيفة. توفى عام ١٩٤٢. فى أوج ازدهار هتلر، ربما وهو يحلم بأنه كان من الممكن أن يكون هو الفوهرر.

تأسيس الحزب النازى

مع اتساع قاعدة الحزب، ازدادت حدّة طابع العنف الذى لازمه. مع خريف ١٩٢١. دخل أعضاء الحزب فى مشاجرات ضد عدد من الأحزاب الأخرى: فى البداية ضد أعضاء اجتماع للمستقلين البافاريين، وهو الشجار الذى تم فيه إلقاء القبض على هتلر. تلت ذلك مشاجرة أخرى ضد الشيوعيين يوم ٥ نوفمبر فى حانة هوفبراوهاوس، وقد ذكرها هتلر فى الماين كامبف على أنها ملحمة، وكان لها تأثير كبير على مسيرة الحزب النازى، وعليها تم إنشاء كتيبة العاصفة، والتى اشتهرت بحروفها المختصرة SA أو أس أى؛ وسرعان ما تحوّلت هذه إلى ما يشبه الجناح المسلّح للحزب، حسب التصوّر الذى وضعه ورسمه لها القائد روم.

بعد مرور ثلاثة أشهر، تحديدا فى ٢٤ يناير ١٩٢٢. وبمناسبة مؤتمر الحزب الأوّل، تم استعراض الكتائب العسكرية الست التى أصبحت تتبع الحزب قبل أن يتم توحيد زيّها. بعد عدة شهور وصل قوام هذه الكتائب، شبه العسكرية، إلى نحو ألف عضو مدرّبين، ويرتدون زيا موحدا: سروالا أسود وقميصا شبه بنى اللون، وقبعة عسكرية من نفس اللون. بدأ الحزب يظهر بقوة على الساحة ويلفت النظر، وبدأ هتلر يجمع حوله رفقاءه الذين كوّن معهم الرايخ الثالث: ستراسر، وسترايخر، وهانز فرانك والذين انضموا لسابقيهم: هيس، وروزينبيرج، وروم، وغيرهم، وإلى لاحقيهم: جورينج، وهيملر، ونوراث. أو بمعنى أصح: الهيئة العليا النازية.

فى تلك الفترة، كانت أمواج بحر الأزمات تتناوب على مصير ألمانيا. فمنتصرو الحرب العالمية الأولى، بناء على بنود اتفاقية فرساى، لم يكتفوا فقط بالمطالبة بتقليص جيش البلاد المعروف باسم رايخسفيهر، إلى الأعداد المتفق عليها، وإنما تجاوزوا ذلك إلى طلب حل الميليشيات المسلّحة التى كانت تنتشر فى أنحاء البلاد. استجاب الرئيس إيبرت وأصدر قراره بحلها، ليس فقط فى ألمانيا وإنما فى بافاريا أيضًا، غير أن بافاريا، اعتمدت على استقلالها ورفضت تنفيذ القرار وتحوّلت بذلك إلى ملاذ للقوى الوطنية والعسكرية الألمانية، التى كان يمثلها المشير لودندورف. حاول هتلر استقطابهم ونجح فى ذلك نسبيا. لم تكن علاقته جيّدة مع لودندورف، على الرغم من تعاون كل منهما مع الآخر من أجل تحقيق أهدافهما. بيد أن الأمر لم يدم طويلا على هذا النحو، إذ تواصلت الضغوط الفرنسية ونجحت فى دفع الرئيس إيبرت إلى حل ميليشيات بافاريا المسلّحة، مما تسبب فى أزمة حكومية خطيرة فى ميونخ، أعطت المزيد من الحرية لتحركات هتلر.

فى ١٥ أبريل ١٩٢٢. تم توقيع اتفاقية تاريخية كان لها أثر كبير فى السنوات التالية، ألا وهى: اتفاقية رابايو. وقعت كل من روسيا وألمانيا على معاهدة لاستئناف علاقتهما الدبلوماسية، متخلين عن أية نزاعات بين الطرفين. وأصبحت اتفاقية رابايو هى حجر الزاوية الذى سيدعم تعافى ألمانيا فى السنوات التالية، ولكن فى ربيع عام ١٩٢٢. لم يكن فى مقدور أحد أن يرى ذلك. فتحمّل صاحبها، وزير الخارجية والتر راثينو، توبيخ رئيسه، وانتقاد كل من اليمين والجيش

والنازية. وقيل إن جذور راثينو اليهودية هى التى جعلته يبيع ألمانيا ليهود موسكو الشيوعيين. ثم زايد عليه روزنبيرج بمقولة: إن الرأسمالية اليهودية والشيوعية اليهودية وجهان لعملة واحدة.

وبينما انشغل الألمان بهذه التطورات، دخل هتلر السجن نتيجة الشجار الذى خاضه فى العام السابق ضد المستقلين البافاريين. ظل فى السجن من ٢٤ يونيو حتى ٢٧ يوليو من عام ١٩٢٢. وفى اليوم نفسه الذى دخل فيه هتلر إلى السجن تم اغتيال الوزير راثينو على يد اثنين من قدامى العسكريين الوطنيين. هزّت حادثة الاغتيال البلاد بأكملها، واستطاعت حكومة برلين أن تستصدر قرارا من الرايخستاج بحل جميع التنظيمات المتطرّفة العنيفة، وكان من بينها (VSDAP). ولكن بافاريا رفضت تنفيذ القرار مستندة إلى استقلاليتها. أصبح اسم هتلر معروفا وسط الشعب الألمانى، وبدأ جانب وجهه الخطر فى الظهور على السطح.

وكان أوّل من تجرّع وتذوق من كأس خطورة هتلر، هم سكّان دوقية كوبورج، إذ كانت الدوقية مع حلول الخريف تقيم احتفالا رسميا بمناسبة اختيار سكانها الانضمام إلى بافاريا من خلال الاستفتاء الشعبى الذى نظمته. ودعت سلطات الدوقية العديد من زعماء القوى السياسية فى بافاريا، ومن بينهم هتلر بطبيعة الحال. استعرض (VSDAP) قوته باستئجار قطار كامل لنقل ٨٠٠ عضو من كتائب الأس أى، ترافقهم أوركسترا موسيقية، وقد حملوا عشرات

الأعلام ونزلوا لتقديم مسيرة عسكرية. تقدمت المسيرة وسط استهجان الجمهور وردود فعل عنيفة من جانب ذوى القمصان البنية مما أثّر على روح الاحتفال وألقى عليها بظلال من الفوضى عمّت أرجاء المدينة. حاول مسئولو السكّة الحديد منع عودة القطار إلى ميونخ، لكن تهديدات هؤلاء الفتوّات وبطشهم، جعلت القطار يغادر محطة كوبورج فى موعده تماما - جاء فى رواية هتلر المتفاخرة -.

تزامنت مع ذلك أحداث أخرى فى إيطاليا: المسيرة إلى روما[١]، فى يوم ٢٢ أكتوبر ١٩٢٢. وعلى الرغم من التحفظات التى ابدتها القوى الوطنية الألمانية على إيطاليا، إذ كانوا يعتبرونها عدوا لألمانيا باعتبار ما حدث فى الحرب الكبرى، وما كان أيضا من ضمها لولاية جنوب تيرول التى يقطنها غالبية ألمانية، إلا أنهم اعتبروا الحركة الفاشية نموذجا يحتذى به. فى ٣ نوفمبر، سُمعت، لأول مرّة فى اجتماع (NSDAP) العبارة التالية: «إن إنجاز هؤلاء الرجال الشجعان فى إيطاليا، يمكن أن يتم هنا». لقد ظهر فى بافاريا، موسولينى الألمان: أدولف هتلر.

---

(١) المسيرة إلى روما (Marcia su Roma): هى مسيرة حدثت خلال أكتوبر ١٩٢٢، وصل بها الديكتاتور بينيتو موسولينى زعيم الحزب الوطنى الفاشى إلى السلطة فى مملكة إيطاليا، بعد أن حشد مناصريه على مداخل العاصمة. رضخ الملك فيكتور عمانويل الثالث للتهديد الفاشى، فأقال رئيس الوزراء، ودعا موسولينى للعودة إلى روما لتشكيل الحكومة.

في تلك الفترة، كانت تحركات هتلر تتم في أماكن متواضعة، يعيش في نزل متواضع، وملابسه ليست ملفتة للنظر. لم يكن له من دخل سوى ما يجنيه من المحاضرات التي يلقيها بعيدا عن الحزب، أو من تبرعات أتباعه المتحمسين له، خاصة من الجنس الناعم، الذي كان له عليها تأثير بالغ. كانت عزوبيته تجذب النساء إليه، وغموضه وشعبيته المتنامية ونظراته الملهمة مثار اهتمامهن. يقول المؤرخون عنه في تلك الفترة إنه كان متعدد العلاقات العاطفية مع معارفه من النساء، غير أن طابع الحرص كان يغلف تلك العلاقات وما كان ليسمح بأن تكون أي منها مجالا لأي جدل. مع ذلك، هناك أسماء حُفظت لحبيبات حقيقيات أو مرشحات لذلك، تولى المؤرخ دافيد لويس جمعها وسردها في كتابه (الحياة السرية لأدولف هتلر): روز إيدلشتين، وهي من أصل يهودي، واختفت في فرنسا عام ١٩٤٠. چيني هوج، التي قطعت علاقتها به، بعد أن تحوّلت ممارسات هتلر الجنسية معها إلى نوع من السادية. إليانورا باور، ساقية طيبة، يقال إن هتلر أنجب منها صبيا، تكفل به الحزب بعد أن رفضه الأب. إيرنا، قريبة صديقه والمدافع عنه هانفستاينجل، والتي استسلمت لسحر السياسي الناشئ.

لابد أنه كانت له شهرة في الجاذبية، حيث كتبت عنه جريدة ميونخ بوست في عددها الصادر ٣ أبريل ١٩٢٣: «إن لهتلر جاذبية خاصة، تدفع أجمل وأغنى النساء لأن يلقين بأنفسهن تحت قدميه».

عُرفت عنه بعد ذلك، صداقاته لزوجات أصدقائه الجدد من الأثرياء مثل إلسا بروكمان: زوجة أحد الناشرين المهمين، وهيلين بشتاين: زوجة صانع بيانو شهير، وهيلين هانفستاينجل: زوجة تاجر التحف الشهير، وجيرترود فون سايدليتس: زوجة أحد رجال الصناعة، وكوسيما ووينيفريد واجنر: زوجة وكنّة المؤلف الموسيقى المعروف، والكونتيسة ريفترو. كانت تبرعاتهن سخية، وساعدنه على الاندماج وسط المجتمع الراقى، وعرُف عنهن حمايتهن له فى أوقات الشدّة. فى هذه الفترة، لم يكن هتلر يتعلّم بسرعة نظريات ومهارات السياسة فحسب، وإنما كان يكتسب أيضا العادات الاجتماعية وكل الحيل التى تخوّل له الحصول على المال. كان (NSDAP) يحتاج لمبالغ كبيرة من أجل تدريب وتجهيز ودفع أجرة أعضاء الأس أى، وكانت تذاكر دخول خطب هتلر أقل من أن تفى بكل تلك المتطلبات.

غير أن الضائقة المالية التى كان يعانيها هتلر وحزبه لم تكن لتقارن بأزمة ألمانيا الاقتصادية. بدأت ألمانيا عام ١٩٢٣ بأوّل مشاكل حكومة برلين، فقد عجزت عن تسليم فرنسا مائة ألف عامود كهرباء كانت قد تعاقدت عليها، وقد مضى عام على تاريخ التسليم، وعجزت الحكومة عن الوفاء بسبب نقص الموارد. بطبيعة الحال، كانت فرنسا تنتظر بفارغ الصبر تلك الفرصة لترفع شكواها إلى لجنة التعويضات، وكان ذلك فى ٩ يناير ١٩٢٣. فى اليوم الحادى عشر من الشهر نفسه، دخلت ست فرق فرنسية وبلچيكية

المنطقة الصناعية بروهر، التى كانت بمثابة العمود الفقرى الذى يحرّك ألمانيا، وكانت السيطرة عليها تعنى فصلها، إن لم تكن تعنى تفكيك الإمبراطورية التى بناها بسمارك فى القرن السابق. عم الغضب وشعور الهزيمة كل أنحاء ألمانيا. أعطى المستشار كونو تعليماته لسلطات روهر وسكانها، بمقاومة الاحتلال الفرنسى بالطريقة السلبية: لا يجب أن يتم إنجاز أى عمل من شأنه أن يفيد فرنسا، لا بد أن تتوقف عجلة الإنتاج بالمنطقة الصناعية برمتها. وقد كان. فلم تجن فرنسا أية مكاسب من تلك الكارثة الاقتصادية، وحكمت على سكان روهر بالبطالة والجوع والفاقة، حتى إن نسبة وفيات المواليد تضاعفت إلى عشرة أمثالها بتلك المنطقة. نتج عن تلك المقاومة السلبية أقصى درجات التضخم التى عرفها التاريخ: كان الدولار يساوى ١٦,٠٠٠ مارك فى فبراير، وفى سبتمبر ١٥٠ مليون مارك، وفى نوفمبر ١٣٠ مليون مارك. كان سعر برميل الجعة ١٠ آلاف مليون مارك، والخروج للغذاء، كان يستتبع حمل جوال كبير من النقود، اللهم إن كان أحدهم يمتلك ماركات ذهبية أو عملات صعبة. لم يكن الورق يساوى شيئا وكانت العملات النقدية تتضاءل من حيث الحجم وسوء الطباعة وتتضخم من حيث القيمة. فى ظل تلك الظروف، كانت كل الأنشطة الاقتصادية فى حكم المستحيل.

كان رد فعل هتلر إزاء هذا الاحتلال الفرنسى، غامضا. هتف

ضد الاحتلال، لكنه لم ينضم للمظاهرات الوطنية التى عمّت أنحاء البلاد فى تلك الفترة. كان يرى أنه من الأجدى تحميل المسئولية على حكومة برلين وضرورة التأكيد على عدم جدوى المقاومة السلبية. أثار رد فعله الشكوك وسط بعض الدوائر، واتهمه الكثيرون صراحة، بالعمالة للفرنسيين. لكن ذلك لم يثبت، بل إنه رفع عدة دعاوى سب وقذف وكسبها جميعها. أدى رد الفعل المداهن هذا إلى أن يرى مناوئو هتلر أن نجاحه السياسى جاء عن غير استحقاق، لكن الصواب لا يمكن أن يوافق هذا الرأى، فأعضاء حزبه، (NSDAP) قد بلغوا ستة وعشرين ألف عضو وقتها، وأصبح قوام كتائب الأس أى ١٨٠٠ رجل مدرب موحدى الزى.

فى تلك الشهور، روّج النازيون ما عرف بالـ: (Deutsche Tage) أو أيام ألمانيا التى اتخذت من نموذج كوبرج مثالا. فقد كانوا يوفدون أعدادا كبيرة من كتائب الأس أى إلى المدن البافارية، يقدّمون عرضا عسكريا مساء السبت بالأعلام والموسيقى العسكرية، فيثيرون حماسة الجماهير ويبثون فيهم الرهبة ولا يتوانون عن الرد بعنف على أى نقد أو سباب. فى المساء، كانوا يقومون بمسيرة أخرى بالمشاعل ينشدون خلالها الأغانى الوطنية. أما صباح الأحد - قبل القداس- فكانوا يستأنفون المسيرة، وبعد الظهيرة تنظم الخطب السياسية التى كان يلقيها رجال السلطات المحلية أو هتلر نفسه. كان من أنجح تلك الأيام يوم نورمبرج، فى ٢ سبتمبر ١٩٢٣.

عندما جمع هتلر فى ستة تجمعات أكثر من مائة ألف مؤيد.

كانت هذه النجاحات إلى جانب الفوضى الاقتصادية والسياسية، كافية لإقناع هتلر بأن الوقت قد حان كى يسير فى اتجاه برلين. مع خريف ١٩٢٣، سعى للحصول على تأييد شخصيات كبيرة أصبحت ترى فيه أملا للخروج بالبلاد من حالة التخبط. استمع البارون فريتز تايسين، أحد أغنى أغنياء ألمانيا، إلى هتلر فى إحدى خطبه وانبهر بقدراته الخطابية وطريقته فى التأثير على الجماهير وبالانتظام العسكرى الذى كان عليه أعضاء حزبه. لم يكن مجرّد انبهار، فقد سلّم البارون ١٠٠,٠٠٠ مارك ذهبى للمشير لودندورف حتى يقوم بتوصيلها للزعيم النازى. كان المبلغ يساوى ١٢,٠٠٠ دولار وبطبيعة الحال، كان ثروة حقيقية بالنسبة لأحوال ألمانيا فى تلك الفترة. خلال تلك الشهور، سافر هتلر إلى سويسرا، حيث كانت الجالية الألمانية الميسورة هناك قد جمعت له ٣٣,٠٠٠ مارك من التبرعات. من جانبها، تأثرت الجالية الألمانية فى تشيكوسلوفاكيا بجهوده، وأرسلت له تلك الأقليات مبلغا كبيرا من الكورونات. كما وضعت البارونة سايدليتز نصف ثروتها الضخمة تحت تصرف (NSDAP).

كل هذه المبالغ كانت تذهب لنفقات الأس أى، تلك البئر السحيقة التى كان هتلر يغذيها وينميها لتصبح رأس حربة حزبه، وتعبيرا عمليا عن قوته وسطوته المدربة والمنظّمة، التى كانت تمثل

الشعار: «ألمانيا شامخة» والجيش الذى كان يفكر أن يغزو به برلين. لم يكتف هتلر بهذا، بل أصدر صحيفة تحولت هى الأخرى لإحدى نقاط قوة حزبه: "عين على الشعب". لم يكن هتلر موهوبا على مستوى الكتابة، بل إنه لم يهتم بها أصلا، لكنه كان على وعى تام بضرورة أن يمتلك أداة يعبّر من خلالها عن آرائه، حتى لو كانت مجرّد سب وقذف لأعدائه، أو فضح نسب الدم اليهودى الذى كان يجرى فى عروق بعض الشخصيات العامة. من ثم لم تكن صحيفته، تتوانى عن أن توجه لهم اتهامات ببيع ألمانيا للبلشفية، أو للرأسمالية الفرنسية أو الإنجليزية.

فشل انقلاب نوفمبر

مع حلول صيف ١٩٢٣، كانت الحياة قد أصبحت مستحيلة فى ألمانيا: تضخم، بطالة، جوع، فوضى سياسية، محاولات انفصال لا تنتهى، أصابت الطبقة الوسطى فى مقتل، وعصفت بالطبقة البرجوازية وبالتجارة وبالصناعة وقادت البلاد إلى حافة الهاوية. تقدم المستشار كونو باستقالته فى ١٠ أغسطس، وجاء من خلفه جوستاف ستريسمان الذى كوّن ائتلافا كبيرا ضم أحزاب الشعب والوسط (المعروف باسم زنتروم وذى الأغلبية الكاثوليكية) والاشتراكى الديمقراطى. أغضبت عودة هؤلاء إلى الحكومة، المحافظين الذين كانوا يحكمون ميونخ، وأمدت هتلر بمخزون جدلى جديد، خاصة بعد أول إجراءات لستريسمان بإنهاء المقاطعة

السلبية، والتى كانت معدلات التضخم الجنونية ثمنا باهظًا لها. تفاخر هتلر برؤيته الثاقبة وبأن الحق كان معه عندما امتنع عن دعم تلك السياسة التى خسّرت البلاد الكثير، وتسببت فى زيادة فقر الطبقات الوسطى التى تغذى صفوف أتباعه من الساخطين على الجمهورية الديمقراطية، وتمهّد للحاجة إلى انقلاب اقتصادى وسياسى.

بيد أن الرياح لا تأتى دائما بما تشتهى السفن، ولن تخدم حزب (NSDAP) على طول الخط. ففى محاولة لتجنب أعمال الاحتجاجات على تغيير سياسة المقاومة السلبية فى بافاريا، تمت الاستعانة بالمحافظ المتعصب فون كاهر، الذى جاء ليكون حجر عثرة أمام مصالح هتلر نتيجة ميوله الملَكية ونشاطه الذى لا يهدأ. كتب هتلر، بعد توليه بقليل: «كانت ضربة قوية، فالظروف التى كانت تخدمنا على مدار الساعة، قد أدارت لنا وجهها تماما».

جاء تشكيل حكومة البافارى فون كاهر بمثابة خطوة للوراء فى رأى حكومة برلين. وأصبح لابد من المواجهة. وبالفعل، وقع الصدام الأول، دون الحاجة إلى الانتظار طويلا، وقد كان هتلر طرفا فيه. فللمرّة الزابعة بعد الحرب العالمية، تم إلغاء الضمانات الدستورية، فى محاولة لمواجهة الموقف المتأزم، وتم وضع كل الصلاحيات الحكومية فى يد وزير الدفاع أوتوجيسلر، الذى كان يعتمد على ذراعه اليمين الجنرال هانز فون سيكت. سبق لهانز فون سيكت أن

انتقد هتلر فى مناسبة ليست ببعيدة، فوجد هتلر أن الفرصة أصبحت سانحة لتصفية حسابه، فكتب مقالا فى الصحيفة هاجم فيه الجنرال ووصفه بالديكتاتور المتهوّد-فزوجته من أصل يهودى- وبالتالى فهو يميل للاستسلام لفرنسا، ولا يعنيه الكفاح من أجل وحدة ألمانيا الوطن. سرعان ما أخذت المشكلة الطابع الوطنى، فأمر وزير الدفاع جيسلر الجنرال فون لوسو - رئيس الرايخسويهر فى بافاريا - بمصادرة أعداد الصحيفة وغلق مقرها. تشاور فون لوسو فى الأمر مع فون كاهر، الذى رأى أنه لن يسمح لبرلين بأن تقمع أية صحيفة بافارية. كان هذا معناه المواجهة داخل الرايخسويهر، ومن ثم خطر المواجهة المدنية بين جيش البلاد وجيش بافاريا. ساندت وحدات الجيش المرابطة فى الأراضى البافارية فون لو سوفى حين ظل قادة آخرون على ولائهم لبرلين. نجا هتلر بفعلته هذه المرة لأن فون كاهر كان مستعدا لمجابهة أى شىء من شأنه أن يمس، من قريب أو من بعيد، استقلال بافاريا وليس لأنه يلقى منه أى استحسان. كتب الجنرال فون لوسو الذى لم يكن يرى فى هتلر أهلا للثقة: «التقيت بهتلر عدة مرّات فى الربيع (يقصد ربيع عام ١٩٢٣). وعدت لألقاه فى الخريف. وجدت أن الانطباع القوى الذى تركه عندى فى البداية قد تلاشى، فقد كانت أفكاره مكررة، وكان يتمسك بنفس الأفكار فى خطبه التى لا تنتهى». كما لاحظ الجنرال أن

هتلر لا يفتؤ يرفع من سقف طموحاته:

«قال لى فى الربيع، إنه لا تحركه دوافع شخصية، وأنه راض بكونه لوح ترديد الصوت لحركة تجديد وطنى. على الرغم من ذلك، فى الخريف، كان يعتقد نفسه موسولينى الألمانى أو غمبتا ألمانيا، وكان أتباعه على وشك أن يؤمنوا بأنه مسيح ألمانيا».

والحقيقة أن الأوضاع فى ألمانيا كانت تحتاج لظهور مسيح سياسى: فلم يكن الأمر يتعلّق بمتمردى بافاريا فقط، ولا حتى بالانقسامات العسكرية، فقد انضمت إلى المشهد السياسى مطالبات إعلان استقلال جمهورية راينلاند، وإقامة جمهورية حكم ذاتى فى إقليم بالاتينات، وتظاهر الشيوعيون فى هامبورج وتم ضمهم لحكومات ساكسونيا وتورنغن، التى كانت تشهد ظهور الميليشيات العمّالية وتسعى لتجريد الجيش من سلاحه.

وسط هذه الظروف الدقيقة، انسحبت حكومة الديمقراطيين الاشتراكية، وبدأ محافظو ألمانيا يتطلعون لحكم ديكتاتورى يدعمه الجيش. كان القرار قاب قوسين أوأدنى فى ٤ نوفمبر ١٩٢٣. لكن الأوان لم يكن قد حان بعد. اجتمع فون كاهر فى ٦ نوفمبر مع قادة الجماعات شبه العسكرية فى بافاريا، بحضور الجنرال فون لوسو، ورئيس شرطة بافاريا العقيد فون سايسر، ليبلغهم الحظر التام لجميع أشكال النشاط السياسى العسكرى.

كان هتلر من ضمن الذين حضروا الاجتماع، واتفق مع الحاضرين على ضرورة الالتزام بعدم الإقدام على أى عمل انقلابى، إلا أنه قرّر أن يتراجع عن كلمته، إزاء سخط الكثير من الحاضرين، على أمل أن يكسبهم إلى صفه. جمع، يوم الأربعاء ٧ نوفمبر، رئيس الأس أى جورينج، وكل من شاوبنر ريختر، وروم، وكرايبل، وويب، وروزنبرج، ومجموعة أخرى من القادة الأوفياء، وكشف لهم عن خطة كانت تدور فى رأسه تقضى باحتجاز أعضاء الحكومة البافارية، وإثارة العامة وتنظيم القوات شبه العسكرية - معتمدا على الأس أى باعتباره حجر أساس - للزحف نحو برلين. استقروا على مناسبة اجتماع دعا إليه فون كاهر فى حانة "بورجريراوكيللر" وهو الاجتماع الذى سيحضره قرابة ٣٠٠٠ من وجوه وعلية القوم بميونخ.

فى تمام الساعة التاسعة إلا ربع، مساء يوم ٨ نوفمبر ١٩٢٣. والسماء تثلج قليلا، وقفت المرسيدس الحمراء للحزب والتى يستخدمها هتلر، ويقودها أولريخ جراف، وقفت أمام حانة بورجريراوكيللر، ونزل منها هتلر، وجورينج، وجراف، وأمّان، وروزنبرج. كان هناك رهط آخر من حرّاسه الخصوصيين يتبعونه فى سيارات أخرى، بالإضافة إلى عدد من الأس أى. دخل الجميع دون أن يعترضهم أحد، واخترقوا حبال تنظيم مرور الضيوف ودلجوا إلى القاعة الواسعة، حيث كانت فتيات ممتلئات يرتدين الزى التقليدى البافارى يقدمن كئوس الجعة للحاضرين. كان دور

فون كاهر قد حان لإلقاء كلمته، غير أنه لمح حركة غير عادية فى القاعة، فتوقف ليستطلع الأمر، وفجأة ظهر أمامه هتلر وهو يحمل بندقية وأطلق منها طلقتين فى الهواء طلبا للصمت. صعد إلى المنصة التى أسرع فون كاهر بالنزول عنها، وقال بصوت عال:

«لقد بدأت الثورة الوطنية! المبنى يحاصره ستمائة رجل مسلّح. إذا لم يعد النظام إلى القاعة فورا، سيتم إطلاق وابل من النار، لقد تم إسقاط حكومتى بافاريا والرايخ وسيتم تشكيل حكومة رايخ مؤقتة».

أعلن بعدها أن الثورة قد استولت على مقرّات الجيش والشرطة وأن هناك قوّات ترتدى زى الصليب المعقوف ترابط على مشارف ميونخ. وقف الحاضرون فى حالة ذهول، ولم يكن أمامهم من خيار سوى تصديق ما يسمعون على المنصة، خاصة بعد أن صعد إليها جورينج، وهو يحمل مسدسا فى يده وراح ذوو القمصان البنية والفتوّات ينتشرون فى أنحاء المكان. وسط كل ذلك، تواصل صوت انكسار الكئوس عند سقوطها على الأرض من أيدى الحضور.

أجبر هتلر كلا من فون كاهر، وفون لوسو، وفون سايسر على أن يتوجهوا معه إلى غرفة قريبة، فى حين تولى جورينج مسئولية إقرار النظام بالقاعة بطلقات نارية موجهة إلى السقف. استمع الأسرى الثلاثة، فى ذهول، لهتلر الذى أمسك بسلاحه فى يده وهو يشرح تشكيل الحكومة المؤقتة: يحتفظ فون كاهر بمنصبه فى بافاريا،

يتولى فون لوسو وزارة الدفاع، فى حين يسند إلى فون سايسر مسئولية الشرطة الرسمية؛ أما لودندورلف - الذى كان هتلر ينتظر حضوره بين لحظة وأخرى - سيكون على رأس الرايخسويهر، وأخيرا، يتولى أدولف هتلر منصب رئيس الوزراء بالرايخ. ما بين ذهول وعدم تصديق، لم يقبل أى من الأسرى الثلاثة أيًا من هذه المقترحات، وفى محاولة منهم لكسب الوقت، إذ لم يقتنعوا بجدية الأمر، أخذوا يتهامسون فيما بينهم ويتبادلون الآراء. شعر هتلر بأن الجنرال فون لوسو قد أوحى للجميع بفكرة مسايرة المسرحية، فغضب وقام بحبسهم هناك وعاد إلى القاعة من جديد.

بدا مظهره غير مهندم عندما خلع معطفه الواقى من المطر، إذ كان يرتدى تحته سترة شبه رسمية كبيرة بعض الشىء، فبدا كموظف من جباة الضرائب ارتدى يوم الأحد أفضل ملابسه، أو كعريس بافارى الأصل من العامة فى صورة الزفاف؛ غير أن صليبه المعدنى من الصف الأول الذى يتدلى على صدره أضفى عليه نوعا من الاحترام. عندما أخذ الكلمة، وبدأ يتحدث وتمكن من أسر انتباه جميع الحاضرين، وانتزع منهم تصفيقا حادا عندما أعلن عليهم تشكيل الحكومة المؤقتة. زاد من مصداقية الأحداث، وصول القائد لودندورف إلى القاعة، على الرغم من عدم معرفته بمجريات الأمر، وإن شاوبنر ريختر قد أحضره عنوة فى ساعة متأخرة إلى حانة بورجربراوكيللر. انطلق التصفيق من جديد وعلا هتاف الهايل

(Heil) حتى وصل إلى الغرفة التى تم فيها حبس سلطات بافاريا، مما زاد من تعقيد الوضع لديهم وأثار قلقهم.

بعد دقائق عاد هتلر ومعه لودندورف إلى الحجرة. وما إن رأوه حتى انتفض ثلاثتهم واقفين مؤدين له التحية العسكرية. أفصح لهم لودندورف أنه مصدوم مثلهم، إلا أن حالة الطوارئ التى تمر بها البلاد تشير إلى ضرورة اتخاذ حلول غير تقليدية، وأنه ينصح بالانضمام إلى الانقلاب. فما كان منهم إلا أن وضعوا أنفسهم تحت تصرفه، بعد تردد من جانب فون كاهر. خرج الجميع إلى القاعة التى استقبلتهم بتصفيق حاد وهتف الحاضرون بحياتهم. صعد هتلر إلى المنصة وتوجه بحديثه إلى الحاضرين:

«سوف أبر بالقسم الذى أقسمته بينى وبين نفسى، منذ خمسة أعوام، عندما كنت ضريرا مغلوبا على أمرى فى أحد المستشفيات العسكرية: لن أستريح ولن يهنأ لى بال حتى أتمكن من إسقاط قتلة نوفمبر، وحتى أقيم، على أطلال ألمانيا البائسة، وطنا حرا كبيرا وجديدا، يخطف بريقه الأبصار».

هز التصقيق الحاد جنبات القاعة، ووقف جميع من فيها لإنشاد النشيد الوطنى: "ألمانيا فوق الجميع". فى تمام الساعة العاشرة والنصف، غادر فون كاهر، وفون لوسو، وفون سايسر المكان بعد أن تعهدوا بدعم الثورة، فى حين بقى هتلر ليتلقى التهانى من الحاضرين ومن الأصدقاء، وأخذ الحاضرون فى الانصراف تحت

جنح تلك الليلة المثلجة فى ميونخ.

كل شىء كان يوحى بأن هتلر قد نجح، لكن الأمر كان قد بدأ يفلت من يده فى تلك اللحظة. إذ لم يكن هتلر ولا أحد من معاونيه ثوّارا متمرسين، وبالتالى لم يستولوا على مركز الاتصالات الهاتفية، ولم يعلموا أعضاء الحزب خارج ميونخ بخططهم، حتى يقوموا بحشد العامة والسيطرة على الاتصالات، كما لم يحكموا سيطرتهم على الطرق ولا الجسور ولا السكك الحديدية، ولم يقتربوا من معسكرات الجيش ولا من مراكز الشرطة. كل ما هنالك، أنهم نشروا فى المدينة بضع مئات من دوريات قوامها ثلاثة آلاف رجل ولم يكونوا قد سيطروا سوى على مقر وزارة الدفاع الذى تحصن روم بداخله. ظلوا فى سذاجة بالغة، ينتظرون طلوع النهار حتى يعاودوا لقاء فون كاهر وفون لوسو وفون سايسر، بعد أن تركوهم طلقاء، قرابة عشر ساعات.

أول ما فعله هؤلاء بعد خروجهم من الحانة، كان التوجه إلى مكاتبهم للاطلاع على حجم الكارثة. عندما تأكدوا أن قبضة هتلر على مقر الجيش ومراكز الشرطة لم تكن بالإحكام الكافى، اجتمع ثلاثتهم بمقر سلاح المشاة، وهناك طلبوا مساعدة أهالى وسلطات المدن المجاورة، ونسقوا تحركات الشرطة وعساكر الجيش، وفى تمام الساعة ٢,٥٥ من فجر ٩ نوفمبر، أذاعوا، عبر ميكروفون إذاعة ميونخ، بيانا نددوا فيه بالانقلاب، وأعربوا فيه عن أن مهادنتهم له

كانت تحت التهديد. فى تلك الليلة، بينما اعتقل النازيون عمدة المدينة وأوقفوا طباعة صحيفة ميونخ بوست، واستولوا على خمس عشرة تريليونات مارك من إحدى المطابع، كانت أوامر فون كاهر قد صدرت بطباعة آلاف النسخ من بيان الإذاعة الذى يدين انقلاب هتلر، وكان فون سايسر يعطى تعليماته للشرطة بتوزيع المنشورات وبقطع الطرق الرئيسية المؤدية إلى ميونخ، وأن يلقوا القبض على أى نازى يدخل المدينة، وكان فون لوسو، من ناحيته، ينسق تحركات الجيش، وفى تمام الخامسة صباحا، أرسل إلى القائد لودندورف يطالبه بالرجوع عن تأييده للانقلاب، ويبلغه بأن الجيش قد قرّر أن يدعم الحكومة.

مع صبيحة يوم ٩ نوفمبر، الباردة الرطبة، كانت الأمور قد اتضحت. حتى هتلر، الذى كان يتابع فى صمت المشهد، اعترف أن ضربته كانت فاشلة. لكنه لم يفكر فى إطلاق النار على نفسه، كما كان يؤكد فى الليلة السابقة فى بورجربراوكيللر، وإنما اقترح أن ينسحب إلى روسنهايم لإعادة حشد أنصاره، على أن يعود لاحقا إلى ميونخ. أقنعه لودندورف أن خطته لن تنجح، وأن ميونخ هى المدينة الوحيدة التى سينجح من خلالها، وكلّما أسرع كلّما كان أفضل. اقترح عليه أيضا أن يتوجها إلى مقر القيادة العامة، حيث فون لوسو ليواجهاه ويحرجاه برجوعه عن كلمته، وليستميلا جنوده، فقد كان متأكدا من إمكانية ضمهم لجانبهما.

تجمّعت قوات الأس أى بأقصى سرعة، وبعد الحادية عشرة بدقائق قليلة تحركت مسيرة النازيين من أمام حانة بورجربراوكيللر وهى تضم ثلاثة آلاف رجل أغلبهم مسلّح. فى المقدمة، سار لودندورف بمظهره الريفى الذى كان عليه من الليلة السابقة، وشاوببنر ريختر، وأولريخ جراف، وويبر، وفيدر، وكلايبر، بينما سار فى الصف الثانى روزنبرج، وألبريخت فون جرايفى، وسترايخر، وجورينج، ودريكسلر، وبعدهم هيس، وأمّان، وشتارسر، وفريك... إلخ. كانت المسيرة المهيبة التى حملت العديد من أعلام الصليب المعقوف تتقدم بسرعة كبيرة على أنغام المارش العسكرى. كانت نوافذ وشرفات البيوت تفتح عند مرورها بالشوارع، ويهتف المارة لهم أو ينضمون لهم فى بعض الأحيان. عند جسر لودفيج على نهر إيسار، كانت العقبة الأولى التى تنتظرهم، لكن قوّات الشرطة أنزلت سلاحها عند رؤيتهم لودندورف الذى كان هتلر يجد صعوبة فى اللحاق بخطوته.

ساروا فى اتجاه ميدان أوديون، بيد أنهم كانوا يغيّرون من خط سيرهم باستمرار لتلافى مواجهة التكتلات الشرطية الكبيرة التى تمنع الوصول إلى الميدان. زاد التوتر. سُمع صوت بعض الطلقات النارية عند مبنى وزارة الدفاع، الذى كان روم يحرسه والذى تحاصره قوات من الجيش منذ الساعات الأولى من الصباح، فقد أصيب عدد من الجنود وتوفى أحد رجال روم. تصفيق، هتاف،

لعنات، أغان نازية، صيحات: «إضرب» صدى طلقات نارية، كل ذلك رافق إصرار النازيين فى مسيرتهم لدخول الميدان. بعد أن عبروا شارع ريزيدنستراس كانت قوّات الشرطة تنتظرهم عند نهايته وبنادقهم فى وضع الاستعداد. صاح أحدهم من الصف الأوّل للمسيرة: «لا تطلقوا النار فسيادة المشير لودندورف يتقدم المسيرة». إلا أن الأمر لم يفلح هذه المرّة، إذ انطلق وابل من الرصاص ليغطى عرض الشارع. لم يعرف من الذى بدأ إطلاق النار، إلا أننا نستطيع أن نقول إن تبادل إطلاق النار جاء لصالح قوّات الشرطة، إذ كانت تملك رؤية أفضل لهدفها. سقط الكثير من المصابين من جرّاء الطلقات أو السقطات أو رشق الحجارة أو الانسحاق تحت أقدام الباحثين عن ملجأ. لم يصمد سوى رجلين اثنين، ظلا مرفوعى الرأس وواصلا تقدمهما متحديين أمطار الرصاص تلك، التى استمرت قرابة ثلاثين ثانية. اخترقا كردون الشرطة ودخلا الميدان وسط ذهول العسكر، ووقفا تحت تمثال أبطال ألمانيا، كانا: القائد لودندورف ومساعده الرائد ستريك. لم يتبعهما أحد وظلا هناك حتى ألقى القبض عليهما بمنتهى التقدير. فى تلك الأثناء، سيطرت الفوضى على شارع ريزيدنستراس، فكان رجال الشرطة ينقلون الجرحى ويلملمون جثث قتلاهم الثلاثة، وقتلى النازيين الستة عشر ويطاردون الهاربين، ويطلقون بعض الطلقات المتناثرة. كان من بين القتلى، نائب رئيس الحزب أوسكار كرونر ورفيقا كفاح هتلر:

شاوبنر ريشتر وأولريش جراف. يمكننا القول إنهما قد افتدياه بحياتهما، فقد تقدم جراف ووقف أمام هتلر وحماه كلية بجسده، في حين كان شاوبنر ريشتر يمسك بذراعه بقوة وجرّه إلى الأرض، بعد أن خرّ هو صريعا. وسط ذلك الارتباك تمكن هتلر من الوقوف والهروب إلى مقر إقامة آل هافستاينجل في ضواحي ميونخ. وصل إلى هناك وهو غارق في دماء أصدقائه، وبعد أن خُلعت كتفه من مكانها. قائد آخر من قادة (NSDAP) أوشك أن يفقد حياته، في ذلك اليوم، هو جورينج، قد أصيب إصابة بالغة وتولى رفاقه نقله خارج أرض المعركة، بعدها استطاعت زوجته أن تسافر به إلى النمسا.

ظل هتلر لمدة يومين، في منزل آل هافستاينجل وهو يعاني من آلام مبرحة نتيجة إصابة كتفه. كان يعاني أيضا من أزمة نفسية عنيفة كان من الصعب تجاوزها، وكان يتحدث عن إنهاء حياته، إلا أنهم أقنعوه في النهاية، بأنه من الأفضل أن يغادر إلى النمسا، لبعض الوقت. مساء يوم ١١ نوفمبر، وبينما كان في انتظار العربة التي سوف تقله خارج ميونخ، توصلت الشرطة إلى مكانه، ومعها أمر القبض عليه الذي لم تكن بحاجة لاستخدامه، فقد سلّم نفسه بلا أدنى مقاومة. قبل ذلك بساعات، وبعد أن استشعر أنه سيتم إلقاء القبض عليه، كتب وصيته الأولى: ترك لروزنبرج رئاسة الحزب وعيّن أمّان مساعدا له ومعهما كل من إيسر وسترايخر

ليكون الأربعة هم المسئولين عن مصير الحزب، وطبعا فى وجود هافستاينجل باعتباره أمين صندوق.

شتَّان ما بين الأمس واليوم، فكم دارت عجلة الزمان وكم تغيّر العالم ما بين ذاك التاريخ، ٣ نوفمبر ١٩٢٣. ويومنا هذا الذى نتحدث عنه: ٢٩ أبريل ١٩٤٥ . ولكن حتى بعد مرور عشرين عاما، كان هتلر لا يزال يعانى الإصابات مثل سابق عهده، ولا يزال تحت التهديد مثلما كان وقتها، وها هو يكتب وصيته من جديد. إلا أنه لم يعد الشخص نفسه الذى كان عليه. للأسف، لم يعد مثلما كان منذ اثنين وعشرين عاما. ففى عام ١٩٢٣. كان شابا فى الرابعة والثلاثين من عمره، مختبئا فى الدور العلوى من شاليه آل هافستاينجل الذى كان يتيح له رؤية الثلوج وهى تهطل فى تؤدة، ويحيط به الصمت من كل مكان، وتخدمه السيّدة هافستاينجل - الحامل -. كانت الروائح الطيبة والنفّاذة لطعامها الشهى تنبعث من المطبخ وتصل حتى غرفته. فى الحقيقة، كان يخشى الموت لأن شرطة ميونخ الخضراء، كانت لها سمعة سيئة فى العنف، ولن يفوّت رئيسها فون سايسر، الفرصة لكى ينتقم، فقد يصدر أوامره بتصفيته بحجة المقاومة أو الهرب. لكن وضعه الآن، فى أبريل ١٩٤٥، كان أسوأ بكثير: كانت الشيخوخة المبكرة قد زحفت إلى جسده، وجعلته وهو فى السادسة والخمسين من عمره، يقيم فى مخبأ تحت الأرض، مهدد فى كل لحظة بأن يُدفن حيا تحت أنقاضه، من جرّاء قصف المدافع

الروسية. كان الجو رطبا والهواء كريه الرائحة والغرف صغيرة والأثاث متهالك والعدو يقترب من الأبواب. نظر هتلر إلى فراوجونجى، وهى شاحبة ومتعبة فى تلك الساعة من الفجر، وخرج من ذكرياته ليستعيد تركيزه من جديد ويواصل إملاء وصيته، التى كانت الأخيرة، هذه المرّة.:

«قبل ثلاثة أيام من اندلاع الحرب بين ألمانيا وبولندا، اقترحت على السفير البريطانى لدى برلين حلا، يشبه ذلك الذى اتخذته منطقة سار، إذ ظلت على مدى أعوام تحت السيطرة الدولية. لن يستطيع أحد أن ينكر تقديمى لهذا الاقتراح الذى رفضه مسئولو سياسة المملكة المتحدة الذين كانوا يطلبون الحرب، من ناحية، لأسباب اقتصادية، ومن ناحية أخرى، متأثرين بدعاية اليهود الدولية.

«غير أننى قد اعترضت على التعامل مع شعوب أوربا على أنها حزمة من الأسهم، من جانب سماسرة الأموال الدوليين هؤلاء. على الشعب الذى تسبب فى هذه الحرب، تحمل تبعاتها: إنهم اليهود. أوضحت أيضا أننا لن ندع ملايين الأطفال الأوربيين، هذه المرّة، يموتون من الجوع، أو أن يفقد ملايين الرجال أرواحهم فى ساحات الوغى، أو أن تصاب مئات أو آلاف من النساء والأطفال من جرّاء قصف المدن، دون أن ينال المسئول الحقيقى عن كل ذلك، العقاب الذى يستحق، حسب ما تقتضيه القوانين.

«بعد ستة أعوام من الحرب، التى ستدخل التاريخ لكونها أعظم مظاهرة قام بها شعب لفرض رغبته فى الحياة، لا أستطيع أن أغادر عاصمة الرايخ بعدما تضاءلت قوّاتنا، بحيث لا يمكنها المقاومة لفترة طويلة والوقوف فى مواجهة عدو أكبر، وبما أن المقاومة الفردية لا معنى لها فى مواجهة هؤلاء الحقارى البؤساء، أرغب فى أن أواجه نفس المصير الذى اختاره أبناء شعبى، وأن أبقى فى المدينة. من ناحية أخرى، لا أريد أن أقع فى يد العدو فأكون عبرة للجماهير التى تحركها الكراهية والتى يقف وراءها اليهود.

«من أجل كل ذلك، قرّرت أن أبقى ببرلين وسأختار، بكامل إرادتى، فى اللحظة التى سأجدنى فيها غير قادر على الدفاع عن مهام الفوهرر، أن أسير إلى الموت، راضيا، متأسيا بشجاعة جنودنا فى جبهة القتال، وببأس نسائنا ومزارعينا والعاملين بالجبهة الداخلية، وبالمشاركة الفريدة للشباب الذى يحمل اسمى.

هناك رجال ونساء آخرون شجعان اختاروا أن يشاركونى مصيرى. وإن كنت فى النهاية، قد أمرتهم بألا يفعلوا ذلك، وأن يواصلوا كفاحهم من أجل أمتنا حتى النهاية. على نفس هذا النهج، أطلب من رؤساء الجيش والبحرية والطيران، بأن يبثوا بكل ما أوتوا من قوة، روح المقاومة فى جنود الديمقراطية الاشتراكية الأوفياء، مؤكدين بأننى، بصفتى مؤسس وباعث الحزب، أفضل الموت على الهروب المخزى أو الاستسلام.

«أتمنى، أن أكون، فى المستقبل، ضمن لائحة الشرف - كما يحدث فى البحرية - وبأن يكون استسلام أى منطقة أو مدينة، أمرا غير قابل للنقاش. يقع على القادة واجب إعطاء المثل الذى يُحتذى، للإخلاص حتى الموت».

مرّر هتلر منديلا على وجهه، ليجفف العرق الذى تصبّب منه. كان الحر المصحوب بالرطوبة يملؤ المخبأ الذى تسيل المياه على جدرانه بعد ساعات قليلة من احتلاله. للأسف، لم يكن كل القادة الألمان على مستوى الكفاءة التى كان الرايخ الثالث ينتظرها منهم. لم يصمدوا حتى آخر رصاصة، مثل فون باولوس، الذى استسلم فى ستالينجراد وكان لا يزال معه مائة ألف رجل قادرين على القتال لأيام أخرى، أو حتى أسابيع أخرى؛ أو أنهم لم يكونوا بالصلابة الكافية التى يتطلبها الموقف. لماذا لم يدافع كيسلرينج عن روما شارعا شارعا وبيتا بيتا، هل حفاظا على الثقافة؟ لم يهتم نيرون بمدينته على هذا النحو. لماذا لم يوقد شولتيتز الحرائق فى باريس من الجهات الأربع؟ من المستحيل أن تكسب الحرب، وكان كل جنرال يقرر بنفسه ما يجب أو لا يجب فعله. لا، لم يخسر هتلر الحرب. الذى خسر الحرب هو مجموعة من الجبناء غير الملتزمين. خسرت ألمانيا الحرب، لأنها لم تستطع أن تدخلها بروح مستبسلة، هى فى حاجة إليها لتجابه تلك التحالفات القوية. لم تكن ألمانيا ولا جيشها على المستوى الذى كان يتطلبه، خاصة هؤلاء الذين طالما أحبهم

ووثق فيهم، الذين بيّنوا لهم ما يستحقون. ليس فقط رودولف هيس، المجنون الذى طار إلى إنجلترا فى ١٩٤١. فى محاولة لعقد سلام منفرد وإحراجه. الأسوأ من ذلك كانت خيانة جورينج، الذى كان يجيب له كل طلباته والذى غفر له الكثير على الرغم من تعدد مواقف فشله فى قيادة اللوفتفاف. ولعل أكثر ما آلمه، كان ارتداد هيملر قائد قوّات الأس أس، الذى لم يشك، حتى آخر دقيقة، فى كفاءته ولا فى إخلاصه. يا لهم من بؤساء، سيطاردهم غضبه حتى جهنم!

ازداد شحوبه بسبب الغضب. كان ذراعه الأيسر قد أخذ يرتعش بشدّة، وتعيّن عليه أن يستند إلى الطاولة ليتمكن من الوقوف. نظر إلى فراو جونجى وواصل إملاء الجزء الثانى من وصيته السياسية حيث كان عليه اتخاذ الكثير من القرارات:

«قبل أن أموت، سأطرد من الحزب مشير الرايخ هيرمان جورينج وأسحب منه كل صلاحياته التى حصل عليها بموجب مرسوم ٢٩ يونيو١٩٤١، وإعلانى بالرايخستاج، بتاريخ ١ سبتمبر ١٩٣٩. وسأولى بدلا منه باعتباره رئيس حكومة الرايخ، ورئيس أركان حرب القوّات المسلّحة: دوينيتس.

«قبل أن أموت أطرد من الحزب وأجرّد من كل المناصب الرسمية وزير الداخلية والرئيس السابق لقوّات الأس أس هاينريتش هيملر على أن يحل محلّه، كارل هانكى، باعتباره رئيسًا لقوّات الأس أس

والشرطة الألمانية، على أن يتولى بول جياسلر وزارة الداخلية بالرايخ.

«لقد جلب كل من هيملر وجورينج العار لبلادهما ولكل الشعب، بمفاوضاتهما السريّة مع العدو، دون علمى ولا موافقتى، وبسعيهما الإجرامى للسيطرة على حكم الرايخ، وذلك، دون الخوض فى خيانتهم لى.

«من أجل أن يتمتع الألمان بحكومة مؤلّفة من رجال مخلصين، يؤدون واجبهم على أكمل وجه، ويواصلون المعركة بكل الوسائل وبكل القوى المتاحة، أعيّن أنا، فوهرر ألمانيا أعضاء الحكومة الجديدة، التالية أسماؤهم:

رئيس الرايخ: دونيتس.

مستشار الرايخ: د.جوبلز.

وزير الحزب: بورمان.

وزير الشئون الخارجية: سايس إنكارت.

وزير الحرب: دونيتس.

القائد الأعلى للجيش: شوايرنر.

القائد الأعلى للبحرية: دونيتس.

القائد الأعلى للطيران: جرايم.

قائد قوّات الأس أس وللشرطة الألمانية: هانك.

الاقتصاد: فونك.

الزراعة: باكى.

العدل: تياراك.

الثقافة: شييل.

الدعاية: ناومان.

المالية: شيبرين كروسيج.

التموين: ساور.

العمل: كوبفاور.

رئيس جبهة العمّال وعضو مجلس الرايخ ووزير الرايخ: د. لاى.

«الكثير من هؤلاء الرجال، مثل مارتين بورمان، والدكتور جوبلز، إلخ، قرروا، بكامل إرادتهم، هم وزوجاتهم، أن يبقوا إلى جوارى وعدم مغادرة الرايخ ، تحت أى ظرف من الظروف، وأن يموتوا معى. ومع ذلك، لابد أن أطلب منهم أن ينفذوا رغباتى وأن يغلّبوا مصلحة الوطن على مشاعرهم. بعملهم وإخلاصهم، سيبقون معى، حتى بعد مماتى، وأتمنى أن تظل روحى بجوارهم وترافقهم إلى الأبد. أرغب أن يحافظوا على قوّتهم وأن يتجنبوا الظلم وألا يسمحوا للخوف، أبدا، أن يتحكم فى قراراتهم وأن يرفعوا شرف

البلاد، فوق ما سواها، إلى أعلى المراتب فى العالم أجمع. وأخيرا، أريدهم أن يعوا أن مهمتنا فى تكوين دولة ديمقراطية اشتراكية، هى بمثابة العمل الذى يخدم القرون المقبلة، وهو ما يلقى على كاهلنا مسئولية خدمة المصلحة العامة، وأن نقدمها على أية مصلحة شخصية تخصنا. إننى أطلب من جميع الألمان ومن كل الديمقراطيين الاشتراكيين من الرجال والنساء، ومن كل جنود القوّات المسلّحة، أن يظلوا على عهدهم والتزامهم حتى الممات، تجاه الحكومة ورئيسها.

«أوصى، بصفة خاصة، رئاسة الأمة ومساعديهم، بالتطبيق الدقيق للقوانين الصارمة والمقاومة الصلدة، ضد واضعى السم لكل الشعوب: اليهودية الدولية.

يوقع فى برلين بتاريخ ٢٩ أبريل ١٩٤٥. فى تمام الرابعة صباحا».

تنفس هتلر بعمق، ثم طلب من فراو جونجى أن تنسخ الوصية على الآلة. أنهت السكرتيرة المهمة سريعا، وفى أقل من ساعة، سلّمت عشر ورقات مكتوبة على الآلة. طلب هتلر من بورمان والجنرالين بورجدورف وكريبس والدكتور فوهر نائب جوبلز، أن يوقعوا على الوصية السياسية، فى حين يوقع الوصية الشخصية كل من بورمان وجوبلز وفون بيلو.

قرأ جوبلز وصية هتلر السياسية، فى عجالة، ثم انتحى به جانبا

يناقشه فى أوامره باستمرار القتال. كما أطلعه على قراره هو وزوجته، بالموت مع أبنائهم بمجرّد أن تأتى نهايته هو. قطع هتلر الحوار، نظرا لتعبه الشديد بعد يوم طويل وانفعالات كثيرة، ودخل غرفته. كانت إيفا قد سبقته قبل ذلك بنحو ساعتين، وكانت مستغرقة فى النوم. لحسن الحظ، كانت المدفعية الروسية قد هدأت ولم يعد المخبأ يرتجف كعادته. حتى المعركة التى كانت تدور فى شوارع برلين بالأسلحة الخفيفة والقنابل اليدوية وقاذفات اللهب تحوّلت لمجرّد أصداء بعيدة. عندما خلد هتلر إلى النوم، استغل سكّان الدور الثانى من المخبأ الفرصة، لينالوا، بدورهم، قسطا من الراحة، لينتهى بذلك يوم العمل الشاق الذى بدا بلا نهاية. ذهب جميعهم، ما عدا جوبلز الذى لم يكن راضيا عن حديثه مع هتلر، وظل هناك أرقا، وكتب، فى ذلك الفجر الملحق التالى لوصية هتلر:

«لقد طلب منى الفوهرر مغادرة برلين. فى حال انهيار مقاومة عاصمة الرايخ لكى أكون جزءا من الحكومة الجديدة التى قام بتشكيلها.

«لأول مرة، أجدنى غير قادر ألبتة على إطاعة أمر للفوهرر. يتفق معى فى الرأى زوجتى وأبنائى. لو لم أفعل ذلك (بعيدا عن مشاعرنا الإنسانية وإخلاصنا الذى يمنعنا من التخلى عن الفوهرر فى هذا الوقت العصيب) سأظل حتى نهاية عمرى أعتبرنى خائنا وجبانا، وأكون قد تخليت عن احترامى لنفسى، ولن أكون جديرا

باحترام بنى وطنى، الذى بدونه لا أستطيع أن أعمل على بناء ألمانيا المستقبل والرايخ».

يؤكد جوبلز فى السطور التالية دوافعه فى اقتفاء أثر هتلر فى الانتحار: الإخلاص فى الأوقات الصعبة ودرس للخونة ومثال يقتدى به فى المستقبل...

«سيكون هناك دوما، رجال يقودون الأمة إلى الحرية. لكن ترميم حياتنا الوطنية لن يكون ممكنا إذا لم يستند إلى أمثلة قريبة من الفهم. لكل ما تقدم، وبالاشتراك مع زوجتى، وبالنيابة عن أبنائى، الذين لم يبلغوا بعد من العمر ما يسمح لهم أن يقرروا، وإلا كانوا اتفقوا معنا، أقرّر رغبتى وقرارى النهائى ببقائى فى الرايخ، إلى جوار الفوهرر، وأنهى بذلك حياة لن يكون لها معنى إذا لم أستطع أن أقدمها لأظل إلى جواره».

وقّع جوبلز هذه الرسالة فى تمام الخامسة والنصف من فجر يوم ٢٩ أبريل ١٩٤٥. كان خبير الدعاية المتمرّس قد أحسن تقييم الموقف: لقد خسر الحرب وتشكيل حكومة جديدة كان غير مؤكد فى بدايته وعديم الفائدة فى نهايته. سيحاسب الحلفاء الخاسرين حسابا عسيرا على كل ما فعلوا. كان جوبلز مثقفا وذكيا وكان يعرف الكثير عن الأدب والفلسفة والتاريخ والسياسة، فإذا كانت ألمانيا قد استسلمت على الأراضى الفرنسية عام ١٩١٨. دون أن ترتكب جرما

بيّنا، باستثناء ما لا يمكن أن تمر حرب بدونه، ومع ذلك قام المنتصرون بإجبارها على تسليم الآلاف من المسئولين باعتبارهم مجرمى حرب، فما الذى هم فاعلون الآن بعد ما عُرف عن بربرية النازية فى البلاد التى تم احتلالها، وما كان يتم فى معسكرات التعذيب؟ قد يكون فى إمكان هتلر أن يخدع نفسه، إلا أنه هو ليس مغفلا، لكى يفعل ذلك ولا جاهلا حتى ينسى. كانت الهواتف لا تزال تعمل فى وزارة المعلومات، على الرغم من معارك برلين والدمار الكبير الذى أصاب المدينة، وكانت برقيات وكالات الأنباء الدولية لا تزال تصل، فكان على دراية بما يضمر العالم الخارجى، بعد أن انكشف سر معسكرات الإعدام فى بولندا والنمسا وبروسيا. كان على علم أيضا، وبالتفصيل، بالقرارات التى اتخذها الحلفاء فى مؤتمراتهم الدولية حول المسئولين عن الرايخ الثالث. لم يكن هناك مخرج. كل كبار قادة النازية، سيتم سجنهم ومحاكمتهم وسيتعرضون لسخرية العالم وفى النهاية، سيتم إعدامهم بأبشع طريقة عرفها العالم، لم يكن مستعدا لمعايشة كل ذلك، ولم يستطع أن يتخيلً زوجته، الجميلة ساجدة تحت رحمة الجيش الروسى، ولا أن يعيش أبناؤه وهم يحملون عار أن أباهم كان من أعتى وحوش النازية، كما ستكتب عنه صحافة المنتصرين.

لم يستطع مارتين بورمان أن ينام تلك الليلة أيضا. كان قويا وطموحا وكان قد اقترب فى الفترة الأخيرة من تحقيق كل طموحه،

فبعد تهاوى جورينج وهيملر أصبح هو وجوبلز من أعلى سلطات النظام. كان الحزب الذى ولاه هتلر، رغم كل شىء، أكبر مؤسسة فى ألمانيا. لقد تم اختيار القائد الأعلى دونيتز رئيسا لما يملك من كاريزما تدفع الجيش لأتباعه، فقد كان القائد الأعلى ضروريا وقتها، إلا أنه، سياسيا، كان هوبورمان خليفة هتلر وبالتالى بدأ يصدر أوامره. أولها كان تطهير القيادة النازية من الخونة، وثانيها هو استمرار القتال، وظل ذلك الفجر، يرسل البرقيات إلى معسكر الجنرال دونيتز فى فلينسبورج:

«تتحدث الصحافة الأجنبية عن خيانة جديدة. ينتظر الفوهرر أن تتحرك بسرعة البرق وتضرب بيد من حديد على خونة المنطقة الشمالية. لا تخش شيئا ولا تقم وزنا لأحد. على شوارنر ووينك وغيرهم من القادة أن يثبتوا ولاءهم للفوهرر، وأن يهبوا لفك حصاره على الفور».

كما أرسل برقية أخرى أكثر صرامة، وبالتأكيد، دون علم الفوهرر. أصدر أوامره لمساعديه فى برشتيسجادن بأن يراقبوا عن كثب، منذ ليلة ٢٣. الخائن جورينج ومساعديه: «الوضع فى برلين بالغ التوتر والتعقيد. لو سقطنا نحن وبرلين، لابد من قتل خونة ٢٣ أبريل. أدوا واجبكم. حياتكم وشرفكم يتوقفان على ذلك». وصلت هذه البرقية إلى وجهتها يوم ٣٠ أبريل، إلا أن مأمور السجن الذى كان فيه قائد القوّات الجوية، رفض تنفيذ أوامر بورمان.

بطبيعة الحال، لم يعرف وزير الحزب الجديد بهذا. بعد أن أنهى إرسال البرقية، نادى على مساعده. عقيد الأس أس ويلهالم زاندر ليوكل إليه أن يحمل شخصيا نسخ وصية هتلر إلى مقر القيادة العامة للجنرال دونيتز. رجاه زاندر أن يوكل تلك المهمة لشخص آخر، على أساس أن ولاءه يملى عليه ألا يفارق الفوهرر. فى الواقع، كان زاندر يشك فى إمكانية مغادرة برلين فى ظل تلك الظروف. كان يعتقد أن مفاوضات ما ستتم، وأنه سيتمكن من مغادرة العاصمة بضمانة إضافية ما، وطبعا، كان لديه فضول شديد لمعرفة تطورات الأحداث فى الملجأ خلال الساعات المقبلة.

صرفه بورمان على أساس أنه سيتناقش مع هتلر لاحقا بهذا الخصوص. بعدها وجد فى نفسه القدرة على تناول مفكرته وكتابة بعض الملاحظات: لقد خاننا جودل وهيملر وستاينر لصالح البلاشفة. ضربة قوية أخرى. العدو يتحدّث عن دخول أمريكا إلى ميونخ. طوى مفكرته وتمدد على سريره المطوى وأطفأ المصباح. كانت المدفعية الروسية قد عاودت الضرب بقوة، وعادت الاهتزازات ترج المخبأ كما لو كان يتعرّض لزلزال. كتم بورمان سبابًا كان سيفلت منه، عندما سقطت على وجهه قطعة من الجبس أفلتت من السقف، أزاح القطع الصغيرة المتبقية باستياء، وغطى وجهه استعدادا للنوم. كانت الساعة نحو ٦ من فجر ٢٩ أبريل ١٩٤٥.

الفصل الثالث
الـــــرســــل

كان مبنى مستشارية الرايخ واحدا من أهم وأفخم مبانى النظام النازى. كان يطل على كل الواجهة الشمالية لشارع فوستراس بطول ٢٢٠ مترا، وعرض يتراوح ما بين ٣٦ مترا فى المناطق العريضة، و١٨ مترًا فى المناطق الضيقة، وبارتفاع ثلاثة طوابق. فى عام ١٩٣٨ طلب هتلر من مهندسه الخاص «ألبرت سبيير» أن يصمّم له مبنى «يبهر زواره ويعكس قوة وعظمة الرايخ».

بعد مرور عام، قدّم له المهندس مبنى ذا طابع كلاسيكى، أضاف إليه بعض لمسات من احتياطة، يتكون من عدّة قطاعات مختلفة من حيث الشكل والألوان. كان الزائر يلج من ميدان ويلهيلمبلاتز إلى البهو الشرفى، ثم يمر بعد ذلك بمنطقة استقبال صغيرة تنتهى ببابين مبهرين يبلغ ارتفاعهما ٥ أمتار، يفسحان المجال لدخول الردهة الكبيرة التى تغطيها قطع الفسيفساء، ومنها إلى غرفة

دائرية كبيرة تتوسط سقفها قبّة عظيمة. وبعد أن يسير الزائر على سجاجيد سميكة كثيفة العقد، يظن أنه على وشك لقاء هتلر، إلاّ أن المفاجأة التى تنتظره هى دخوله الممر الكبير ذى الـ ١٤٥ مترا والإضاءة غير المباشرة التى لها مفعول السحر. بعد عبور هذا الممر، يكون الزائر قد وصل إلى صالون استقبالات الفوهرر.

كانت لمبنى المستشارية حديقة، بنى تحتها، المهندس المتبصر، مخبأ للحماية من الهجمات الجوية، عندما كانت أساسات المبنى فى مرحلة الإرساء. اتضحت فائدة المخبأ، عندما بدأ الإنجليز فى قصف برلين، إلا أنه تبيّن صغر حجمه وضعف بنيته عام ١٩٤٤. فلم يجد أمام استمرار وعنف قصف الإنجليز والأمريكان. فى صيف ١٩٤٤. وبعد أن وصل الحلفاء إلى فرنسا، صدرت لسبيير الأوامر بإنشاء مخبأ، يستطيع من خلاله الفوهرر أن يدير الحرب، حتى مع أعتى موجات القصف الجوى. أمر المهندس بحفر فجوة بعمق ١٥ مترا، وبطول ٢٥ مترا، وعرض ١٦ مترا. بنى هناك مكعبا ضخما من الإسمنت المسلح ذى حوائط يبلغ سمكها مترين ونصف المتر وسقفا له من السمك ثلاثة أمتار. تم إخفاء المخبأ بأرضية مدقوقة، بعرض مترين إلى ستة أمتار، تحت حديقة المستشارية، وفوقه تم وضع كميات كبيرة من الشجيرات وأصص الزرع والنباتات، بطريقة لم تمكن الحلفاء من معرفة مكان اختباء هتلر، وبالتالى لم توجه إليه أية هجمات خاصة.

كان بالمخبأ طابقان. يعيش طاقم الخدمة والمساعدون بالجيش وسكرتارية هتلر بالطابق العلوى، الذى به أيضا مطبخ، وقاعة طعام، وحمّامات. بعد حصار برلين، دعا الفوهرر آل جوبلز للإقامة بالمخبأ، الذى كان أكثر تأمينا من مخبأ وزارة الدعاية، وقد أقامت ماجدة، مع أبنائها الستة، فى هذا الطابق.

أما الطابق السفلى، على عمق عشرة أمتار من السطح، فقد كان مخصصا لهتلر. كان ينقسم إلى قسمين متشابهين يفصلهما ممر طويل: ١٧مترا طولا و٣ أمتار عرضا. في بعض الأحيان كان يقسم بفاصل ليتحول إلى غرفتين، من أكبر غرف المخبأ، تستعملان بوصفهما قاعة عامة أو قاعة مؤتمرات، فى حال كون عدد الحضور كبيرا. كانت الغرفتان تقعان على جانبى الممر. فى جهة اليمين - إذا ما كان نزول الطابق من سلّم الطوارئ - توجد قاعة الخرائط، وبعدها توجد مخصصات هتلر: ردهة صغيرة تقود إلى مكتب صغير ثم إلى غرفة نوم إيفا براون. كان المكتب يؤدى إلى غرفة نوم هتلر وإلى حمّام لهما، وكل هذا داخل مساحة ٣٦ مترا مربعا.

كانت الحمّامات المشتركة ولوحة الكهرباء على الجانب الأيمن من الممر. أما على الجانب الأيسر، فكان طاقم التمريض، وغرف الطبيب موريل وجوبلز وبورمان، وغرفة عساكر المراسلة وسنترال الهاتف. يستحق سنترال الهاتف منا إشارة خاصة، حيث رأى الخبراء أنه كان أفضل سنترال فى برلين كلها. وقد تمكن من خلاله

هتلر أن يظل متواصلا حتى النهاية، فى غضون دقائق، مع كل الجبهات. فقد كان مزوّدا، عن طريق هوائيات مثبتة بمنطاد، بجهاز تليفون لاسلكى (VHF) ظل يعمل حتى ليلة ٢٨، ٢٩ أبريل بكفاءة فائقة، حتى فى أسوأ لحظات اشتباكات المعارك.

كان للمخبأ مولد كهرباء خاص به وخزانات مياه ضخمة، ومن ثم لم يتأثر بأى قطع كان القصف يتسبب فيه. كانت الحمّامات تعمل جيّدا وخدمات التهوية والتدفئة أيضا، على الرغم من أن الجو كان معبأ دائما وكانت نسبة الرطوبة فيه عالية والروائح لم تكن مستحبة. يعود هذا فى الأساس إلى أن المخبا قد تم شغله قبل أن يجف تماما، وأنه لم يصمّم ليكون مقر إقامة دائمة لهذا العدد الكبير من الناس. كانت يربطه بالسطح أربعة سلالم: أحدها يقود إلى المخبأ الصغير الأول، والذى يصل إلى قاعة استقبالات المستشارية (بعض الروايات تقول إنه كان ينتهى فى المخزن، بجوار المطبخ)؛ والثانى يقود إلى مخرج أمام وزارة الشئون الخارجية الذى تم بناؤه فى الخلف؛ أما الثالث، فقد خصص للطوارئ ويوجد على بعد ١٠ أمتار من مكتب الفوهرر، وأخيرا الرابع، الذى كان سلّما حلزونيا صغيرا، فكان يقود إلى كشك خرسانى دائرى. كل تلك المداخل كان يحرسها باستمرار جنود من الأس أس، وكانت محمية بأبواب مصفّحة وبإمكانها تحمل أقوى الانفجارات، وتغلق بتفريغ الهواء لتجنب أى هجوم بالغازات. أما مداخل الهواء فقد كانت

مـزودة بشـبـاك لمنـع الـغـبـار وفـلاتـر تـمـنـع تـسـرّب مـعـظـم الـغـازات المعروفة.

على الـرغم من كل هذه التأمينات، كان هتلر أسير رهاب داخلى من أن يدفن حيّا فى ذلك المخبأ، ولم يستسلم بسهولة لفكرة الإقامة فيه. بعد أن عاد إلى العاصمة، عقب هزيمته فى معركة أردينـاس، أقام بالمستشارية التى أصبح معظم نوافذها بلا زجاج، ولم يكن يمكن إصلاحها، فالقصف اليومى للحلفاء سيتكفل بتكسيرها من جديد. فى كل مرّة كان جرس الإنذار يدق فيها كان يتعيّن عليه أن ينزل مسرعا بمزاج عكر إلى الملجأ، وهناك، مع الارتجاجات التى يسبّبها القصف - على الرغم من بعده - كان الشحوب يعلو وجهه وتتجدد مخاوفه من أن يدفن حيّا. ومع ذلك فالخطر كان أكبر على السطح، حتى إنه مع نهاية فبراير ١٩٤٥، فإن الفوهرر ورجال ثقته أصبحوا يقضون الليالى فى الملجأ الكبير، والذى أخذ هتلر يعتاد عليه حتى استقر به المقام هناك.

حتى ٢٠ أبريل، آخر عيد ميلاد لهتلر، ويوم بداية الحصار الكامل لبرلين، كان الكثيرون يترددون على المخبأ، وكان من الطبيعى أن نجد، عند بداية الممر - الذى أحيانا ما كان يستخدم باعتباره قاعة انتظار نظرا لفصله بحاجز عن غرف إقامة هتلر - العديد من العسكريين والساسة ينتظرون مقابلة الفوهرر. بعد حصار المدينة، انخفض عدد الزيارات وأصبحت الحياة فى المخبأ روتينية،

مع كونها شديدة الخصوصية. كان هتلر ينام فى ساعة متأخرة، نحو الثالثة أو الرابعة فجرا، ويصحو فى ساعة متأخرة أيضا، فى العاشرة أو الحادية عشرة صباحا. تعوَّد الأشخاص الذين يرتبط عملهم به مباشرة، على هذه المواعيد، ما عدا بورمان الذى كان معتادا على النوم القليل، فكان يستيقظ فى الثامنة صباحا. كان أفراد الجيش المقيمون فى الدور العلوى ينامون بعد منتصف الليل بقليل، وبعد انتهاء آخر اجتماع حرب كل يوم، ليستيقظوا نحو السابعة صباحا.

يوم ٢٩ أبريل، تقريبا فى هذه الساعة، أخذ الرائد فرايتاج لورينجوفن، مساعد الجنرال كريبس، يهز زميله النقيب جيرهارت بولدت ليسأله بابتسامة ساخرة: «ألم تعلم بخبر الأمس؟». حاول بولدت أن يفتح عينيه وأن يرفع رأسه: «لا. لا أفهم قصدك. أى خبر؟» رد فرايتاج لورينجوفن: «فلتندهش، لقد تزوج الفوهرر». تقول رواية روبرت باين الذى أورد هذا الموقف، استيقظ الجنرال كريبس على أصوات ضحكاتهما ونهرهما: «هل جننتما؟ كيف تسخران هكذا من قائدنا الأعلى؟».

كان بورمان مستيقظا فى الساعة التاسعة بعد أن توصل لقرار. سيرسل ثلاثة رسل: يتوجه اثنان إلى بلون ليبحثا عن دوينيتز، ويذهب الثالث إلى جبال بوهيميا، حيث مقر القيادة العامة للجنرال شوايرنر. على الرغم من اعتراض العقيد زاندر قائد الأس أس،

فإن لم يستطع تفادى اختبار خطورة الطريق إلى بلون. كان يحمل وثيقة زواج الفوهرر وإيفا براون إلى جانب وصيتيه، السياسية والخاصة، ورسالة من بورمان إلى دوينيتز:

«عزيزى القائد الأعلى: بما أن كل الجيوش فشلت فى محاولاتها للإنقاذ، ووضعنا اليوم يبدو ميئوسا منه، فقد كتب الفوهرر الوصية السياسية المرفقة، وهاى هيتلر. المخلص بورمان».

إلى نفس المقصد، خرج هاينز لورينز، الموظف بوزارة الدعاية، الذى حمل وصية آل جوبلز إلى جانب وصيتى هتلر. كانت تلك الرسائل، «تاريخ النازية فى مواقف البطولة» تستهدف الأجيال التالية، كانت هذه رغبة الوزير. تم إرسال ويلى جوهانمايير، أحد مساعدى هتلر العسكريين للجنرال شوارنر. خرج يحمل الوصيتين وقد أضاف الجنرال بورجدورف رسالة يدوية:

«عزيزى شوارنر. أرسل لك على يد ثقة، وصية الفوهرر التى كتبها أمس، بعد أن بلغه نبأ خيانة هيملر. القرارات بها نهائية. يجب أن تنشرها بمجرد أن يصرح الفوهرر بذلك، أو أن يتأكد موته. مع خالص أمنياتى وتحية "هايل هتلر". المخلص ويلهيلم بورجدورف. سيسلم لك الرائد جوهانمايير الوصية».

كان الخروج من برلين، التى حاصرها الروس وتحولت لساحة معركة، محفوفًا بالمخاطر والمصاعب، غير أن الكثيرين كانوا

ينجحون فى ذلك بصفة يومية، حيث لم تكن كل الثغرات محكمة، كما أن أنفاق المترو وشبكات الصرف، كانت لاتزال سبلا جيّدة للتسلّل. غادر الرسل المخبأ عند منتصف النهار، يرافقهم دليل، هو العرّيف ماريتش، منتهزين لحظة كانت المدفعية الروسية تلتقط فيها أنفاسها. ساروا على النهج المخطط لتفادى دوريات العدو، وتمكنوا من مغادرة عاصمة الرايخ، وبعد أن قضوا ليلتهم فى خندق كتيبة من كتائب شباب هتلر، وصل الأربعة إلى جزيرة فاوان على نهر هافيل، حيث كان يجب أن تقلهم طائرتان برمائيتان. انتظروا بلا جدوى. فى النهاية، ونظرا لأن خطر الوقوع فى أيدى الروس كان محدقا بهم، قرّروا أن ينفصلوا ليمضى كل فى حال سبيله، نحو وجهته. فى الحقيقة، فكّر ثلاثتهم الشىء نفسه: الفرار ونسيان الرسائل، وهو فى الواقع تفكير منطقى، حيث كان ذلك اليوم هو الثالث من مايو، وقد توقفت المعارك. ألقى الحلفاء القبض عليهم بعد عدّة أسابيع، وبحوزتهم النسخ الثلاث من الوصية التى كتبت قبل ذلك بأيام. وهو الأمر الذى لم يعرفه أهل المخبأ.

هؤلاء الزعماء النازيون الذين كانوا يعيشون - حسب تشبيه الوزير شاوب - كما لو كانوا «فى غواصة تسبح فى الأعماق، تحت بحر منازل ووزارات برلين» استيقظوا صبيحة يوم ٢٩ أبريل فى عزلة لم يسبق أن عاشوها. فقد سقط هوائى التليفون اللاسلكى بعد أن تهاوى المنطاد الذى كان يحمله، كما انقطعت خطوط البرق.

لم يتبق سوى الهاتف السلكى الذى كانت خطوطه، خارج برلين، فى غاية التعقيد واتصالاته الداخلية تتم بإدخال أكواد القطاعات. إذا تم الاتصال بأى من مناطق المعركة، كانت الاحتمالات الأربعة التى عادة ما تحدث هى ألا يرد أحد، أو أن يرد صوت يتحدث الروسية، أو أن يرد أحد الألمان ليحكى تفاصيل المعارك الغامضة التى تدور رحاها على بعد أمتار معدودة منه، أو أخيرا أن يرد جندى يلعن عاملة تليفون المخبأ، أنها أدخلت الروس إلى الطابق السفلى ولابد أن يبحث لنفسه عن فرصة للنجاة.

استيقظ هتلر نحو الحادية عشرة صباحا، بعد ست ساعات فقط من النوم غير المريح. كان لايزال متعبا. فكر فى أن ينام لبعض الوقت، لكنه استبعد الفكرة نظرا لأنه يعرف أن لديه الكثير من الأعمال. عندما أشعل الضوء وتمكّن من رؤية الواقع البائس، لم يخفِ قطب جبين من الإحباط، أو ربما من الغضب. كان ينام فى سرير مخيمات فى غرفة رطبة سيئة التهوية، لا تتعدى مساحتها تسعة أمتار، ليس بها من أثاث سوى خزانة صغيرة وخوان سرير. كان وجود خزنة فى الغرفة هو المظهر الوحيد لأهمية الشخص الأوحد الذى يسكن ذلك المكعب، الأصغر من زنزانة السجن. من بوسعه الوجود، مثلا، فى قلعة لاندسبيرج التى سُجن فيها عام ١٩٢٤م، كانت زنزانته هناك واسعة ومشمسة وتقع فى الطابق الأول، وقد خصصت له إدارة السجن بعد فترة زنزانتين إضافيتين،

إحداهما للزيارات والأخرى للكتب. كم كان ممتعا طريق الحصى ذاك الذى كان يتلوى بين أصص زرع الحديقة ويمتد بطول سور السجن! كان يمكنه أن يشتم عبير الأزهار، ويسمع وقع الأحذية على الرمال، ويتذكر حتى محتوى مقالاته التى لم يكن يرسلها لأحد سوى رودولف هيس. ملأته الذكريات بالحنين وخففت من توتر قسماته. تذكر دخوله لاندسبيرج لقضاء عقوبة السنوات الخمس التى حُكم عليه بها عقب انقلاب نوفمبر الفاشل عام ١٩٢٣. حدث ذلك فى شهر أبريل، يا لغرابة المصادفة، لقد مضت عشرون عاما بالتمام. غير أن الموقف والظروف أصبحت مختلفة. كان يتذكر لاندسبيرج، الواقعة على بعد ١٠٠ كيلومتر من ميونخ، ليس باعتباره سجنًا، وإنما قصرًا ريفيًا أرستقراطيًا وبافاريًا مزروعًا وسط سلسلة جبال الألب ذات الأشجار الخضراء التى يرويها نهر ليخ.

ماين كامبف

تم إلقاء القبض على هتلر بمنزل آل هافستاينجيل فى ضواحى ميونخ، فى نحو الساعة السابعة مساء يوم ١١ نوفمبر ١٩٢٣. وفى تلك الليلة، بعد عناء سفر مرير مؤلم، وكتفه المخلوع، وقطع فى يده اليسرى وهزيمة روحه، وصل لأول مرّة إلى سجن لاندسبيرج. ولكن، إذا كانت حالته الجسدية مزرية، فالأسوأ منها كانت حالته المعنوية: حيث فقد الاهتمام بكل ما حوله، وخامرته هواجس انتحارية، وعزف عن الطعام. عندما زاره، فى بداية فترة حبسه هانز كنيرش،

السياسى الوطنى، وجده على تلك الحالة المزرية من الاكتئاب، إلا لكنه تمكّن من إقناعه بتناول طعامه حتى يتسنى له التفكير فى مستقبله بذهن صاف.

تحسنت صحته شيئا فشيئا وتغلّب على الاكتئاب. كان زملاؤه من الـ (NSDAP)، دريكسلر وإيكارت، يقضيان عقوبة السجن أيضا فى لاندسبيرج، فكانا نعم الصحبة لأدولف على الرغم من أن الكاتب مرض مرضا شديدا بعد دخوله السجن بأيام قليلة، حتى إنه قد صدر عفو عنه وتمت إعادته إلى منزله، حيث توفى مع أعياد ميلاد عام ١٩٢٣. لم يكن هتلر معروفا بشدة إخلاصه، لكنه ظل يذكر بكثير من التقدير صديقه وحاميه دوما دياتريتش إيكارت. فى ذلك السجن الهادئ المحاط بمشهد من الثلج، والدافئ والذى يخلو من الإجراءات الأمنية الشديدة، استطاع هتلر أن يجهز دفاعه فى الاتهام الذى تم توجيهه إلى أعضاء انقلاب ٨ نوفمبر.

بدأت المحاكمة فى ١٦ فبراير ١٩٢٤، بطرح غريب: لم تشأ حكومة بافاريا أن يدخل الانقلاب التاريخ وله شهداء، فتم الحكم على عشرة فقط من المسئولين وتم إطلاق سراح الباقين بلا تهم. كانوا نحو مائة من المقبوض عليهم - فى محاكمة تلت على الفور محاكمة المتهمين الرئيسيين - فى حين حُكم على نحو ٣٢ من القيادات الوسطى الـ (NSDAP) بمدد سجن تتراوح ما بين ثلاثة وستة أشهر. كان وزير العدل البافارى، فرانز جيترنر، متعاطفا مع

الأفكار الوطنية الاشتراكية، وقد أسند القضية إلى محكمة مترفقة لتصدر أحكاما مخففة وتتيح حرية التعبير للمتهمين. وهكذا، شاءت الظروف أن يقف أعضاء السلطة البافارية، التى قاومت هتلر فى انقلابه الفاشل فى حانة "بورجربراوكيللر" وهم: فون كاهر، وفون لوسو، وفون سايسر – بعد تجريدهم من مناصبهم ومنعهم من مواصلة عملهم السياسى –، قفوا باعتبارهم شهودًا، وفى أوقات كثيرة، بدو متهمين لهجوم هتلر.

الزعيم النازى، الذى ألقى خطبتين خلال المحاكمة: واحدة عند بدايتها والأخرى فى جلستها الختامية، حصل على جمهور لم يكن ليحلم به من قبل، فقد تجاوزت أفكاره حدود كل ألمانيا، لتصل أصداؤها إلى العالم الخارجى. كان الحكم مخففا، بعد جلسات عديدة ولم ينح منحى العدل، بقدر ما نحا إلى الاهتمامات السياسية فى بافاريا وبإيديولوجية وزير العدل. حُكم بالسجن خمس سنوات على هتلر، وبوهيرنير، وكريبل، وويبر– على الرغم من أن جرمهم كان يمكن أن يستوجب العقوبة القصوى– أما روم، وفريك، وبروكنر، وبيرنيت، وواجنر فقد حُكم عليهم بالحبس لمدة خمسة عشر شهرا، لكنهم خرجوا بمجرّد أن قضوا منها ستة أشهر، بعد أن تعهدوا بعدم العودة لذلك. أما لودندورف فقد كانت البراءة من نصيبه.

عاد هتلر إلى سجن لاندسبيرج فى ١ أبريل ١٩٢٤، مساء يوم صدور الحكم. كان استقباله فى السجن استقبال المشاهير. رحب به مدير السجن، وكذا العاملون الذين كانوا طوال الوقت يظهرون احترامهم ويقدمون خدماتهم. كانت غرفته، زنزانة تحمل رقم ٧. واسعة وجيّدة التهوية ولها نافذتان تطلان على نهر الليخ. كان أثاثها: سريرًا معدنيًا ذا مرتبة وأغطية، منضدة، كرسيين، مصباح، وصوان، إلا أن هذا الأثاث المتواضع كانت تزينه باقات ورود وهدايا تصله من كل ألمانيا، ومن النمسا وتشيكوسلوفاكيا، حتى إنه أصبح من الصعب القول إن تلك الغرفة هى فى الحقيقة زنزانة لولا قضبان النافذتين. زجاجات خمر، علب حلوى، كل أنواع المعلبات، والألعاب، والمنتجات التقليدية، وأنواع السجائر، ومعاطف، وكتب، ونقود، وزيارات، كلها عرفت طريق سجن لاندسبيرج فى أسابيع سجن هتلر الأولى، وساعدت فى تحسين استقراره، حتى إنه اعترف بعد ذلك بأن السجن كان بالنسبة له «سنة جامعية منحتها إياه الحكومة».

قال ذلك، حيث إنه بعد أيام قليلة من عودته إلى السجن، انقلب نظام سجنه رأسا على عقب. بدعوى الزيارات المتعددة التى كان يستقبلها، استطاع بعض ذوى النفوذ أن يقنعوا إدارة السجن بتخصيص زنزانة مجاورة ليستقبل فيها زواره، وهى الزنزانة التى كانت دوما تزدان بالزهور التى كانت معجبات الزعيم النازى يرسلنها

له بلا كلل على مدى سنوات سجنه. بعد ذلك بفترة، بدأ يكتب مقالات لصحف، تلاها كتاب ماين كامبف (كفاحى)، وهى الأعمال التى رأى مدير السجن أنها جديرة بأن تجهز له زنزانة باعتبارها مكتبًا، زودها فيها بمكتب، ومكتبة صغيرة، وآلة نسخ قديمة.

فى ذلك الوقت، كان سائق هتلر إميل موريس، يكتب له بإصبعين فقط ولكن بحماسة كبيرة. كانت مهنته إصلاح الساعات، وعربيدا بالأجازات، وسائق سيارات ماهرا. إلا أن نيَّات إميل الطيبة لم تكن لتشفع لضحالة معارفه، وهو ما يمكن أن يعانى منه شخص قليل الثقافة الأدبية كهتلر. إلا أن صديقه الوفى رودولف هيس جاء ليمد له طوق النجاة، فبعد أن تمكن من الهرب إلى النمسا عقب الانقلاب، عاد ليسلّم نفسه للعدالة البافارية بعد محاكمة هتلر. فحُكم عليه بالسجن، ودخل لاندسبيرج فى ١٥ مايو، فحصل بهذا هتلر على سكرتير ممتاز: كان هيس قد ارتاد الجامعة وكان غزير القراءة ويكتب بطلاقة. أخيراً تم إنقاذ ماين كامبف.

كان الكتاب يهدف لأن يكون سيرة ذاتية، وأن يخوض فى أحداث نوفمبر ١٩٢٣. إلا أنه انتهى بكونه، أفضل عرض لفكر وشخصية هتلر. صاغ الكاتب حكايته، كتب الأحداث كيفما أراد أن تكون، وصاغها على النحو الذى تمنى أن تخرج صورة مثالية له. على كل الأحوال، لم يكن لديه الكثير ليتحدث عنه، فسرعان ما انجرف إلى هجائه المعهود: خطر اليهود، وعار الشيوعية، و «طعنة الظهر» من

الملكية والراسماليين والديمقراطيين الاشتراكيين، وسطوة الإعلام، ثم حقارة وانعدام فائدة الرايخستاج، وتفوق الجنس الألمانى، والحاجة الإمبريالية لتوسيع الحدود ناحية الشرق، والحاجة الملّحة لرجل ذى حضور يسخّر كل إمكاناته لإنقاذ ألمانيا. نسج من كل تلك الأفكار وغيرّها مما كرّس له، مرارا وتكرارا، خطبه فى السنوات الأربع الأخيرة، سجلا سياسيا مطولا ومتكررا. كتب بأسلوب وصفه آلان بولوك، أهم مؤرخيه، بالـ «المنمق، المزخرف، المتحذلق ومتصنع الفكرية». قال بولوك:

«كان النتاج عبارة عن كتاب قد يهم أولئك الذين يسعون لتحليل أطوار هتلر الذهنية، إلا أنه عمل فاشل فيما يتعلّق بالحزب النازى أو إذا حكمنا عليه باعتباره عملاً سياسيًا ذا اهتمام عام. لم يصبر سوى القليلين على قراءته حتى النهاية، حتى من كانوا من أتباع هتلر».

مع ذلك، كان لابد أن يثير الكثير من الاهتمام، فلو أن مسئولى السياسة فى بافاريا أو حتى باقى الشعب الألمانى قرأه، لتوقف تقدم هتلر عند تلك النقطة. كان الكتاب يقطر دموية وانعداما للرادع والسعى للاستحواذ على السلطة، دون الالتفات إلى الثمن. كان "ماين كامبف" يكشف عن برنامج هتلر فى السعى إلى السلطة وتدمير الجمهورية وغزو العالم.

احتفل هتلر بعيد ميلاده الخامس والثلاثين فى ٢٠ أبريل ١٩٢٤، محاطا بأصدقائه، ووسط احترام وإعجاب سجّانيه الذين كان

يسيطر عليهم بنظراته وهيبته وهداياه وسلوكه المسالم النموذجى. كان يستيقظ فى السادسة صباحا ليستمتع بجمال ذلك الجو الربيعى. كان يتفانى فى نظافته الشخصية ونظافة غرفته قرابة الساعة، يتناول إفطاره فى السابعة صباحا وحده أو برفقة أحد أصدقائه. بعدها يذهب فى نزهة طويلة إلى الحديقة، يعود بعدها لمكتبه، ليرد على الرسائل الكثيرة التى كانت تصله. فى العاشرة، كان يجمع سجناء النازية فيلاندسبيرج - الذين بلغ عددهم فى وقت ما أربعين سجينا - ليقرأ عليهم مقاطع مما كان يكتب، وكان يستمتع بمناقشتهم فى محتواه، وإن كان لا يوجد تصريح حول تجرؤ أحد على مقارعة حججه أو مناقضة استخلاصاته. كان الغداء يقدَّم فى منتصف النهار. كانت الوجبة الوحيدة التى يتناولها برفقة باقى السجناء. كان يصل بعد أن يجلس الجميع. كان يجلس على رأس المائدة التى عادة ما كانت تُحجز له. لم يكن السجناء يجلسون حتى يفعل هو. أثناء الوجبة، كان يتحدث مع جيران كرسيه فى شتى الموضوعات، متجنبا السياسة. بعد الغداء، يأتى وقت الدردشة، وهو الوقت الذى عادة ما كان أصدقاؤه يستغلونه لتقديم الهدايا له وكلها مما كان شائعا فى السجن. ينهض، عندما يرى الوقت مناسبا لذلك، وينهض وراءه الحضور وينتظرون وقوفا أن يغادر المقصف. كان يعود، بعد ذلك، إلى غرفته، ليستقبل زواره، أو ليرد على رسائله أو ليملى بعض الفقرات من ماين كامبف.

فى تمام الرابعة عصرا، يتناول الشاى مع أصدقائه وفى الخامسة إلا ربع، يخرج ليتنزه، لمدّة ساعة، فى الحديقة. كان عشاء المساجين، يقدّم فى السادسة مساء، إلا أن هتلر لم يكن يتناوله فى المقصف، وإنما فى إحدى الزنزانات المخصصة له، مع زملائه من الزعماء النازيين المحكوم عليهم مثله. يتحاور معهم بعد العشاء لفترة، يعود بعدها للعمل مجددا على الكتاب حتى تمام التاسعة مساء، وهى الساعة التى يتعيّن على كل مسجون أن يعود لمحبسه. كان نظام السجن يقضى غلق الأنوار فى تمام العاشرة مساء، إلا أنه كان يسمح لهتلر بغلقها وقتما شاء. كان عادة ما يفعل ذلك عند منتصف الليل، حيث كان يخصص تلك السويعات للقراءة. روى شهود عيان من ذلك السجن، أن هتلر كان هو المدير الفعلى للسجن؛ فقد كانت كل الأمور تسير وفق نظام عسكرى صارم، ولم تحدث خلال سجنه أية صراعات ولا حالة واحدة للخروج عن النظام.

أصبح هذا النوع من الحياة الرتيبة، الهادئة والمشغولة فى لاندسبيرج حجر أساس فى مستقبله. فلم تكن صحة هتلر قد تحسنت فقط وزاد وزنه، وإنما توصل خلال فترة سكون السجن أن زمن الانقلابات السياسية قد ولّى، وأن السلطة يجب أن تؤخذ من داخل النظام: فى البداية، لابد من دخول البرلمان. هناك كتب الجزء الأول من ماين كامبف، والذى ظل يحصل من حقوق نشره على مبالغ طائلة حتى وفاته. بدأ يتأمل فى السجن إلى مخطط لأحد

أهم مشروعاته الإيجابية، ذلك المتعلّق بأن يكون لألمانيا أفضل شبكة طرق على كوكب الأرض وأن تتوصل صناعة السيّارات لصناعة طراز شعبى فى مقدور أى فرد من الشعب اقتناؤه. هناك أيضا جاءته فكرة مشروع آخر، ليس بنفس الإيجابية، ألا وهو الـ «ليبينسروم» أو (المجال الحيوى) الذى كان يهدف لتوسيع الساحل الشرقى على حساب الأراضى الروسية، من أجل تحقيق أهداف ألمانيا التوسعية. فى لاندسبيرج تمكن من كسب احترام سلطات بافاريا.

ساعده فى هذا الإنجاز الأخير، مدير السجن، الذى كان سعيدا جدا بسجينه. كما كان شديد الفخر بمهارته: كان يكفيه أن يقول - متفاخرا بين أصدقائه - بعض الامتيازات لكى يحول تلك المجموعة من النازيين الأفظاظ إلى قطيع من الحملان الوديعة، ولكى تسير فترة العقوبة على أحسن ما يرام. مع بدايات خريف ١٩٢٤، كتب مذكرة لإدارة العدل ذكر فيها عددا من الموضوعات، من بينها:

«يثبت هتلر نفسه باعتباره سجينًا هادئًا ونظاميًا، ليس فى شخصه فقط، وإنما فى تأثيره على باقى المساجين، مما يسهم فى حفظ النظام. إنه مطيع وهادئ ومتواضع. لا يبالغ أبدا فى طلباته، يتصرف بطريقة مقبولة ويتقبل تماما ضيق حياة السجن وعوزها. لا يتكبر ويقتصد فى الطعام. لا يدخن ولا يشرب ويمارس سلطته

على غيره من المساجبن، شديد الأدب ولم يسب أيًا من موظفى السجن.

«سيعود هتلر بلا شك إلى الحياة السياسية. إنه يخطط للم شمل حزبه وبعثه من جديد، ولكن بلا مواجهات مع السلطات. سيسلك كل السبل للوصول إلى هدفه، ما عدا محاولة ثانية للوصل إلى السلطة.

«إن أدولف هتلر رجل ذكى، وهو موهوب سياسيا ولديه قوة إرادة لا تلين وتمسك لا يذوى بأفكاره».

كانت معرفة مدير سجن لاندسبيرج بهتلر متواضعة. كانت السلطات البافارية أقل تفاؤلا بخصوص إصلاح هتلر، إلا أن الحقيقة كانت تؤكد أن سلوكه كان حسنا، مما فتح أمامه أبواب السجن، وهو ما حدث فى ٢٠ أبريل ١٩٢٤. توجد صورة تسجّل لنا الموقف: هتلر، بدين بعض الشىء وبجبين مقطب، يستند إلى سيّارة صديقه أدولف موللر، الذى توجه لاصطحابه. كان يرتدى سترة وسروالا قصيرا وجوربا طويلا وحذاء ذا رقبة قصيرة. وصلا إلى ميونخ فى المساء وتوجه إلى شقته، حيث كان أصدقاؤه يقيمون له احتفالا بعودته. تم استقباله بعاصفة من التصفيق ووضع أحدهم إكليلا من الغار على هامته. ذكر دافيد لويس أن الباب قرع، بينما الجميع مشغولون بالشراب أو المناقشة، وكانت سيّدة تدعى فراو

بفيستر تمر على البيوت لتجمع المال لإصلاح آلة أورغن كنيسة الحى. استمع لها هتلر بكل لطف وأعطاها مظروفا. كان ذاك مبلغ المال الذى جمعه أصدقاؤه له لدى خروجه من السجن ليبدأ به من جديد. تحولت فراو بفيستر بعد ذلك لإحدى أبرع الشخصيات الدعائية للزعيم النازى.

البحث عن المصير

كانت نصرة هتلر عند خروجه من السجن نصرة كاذبة، فقد تم منعه من الإدلاء بأية أحاديث عامة، كما تمت مصادرة جريدته (Volkischer Beobachter) (عين على الشعب)، وتم إغلاق مقر حزبه وكانت خزينته خاوية تماما. تراكمت عليه الديون الشخصية وأصبح حزب الـ (NSDAP) منقسما، حيث تحالفت مجموعة من الأعضاء، مع قوى سياسية أخرى وخاضت الانتخابات البرلمانية وأصبح لها تواجدها البرلمانى. اختفت خطبه الرنانة أثناء محاكمته - بدايات عام ١٩٢٤ - فى غياهب النسيان وتحول انقلاب ١٩٢٣ الفاشل إلى مجرّد فصل من فصول حكم جمهورية فايمار.

كانت ألمانيا قد تغيّرت كثيرا خلال الأربعة عشر شهرًا التى قضاها هتلر فى السجن. واصل النمو المطرد للاقتصاد صعوده وانخفضت معدلات البطالة. أما فيما يتعلّق بالسياسة، فقد تحسَّنت أحوال الحكومة بنجاح الأحزاب المعتدلة فى انتخابات ٧ ديسمبر١٩٢٤. فحكموا بدعم من الاشتراكيين، فى حين خسر

الشيوعون ثلث أصواتهم ولم يحتفظ الوطنيون إلا بنصف الأصوات.
أما على المستوى الدولى، فقد كانت التغييرات جذرية: حتى تتمكن ألمانيا من مواجهة أعباء الخروج من الحرب، قامت الولايات المتحدة الأمريكية بوضع خطة درستها لجنة أداوسب وقضت بتخفيض ديون ألمانيا من ١٣٢,٠٠٠ مليون مارك ذهب، إلى ٢٦,٠٠٠ مليون، بدون الفوائد المستحقة - وعليه كان على برلين أن تسدّد ٣٧,٠٠٠ مليون مارك ذهب، بواقع ١٠٠٠ مليون سنويا. أقنع مستشار وستريسمان أن هذه الأرقام ليست بذات صعوبة على ألمانيا، كما أنه، مع مرور الوقت، يمكن أن تخفّض أو حتى أن تلغى. أعلن وزير خارجية ألمانيا استعداده التوقيع، بشرط أن تخلى فرنسا الروهر فى فترة أقصاها عام. تم توقيع الاتفاقية فى لندن فى ١٩ اغسطس ١٩٢٤.

كان أكبر أحداث مراحل استقرار ألمانيا هو وفاة إيبرت، أول رئيس لجمهورية فايمار، فى ٢٨ فبراير ١٩٢٥. بعد أن قاد ألمانيا خلال أسود أيامها. خلفه فى الرئاسة المشير هيندنبورج ذو الثمانين عامًا، لكنه لم يكن يملك رؤية ولا حنكة، مع ذلك كان يحظى بقبول من المحافظين والوطنيين. لم يكن هتلر يعلم وقتها، ولكن رئاسة هيندنبورج فتحت له أبواب السلطة. ولكن كان ذلك لايزال على بعد سنوات ضوئية كثيرة: كانت بافاريا تسعى لدفعه للعودة إلى النمسا، إلا أن هذه الأخيرة نزعت عنه الجنسية وقررت

١٠ من أصل ١٤ ولاية فى ألمانيا، بموافقة ٩٠ بالمائة من السكان حظر أحاديثه العامة فى داخل أراضيها. لم يكن الحزب الوطنى الاشتراكى قد حقق انتشارا كبيرا، فقد بلغ عدد أعضائه ثمانية وعشرين ألفا ممن سددوا اشتراكاتهم، غير أن المشكلة كانت فى الخلافات الداخلية، لعل أخطرها كانت تلك التى تزعمها الإخوان ستراسر الذين اقتربوا من إقصاء هتلر عن الحياة السياسية.

وإذا كان «كفاحه» لم يكن يؤتى بالثمار المنشودة، فإن حياته العاطفية كانت تتحسن بشكل مطرد. فقد ولّت أيام رسّام بطاقات البريد وخطيب الحانات. فبعد أن أصدر كتابه ماين كامب،عام ١٩٢٥. حصل على حقوق مؤلف كفلت له حياة كريمة. ومن ناحيتهن، واصلت معجباته منحه العطايا السخية، كما تبرعت له العديد من المؤسسات الصناعية بمبالغ غير مسبوقة. كان هتلر يعيش مع نهاية عام ١٩٢٥. أى بعد سنة من خروجه من السجن، مثل الأمراء. استبدل غرفته المتواضعة فى ميونخ بأخرى أفضل بكثير، وكان يتناول غداءه وعشاءه فى أفضل مطاعم المدينة ويقضى الأمسيات فى دور العرض السينمائى أو فى دار الأوبرا. باعته شركة "مرسيدس بينز" اثنين من أفضل طرازاتها، إحداهما للـ (NSDAP) والأخرى لاستخدامه الشخصى، وهو الطراز الذى أبهر شيراخ الذى رآه يصل به إلى فايمار: «فجأة اقتربت سيّارة لم أر لها مثيلا، اللهم فى بعض الصور، كانت من طراز "مرسيدس كومبريسور" ذات

المقاعد الستة والإطارات اللامعة. لقد انبهرت». فى تلك الفترة، قام باستئجار شاليه يقع بين بيرشتسجادين وأوبيرسالزبورج على سفح جبال الألب النمساوية، فى بافاريا العليا. هناك عشق النزهات الطويلة برفقة كلبه برينز، أول كلب اقتناه خلال حياته السياسية، وإن كان يبدو أنه قد سبق له اقتناء كلب أبيض فصيلة تيريير يدعى فوكسل، لكنه اختفى عام ١٩١٧. فى هذا الشاليه، أملى على هيس الفصول الخمسة عشر من الجزء الثانى من ماين كامبف.

بيد أن قطار حياته باعتباره ثريًا برجوازيًا، لم يقض على غريزته السياسية ولا على شغفه بالسلطة. فعلى الرغم من حظر الكلام العام الذى فُرض عليه، فقد سخر نفسه لإعادة ترتيب أوراق الحزب. جاء أنجح خطواته تقسيمه لنطاق العمل للـ (NSDAP) فقد قسمه إلى ٢٥ مقاطعة، هى عدد ال ٢٥ دائرة انتخابية التى كانت ألمانيا تتكون منها. كان المسئول عن كل منطقة يدعى جاولوتيير. فى هذه الفترة أيضا تم إنشاء مجموعة الحماية: «تشوتستافيل» التى عرفت فى العالم أجمع بالاختصار: الأس أس، والتى انطوى تحت لوائها وتحققت، خلال سنوات قليلة، تحت رايتها إمبراطورية حقيقية من الرعب والجريمة. انضم هاينريش هيملر إلى الأس أس، تحت رقم ١٦٨ ومع مرور الوقت أصبح رئيسها وواحدا من أبشع رجال النازية.

أدى تفرغه للأعمال البيروقراطية، وابتعاده عن اتخاذ خطوات عمل، ومعاملته الواهنة للسلطات البافارية - التى كان ينتظر أن تلغى حظر الكلام عنه فى الاجتماعات - وتقربه من رجال الصناعة ومن البرجوازية - الذين كان يحتاج لأموالهم لإعادة إنشاء الأس أى- وقطار حياته المتسارع، إلى إهمال حالة الانقسام التى وقعت بين مقاطعة الجنوب، التى تضم المحافظين والفلاحين، من ناحية، ومقاطعة الغرب والشمال، التى كانت تسعى لتحسين أحوال المناطق الصناعية فى ألمانيا وتتنازعها حتى التناحر مع الحزب الشيوعى. أدى هذا الصراع لظهور يسارية راديكالية راحت تدعم بعض المبادئ التى لم تكن تختلف كثيرا عما تدعو له الشيوعية. ظهر جريجور ستراسير باعتباره زعيمًا للوطنية الاشتراكية، وعلى الرغم من حبه وإعجابه بهتلر، فإن كان يرى أنه واقع تحت سيطرة مجموعة من المستشارين البرجوازيين الفاسدين أبعدوه عن الإيديولوجية الأولى لـ (DSNAP) .

فى صراعه ضد «برجوازى»، ميونخ وجد ستراسير حليفا سيصبح أحد أهم زعماء النازية: جوزيف جوبلز. تعرف إليه فى اجتماع دعى إليه فى روهر، وكان انطباعه الأول محبطا. وجد ستراسير، الضخم الجثة، ، فى استقباله على المحطة شخصا ضعيف البنية، قصير القامة، أعرج وعنيدا. ومع ذلك، استطاع أن يلمح فيه بعض الميزات: نظرته البراقة، صوته الجميل القوى منتظم

النبرة، ميزات بدت غريبة على شخص هزيل مثله. لم يلبث ستراسير أن وجد فى مضيفه ميزات أخرى: كان مثقفا وذكيا، على الرغم من تأصل الحقد الطبقى فيه نظرا لأصوله المتواضعة ولفشل رغبته فى أن يصبح كاتبا وبسبب عقدة شكله القبيح. بدا لستراسير شخصا مميزا حتى إنه عيّنه سكرتيرا له على الفور بمرتب ٢٠٠ مارك شهريا.

شكّل ستراسير وجوبلز فريقا رائعا. وتمكنا معا من توحيد رؤساء مناطق الشمال والجنوب فى جماعة عمل صاغت برنامجا يتناقض بصورة واضحة مع ذاك الذى وضعه هتلر. كانا يدعوان إلى تأميم كل الثروات التى تدر دخلا، على أن تقوم الدولة بالتأجير للقطاع الخاص الذى يثبت كفاءته. كانا يهدفان لتحويل ألمانيا إلى اتحاد، ويرفضون مبدأ السلطة والديكتاتورية ومعاداة السامية المطلقة وأفكار هتلر حول تفوق الجنس الآرى ووصفاته لإنقاذ ألمانيا. من ناحية أخرى، كان جوبلز يميل، نوعا ما، إلى اللينينية، ومن ثم أصبحت لجنة العمل على استعداد لعقد صداقة مع الاتحاد السوفييتى وإلى توسيع معاهدة راباللو.

استشاط هتلر غضبا إزاء هذه التوجهات المغايرة تماما لمبادئه والمتناقضة مع النظريات الحزبية الرسمية التى صاغها بنفسه، وحواها الماين كامبف، الذى كان يعتبره إنجيلا لكل نازى بحق، غير أنه لم يكن يملك القوة لإيقاف هذا التيّار. كانت المواجهة مقبلة لا

محالة، وقد حدثت عندما طالبت بعض الأسر الغنية، التى تم تأميم ممتلكاتها خلال أحداث ١٩١٨ ، ١٩١٩، الثورية، بالتعويض المستحق لها بموجب دستور فيمار. كان هتلر يدعم تلك المطالبة هو ورؤساء مناطق الجنوب والشرق، فى حين أعلنت جماعة العمل اعتراضها التام.

ومن أجل توحيد الرؤى تمت الدعوة لعقد اجتماع فى هانوفر فى ٢٥ يناير١٩٢٦. لم يحضر هتلر وإنما أرسل ممثلاً عنه جوتفريد فيدير، إلا أن جوبلز لم يدعه يتحدث وأشار إليه قائلا: «فليخرج الجواسيس من هنا». أكد أتو ستراسير، الشقيق الأصغر لجريجور، أن جوبلز قد شدّد فى ذلك الاجتماع على أن «يتم طرد ذلك البرجوازى الصغير هتلر من الحزب». قد تكون رواية لطيفة، ولكن يبدو أتو ستراسير قد اختلقها بعد ذلك بسنوات، وقد تحول بعدها إلى عدو لدود لجوبلز. فشل الاجتماع بالنسبة لهتلر، حيث صوتت الغالبية ضد قبول طلبات التعويض. وليس هتلر بالرجل الذى يترك ذراعة تلتوى: فقد دعا إلى اجتماع ثان فى ١٥ فبراير ١٩٢٦، فى بامبيرج لم يوافق فيه على أى من اقتراحات مجموعة جريجور ستراسير. استمال بخطابه الكثير من الحضور وأثّر فى رأى البقية. وقبل أن يتدخل ستراسير عرض عليه منصب الرجل الثانى فى الحزب ورئاسة المنطقة الشمالية وتصريحًا بمطبعة وصحيفة فى برلين.

قبل ستراسير عرض هتلر وهجر جماعة العمل. أما جوبلز فقد شعر بأنه «قد تلقى ضربة على قفاه» وراح يتساءل على صفحات جريدته: «من هو هتلر؟، هل هو ثورى؟»، بعد أن رأى عمل وجهد الشهور ينهاران على يد هتلر كقصر من أوراق اللعب. إلا أنه لن ينتظر طويلا حتى تزول مرارته، ففى ذلك الصيف، سيأكل من يد الفهرر.

وقع اللقاء، ذو الأهمية بمكان، بالنسبة لمستقبل النازية بين الرجلين فى المؤتمر الثانى للـ (NSDAP) الذى عقد فى فايمار من ٥ إلى ٧ يوليو من عام ١٩٢٦. كان هتلر قد رتب له بكل دقة، لتلافى أية انشقاقات. عقد الاجتماع فى نفس المسرح الذى شهد صياغة دستور دولة فايمار قبل ذلك بسبع سنوات. وقف على المسرح الضخم نحو ٥٠٠ من حملة الأعلام، يشكلون هلالا، ورفعوا رمز الصليب المعقوف. وقف أمامهم أربعة بيارق مربّعة تزينت صواريها بصقور فضية فيما يشبه الحشود الرومانية أو القوة الخاصة التى فرضتها فى إيطاليا «القمصان السوداء» الخاصة بموسولينى. كانت أعظم لحظات المراسم عندما أعلن مدير المسرح وصول «الراية الملطخة بالدماء» تلك التى تصدرت فى ٩ نوفمبر ١٩٢٣ مسيرة النازية التى أوقفتها الشرطة قبل وصولها إلى ساحة أوديونبلاتز. حملها أعضاء من الأس أس، ذلك التنظيم الجديد الذى تم تقديمه، فى ذلك اليوم لأعضاء الحزب والتحم مع حاملى الصلبان المعقوفة

والبيارق وأعلام النازية التاريخية، فى نفس الوقت الذى باركه كاهن كاثوليكى وقسيس بروتستانتى. أبهرت الاحتفالية المهيبة الحاضرين، وزاد ذهولهم عندما استعرض هتلر أمامهم ١٥,٠٠٠ من أعضاء ساحة الأس أى بزيهم الموحّد. فى ذلك البحر من القمصان البنية برزت القمصان السوداء لأعضاء الأس أس الأوائل.

بعد استعراض القوة، فرض هتلر بلا نقاش «مبدأ القائد»[١]، وهو ما يعنى انفراده بالسلطة، وإرادته المنفردة على الحزب. ولكن فى فايمار على الأخص كسب جوبلز، وحرم ستراسير بذلك من ذراعه الأيمن وحصل لنفسه على أفضل رافعة نحو السلطة. فى نهاية المؤتمر دعاه لتمضية بضعة أيام بصحبته فى بيرشتيسجادن. تحت سفح جبال الألب فى سالزبورج، أطلق هتلر العنان لسحره وقدراته الإقناعية ليستقطب إليه المعارض اللامع، وقد تم له ذلك للأبد. كتب جوبلز بانبهار عن هتلر فى مذكراته: «إن هتلر أداة من أدوات القدر. لطيف، طيّب، كريم كطفل صغير. وادع، ماكر وناعم كهر. يزأر ويتوحش كأسد». كان شبه مغيب، حتى إن هتلر استطاع إقناعه للقيام بأصعب مهامة على الإطلاق للـ (NSDAP): غزو برلين.

كانت برلين بمثابة تحد مستحيل. كانت عاصمة الجمهورية هى أكبر مدينة أوربية، يقطنها أربعة ملايين نسمة على مساحة قطرها

---

(١) بالألمانية: (Führerprinzip).

٢٠ كم ويقدر إجمالى مساحتها بـ٩٠٠ كم مربع. كان الحزب الشيوعى هو المسيطر على الشارع السياسى. وكان زرع (NSDAP) لا معنى له، حيث لم يتجاوز عدد أعضائه الإيجابيين١٠٠٠ ممن يدفعون الاشتراكات، وما زاد الطين بلّة، كان ضمن قطاع ستراسير. قبَل جوبلز التحدّى ووصل برلين فى ١ نوفمبر ١٩٢٦ وهو فى الخامسة والعشرين من العمر ولم يكن وزنه يزيد على خمسين كيلو جرامًا.

قضى ثلاث سنوات فى كفاح بلا حدود، فراح يكسب تأييد أحياء العمّال بضربات متكررة، وفرض نظام وعنف الأس أى مكان الارتجال الشيوعى، واشترى الكثير من الذمم، وأصدر العديد من الصحف، التى أقل ما كانت تهتم به هو الحقيقة وزيادة أرقام التوزيع كانت غايتها. كان يصنع الأبطال ويؤلف الشعارات ويفضح أعداءه السياسيين، ويعمل على أن تتحول الكذبة إلى حقيقة بتكرارها آلاف المرّات مستغلا كل وسائل الدعاية، وانتهى بمضاعفة الأعضاء مئات المرّات حتى إنه، مع حلول عام ١٩٣٠. كانت أعداد الأس أى قد وصلت إلى ستين ألفا، وتحول مكتبه المتواضع إلى قصر يضم ثلاثين غرفة. يعود إلى هذه الفترة ابتكار فكرتين ستكونان علامات مميّزة للنازية: تحية (Heil Hitler) والذراع ممدود، والتسمية (Mein Fuhrer). على الرغم من حدة ذكائه وطاقته وإقدامه الذى لا يقف عند حد وعبقريته الدعائية، كانت

السنوات الثلاث التى استغرقها لتحقيق النجاح، تعتبر عسيرة من حيث التقدم البطىء والإحباط المتكرر، ليس فى برلين فقط وإنما فى كل ألمانيا.

كان هتلر قد استعاد حق الكلام فى الأماكن العامة فى بافاريا عام ١٩٢٦، وفى باقى الولايات عام ١٩٢٧. لكن خطبه الرنّانة والتنظيم الممتاز لمناطق النفوذ ومواكب المشاعل ومسيرات الأس أى لم تفلح فى إخراج الحزب عن نسبته المتواضعة فى الانتخابات. ففى انتخابات عام ١٩٢٨ البرلمانية، حصل الـ (NSDAP) على ٨١,٠٠٠ صوت (٢,٦ من إجمالى الناخبين) وحصل على ١٢ مقعدا فى الرايخستاج. ما حدث هو أن إقدام النازية وعداوتها لليهود وللشيوعية ومهاجمتها للراسمالية والعدو الخارجى وصرخات «استيقظى يا ألمانيا» ووطنيتها المتطرفة وعنصريتها، لم تجد أرضا خصبة تحتضنها. لم تكن ألمانيا تستمع لهذا لأن الحياة فيها كانت قد تحسنت: انخفضت البطالة عام ١٩٢٨ إلى ١,١١٢,٠٠٠ شخص، وأصبحت المرتبات من أفضل ما عرفه القرن. على الصعيد الدولى، كانت ألمانيا قد عادت إلى حظيرة العالم بموجب اتفاق: برايان - كيلوج. قررت برلين، وباريس/ ولندن عدم اللجوء إلى الحرب والتفرغ لحل خلافاتهم. دخلت ألمانيا عصبة الأمم وانسحبت فرنسا من روهر، وتفاوضت على انسحابها من الضفة اليسرى من الراين. حتى إن قوات الرايشويهر القليلة كانت تكفى احتياجات

اللحظة: كان الجنود يمكثون فى الصفوف لعشر سنوات، مما يكسبهم المهارة، فى جيش من «ضباط الصف» كما أتاح اتفاق راباللو أن يتلقى الضباط الألمان تدريبا فى الاتحاد السوفيتى على الأسلحة المحظورة بموجب معاهدة فرساى. مع كل ذلك كانت ألمانيا تعانى من مشكلة: أن سداد ديون الحرب وتكاليف الرفاهية تعتمد فى الأساس على الاستثمارات الخارجية، وهذا ما لم يرد أحد الالتفات إليه حينها.

وإذا كان هتلر لم يحرز تقدما كبيرا فى مسيرته نحو السلطة، فإنه أنه كان يتقدم على المستوى الشخصى، والشهرة والثروة. ترك شقته وأقام فى منزل كبير يتكون من تسع غرف، وعمل لديه ١٢ شخصا فى خدمته، بمن فيهم خادم شقة ميونخ وخادم شاليه الألب وسكرتيراه وسائقه. بالتأكيد، كانت هذه أكثر فترات حياته سعادة وتواصلا اجتماعيا. بلغ عام ١٩٢٩. العقد الرابع من عمره وكان رجل سياسة ذا مستقبل واعد، وله حزب يتقدم ببطء ولكن بثبات. كانت لديه حياة أسرية، فقد استقدم أخته غير الشقيقة إلى ميونخ، وكانت تدير له منزله فى برشتاسجادن ترافقها ابنتها چيلى روبال التى كانت تجمعها بهتلر علاقة لم يكشف عن كنهها بعد. كان أعداء هتلر السياسيون يصفونه بالعجز أحيانا وبالشذوذ أحيانا أخرى، إلا أنه كان يبدو شخصا طبيعيا من الناحية الجنسية، فالتشريح الشهير الذى أجراه الروس، بعد دخولهم برلين، كشف عن ضمور فى إحدى خصيتيه، وهو العرَض الذى كثيرا ما يصيب الرجال

الطبيعيين جنسيا. وردت فى مذكرات إيفا براون عبارات كثيرة توحى بعلاقات مشبعة: «تغمرنى سعادة بالغة لشعورى أنه يحبنى كثيرا وأصلى من أجل أن يظل يحبنى هكذا إلى الأبد» أو «الأحوال على ما يرام وأنا حبيبة أعظم رجال ألمانيا والعالم»، ومن ثم نرجح أن أدولف هتلر وجيلى روبال كانا حبيبين، وأن هتلر لم يقبل أبدا الزواج منها، لأن حبه الأول وشغفه الرئيسى كان موجها إلى السياسة وإلى ألمانيا. من ناحيتها، لم تقبل چيلى روبال أبدا الدور الثانوى المتاح لها. على كل حال، على الرغم من العديد من المواقف العنيفة بين الخال وابنة الشقيقة، فإنهما عاشا معا مدة عامين فى منزل ميونخ الكبير.

كان هتلر يعيش الحياة كما يحب. يستيقظ متأخرا ويخرج عند الظهيرة متوجها إلى مكاتب الحزب وإلى ستوديو هوفمان، أو كان يقضى الساعات الطويلة فى مكتب المهندس لمتابعة الرسومات، وهو يتابع تحويل قصر بارلو باعتباره مقر الـ (NSDAP). كان يتناول غداءه عادة فى مطعم بافاريا، أحد أشهر مطاعم ميونخ، ليس من قبيل الشهرة وإنما لعشقه الطعام، حيث كان يميل فى تلك الفترة إلى الطعام الخفيف من الخضروات. فى المساء، عادة ما يبقى للعمل بمقر الحزب حيث كان يعامل باعتباره رئيسًا للبلاد. عندما تم افتتاح مقر الـ (NSDAP) فى قصر بارلو التاريخى، عرف بين الناس باسم «البيت البنى». هناك كان لهتلر مكتب يتفق مع أمنياته

ذو ديكورات شديدة الرمزية: خلف مكتبه صورة كبيرة لفريدريك الكبير[1]، قرب المنضدة تمثال نصفى لموسولينى فى وضعية افتخار، وتعلوها صورة لوالدته كلارا لم تفارقه منذ وفاتها عام ١٩٠٧. على أحد الجدران جدارية كبيرة تمثل هجوم كتيبة «ليست» على مواقع الإنجليز فى وايشايتى، أول عهد هتلر بطلقات النار والتى جلبت له الصليب الحديدى من الصف الثانى. وإذا لم تكن لديه فى المساء خطبه، يتوجه لتناول العشاء بمنزل آل هوفمان أو بأحد المطاعم الشهيرة. كان عادة ما يصطحب چيلى روبال لحضور الأوبرا أو العروض الموسيقية. يعود إلى بيته فى نحو منتصف الليل. ينهى اليوم بالقراءة حتى الثانية أو الثالثة فجرا وهو يكتب ملاحظاته أو يستعرض وقع الجديد من أفكاره على الحضور.

درب الانتصار

أصاب جنون المضاربات - ٣٥ بالمائة أرباحًا عن عام واحد - الذى مس «وول ستريت» عام ١٩٢٨ والنصف الأول من ١٩٢٩، ألمانيا فى مقتل، وأثّر بالسلب على اقتصادها. لم تتمكن الاستثمارات

---

(١) فريدريك الكبير (١٧١٢ - ١٧٨٦) أشهر ملوك بروسيا. تغلب على الروس والنمساويين والفرنسيين. لقب بقاهر الملكات، كون روسيا" روسيا والنمسا وإسبانيا وفرنسا كانت تحكمها نساء قويات. انتصر عليهن فريدريك فى كل معاركه معهن. وأظهر معجزات وفنونا خالدة فى الحرب خاصة فى حرب السنين السبع.

الأجنبية فى ألمانيا من الصمود فى مواجهة بريق الأرباح الخيالية التى كانت تقدمها بورصة نيويورك - زيادة الأرباح إلى ٢٥٪ فى مارس، ثم ٥٢٪ فى يونيو و٢٥٪ فى يوليو و٣٣٪ فى أغسطس بإجمالى ١١٨٥ فى الشهور الثمانية الأولى من العام -. سرعان ما انسحبت رؤوس الأموال الأجنبية من ألمانيا لتعمل فى الولايات المتحدة الأمريكية، وغدت ألمانيا بلا رؤوس أموال، وكان عليها أن تعرض نسب أرباح أكبر لتتمكن من جذب الأموال المطلوبة. تعالت الأصوات المنتقدة لاعتماد ألمانيا الكلّى على رؤوس الأموال الأجنبية، حيث أدى انسحابها إلى تباطؤ النشاط الاقتصادى وزيادة أعداد البطالة: ١,٣٢٠,٠٠٠ عاطل عن العمل فى سبتمبر ١٩٢٩. وهو الرقم الذى بدا مخيفا وقتها، إلا أنه تضاءل بحلول يوم ٢٤ أكتوبر١٩٢٩ الذى دخل التاريخ على اعتباره «خميس وول ستريت الأسود». إنه انهيار ١٩٢٩ الذى ألقى بظلاله السوداء على العالم أجمع، وأدى إلى زيادة أعداد البطالة فى ألمانيا: ثلاثة وعشرين مليونًا فى فبراير ١٩٣٠ وثلاثين مليونًا مع نهاية العام وستة وخمسين مليونًا فى ١٩٣١ وواحدًا وستين مليونا فى ١٩٣٢.

أدّت تلك التراجيديا الاقتصادية إلى جعل النازية موضة. بدأت خطب هتلر المنتقدة لرأس مال المضاريات ومصاصى الدماء اليهود والتحالف الدولى ضد ألمانيا والدين الخارجى، الذى تسبب فيه وزراء الحزب الاشتراكى الديمقراطى، تجد الآذان الصاغية

وتناسبت عضوية حزب (NSDAP) طرديا مع زياة أعداد البطالة. كان ١٠,٨٠٠ من الألمان يملكون هوية النازية، زاد عددهم فى ١٩٣١ إلى ٤٠٠,٠٠٠ ألف ثم تضاعف فى ١٩٣٢ ليصل إلى ٨٠٠,٠٠٠ ألف.

على الرغم من أن المأساة الاقتصادية التى تسبب فيها انهيار البورصة عام ١٩٢٩. أسهمت بشكل فاعل فى ارتفاع أسهم النازية، فإنهما لم تكن السبب الوحيد. أسهمت بنسبة كبيرة، بدورها، مشكلة تعويضات الحرب: لم يكف المنتصرون عن تكبيل يد المهزومين بالمعاهدات والمنتديات الدولية، ولم ينسوا فى لحظة أن يقبضوا من ألمانيا - باعتبارها مسئولاً وحيداً عن الحرب - تعويضات الحزب المفروضة عليها. قامت لجنة جديدة بدراسة الموضوع وتوصلت لنتيجة أن باستطاعة ألمانيا أن تسدد التزاماتها على ٥٧ قسطا سنويا بواقع ١٩٨٨ مليون مارك، أى أنها لن تنتهى من سداد أصل الدين وفوائده قبل ١٩٨٦! كما أن استمرار ذلك القرض قرابة أحد عشر عاما بعد الحرب الكبرى كان يثير غالبية الألمان من المكروبين بسبب أوضاعهم الاقتصادية المتردية.

حمل حزب الـ (NSDAP) راية المعارضة، وراح يتهم الحكومة بأنها ستحول ألمانيا إلى مستعمرة فرنسية إنجليزية. إلا أنه لم يكن الوحيد الذى فعل ذلك، فقد سار معه على نفس الدرب الحزب الوطنى الألمانى، ورفض تسديد ألمانيا لفاتورة تعويضات الحرب.

كان الحزب الوطنى الألمانى يعرف باسم: (ستاهليهلم) أى «الخوذة الحديدية» وكان واحدا من أكبر التجمعات السياسية فى ألمانيا وكانت مسيرته تمر بمرحلة أزمة. إلا أن العمل على رفض تعويضات الحرب قد جمعت بينه وبين الـ (NSDAP). كان اتحادا ضد طبيعة إيديولوجيات كل منهم وأعداده: كان أعضاء الستاهليهلم يبلغ المليون، كّلهم من أسر عريقة، وملاّك أراض، وعسكريون، وقضاة، ورجال صناعة ذوو إيديولوجية محافظة وملكية. على طرف النقيض كان يقف الـ (NSDAP) حيث لم يكن أعضاؤه يتجاوز المائة ألف من الثائرين المستنيرين والبرجوازيين المفلسين والعمّال المضارين من الماركسية، الذين كانوا ينادون بالثورة وإسقاط النظام القديم واستبداله بآخر ديكتاتورى لإنقاذ البلاد. كان زواج مصلحة. كان اليمين يبحث عن القوة الدافعة للنازية وعن عنف الأس أس خاصتها، وعن خطب هتلر وجوبلز وباقى زعماء النازية؛ هتلر من ناحيته، كان يرى فى تلك الوحدة مع «هؤلاء الرجعيين» تقاربا إلى عالم المال والصناعة وأنها ستكون بمثابة ميلاد جديد لاحترام حزبه وطريقة لمواصلة ترقى درجات سلّم السلطة الواحدة تلو الأخرى وعليه اضطر لإخماد أصوات كثيرة كانت تعارضه فى ذلك.

على الرغم من موجات المعارضة الكبيرة لاتفاقيات إصلاحات الحرب، فإن تلك الاتفاقيات أُقرّت فى مؤتمر لاهاى فى ٦ من أغسطس ١٩٢٩. حصلت ألمانيا، مقابل موافقتها، على تعهد من

فرنسا بالانسحاب من منطقة "سار" - الضفة اليسرى للراين - فى ١٩٣٠. أى خمس سنوات قبل الموعد المتفق عليه سابقا في اتفاقيات ما بعد الحرب. كان مهندس الاتفاق هو وزير خارجية ألمانيا، حينها، ستريسمان الذي غلبته دموعه وصرّح بقوله: «سيكون الوقت متأخرا. لن أتمكن من رؤية ألمانيا محررة بالكامل». وقد أصاب، فقد توفى فى ذلك العام نفسه إثر مرض ألم به.

بيد أن الصراع لم يكن قد انتهى. فقد كان إلغاء معاهدة لاهاى يتطلب جمع ٤ ملايين توقيع وتقديمها إلى الرايخستاج. تمكن الحزب القومى الألمانى والـ (NSDAP) من جمع التوقيعات المطلوبة، غير أن الرايخستاج رفض مناقشة القضية وفضّل طرحها للاستفتاء العام. أكدت الصناديق الموافقة على الاتفاقات وواجه الاتحاد الغريب الفشل الذريع وانحل. على الرغم من ذلك، كان هتلر قد تحصّل على دعم الصحافة المحافظة القوية واكتسب ثقة كبار رجال الصناعة فى ألمانيا.

بدأ الـ (NSDAP) فى حصد ثمار الاتحاد على الفور، فحصل النازيون فى انتخابات الولايات فى خريف وشتاء ١٩٢٩ على نسبة ٦,٨٪ من أصوات ناخبى بادين، و٨,١٪ من أصوات لوبيك و١١,٣٪ من أصوات تورنغن. حيث حصل ويلهيلم فريك على أول حقيبتين وزاريتين للحزب: الشرطة والتعليم.

كان تهاوى الحكومة من أسباب صعود نجم النازية أيضا. عجزت ألمانيا عن الوفاء بديونها فى فترة الأزمة تلك، فقررّت الحكومة أن تلجأ إلى التضحية العامة لتوفير الأموال اللازمة لسداد التزامات معاهدة لاهاى، وذلك بخصم ٣,٥٪ من رواتب العاملين، إلا أن زيادة البطالة لم تسمح بجمع المبلغ المطلوب، ومن ثم اضطرت الحكومة لرفع الخصم إلى ٣,٧٥٪. أدت نسبة هذه الزيادة، ٠,٢٥٪ إلى أزمة سياسية ونقابية عارمة دفعت المستشار هيرمان موللر إلى اللجوء إلى الرئيس هيدينبورج ليقرر نسبة الـ ٣,٧٥٪ بقرار رئاسى تخوله له المادة ٤٨ من الدستور. لم يكن الرئيس هيدينبورج على وفاق مع رئيس حكومته، وكان يميل أكثر للزعيم الوسطى هاينريتش برونينج وبالتالى رفض استخدام سلطته المطلوبة تلك. كان من المنطقى أن يستقيل موللر، فما كان من هيدينبورج إلا أن قام بتعيين برونينج خلفا له. كان المارشال العجوز لا يملك أى قدر من الحصافة السياسية وتسبب، بجرة قلم، فى هدم النظام البرلمانى فى فيمار. منذ ذلك التاريخ، لم يعد رؤساء الحكومة يخرجون من الأغلبية البرلمانية، وإنما من السلطات التى كان الدستور يعطيها للرئيس. ومن هذا الباب سينسل هتلر إلى المستشارية.

أقر الرئيس تخصيص صندوق للتعويضات وبدأت النتائج الفورية لهذا القرار تظهر. وقعت الأزمة الاقتصادية على المسرح السياسى كانهيار جليدى جارف. حاول برونينج زيادة الضرائب

ورفض فى البرلمان؛ فقام بحلّه وفرض الضرائب بقرار رئاسى. أدى حلّه من البرلمان لأن يدعو إلى انتخابات تحدد لها ١٤ سبتمبر. فى تلك الفترة كان وضع ألمانيا بالغ السوء: زادت أعداد البطالة إلى ثلاثة ملايين عامل، وتم تقليص ساعات العمل وكذلك المرتبات. انفرط عقد التضخم وراح الإنتاج الصناعى والزراعى يتجمع فى المخازن لندرة الطلب.

أثرت الأزمة السياسية والاقتصادية فى إحباط وإحجام الناخبين عن الأربع وعشرين قوة سياسية الكائنة على الساحة، باستثناء الـ (NSDAP) الذى كان ينمو مثل زبد البحر بمآسى البلاد. نظم جوبلز، رئيس الحملة النازية، ستة آلاف لقاء لزعماء الحزب، تسبقها أو تليها عروض عسكرية لقوات الأس أى ترافقها موسيقى آلات النفخ التى تصم الآذان أثناء العروض العسكرية وتنتهى جميعها بمسيرات ليلية تضيؤها المشاعل. وضع عبقرى الدعاية المكيافيللى أساسيات خطب الزعماء التى كان يستوجب عليهم أن يضمنوها، إلى جانب موضوعات محلية تهم العامة، ووجوب الإشارة لليهود، و «طعنة الظهر» ودفع التعويض اللامعقول والمفروض على ألمانيا، احتلال أراضى البلاد، احتلال إقليم السار، وفساد الجمهوريين، الذى كانت تدعمه إمدادات لبلديات برلين، فى فضيحة حديثة العهد ومواتية - أحسن النازيون استغلالها - كان المسئول عنها مجموعة من رجال الصناعة اليهود. كان هتلر يطمح

من خلال تلك اللقاءات الجماهيرية، كما صرّح لأحد أصدقائه، إلى الحصول على ثلاثة ملايين صوت ومن ٣٠ إلى ٤٠ مقعدا فى البرلمان.

كانت الحملة ناجحة للنازية وإن لم تسلم من الخروج على النص. فوسط أجواء الانتخابات كان تمرّد قوات الأس أى ببرلين كفيلا بجر الحزب إلى الهاوية. لم يتورع جوبلز عن الإستعانة بالشرطة للسيطرة عليهم وإخراجهم من مقر الـ (NSDAP) فى حين هرع هتلر إلى العاصمة، وهو يعى تماما خطورة الموقف، برفقة كتيبة من الأس أس وراح يجتمع بفرق الأس أى فى الحانات والقاعات، وتمكّن بفضل ملكاته الخطابية التى تراوحت بين الترغيب والترهيب، والدموع والصوت العالى من إعادتهم إلى جادة الطاعة. كلّف ذلك التمرّد فون سولومون، رئيس الأس أى، وظيفته وتولى هتلر بنفسه تلك الرئاسة، بصفة مؤقتة، غير أن تكرار حالات عصيان تلك الجماعة وما وقعت فيه من فتن عدة، جعلته يقرّر أن أفضل طريقة للسيطرة عليها هو حكم عسكرى ذو قبضة حديدية، فلجأ إلى رفيقه القديم روم الذى كان موجودًا حينها فى بوليفيا، للعمل باعتباره مستشارًا عسكريًا.

تم مسح كل الحسابات الانتخابية فى ١٤ سبتمبر. ضاعف الـ (NSDAP) بفخر توقعاته وحصل على ٦,٤٠٦,٠٠٠ صوت (١٨,٣٪ من إجمالى الناخبين) وعلى ١٠٧ نواب برلمانيين. فى بروسيا العسكرية والمحافظة، حصل حزب هتلر على أعلى الأصوات، أما

فى ويستفاليا الشيوعية، فقد أحرز المركز الثانى، نحو٥٠,٠٠٠ من أصوات الناخبين. أما فى بافاريا ذات البيئة الزراعية والكاثوليكية فقد كان الثانى خلف حزب الوسط، تحول هتلر وهو فى الواحدة والأربعين من عمره إلى أهم زعيم للمعارضة. لم يعد فى مقدور أحد، منذ تلك اللحظة، أن يناقشه فى دعائم إستراتيجيته السياسية: الوصول إلى السلطة من داخل الشرعية الدستورية. كان يعجب القريب والبعيد بقطعية براهينه والمعية حملته. لم يعد أى من معارضيه داخل الـ (NSDAP) يرفع رأسه فى حضرته، ونجح فى أن يجعل الخوف من تهديد ديكتاتورية النازية يدب لأول مرّة فى قلوب منافسيه السياسيين.

عقب الانتخابات، تم تثبيت هيندينبورج برونينج على رأس المستشارية، إلا أن الحكومة لم تستطع السيطرة على الوضع الاقتصادى: تزايدت أعداد البطالة لتصل عام ١٩٣٠ إلى ٤,٩٠٠,٠٠٠ مليون عامل. كان السخط والصراعات تستهلكان طاقة البلاد ولم تكن لدى أى قوة سياسية القدرة على مواصلة الكفاح، باستثناء الـ (NSDAP) فأخذ يقدم حلولا إصلاحية لبرنامج الحكومة المخفق. فكانت صفوف النازية تنمو على حساب المحبطين واليائسين حتى وصلت عالم الجامعة. فى يناير ١٩٣١. أصدر النازية العضوية رقم ٤٧٤,٤٨١ باسم مهندس حديث التخرج: ألبرت سبيير.

فى تلك الفترة، بدأ الكثير من الصيارفة، والصناع، والتجار القادرون يدعمون اقتصاديا الحزب النازى، كان الحزب يعتمد فى الأساس على اشتراكات الأعضاء باعتباره مصدر دخل رئيسيًا، على الرغم من استمرار حصوله على دعم تلك القطاعات فى السابق. أصبح كبار رجال الاقتصاد والصناعة والتجارة فى ألمانيا يثقون فى هتلر: فلم يعد ذلك الثائر المشوش فى ١٩٢٣. وإنما سياسى ناضج يستطيع الحصول على مقاعد فى البرلمان من خلال صناديق الاقتراع. كانوا يعقدون الآمال على النازية وهم يشهدون فشل الحكومة المتواصل. كانوا مهتمين ببلورة مجموعة من الأفكار الهتلرية: رفض معاهدة لاهاى، التوقف عن دفع تعويضات الحرب، رفض اتفاقيات تحديد أعداد جنود جيش ألمانيا وعتاده، حيث لم يلتزم أى من المنتصرين بالحدود التى فرضتها عليهم نفس المعاهدات؛ تكثيف الأعمال العامة - مشروع شبكة الطرق - القضاء على البطالة، وزيادة أعداد السيّارات الشعبية قليلة التكلفة، والذى من شأنه أن ينشط قطاع صناعة السيّارات، وأخيرا مشروع التسليح الذى يرفع ألمانيا إلى مصاف باقى القوات.

كل هذه المشاريع جعلت من هتلر المرشح الأفضل لدى غالبية عمالقة الصناعة والمال. صحيح أن أفكاره الخاصة بالديمقراطية كانت هشة، لكن الجميع كان يغض الطرف عنها، ربما بحجة أن الوقت لم يكن يسمح بتلك الرفاهية. من ناحية أخرى، كان المستشار

برونينج نفسه يحكم بديكتاتورية: أوقف جلسات البرلمان لفترة ستة أشهر، وألغى الحريّات الدستورية، وأعاد الرقابة السابقة ومنع الزى الموحد والأعلام والرايات السياسية وفرض الحصول على الإذن المسبق لعقد أى نوع من الاجتماعات. كان الجميع، خاصة أعضاء الـ (NSDAP). ينتظرون انفجار هتلر، لكن ظل متمسكا بخطته بعدم الخروج على الشرعية، وراح يستغل الوقت فى التخطيط لدخول وكسب الانتخابات التالية.

جاءته الفرصة على طبق من فضة. ففى صيف ١٩٣١، كان ثلث عمال ألمانيا يعانون البطالة، وكان وضع المصارف مأساويا بعد أن أفلس، خلال العشرين شهرا التى تلت انهيار ١٩٢٩، ٣٥٧ صندوق ادخار ومعاش ومصرف. أصبح برونينج مضطرا لإجراء تعديل حكومى. راح هتلر الذى أصبح قاب قوسين أو أدنى من فرصته المنتظرة، يكثف من نشاطه السياسى.

موت چيلى روبال

فى وسط هذه الظروف، وقعت واحدة من أغرب أحداث حياته وأكثرها ألما: انتحار چيلى روبال. لم يتضح قط كنه علاقة هتلر بابنة أخته غير الشقيقة، على الرغم من توقف كل دارسى تاريخ هتلر عندها، حتى مع وجود إجماع عام على أنها المرأة الوحيدة التى اهتم بها هتلر فعلا. كتب عنها جواكيم سى. فيست: «كانت حبه

الكبير والأوحد. قد يبدو ذلك غريبا، ولكنها كانت عاطفة تمتلئ بالغريزة المكبوتة وبالتقلبات وبمشاعر الفجيعة». وقال روبرت باين: «كان هتلر يهيم عشقا بچيلى روبال، ولكن على طريقته: كان يريد أن يمتلكها وأن يبعدها فى نفس الوقت. لقد كانت زينة البيت بالنسبة له، ومتعة ساعات فراغه. كانت رفيقته وأسيرته». أما هانز ب. جيزيفيوس فقد كتب يقول: «لقد أسرته ابنة أخته چيلى. إنه لا يتوانى عن إظهار حبه لها وهو ما يعنى وجود الكثير فى الخفاء. تولدت عاطفة حب جارفة مع الوقت، أو على الأقل هذا ما شعر به هتلر». أما إيان كيرشاو، آخر أعظم مؤرخى هتلر، فقد رأى أن: «سواء كانت العلاقة بها ممارسات جنسية أم لا، كانت كل تصرفات هتلر مع چيلى توحى بتواصل حسى قوى، أو على الأقل، مُضمر. ظهر ذلك فى أكثر من موقف غيرة ورغبة شديدة فى التملك، كان من المنطقى أن يؤديا إلى شرخ فى العلاقة».

لكن، ما الذى كان لدى چيلى لتخلب به لب هتلر؟ كانت ذات مقومات شديدة الإثارة، مرحة، لطيفة، وتميل للهذر، لكنها لم تكن متعلّمة، وهوائية. قال عنها إميل موريس حارس هتلر الشخصى وسائقه الذى يبدو أنه كان يحبها ويسعى للزواج منها: «كانت عيناها الواسعتان قصيدة شعر، وكان لها شعر طويل أسود رائع». كان هتلر يعانى من مساعديه من معجبى جيلى، وقد استغنى عن خدمات موريس عندما أطلعه على مشاريعه.

من ناحيتها، كانت هى معجبة بهتلر. كانت منبهرة بنجاحه وشهرته وثروته وباقترابه من السلطة، ولكن يبدو أنها كانت تنتظر أن تأخذ العلاقة الشكل الرسمى وأن تكون زوجة هتلر، وأن تظهر على أنها المرشحة لأن تكون السيّدة الأولى. وكان هذا غير متاح، فلابد أنه قد أفصح لها فى أكثر من مناسبة عن تمسكه بعزوبيته، كما كان يفعل مع الكثيرين من أصدقائه. ذكر المصور هوفمان، أفضل صديق له فى تلك السنوات، من خارج مجال السياسة أن هتلر قد قال له ذات مرّة:

«أنا أحب چيلى فعلا وقد أتزوجها، ولكنّك تعرف تمسكى ببقائى وحيدا. ومن ثم، فأنا أحرص على مراقبة علاقاتها بالجنس الآخر، حتى تعثر على الرجل المناسب. إن ما قد تعتبره هى استعبادا، أراه أنا حرصا. لابد أن أعتنى بها، حتى لا تقع بين يد أى عديم ضمير».

قد تكون علاقتهما قد بدأت فى صيف ١٩٢٩. وقد حاول الكثيرون رسم طبيعة العلاقة - لابد أن نعترف أنها محاولات جديرة بالاهتمام -، لكن الإشارات القليلة الثابتة تشير إلى علاقة سادية لم تكن الفتاة تنسجم معها. هل كان هذا ما دفعها للعودة إلى فيينا؟ قد يكون الأمر كذلك أو قد يكون حبها لشاب من شباب فيينا، كما قال هوفمان، ومن ثم كانت تشقى بمراقبة هتلر اللصيقة لها. أيا كان السبب، فالحقيقة، أنه فى ١٨ سبتمبر ١٩٣١. وبعد

مناقشة حامية بين الفتاة والخال، هم هتلر بالسفر. وكما ذكر هوفمان، الذى رافقه فى رحلته، أن چيلى قد ودعتهما من أعلى الدرج بروح بشكل طبيعى. وعلى الرغم من ذلك، ظل شىء على غير ما يرام بينهما لأن هتلر، بمجرّد أن بدآ رحلتهما، حدثه عن حالة ضيق تعتريه: «لا أعرف ما بى... يعترينى شعور بغيض». كانا يقضيان تلك الليلة فى فندق فى نورمبرج. فيما كان ذلك، فى منزل هتلر بميونخ، فقد آوت چيلى إلى مخدعها متعللة بوجع برأسها. وهناك أخرجت مسدسا لهتلر من طراز والتر٦,٣٥ ولفته بمنشفة، لتقليل حدة الصوت، وأطلقت رصاصة على قلبها. فى اليوم التالى، دخل الخدم الغرفة بعد تهشيم الباب ووجدوها جثة هامدة. فى تلك الأثناء، كان هتلر قد غادر نورمبرج فى طريقه إلى بايريوث. لحقت به سيارة أجرة من الفندق فى الطريق، تحمل رسالة عاجلة من رودولف هيس. عادا إلى نورمبرج وهناك، أُبلغ هتلر بأن چيلى قد أصيبت إصابة بالغة. فأسرعا بالعودة إلى ميونخ. «أريد أن أراها حية، أريد أن أراها حية» كرر هتلر تلك العبارة عدة مرات، ثم غرق فى صمت عميق حتى وصلا ميونخ. استقبلته أخته غير الشقيقة آنچيلا وهى تجهش بالبكاء.

طلبت آنچيلا أن يتم دفن جثمان ابنتها فى فيينا ووافقها هتلر. لزم الصمت المطبق لمدة يومين، طلب بعدها من صديقه هوفمان أن يرافقه إلى شاليه فى الريف، أعاره له أحدهم. ذكر هوفمان فى

مذكراته أنهما كانا يومين بمثابة كابوس. أراد هتلر أن ينعزل هناك مع هوفمان حتى لا يزعجه أحد، حتى إنه أعطى للخدم إجازة. كان بائسا لدرجة دفعت هوفمان لأن يبحث عن مسدسه ليخفيه بعيدا عنه خشية أن ينتحر. خلال تلك الأيام، امتنع هتلر عن النوم وعن الطعام، ولم يكن يفعل أى شىء سوى ذرع الغرفة جيئة وذهابا، يتبعه هوفمان يائسا، والذى كان ينام فى غرفة تحت غرفته ويهرع إليه كلّما توقف صوت وقوع أقدامه.

بعد يومين من إقامتهما هناك، تم إبلاغهما بأن چيلى قد دفنت فى العاصمة النمساوية. عندها قرّر هتلر وهو ممضن وغائر العينين ومستغرق فى الصمت أن يزور قبرها. توجها، يخيم عليهما الصمت، إلى مقابر فيينا المركزية. حرص هتلر أن يمشى وحيدا حتى القبر، على الرغم من أن بعض الأصدقاء كانوا فى انتظاره هناك. جلس أمام قبرها، بلا حراك لمدة ثلاثين دقيقة وقد شحب لونه وزاغ بصره. عاد بعدها إلى السيارة، وعلى الرغم من النظرة المعتمة والشاردة، فإنه استأنف الكلام: «دقت ساعة مواصلة الكفاح... لابد أن تنتهى المعركة بالانتصار... أقسم على ذلك».

على الرغم من حالة الكمد التى سيطرت عليه، فإنه تعافى منها رويدا رويدا مع توالى الأحداث السياسية. ورتب لمراسم ذكرى چيلى: لم تخل غرفتها، التى لم يكن مسموحا لأحد بدخولها سواه هو ومديرة المنزل آنى وينترِ، يوما من باقة من زهور القوقحان

الطبيعية، التى كانت تفضلها المرحومة. طلب رسم لوحات زيتية لها، من صورها الفوتوغرافية، وراح يعلّقها على أبرز جدران المنازل التى عاش فيها، حتى مبنى المستشارية. كما صنع لها النحّات ليابرمان تمثالا نصفيا من البرونز فائق الجودة، ظل بمقر إقامة ميونخ حتى نهاية الحرب.

لم تنقطع النساء من الحوم حول هتلر. أحد أهم الأسماء المعروفة كانت وينيفريد فاجنر، أرملة سيجفريد فاجنر، التى يبدو أن هتلر فكر فى الزواج منها، لأن فكرة أن يناسب زعيم ألمانيا الكبير موسيقارها الكبير كانت تروقه. ذكرت ابنة وينيفريد أنها كانت على علاقة غريبة، فى نهايات عام ١٩٣١، مع هتلر الذى يحلو له أن يركع على ركبتيه أمامها، مستدبرها حتى تضربه على مؤخرته كما كانت تفعل أمه أحيانا. أما علاقته بماريا رايتر، أو ميمى، فقد كانت طويلة ومتقطعة. بدأت العلاقة عام ١٩٢٦، إلا أنها انقطعت بعد ذلك بعام. عادا عام ١٩٣١. ثم مرّة أخرى عام ١٩٣٤. تزوجت ميمى عام ١٩٣٥ وترملت عام ١٩٤٠. سقط زوجها، أحد أفراد قوات الأس أس فى دونكيركى، وعندما بلغ الخبر هتلر أرسل لها باقة ورد حمراء. أورد الصحفى جونتر برايس هذا الخبر فى مجلة "ستير" فى ١٣ يونيو١٩٥٩، بعد أن تمكن من إجراء حوار مع ميمى.

كانت تلك العلاقات تتداخل مع علاقته بجيلى روبال وأوندرا، اسم غريب ذكرته إيفا براون، وكانت أيضا شديدة الغيرة من أخرى

تدعى فالكيريا، وهناك الإنجليزية يونيتى ميتفورد التى تعرّف إليها عام ١٩٣٥، وواعدها أكثر من ١٥٠ مرّة فى جو من الثقة والمحبة الظاهرة وإن كانت عفيفة. ذكرت كاتبة السير الذاتية، مارى س. لوفيل، أن ميمى انتحرت بطلق نارى عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية.

فى عام ١٩٣٤، تعرّف، عن طريق هافستانجل إلى مارثا دود ابنة سفير الولايات المتحدة الأمريكية ببرلين: شابة جميلة مرحة منطلقة، وترتدى تنورات قصيرة، بالنسبة لذوق ألمانيا السائد حينها. يبدو أنهما كانا على علاقة لبضعة أشهر، حتى كشف الجستابو له أنها تقوم بأعمال جاسوسية لصالح الاتحاد السوفيتى، فاضطرت مارثا لمغادرة ألمانيا على وجه السرعة. مرت الكثير من النساء الجميلات بين ذراعى هتلر مثل الدنماركية إينجا أرفارد، التى عملت بالصحافة فى الولايات المتحدة الأمريكية وحاولت المخابرات الألمانية تجنيدها للعمل لصالح النازية؛ وكذلك الممثلة رينات موللر التى كانت علاقته بها متقطعة حتى ١٩٣٧. ذكر دافيد لويس أن عضوين من "الأس أس" قد ألقيا بها من النافذة بسبب علاقتها العاطفية، فى تلك الفترة أيضا، بأحد رجال الصناعة اليهود.

سواء كانت هذه العلاقات العاطفية لهتلر حقيقية أم خيالا، فإن هتلر كان مفضلا لدى النساء وكانت علاقاته بهن أكثر من غامضة،

وسبب ذلك غير معروف، هل هو بسبب طبيعته الجنسية، أم بسبب ما كان يؤكده هو على الدوام: بأن حبه الأوحد كان لألمانيا، أو بسبب تعطشه للسلطة، حتى لو لم يكن ليعترف بذلك.

المعارك الانتخابية

بعد وفاة چيلى روبال، ألقى هتلر بنفسه فى أتون السياسة، بكل ما أوتى من شغف واندفاع. فى الأسبوع الأول، نظم لاجتماع سياسى فى هامبورج وفى الأيام التالية، شارك فى كل المؤتمرات التى عقدت على طول وعرض البلاد. وكان من الطبيعى أن يطلبه الرئيس هيندينبرج للقائه فى ١٠ أكتوبر ١٩٣١. حضر هتلر اللقاء أمام المارشال العجوز مرتديا حلة مذيّلة، مظهرا الاحترام والإذعان. حاول أن يمحو آثار سوء تفاهم قديم بين الرئيس والحزب النازى، وأكد له أنه لن يسعى إلى أى سلطة إلا عن طريق الدستور، وإن كان أيضا قد أفصح عن نظريته فى أنه لا يرى حكما لألمانيا سوى بالسلطة الديكتاتورية. كانت هتافات آلاف النازيين بحياة هتلر تصل حتى مكتب الرئيس، بعد أن تجمعوا فى شارع ويلهلم ستراسى وتعالت أكثر لحظة مغادرة الفوهرر للقصر. أخبر هندينبرج مساعديه أن هتلر ترك لديه انطباعا مرعبا، وقال وهو يشاهد المظاهرة الضخمة تخترق أكبر شوارع برلين: «لا يصلح حتى لأن أعينه وزيرا للبريد».

كانت تلك المصارحة تنبع من أعماقه، لكن واقع الأمر أن مجرد دعوة هتلر إلى ذلك المكتب، كانت تعنى دخوله طرفا فى صراع السلطة. وكان المارشال العجوز قد خر صريعا بين حبائل سياسة العصا والجزرة التى كان يمارسها هتلر. السياسة القديمة، قدم الزمن. فقد كان يحرك قوات الأس أس" والأس أس باعتباره أداة تهديد، ولم يكن انقلاب ١٩٢٣ ببعيد، وبالطبع، من كانوا يحكمون ألمانيا، كانوا يدركون تماما أن هتلر، بعد ثمانى سنوات كاملة من تلك الهزيمة، كان أكثر سطوة ولديه الكثير من الدعم وخبرة وتجارب ناضجة. كان الجانب الإيجابى فيه "الجزرة" هو نشاطه السياسى داخل المنظومة الديمقراطية وملايين الأصوات التى كانت تدعمه ونضاله المستميت لكسب ثقة رأس المال والصناعة. فقد كان حماس الـ (NSDAP) لتجميع المزيد من الأعضاء والمؤيدين والأصوات لا يضاهيه آخر، ففى خريف ١٩٣١ عقد خطباء الـ (NSDAP) أكثر من ١٥,٠٠٠ اجتماع مقابل آلاف الاجتماعات التى نظمتها القوى السياسية الأخرى فى ألمانيا.

كانت الحكومة ترى أنه من الأفضل التحاور مع هتلر بدلا من فرض حلول عنيفة عليه. من ثم، فقد طلبه المستشار برونينج فى ٦ يناير ١٩٣٢، للتشاور حول إمكانية دعمه لمد فترة رئاسة هندينبرج التى كانت تنتهى فى أبريل. طلب هتلر مهلة للتفكير، فعادا ليلتقيا بعد ثلاثة أيام. أبدى هتلر استعداده شريطة ألا تزيد الفترة الرئاسية الجديدة على عامين. رفض برونينج أن يملى عليه هتلر

أية شروط، واتجه لطلب الدعم الذى يحتاج لدى القوى السياسية الأخرى، التى لم تستجب له، بحجة أن دعم المارشال العجوز كان بمثابة إعالة للمستشار.

لم يكن هناك من مخرج، سوى الانتخابات الرئاسية، التى خاضها هنديدنبرج بسنوات عمره الخمس والثمانين. كان هتلر مترددا إزاء ترشيع نفسه فى تلك الانتخابات كما كان يخطط له جوبلز أو البقاء على رأس الحزب بمنأى عن أهوال الانتخابات. فى النهاية، قرّر أن يخوضها وبدأ بالحصول على الجنسية الألمانية، حيث إنه منذ أن أسقطت عنه جنسيته النمساوية عام ١٩٢٥. كانت خانة الجنسية لديه تقول: بلا جنسية. فى ٢٥ فيراير ١٩٣٢. حصل على الجنسية الألمانية، عن كريق برونزويك، فى إجراء استثنائى أثار الكثير من الجدل بين المتخصصين، الذين رأى الكثيرون منهم أن هتلر لم يحصل على الجنسية الألمانية بطريقة شرعية.

حظيت الحملة الانتخابية بردود فعل خارقة. فبعد لقاء أكتوبر، كان هتلر قد فقد أى تقدير كان يكنّه للرئيس، فنجده يصرّح عقب اللقاء بقوله: «أحترم هذا الفارس العجوز، إلا أن المسكين لم يعد قادرا على فهم أى شىء. لا أعدو أن أكون، فى نظره، عريفا نمساويا وسياسيا مزعجا. لعلّه، يضعنى فى مرتبة واحدة مع ثالمان[1]، مثلا». خلال الحملة، لم يتوان هتلر أن ينعت هنديدنبرج

(١) إرنست ثالمان (١٨٨٦ - ١٩٤٤) زعيم الحزب الشيوعى خلال فترة جمهورية فايمار.

بكل ما يحط من شأنه مثل «غير مؤهل» «خرف» «ألعوبة فى يد بطانته». وأسوأ من ذلك كانت مفردات تلامذة هتلر، وفى مقدمتهم جوبلز، والتى كان لهم هنديدنبرج بمثابة: «رئيس حزب القاعدين» «مارشال الهزيمة» أو كان «العجوز السفيه» الذى يقضى النهار مع محاسيبه وينام الليل بين يدى مورفايو[1]. توج كل هذا الاستهجان، شعار ذو طابع محافظ، جذب الكثير من البروتستانت والكاثوليك من الألمان: "Kinder Kiche, Kuche" أى (أطفال، الكنيسة، المطبخ)، وهو الشعار الذى جاء ليستبعد ما اعتيد عليه من مهاجمة اليهود والشيوعيين والديمقراطيين الاشتراكيين، وليحل محل تلك الرسالة الإيجابية الجوفاء: الحريّة، العظمة، الكبرياء الوطنى.

توجه الألمان فى ١٢ مارس ١٩٣٢ إلى صناديق الاقتراع، وأكدوا تفضيلهم للعجوز هنديدنبرج، الذى حصل على ١٨,٦٥١,٤٩٧ صوتا (بنسبة ٤٩,٦٪) وتلاه، فى الترتيب، هتلر، الذى حصل على ١١,٣٣٩,٤٤٦ صوتا (محققا نسبة ٣٠,١٪). على الرغم من أن نجاح المارشال كان بلا منازع، فإنه لم يصل إلى نسبة الأغلبية المطلوبة، بفارق أربعة أعشار بالمائة. مما استتبع إقرار جولة إعادة ثانية تحدد لها ١٠ أبريل ١٩٣٢. خلال الحملة الثانية - التى قرّر لها المكير برونينج أن تبدأ مع ظهيرة يوم ٣ وتنتهى يوم ٩ أبريل -

---

(١) إله الأحلام عند الأقدمين.

خاض النازيون من جديد، سباقا محموما متسلحين بكل أنواع سباب للمارشال ولجأوا لقطع أنواع من وعود الوهم اللافتة. ذكر روبيرت باين، مؤرخ هتلر أنهم تعهدوا بتوفير زوج لكل امرأة عزية فى ألمانيا، فى حال كسب الـ (NSDAP) الانتخابات.

بذل هتلر مجهودا خارقا فى ذلك الأسبوع. حيث كان يتنقل على متن طائرة من طراز فوكر، يستأجرها، وبها تمكن من عقد ٢١ لقاء سياسيا فى ٦ أيام ونصف يوم، حضرتها جماهير غفيرة: ٢٥٠,٠٠٠ من أماكن مختلفة فى هامبورج فى يوم واحد، و١٥٠,٠٠٠ فى برلين. على الرغم من كل هذا، اكتسح تانينبورج من جديد بتفوق، حيث صوت له ١٩ مليونا ضمنوا له أغلبية ٥٣٪ من إجمالى أصوات الناخبين. غير أن وقت هتلر لم يضع سدى، فقد حقق نتيجة لم يكن ليحلم بها قبل ذلك بشهرين - ١٣,٤١٨,٥٤٧ صوت - أى نسبة ٣٦,٨٪ من الأصوات الصحيحة. لم يعد أحد يستطيع أن يشكّك فى أن النازية استطاعت أن تحصل لنفسها على تصنيف: «بديل السلطة».

لم يتح انتصار هيندينبورج فى الانتخابات أية هدنة لحكومة برونينج، التى لم تعد تقوى على الحصول على تأييد البرلمان، ولم تعد تنعم بأية ثقة من جانب الرئيس هيندينبورج الذى بح صوته من توجيه رئيس وزرائه، بلا جدوى، لأن ينحى بحكومته منحى يمينيا. مع نهاية شهر مايو، تقدم برونينج بطلب للرئيس لكى يوقع

مرسومين، إلا أن هذا، الذى خرج عن عاداته للعامين الأخيرين، رد عليه بأنه من الضرورى تنفيذ مشروعاته عن طريق موافقة مجلس الشعب. فى اليوم التالى، ٢٩ مايو ١٩٣٢. قدّم برونينج له استقالته. كان خلفه قد تم الإعداد له، ففى ٣٠ مايو، أرسل المارشال يطلب الضابط السابق البروسى: فرانز فون بابين، السياسى المحنك فى الأمور الإقليمية والضليع فى شئون التآمر، فاحش الثراء بفضل زيجته، والعضو فى حزب الوسط. عندما عرض عليه هيندينبورج المستشارية، كان رد فون بابين أنه لن يستطيع أن يعتمد على تأييد الحزب له، بل إنه يخشى أن يفتح عليه نيران معارضته. كان الرئيس يعرف أنه قد خسر مناطق الشمال تماما، فكان أن رد عليه بأنه يرغب فى تشكيل حكومة وسط، بلا انتماءات سياسية محددّة، بعيدا عن التحزب. بدا جليا أن انتخابات الرئاسة الحديثة قد زادت من حدّته، خاصة وهو يعرف أن حزب رئيس وزرائه لم يتمكن من كسبها. «ألا ترى الدور الذى فرضه على برونينج؟ لقد نجحت بأغلبية الشيوعيين». وفى النهاية، قطع على فون بابين أى تردد قد يعتريه بقولته الصارمة: «أمام نداء الوطن، ليس أمام الضابط البروسى سوى رد واحد، ألا وهو التلبية».

وحتى يتم قطع الشك باليقين، قام الرئيس، بمساعدة ابنه، الذى تحول إلى أكبر ناصحيه، وبمساعدة صديقه، الجنرال شلايشر، الذى له تأثير كبير هو أيضا على المارشال، بتشكيل حكومة من

الضباط السابقين وأبناء الطبقة الأرستقراطية، ممن ميّزوا تلك الحكومة قصيرة العمر والتى عرفت باسم: «حكومة نظارة العين الواحدة». مع كل ذلك، كانت أحوال البلاد يرثى لها: ٦ ملايين فرد يعانون البطالة، وأولئك الذين يعملون لا يعملون إلا بنصف دوام. على الرغم من ضائقتهم، لم يكونوا يحصلون على حلول لمشاكلهم وإنما على دعوات انتخابية. فقد تمت انتخابات فى ثلثى الولايات، وكان هناك انتخابات الرئاسة، ثم جولة إعادتها، ومن ناحيته دعا فون بابين إلى انتخاب لجان تشريعية، حيث كان شلايشر قد وعد هتلر، مقابل عدم مهاجمته الحكومة، بانتخابات جديدة وبإلغاء قوانين برونينج المتعلقة بالاجتماعات والزى الموحد والرايات، التى حملت قوات الأس أى إلى الخفاء.

جاءت الحملة الانتخابية الجديدة من أقسى ما عرفت ألمانيا، واستدعت إلى الذاكرة أحداث ١٩١٩ الثورية، وابتعدت تماما عن طابع الممارسات الديمقراطية. فقد حصدت المواجهات بين النازيين والشيوعيين أرواح المئات فى شهر يوليو، وتسببت فى تغيير القيادات الشرطية التى تصادف أنها كانت تتحيّز ضد النازية وصعّدت من الموالين لها. كان الـ (NSDAP) بصدد اختراق المجتمع الألمانى.

كانت حملة دعاية النازية تغرق المراكز التى بها صناديق اقتراع. أعطى هتلر مثالا للنشاط اللامحدود فى حملة، نستطيع أن نقول إنها تماثل تلك التى راجت لاحقا، فى الولايات المتحدة الأمريكية.

قبيل الانتخابات، بين تاريخى١٥و٣٠ يوليو، فقد عقد هتلر خمسين لقاء انتخابيا، وتحدث لأكثر من ١٢٠ ساعة متوجها لنحو مليونى شخص ينتشرون بين ربوع ألمانيا، وهو يختصر المسافات والزمن بطائرته المستأجرة والتى أوشكت، فى أكثر من مرّة، على التعرّض لحادثة.

حققت انتخابات ٣١ يوليو ١٩٣٢ الـ (NSDAP) ١٣,٧٤٥,٨٠٠ صوتا، بنسبة ٣٧,٤٪ من إجمالى الناخبين، وحصد بها ٢٣٠ مقعدا فى البرلمان. أصبحت النازية القوة السياسية رقم واحد فى ألمانيا. على الرغم من أن التجاح كان منقطع النظير، فإنها لم تنل رضا هتلر الذى كانت حساباته تشير إلى أن نتائجه فى انتخابات الرئاسة، ستحمله، مباشرة، إلى المستشارية.

بالفعل، لم يكن يكفى الـ١٤ مليون صوت، تقريبا، ولا الـ٢٣٠ مقعدا برلمانيا، لكى يجرّد هيندينبورج فون بابين من رئاسة الحكومة، ولكى يعرض على هتلر منصب نائب المستشار، وقد يتمكن من إعطائه إحدى الحقائب الوزارية. كان رد هتلر أنه لا ينوى المشاركة فى أية حكومة ائتلافية وأنه يحق له تشكيل الحكومة بموجب الأغلبية التى حصل عليها حزبه. امتنع هيندينبورج - «أمام الله وأمام ضميرى وأمام الوطن» - عن منح السلطة لحزب واحد، خاصة وأنه كان حزبا غير معقول، يتفاخر بأنه سيدمر النظام البرلمانى عندما يصل إلى الحكم. تمسك هتلر بموقفه، فلم يجد هيندينبورج أمامه بدًا من أن يرجوه أن يقود معارضة أمينة وشهمة

تجاه الحكومة. لم يدم الاجتماع المتوتر بقصر الرئاسة أكثر من عشرين دقيقة. عند خروج هتلر من القاعة وأثناء تحيته فون بابين فى غرفة الانتظار، أفصح له عما لم يستطع أن يقوله فى حضرة الرئيس: «ستواجه أعنف وأقسى معارضة يمكن أن تتخيّل. ستتحمّل حكومتك تبعات ما سيحدث».

كان قرار هتلر بإقصاء حزبه عن الحكومة المشتركة، سببا فى غرق الـ (NSDAP) فى الكثير من الارتباك وقاد قوات الأس أى للوقوع بين براثن الفتنة. فراح جريجور ستراسير يغازل المستشارية ويبث بين مساعديه أفكارا بتنحية هتلر. فى تلك الفترة، كان هتلر منشغلا بمواجهة العواصف القضائية التى كانت تهب على مساعديه، وكان يحسب، فى كل حالة، ما يخدم استقرار الحزب، إما بالدفاع عن القتلة، أو الانقلاب على قواته شبه العسكرية. وسط هذه الأجواء، تم افتتاح الدورة البرلمانية الجديدة، وقد ترأست الجلسة الافتتاحية عميدة البرلمان، وصاحبة الحضور التاريخى فى الشيوعية كلارا زيتكين، التى بدت أقرب لدخول المستشفى-توفيت قبل مرور عام على تلك الجلسة- منها إلى ذلك الإعياء. وإن لم تكن قدماها تقويان على الوقوف -تم توصيلها محمولة على السواعد، شبه طائرة، حتى مقعد الرئيس - إلا أن روحها كانت متعافية. انطلق صوتها - بأعراض ربو - يتلو مذكرة ادعاء ضد سفّاحى النازية والحكومات الضعيفة المدعومة بسلطة

رؤوس الأموال، وأنهت كلمتها بافتتاح تلك الدورة البرلمانية بقولها «لدى أمل، على الرغم من اعتلال صحّتى، بأن أعيد افتتاح الرايخستاج قريبا داخل حدود جمهورية السوفيت الألمانية».

كان النازيون يمثلون أكثر من ثلث الحضور، ولم يحركوا ساكنا إزاء هجمات كلارا زيتكين وآمالها العريضة. لم يكن هناك أى سر يكتنف ذلك الموقف، فقد تم التفاوض على منح رئاسة البرلمان للنازى هيرمان جورينج، بدعم من أحزاب الوسط واليمين. وبطبيعة الحال، كانت الأوامر قد صدرت لنواب الـ (NSDAP) فى البرلمان، بعدم إظهار أى رد فعل من شأنه أن يشين ذلك الانتصار البرلمانى، الذى كان الرأى العام يراه اتفاقًا بين هتلر وبرونينج يقضى بفرض نظام نازى- مسيحى، بمنحى وسطى. كانت المساعى والمحاولات لا تكف فى هذا الاتجاه، لكن أيا منها لم يأت بالمأمول، فى ظل العواصف التى كانت تهب استثنائيا، من ذلك الرايخستاج المتذبذب تذبذب النيتروجلسرين. فى اجتماع البرلمان، بتاريخ ١٢ سبتمبر ١٩٣٢. تقدم الشيوعيون باقتراح لفرض الرقابة، وذلك فى إجراء بروتوكولى، يمكن لأى عضو أن يبطله، حال اعترض عليه. فى ذلك اليوم، حدث أن غاب الشخص المنوط به عملية الاعتراض تلك، ولم يعترض غيره على الاقتراح. فما كان من جورينج ، رئيس البرلمان، إلا أن عرض اقتراح فرض الرقابة هذا للتصويت. رفعت الجلسة لمدة ٣٠ دقيقة، فترة كافية لأن يصل هتلر إلى المجلس ويعطى

أوامره بالتصويت لصالح الاقتراح. فى نفس الوقت الذى توجه فيه فون بابين لمقر المستشارية ليطلب ملء استمارة حل المجلس ويعود بها مسرعا، لكن جورينج كان قد فتح باب التصويت. وقف رئيس الحكومة بقرار الحل أمام المنصة، إلا أن الطيّار السابق لم يعره انتباها وصاح بأعلى صوت: «إن الرايخستاج يصوت». وقف فون بابين وهو يحاول كظم غيظه ويطلب من وزرائه مغادرة القاعة، فى حين أعطى جورينج أوامره بعد الأصوات التى جاءت بـ ٥١٤ صوتًا موافقة على حل الحكومة، مقابل ٣٢ رفضًا. فى هذا اليوم، ١٢ سبتمبر، وقع حدث فريد من نوعه فى التاريخ البرلمانى: أقالت السلطة التشريعية الحكومة، فى الوقت الذى كانت فيه الحكومة قد حلّت البرلمان.

توجه الألمان للمرّة الرابعة خلال عام واحد، للإدلاء بأصواتهم فى صناديق الاقتراع. كانت الأحوال الاقتصادية، فى ذلك الخريف، قد بدأت تتحسن. كانت معدلات البطالة قد انخفضت بعض الشىء، وتعالت بعض الأصوات المطلّعة تنبئ بقرب انتهاء الفوضى التى تسبب فيها انهيار وول ستريت، وتبشر بالتعافى. ولعل من المظاهر الإيجابية هو انخفاض أعداد الشركات المفلسة فى ١٩٣٢ من ١٣٤١ فى يناير إلى ٤٩٩. فى نفس الوقت الذى كانت فيه كتلة المنتصرين قد لانت بعض الشىء، تحت تأثير الأزمة، فما كان من فون بابين إلا أن رفع رأس ألمانيا عاليا، وأعلن أمام فرنسا أنه

سيبدأ فى إعادة تسليح ألمانيا، خاصة وأن باريس ولندن كانتا تغضان الطرف عن خرق اتفاقيات نزع السلاح التى تمت فى فرساى. تزامن ذلك مع خلو خزائن الحزب النازى. على الرغم من الشائعات بأن القطاع المصرفى والتجارى كانا يدعمان النازية، كانت اشتراكات الأعضاء البالغ عددهم ٨٠٠,٠٠٠ هى المصدر الرئيسى لدخل الـ (NSDAP) فقد كانت تؤمن له مبلغ ٢,٤٠٠,٠٠٠ مارك سنويا تكفى لتمويل الحملات الانتخابية، على المستوى الداخلى، لكن انتخابات الولايات قد حولّت أرقام الميزانية إلى اللون الأحمر بعجز يقدر بمبلغ ٨,٠٠٠,٠٠٠ مارك. أثقل هذا الدين كاهل حملة هتلر الانتخابية، وعلى الرغم من الجهد الخارق الذى بذله هو شخصيا بمساعدة تنقلاته الجوية، كان على يقين فى ليلة انتخابات ٦ نوفمير أن التراجع مقبل لا محالة. قال فى آخر لقاء سياسى فى حياته، فى ذلك الخريف، خطبته فى السبورتسبالاست ببرلين: «إن إرادتى لا تلين، كما أن لى روحا أقوى من روح أعدائى. سوف نخسر أصواتا، الكثير من الأصوات، غير أننا سنكسب الانتخابات، لأنها بالنسبة لنا ستكون نجاحا نفسيا».

وقد كان، فقد هرع النازيون بالكاد إلى انتخابات ٦ نوفمبر ١٩٣٢ . وكما كان متوقعا، فقد أحجم الناخبون المرهقون عن التوجه للصناديق. لو كانت كل الأحزاب قد تأثرت بانخفاض أعداد الناخبين، فإن الـ (NSDAP) قد لمس ذلك بصفة خاصة، فقد حصل

على ١١٧٠٥٢٦٥ صوتا بنسبة ٣٣,١٪ مقابل ٣٧,٣٪ فى الانتخابات السابقة. على الرغم من كل ذلك، ظل محتفظا بلقب الحزب الأكثر تصويتا والأكثر تمثيلا فى الرايخستاج بعدد ١٩٦ مقعدا. تنفس جوبلز الصعداء، بعد معرفة النتائج : «لقد تعرضنا للفشل، بالتأكيد، لكن النتائج كانت أفضل من حساباتنا». وكما تنبأ هتلر، فقد كان الانتصار النفسى من نصيب النازية. فعلى يساره لم يكن يضاهيه سوى الشيوعيين الذين حصلوا على ١٠٠ مقعد، وعن يمينه جاءت الحكومة لتحصل على ١٤ مقعدا فقط. كان رايخشاج الخريف صعب المراس كسابقه المنتخب فى الصيف، وإن كان النازيون فى كليهما يديرون الدفة.

هكذا كان حتى إن بهيدنبيرج استدعى هتلر إلى قصر الرئاسة فى نوفمبر، بعد أن ازدراه سابقا فى شهر أغسطس. كان اللقاء هذه المرّة بلا حضور وأكثر ودا. طلب الرئيس مساعدة هتلر مخاطبا فيه وطنيته. كان رد هتلر أنه لا يطلب كل الحقائب الوزارية، ولكنه، باسم وحدة الإدارة، لن يستطيع أن يتنازل عن رئاسة الحكومة. فقد كان هو الحصن الوحيد فى مواجهة ١٨ مليون ماركسى فى ألمانيا. بعد كل هذا، قرر أن يأخذ وقتا للتفكير. عاد بعد يومين للقاء الرئيس ليخبره أنه يرفض حكومة ائتلافية. لزم الرئيس الصمت ووعده برد كتابى، تسلمه هتلر بعد ٢٤ ساعة من لقائه الثانى ولم

يكن به سوى كلمة واحدة: (Nein)(١). رفض الرئيس أن يعهد بتشكيل الحكومة إلى رئيس حزب سياسى، بيد أنه لن يستخدم سلطاته الدستورية وإنما سيدعه يلجأ للممارسات الديمقراطية. بمعنى أنه إذا كان هتلر يرغب فى أن يكون رئيسا للحكومة، عليه أن يطلب من الرايخستاج أن يقلّده ذلك المنصب.

بعد كل تلك السنوات، كان هتلر قد تعلّم دروسا كثيرة فى سبل الديمقراطية نحو السلطة: أولا، لن يحصل على الأغلبية المطلقة أبدا؛ ثانيا، لن يحصل على الأغلبية عن طريق تسويات فى الرايخستاج؛ ثالثا، أن هيدنبورج لن يمنحه ثقته طواعية؛ رابعا، لن يتمكن من استمرار فرض سيطرته على الحزب ولا على ذراعه المسلّح الأس أى فى حال أن يظل على موقفه المعارض. ومن ثم، عادت تدور فى رأسه من جديد أفكار الانقلاب، لكن الآن يعرف أنه من المستحيل الوصول إلى الحكم باللجوء إلى القوة. فلجأ إلى سلاح الصبر، فى انتظار أن تحين الفرصة.

عند هذه المرحلة الفارقة فى رحلة صعود هتلر إلى السلطة مع نهاية عام ١٩٣٢. من المهم أن نفنّد مجموعة من الخرافات، وأن نحلّل مجموعة الدعائم التى ساندت وصوله إلى المستشارية. أولا، لم يكن دعم البنوك والصناعة والتجارة هو سلاح النازية الوحيد، ثانيا، ولم تكن الأزمة الاقتصادية، التى دفعت الـ (NSDAP) إلى

---

(١) تعنى "لا" بالألمانية.

الأمام، هى سبب تقدمه الوحيد: فقد كانت الطبقات الأكثر تأثرا بالأزمة تصوت للشيوعيين وللاشتراكيين. ثالثا، لم يكن الذين يعطون أصواتهم لهتلر مجموعة من السذج الذين احتال عليهم أحد الثرثارين: فقد كان غالبية المصوتين له ينتمون للطبقة الوسطى، كما أنه فى انتخابات ١٩٣٢. حصل هتلر على أغلبية أصوات طلبة الجامعة. رابعا، لم يحصل هتلر على السلطة بفضل قوات الأس أس، حتى لو كان ذراعه المسلّح قد أكسبه رهبة واحترام أعدائه ومنحه حرية الحركة أو بعض الميزات الأخرى، التى بدونها، كان منالها سيكون ضربًا من ضروب المستحيل، لكن الحشود التى كانت تنتظر خطبه بالساعات أحيانا وتحت درجات حرارة لا ترحم أحيانا أخرى، لا يمكن تبريرها سوى بجرعة الأمل التى كانت خطبه تمنحها لهم.

أما فيما يختص بالأسس التى قامت عليها حركة النازية، فلابد أن نبرز ما يلى: أولا، تعسُّفُ منتصرى الحرب الكبرى. ثانيا، روح العداء للسامية التى كانت تنتشر فى ألمانيا، قبل ظهور هتلر. ثالثا، الخوف الذى كان يعترى طبقة البرجوازية والنبلاء والجيش من الثورة الروسية ومن محاولات الشيوعية فرض سيطرتها على ألمانيا بعد هزيمة الحرب الكبرى. رابعا، الأزمات الاقتصادية الشديدة التى أتت على الطبقة المتوسطة. خامسا، الفلسفة الوطنية والعنصرية التى انتشرت نتيجة الميول إلى تفوق عرق على الآخر

مما كان يقول به الفلاسفة الألمان أواخر القرن التاسع عشر. سادسا، التقسيم السياسى الذى كان يسمح به دستور فايمار أعطى شهادة ميلاد للنازية. سابعا، إفساد الحياة البرلمانية على يد برونينج الذى كان يحكم عن طريق المراسيم الجمهورية والتى كان يدعمها هيدينبورج بتوقيعه الذى كانت تخوله له المادة ٤٨. ثامنا، الأمل الذى أحياه النازية فى قطاع الصناعة بخصوص نهضة قومية، تصاحبها إعادة تسليح وعدد آخر من الأنشطة الصناعية. تاسعا، كفاءة وانطلاق جهاز الدعاية الخاص بالوطنيين الاشتراكيين الذى أدمن الوعود، على أساس أن ذاكرة الجماهير ضحلة. عاشرا، ليونة البرامج وعدم تحديدها، فقد كان خطباء النازية، وعلى رأسهم هتلر، يتوجهون للجماهير بما يودون سماعه من عبارات، دون الالتفات لإمكانات تحقيقه أو خطط تنفيذه. لم يكن هتلر يقدم وصفات اقتصادية، قد يفندها المتخصصون، ولكنه كان يعد بتوفير فرص العمل ويعلى من شأن الكبرياء الوطنى ويرسم السلام الاجتماعى ويصور السعادة والرفاهية، أشياء كان الجميع يتمناها ولم يكن أحد يملكها فى ألمانيا ذلك الزمان: أواخر عام ١٩٣٢.

مستشار هيندينبورج

عقب الانتخابات التشريعية التى وقعت فى خريف ١٩٣٢. أعفى هيندينبورج فون بابين من منصبه وعيّن خلفا له، على رأس الحكومة، الجنرال شلايشر، متآمر، لا مؤهلات له سوى صداقته

لأوسكار، نجل الرئيس ومستشاره الأساسى. كانت له سابقة فى محاولة شق صف الـ (NSDAP) إذ عرض على جريجور ستراسر منصب نائب المستشار، إلا أن محاولته جاءت بنتيجة عكسية، حيث اعتقد هتلر أن ستراسير قد دخل اللعبة، فما كان منه، إلا أن أجبر رفيق كفاحه على الاستقالة من البرلمان، وأن يقيم منعزلا فى بافاريا. ومنذ تلك اللحظة، لم يكن له من هم سوى تدمير شلايشر. كان القدر يخبئ له سلاحا قويا سيمكنه منه، ألا وهوفون بابين، حيث لم يكن متقبلا لفكرة خروجه من المستشارية، إذ كان يرى أن خروجه كان مؤامرة من الابن والمارشال والجنرال شلايشر.

سعت رموز من عالم المال والصناعة للجمع بين هتلر وفون بابين فى محاولة منهم لإيجاد مخرج من المتاهة التى غرقت فيها الإدارة السياسية للبلاد. ففى الواقع، اختفت الحياة البرلمانية ولم تكن الأحزاب تتحرّك إلا وسط المؤامرات، وقرارات الحكومة لا تأتى سوى بمراسيم استثنائية يوقعها الرئيس. كان هيندينبورج يفقد قوته وبصيرته ويأخذ برأى آخر من يدخل مكتبه، على الرغم من أن ذهنه كان لا يزال حاضرا وذاكرته على ما يرام. لحسن الحظ، أدرك فى أقل من شهر الخطأ الذى ارتكبه بتعيين شلاشير، حيث لم يكن قادرا على حشد أية قوة برلمانية قادرة على تولى مقاليد الحكم. عرف رجل الجيش العجوز أنه عاد لنفس الوضع الذى كان فيه بين برونينج وفون بابين. إذا كان قد سحب منهما ثقته، فكيف

يمنحها لشلايشر الذى لم يكن يثبت له سوى إمكاناته التآمرية؟ كان يود أن يراه خارج المستشارية ولا يحفظ عليه سوى لقب الجنرال. كان وضع المستشار متردیا لدرجة أن مجرّد شائعة هوت به.

فى مساء ٢٩ يناير ١٩٣٣. سرت فى برلين شائعة مفادها، أن شلايشر على وشك إعلان الإضراب العام وإثارة العامة وإلقاء القبض على الرئيس وتنصيب نفسه حاكما أوحد على البلاد. كانت شائعة زائفة وبلهاء فى الوقت ذاته، ولم يتصرف على أساسها سوى المستفيدين منها. أولهم هيندنبورج، الذى ظل على مدى أسبوع يرفض أن يشكل شلايشر حكومة مستقلة، وكان يبحث عن سبب ليبعد عنه مستشاره المزعج. ثانيهم، النازيون الذين يرون فى إبعاد شلايشر، فرصة جديدة لهم للاقتراب من السلطة. نفخ جوبلز بكل ما أوتى من قوة فى نار الشائعة، ونشر رجاله فى أنحاء برلين، ليبثوا القلق والتوتر فى الجو العام. من ناحيته، قام هتلر بإقناع الشرطة بأن الرئيس فى خطر، وتمكن من حشد قوة كبيرة منهم قرابة قصر الرئاسة، أقنعت، بدورها هيندينبورج بوجود خطر محدق به.

وسط هذا الجو المشحون، استقبل هيندينبورج فون بابين الذى عمل، خلال الفترة السابقة، على تحسين صورته وتخفيف مقاومة الرئيس للحل الذى كان قد اتفق عليه مع هتلر: رئاسة الحكومة

وثلاث حقائب وزارية للنازية. سيتولى هو السيطرة عليهم من منصبه باعتباره نائبًا للمستشار، وذلك بمساعدة وزراء آخرين ممن يخصهم الرئيس بثقته: سيتم إسناد حقيبة الرايخسويهر، إحدى الوزارات التى تقلق الرئيس إلى المارشال فون بلومبرج. قبل الرئيس من حيث المبدأ وطلب لقاء فون بابين وهتلر فى اليوم التالى، ٣٠ يناير فى الحادية عشرة صباحا.

قضى هتلر ليلة قلقة تعج بالكوابيس، وهو يتذكر، حتى أصغر تفاصيل الليلة الأخرى، فى ميونخ فى نوفمبر١٩٢٣. فى حانة بورجربراوكيللر، عندما اعتقد أنه قد امتلك زمام الأمور فى يده، إلا أن الانهيار كان حليفه. فى تلك الأثناء، كانت الرئاسة تستقبل آراء ممثلى الأحزاب: أجمع أغلبيتهم على رفض تشكيل حكومة ديكتاتورية برئاسة الجنرال شلايشر، وإذا كان لابد أن يختاروا، فإنهم يفضلون هتلر باعتباره مستشارًا، باعتباره أقلهما ضررا على رأس الحكومة، ففى النهاية، ظلوا يحتملونه فى المعارضة، ولن تكون فكرة سيئة أن يواجه الزعيم النازى، دائم الثقة فى نفسه، صعوبات الحكم الفعلى. فى قرارة أنفسهم، كانوا ينتظرون أن يفشل هتلر وأن قوة الـ (NSDAP) ستذوى فى كفاحه من أجل الخروج بألمانيا من الوضع الصعب الذى كانت غارقة فيه.

استيقظ هتلر قبيل السابعة صباحا وحاول أن يستشرف الأخبار. طمأنه فون بابين عبر الهاتف: أقدم شلايشر على محاولة

أخيرة، ليحيّد فون بلومبرج إلى صفه، إلا أنه فشل. كانا سيتقابلان فى منتصف الطريق إلى الرئاسة، لتبادل أخير للرؤى. كان يفترض بهما أن يؤديا اليمين الدستورية أمام هيندينبورج فى تمام الحادية عشرة صباحا. فى الوقت المحدّد، وصل هتلر إلى منزل فون بابين يرتدى حلة رسمية سوداء اللون وقبعة مرتفعة؛ كان يرافقه فريك الذى كان سيتولى وزارة الداخلية وجورينج، وزير بلا وزارة وينتظر أن تختلق له وزارة من العدم. كان الانفعال فى أقصى مدى له بين زعماء النازية. كتب جوبلز مسترجعا ذكريات تلك الصبيحة من يوم ٣٠ يناير: «بدا الأمر كما لو كان حلما. كان الرجاء والرهبة يتصارعان بين ضلوعنا. لقد تعرضنا للكثير من السخرية، لدرجة يصعب معها تصديق المعجزة التى نعايشها». لم يكن هتلر يشعر بالسعادة وهو يعبر الحديقة التى تفصل المستشارية عن الرئاسة. ماذا كان يمسك بيده فى الحقيقة؟ القليل، لا بد أن نعترف. كان هيندينبورج يقف أعلى منه، وكان أمامه البرلمان، الذى لم يكن يشكل أغلبيته. كانت وزارته تتكون من وزراء لا يشاركونه الإيديولوجية -إن لم يكونوا يناصبونه العداء جهارا - ويتحكمون فى كل السلطات. إلى جواره، وقف صديقاه، وزير الداخلية، الذى بالكاد سيكون كفئا للمنصب، إذا ما نظرنا لكل ما يتمتع به كل قطاع فيما يتعلق بالأمن والنظام العام. ووزير الطيران المرتقب، الذى لن تكون له طائرات إلا بعد عدة سنوات.

كل تلك الأفكار، ألقت بثقلها عليه وشحنته بالتوتر، حتى إنه انفعل على سكرتيرة الرئيس، وهو يصر على أن يعطيه فى تلك اللحظة شرطة الرايخ فى بروسيا. حاول فون بابين أن يهدئه، لكن عبثا، إلا أن النازى أصر على عناده مهددا أن يعود أدراجه ويهد معبد ذلك التدبير السياسى. تعدّت عقارب الساعة الموعد المحدّد. كان هيندينبرج وجميع من كانوا سيحضرون المراسم ينتظرون بفارغ الصبر. اجتمع سكرتير الرئيس بهتلر، وفون بابين، والوزيرين المنتظرين، وأنهى المشادة بكلمات بسيطة: «إن المارشال يكره عدم الالتزام بالمواعيد، وهو يهدد بالذهاب فى عطلة إلى بروسيا لبضعة أيام ويترككم لمناقشتكم». هدأ هتلر فى الحال وولج إلى القاعة. هناك كان الرئيس هيندينبورج، الذى على الرغم من تقدمه فى السن فإنه كان يحتفظ بمظهر رائع، يرتدى زى المارشال الرسمى وتزينه مجموعة أخّاذة من النياشين. شد هتلر بقوة على يد هيندينبرج وهو منفعل ومتوتر وانحنى أمامه بشدة، فاصطدم كعبا حذائه ببعضهما فى حركة تلقائية جاءت من مخزون خمس سنوات قضاها فى الحياة العسكرية. سعد المارشال العجوز بذلك التوقير وبتلك التحية العسكرية التى أداها هتلر ولم يعد يراه ذلك «العريف البوهيمى» أو «العريف النمساوى» الذى اعتاد أن يراه عليه. على الرغم من كل شىء، لم يكن سعيدا بتعيين هتلر مستشارًا، فى الوقت الذى كان يرى أنه لا يصلح حتى لتولى وزارة البريد، ولكن فى هذه

المرحلة، لم يعد في الإمكان التراجع. حلف هتلر اليمين ومن بعده الباقون:

«أقسم أن أكرّس نفسى لتحقيق رفاهية شعب المانيا، وأن أحافظ على الدستور وقوانين شعب ألمانيا، أن أؤدى مهام منصبى على أكمل وجه، وأن أكون محايدا وعادلا مع الجميع».

بعد أداء اليمين، زاد من وعوده بخطبة قصيرة، نتيجة انفعال اللحظة، أكد فيها إخلاصه للدستور واحترامه للرئيس وللحكومة الجديدة ورغبته فى الانتقال بألمانيا، من حالة الأزمة التى تجثم على صدرها، إلى بلد يسود فيه الإخاء وتصبح بعدها ألمانيا أكبر قوة فى العالم فى جو من السلام. تحدث هتلر، المخادع الكبير، بقناعة قلبية مستخدما كل إمكاناته المسرحية ليحرك مشاعر الحضور، وليمسح من ذاكرتهم، ولو لبضع دقائق، تهديداته السابقة، بنسف الدستور وهدم النظام البرلمانى وتهكمه على الرئيس وجنون معاداته للسامية وللشيوعية وهوسه بالانتقام من منتصرى الحرب العالمية الأولى.

بعد مراسم أداء اليمين، تلفظ هيندينبورج بعبارات مباركة للحكومة الجديدة وصرفهم معبارة مؤثرة: «أيها الفرسان! فليساعدكم الرب». خرج هتلر من مقر الرئاسة بالغ التأثر وعيناه مغرورقتان ليستقبله آلاف من المؤيدين كانوا فى انتظاره فى الشارع بانفجار من التهلّل. انتقل بعدها، بسيارته إلى مقر قيادته فى

الكايسرهوف حيث كان ينتظره جوبلز، وهيس، وسيب ديتريتش ببالغ الحماسة والسعادة وهم مستعدون للاحتفال. مساء ذلك اليوم، انتقل هتلر إلى مقر المستشارية، فى حين انشغل جوبلز وروم بتنظيم مسيرة ليلية مهيبة بالمشاعل، اشترك فيها نحو ٢٥,٠٠٠ رجل من قوات الأس أى والأس أس.

انطلقت المسيرة المهيبة اللانهائية، التى كانت تتغنى بالأغانى الوطنية الحماسية من حديقة تيارجارتن لتمر بميدان بوستدام وتخترق شارع ليابجيرستراس لتعرج يسارا فى أتجاه شارع ويلهيلمستراس وتمر أمام مقر الرئاسة والمستشارية وتنهى مسارها عند بوابة براندينبورج. كان هيندنبورج يراقب المشهد بتأثر عبر زجاج نافذته، وكان من حين لآخر، يردد مع المسيرة مقاطع من أغنياتها. بعد أن ابتلع مرارة تنصيب هتلر رئيسًا للحكومة، وجد نفسه، فى تلك الأمسية، سعيدا مثلما لم يحدث له من قبل عند تعيين من سبق من المستشارين. فى النهاية، لم يمنحه موللر ولا برونينج ولا فون بابين ولا شلايشر أى تقدير وطنى يعادل ذلك التى منحه إياه هتلر. ومع ذلك، لم يستطع ابنه أوسكار، الذى كان يرافقه ساعتها، أن يخفى قلقه على المستقبل. كان على مكتب الرئيس تلغراف من رفيق سلاح وكفاح قريب هو لودندورف:

«أسمح لنفسى أن أحذر سيادتكم، مع موفور الاحترام، أن هذا

المتعصّب سيقود الوطن إلى الضياع وسيغرق البلاد فى أعماق البؤس. ستلعنك الأجيال القادمة، وأنت فى قبرك، جرّاء ما أقدمت عليه».

على مقربة من المكان، وقف هتلر أيضا، خلف نافذة بالدور الثانى من المستشارية يراقب المسيرة. وفيما كان هيدينبورج يعتبره تكريما ومقدمة للنهضة الألمانية، كان هتلر يعتبره استعراضا لقوته. ظل على مدى ساعات يرقب توالى المشاعل وهو غارق فى أفكاره وخيالاته، مقطبا عن جبينه أحيانا عندما تستحوذ عليه الخواطر وتمنعه حتى من الحديث إلى رفقائه فرانز فون بايبن، ورودولف هيس، وهيرمان جورينج، وويلهلم فريك، الذين كانوا يتابعون هم أيضًا العرض. فى لحظة ما قال بصوت عالٍ، كما لو كان يحدث نفسه: «لن توجد على الأرض قوة تتمكن من إخراجى من هنا حيًا».

اعتبر هتلر أنه قد التزم أمام نفسه مساء ذلك اليوم، ٣٠ يونيو١٩٣٣. بتنفيذ ذلك العهد الذى أخذه على نفسه، بكل حذافيره. دارت بخلده تلك الفكرة وهو يغادر حجرته متوجها إلى الحمّام عبر المكتب الصغير بمقر المستشارية. ظل يحتفظ بكونه الفوهرر حتى بعد اثنى عشر عاما من توليه السلطة. اثنى عشر عاما وثلاثة أشهر، إذا أردنا الدّقة. صحيح أنه كان موجود فى مخبأ رطب ترتج جنباته من جرّاء قصف القنابل السوفيتية، إلا أنه حتى صباح ٢٩ أبريل ١٩٤٥. كان لا يزال فى المستشارية وكان يملك بيمينه أقدار

ألمانيا. فجأة تغيّر تفكيره: هل أرسل بورمان نسخ الوصية لمختلف المسئولين الألمان الذين لا يزالون فى ساحة المعركة؟ تغيّر تعبير وجهه بعد أن باغتته رائحة التبغ والخمر المتبقية من آثار وليمة العرس. لم يلمح إيفا براون فى الجوار، وسعد كثيرا بوصوله إلى الحمّام دون أن يلتقى أحدا، وهو بمنامته وتبدو عليه آثار النوم. تطلّع إلى نفسه فى المرآة وتكرّر معه ما يحدث كل صباح، فى الفترة الأخيرة: بالكاد يتمكن من التعرف على ذلك العجوز ذى الهالات السوداء والوجه الشاحب، وتلك العظام التى تبرز من جمجمته وتكشيرة فمه وتجاعيد عينيه.

اغتسل بعناية محاولا الاقتصاد فى الماء. تناول فرشاة الحلاقة وفرد رغوة صابونية على وجهه مغطيا فكيه ولحيته الغزيرة البيضاء، ثم أخذ موسى الحلاقة وتأكد من حدّها وراح يمررها بتمكن بالغ على ثنايا جلده ويكرر الحلاقة حتى يرضى عن النتيجة. شطف وجهه بالماء ومشّط شعره بعناية وهذّب شاربه وغسل أسنانه بالفرشاة، كل ذلك بتدقيق متناه كما كانت عادته. تعطر قليلا بماء الكولونيا. وقف مجددا أمام المرآة ليحكم على عمليات التحسين التى أجراها على مظهره، ثم عاد إلى غرفته. كان مساعد الغرفة قد أعد له الزى الرسمى الذى كان يرتديه، فى تلك الفترة، لحضور المؤتمرات العسكرية. دخلت إيفا براون إلى الغرفة الضيقة بابتسامتها المضيئة وتعبير وجهها الصبوح الذى أسر هتلر. على

الرغم من كل المضايقات، ومن الرطوبة التى تملأ الأجواء، والهواء الملوَّث، وارتجاج المخبأ كانت تبدو سعيدة، أو كانت تحاول أن تبدو كذلك بوصفها عروسًا يوم «صباحيَّتها». ساعدت زوجها على ارتداء ملابسه، حيث كان يواجه صعوبة فى ذلك بسبب ارتعاش وتشنج ذراعه اليسرى وساقه، ثم راحت تقنعه أن يتناول بعض الفطور، على الرغم من تأخره عن موعده، حيث كانت الساعة تدق الثانية عشرة، وهو الموعد المحدّد لمؤتمر منتصف النهار العسكرى.

تأخر المؤتمر لبضع دقائق، حيث انفرد بورمان بهتلر، فى البداية ليعلمه أن النسخ الثلاث من الوصية قد خرجت من المخبأ منذ برهة، يحملها كل من زاندر، ولورينز، وجوهانماير. كان يتوقع أن يصل ثلاثتهم، أو على الأقل أحدهم، إلى وجهته، حيث استحال الاتصال الهاتفى بالخارج، وبالتالى لن يتمكنوا من إبلاغ أوامر الفوهرر، ولن يتأكدوا من تسلّم القائد الأعلى دونيتز لقرار تعيينه. لم يأت المؤتمر بأى أمل جديد للحضور. كان الجنرال كريبس هو الوحيد الذى كانت لديه أخبار عن الوضع السيئ الذى أصبحت عليه برلين: الروس يتقدمون ببطء وهم يخسرون الكثير من الرجال والمركبات الحربية. كانت المقاومة فى برلين تقاتل فى مساحة تقل يوما بعد آخر، وتعانى نقصا فى الذخيرة. فى اليوم السابق، ألقت بعض طائرات النقل، التى أرسلها دونيتز، بمظلات تحمل صناديق كثيرة من الذخيرة، إلا أن القتال لم يكن يتوقف ومعدّل استهلاك

الذخيرة وصل إلى مداه. كشف عن أن أحد المخابئ الثانوية بالمستشارية، به كمية كبيرة من العتاد الحربى، واقترح أن يتم استخدام العربات المخصصّة لأفراد المخبأ فى توزيعها على المقاتلين. لم ترد أخبار تفيد عن حالة جيش وينك الذى كان يحاول أن يكسر حصار برلين من الجنوب. قد يكون الروس قد ردعوه أو قد يكون بحاجة إلى أجهزة اتصال. كما لم ترد أية أخبار تذكر عن جيوش الأشباح بقيادة بوس وهولست. بدا أنه لا جدوى من التساؤل حول وضع تلك القوات، لذا تراءى له أن يكون هناك تحرّك فاعل مغاير. فتقرر أن يخرج ثلاثة رجال آخرون بثلاث نسخ أخرى من الوصية للبحث عن جيوش للإنقاذ ودفعهم لعمل المستحيل من أجل كسر حصار العاصمة. وقع الاختيار على ثلاثة، هم النقيب بولدت، والرائد فرايتاج فون لورينجهوفن، والعقيد وايس. تمكن ثلاثتهم من اختراق الحصار السوفييتى، ومن ثم عبور نهر هافيل والانضمام إلى حامية وانسى. حاولوا بمساعدة تلك القوات المنهكة والمفتقرة إلى الذخيرة أن يكسروا الحصار، لكن القوات السوفيتية استطاعت تفريقهم. لقى وايس مصرعه وهو يقاتل، فى حين تمكن بولدت وفونلورينجهوفن من الهروب والاتجاه غربا، حيث ألقت القوات البريطانية القبض عليهما بعد أن وضعت الحرب أوزارها.

بعد أن انقطعت أخبار الجميع، طلب هتلر من الجنرالين بورجدورف وكريبس أن يرتبا لمؤتمر حرب آخر فى الساعة الرابعة عصرا، وأكد على بورمان أن يستعلم جيدا من رجاله حول أحوال

العاصمة. لم يتمكنوا من معرفة أية معلومات غير الآتى: فرد هتلر على الطاولة خريطة برلين وتأكد وهو يضغط على فكيه كيف أن دائرة الحصار السوفيتى كانت تقترب من المستشارية. كانت المعارك تدور بضراوة عند محطتى بوستدام، آنهالت على بعد مبنيين من المخبأ. فى الشمال، كان المهاجمون قد تمكنوا من عبور نهر سبرى. حكى له سائقه، إيريك كيمبكا، كيف أنه ظل ينقل الذخيرة إلى المدافعين فى محطة آنهالت، وكيف أنهم ظلوا يحاربون بحجارة الرصف بعد أن نفدت منهم ذخيرة البنادق الآلية. لم تكن هناك أية أخبار عن جيوش الإنقاذ. بعد أن تبين عدم جدوى أى إجراء، تقرر أن يرسل بورمان إلى بونيتز رسالة عبر الأثير:

«تتحدث الصحافة الأجنبية عن خيانة جديدة. ينتظر الفوهرر أن تتحرك بسرعة البرق وتضرب بيد من حديد على خونة المنطقة الشمالية. لا تخش شيئا ولا تقم وزنا لأحد. على شوارنر ووينك وغيرهم من القادة أن يثبتوا ولاءهم للفوهرر وأن يهبّوا لفك حصاره على الفور».

حتى بعد إرسال الرسائل، لم تكن هناك أية ضمانات لأن تصل إلى وجهتها، لدرجة أن الجنرال بورجدورف اقترح أن يخرج العقيد فون بيلو إلى برلين، ذاك المساء، ليحمل رسالة استغاثة جديدة. هناك احتمال لأن تكون تلك خدعة من الجنرال حتى ينقذ حياة ففن بيلو، الذى كان يستلطفه. وافق هتلر الذى كان هو أيضا يحب

العقيد، مساعده منذ ٨ أعوام فى شئون الطيران وأحد مساعديه الشخصيين، وسلّمه رسالة موجهة إلى المارشال كياتل، رئيس القيادة العليا الألمانية ولأقرب مساعديه للشئون العسكرية، أثناء الحرب.

فى تلك الأيام الأخيرة، كان بورمان قد رجّح خيانة المارشال. لم يصدقه هتلر، وإن كان يعتقد منذ فترة أنه يفتقر إلى الكفاءة. لكن يبدو أن طول مدّة تعاونه وإخلاصه السابق، كانا قد تركا أثرا طيبا لدى هتلر، الذى لم يفكر فى سواه ليرسل له رسالة صاغها على مكتبه:

«لقد قدّم شعب ألمانيا والقوات المسلّحة، كل ما فى استطاعتهم خلال هذه الحرب الطويلة. كانت التضحيّات كبيرة. لكن الكثيرين خانوا ثقتى فيهم. للأسف قادت الفتن والخيانة مقاومتنا طوال الحرب. لهذا لم أتمكن من تحقيق النصر لشعب ألمانيا. هيئة أركان الحرب الحالية لا يمكن مقارنتها بقيادة الجيش أثناء الحرب العالمية الأولى، وجاءت إنجازاتها أقل كثيرا مما حققه المحاربون على جبهات القتال. لقد قدّمت ألمانيا الكثير والكثير من الجهد والتضحيات، تجعل من الصعب التصديق أنها قد ذهبت سدى. لابد أن يكون هدفنا المقبل هو التوسع من ناحية الشرق من أجل كسب المزيد من الأراضى للشعب الألمانى».

فى هذه الرسالة الختامية، عاد هتلر ليبرر فشله: حالت الخيانة دون تحقيق النصر. ذكّر كياتيل، عرضا، بواجبه فى ملاحقة الخونة.

مثلما أمر دونيتز، فى برقية ذلك المساء. استمتعت روحه البائسة بتعذيب المارشال: لم تكن هيئة أركان الحرب على مستوى التحدى ولا يمكن مقارنتها بسابقتها أثناء الحرب العالمية الأولى، وجاءت إنجازاتها أقل من إنجازات المحاربين الألمان. فى النهاية، حاول أن يبلور الهدف الذى دخل الحرب من أجله. على الرغم من الهزيمة، لم تذهب التضحيات هباء: لا يزال هدف الاستيلاء على الأراضى قائما.

سلّم الرسالة إلى فون بيلو، الذى غادر المخبأ ذلك المساء. كان المشهد بالخارج مأساويا للغاية، كانت الحديقة مغطاة بالأنقاض وتمتلئ بالحفر نتيجة قصف قنابل المدفعية السوفيتية وقنابل طائرات الحلفاء. لم تعد مبانى المستشارية والوزارات سوى جدران متهاوية، تكاد تتساقط فى محاولتها التماسك. كان وطيس المعركة حاميا وليس ببعيد. كانت المعركة تدور بالأسلحة الآلية والبنادق، وكان يمكن تمييز صوت طلقاتها بوضوح، حتى وإن اختلطت بانفجارات قذائف صواريخ البانزرفاوست[1]، الألمانية والبازوكا الأمريكية التى كان يستخدمها السوفييت وانفجارات قنابل اليد، التى كانت السائدة فى الحرب من بيت لآخر. كانت الانفجارات

---

(١) البانزرفاوست أو (Panzerfauste): هو سلاح ألمانى مضاد للدبابات لاستعمال قوّات المشاة فى المواجهات المباشرة مع الدبّابات.

تضىء الليل وتكشف عن سحابة الغبار التى تكتنف عاصمة الرايخ. تنفس فون بيلو هواء الخارج بانتعاش. حتى مع روائح الكورديت[1]، والبارود المحترق، والدخان، والجثث، فإن هواء الليل القادم كان ممتعا، مقارنة بالجو الملوث والرطب والدافئ بداخل المخبأ. لم يتح له الكثير من الوقت للتأمل، فقد سقطت قذيفة مدفع روسى بجوار الحديقة المتهدمة فملأتها بشظايا من المعدن والحجارة. حثه مرشدوه لاتباعهم، وعند فجر اليوم التالى، بعد عبور مصارف وأنفاق مترو نصف غارقة ومغطاة بالجثث وشوارع عبارة عن أنقاض، بعد أن ضربتها كل القوات تقريبا؛ وبعد شق الطريق بإطلاق النار وبعد الزحف فوق المساحات المكشوفة وهم يتعرقون خوفا، وبعد أن تقطعت ملابسهم من جرّاء محاولات إزاحة الأنقاض والأسلاك الشائكة وبعد أن امتلأت أجسادهم بالجروح وبقايا الدماء الجافة، وجد العقيد نيكولاس فون بيلو نفسه خارج برلين. وصل بعد يومين، أى يوم ٢ مايو، إلى مقر قيادة الجنرال دونيتز حيث كان قد بلغهم نبأ وفاة هتلر فى اليوم السابق. أكد فون بيلو وصية هتلر. لم يتمكن أى رسول ممن خرجوا يوم ٢٩ أبريل من إبلاغ رسالته. عيّن العقيد بكل دقة الحكومة التى أرادها الفوهرر وأملى الرسالة الموجهة إلى كياتل - التى أوردناها فيما سبق - حيث كان يحفظها عن ظهر قلب، بعد أن دمر المستند خوفا من أن يقع

---

(١) الكورديت: هو نوع من البارود بلا دخّان.

فى يد السوفيت. كما عرض فون بيلو، بكل دقة محتويات وصية هتلر الخاصة والتى وقع عليها باعتباره شاهدًا. كانت تلك آخر رسالة شخصية بعث بها هتلر من البونكر.

الفصل الرابع
ســاعات اليــأس

بعد أن غادر فون بيلو، بقى هتلر وحيدا فى مكتبه. فجأة تكشفت له حقيقة أنه لم يعد لديه ما يفعل سوى انتظار القدر، كما لم يعد فى إمكانه أن يخدع نفسه، لم يكن ذلك القدر أمرا آخر غير الموت. جلس على أريكة رحيبة صلبة شديدة السوقية، لا يعرف أحد مصدرها، ولم تكن تتناسب مع باقى الأثاث عالى الجودة -على الرغم من تهالكه من كثرة الاستخدام - الذى كان ينتشر بين جنبات صالون المستشارية، من بقايا أيام السلطة والمجد. جال ببصره بين الجدران الخشبية للغرفة الحزينة المنفرّة حتى وقعت عيناه على صورة فريديرك الكبير، كان قد رسمها أنطون جراف، وظلت تنتقل معه حتى برلين، بداية من مكتبه «بالبيت البنى» بميونخ. وتسببت الاهتزازات المستمرة فى إمالتها عن وضعها الصحيح. نهض وأصلح وضعها ثم جلس إلى مكتبه. هناك، كانت صورة أمه كلارا داخل

إطارها لاتزال تصاحبه منذ أربعين عاما. مرّ، بيده، على زجاج الصورة وداعبت مخيلته ذكرى أكثر امرأة أحبها فى حياته وهو يلاحظ فى وحدته مكتبه الخالى من الأوراق. يا له من شعور غريب! لم يستطع أن يتذكر مثل هذا الشعورا خلال العشرين عاما الماضية: لم يكن لديه شىء يفعله، وكان مكتبه يخلو من أية مستندات تتعلق بموضوعات تنتظر تأشيرته. ومع ذلك كان يتعيّن عليه أن ينجز موضوعا ما: ترتيبات موته.

بمنتهى الثبات، سيطلق رصاصة على رأسه. بدت له تلك الميتة أكثر النهايات جدارة به، لعلّها النهاية التى كان فريدريك الكبير سيختارها لانتحاره عندما حاصره الروس، واقترب من الهزيمة فى حرب السنين السبع. إلا أن ملك بروسيا لم يضطر لأن يفجر رأسه، حيث وافت المنية إليزابيث، إمبراطورة روسيا، وعرض عليه اتفاق سلام مرضٍ. للأسف، لم تكن مجريات الأمور مماثلة عام ١٩٤٥. ولم يكن ستالين مثل الإمبراطورة إليزابيث. لم تكن هناك معجزة قادرة على إيقاف الروس، الذين لم يتوقف دق مدافعهم مساء ذلك اليوم، ٢٩ أبريل ١٩٤٥. لابد أنهم كانوا يسعون لتوسيع رأس جسر كاونيجزيلاتز، حيث كانت تتصدى لهم قوات الأس أس المرابطة بمقره وبمبنى الرايخستاج. كانوا على مقربة خمسمائة متر والمقاومة - لنعترف - لن تستمر طويلا، مهما استبسلت واشتدت عزيمتها. ضغط على زر الجرس وطلب إحضار سائقه إيريك

كيمبكا، إلا أنه كان خارج البونكر ينظم إمدادات الذخيرة. طلب بعدها، أن يرسلوا فى طلب طيّاره الخاص هانز باور، ليأتى إلى مكتبه.

فينما ينتظر، أخرَج من درج مكتبه مسدسا من طراز والتر عيار ٧,٦٥. تأمل سارحا الحديد البارد ذا الألوان الزرقاء والتصميم الصناعى الدقيق للسلاح، ثم حواف الجوانب السوداء للمقبض، رفع الزناد وأعاده أكثر من مرّة ليتأكد من أنه يعمل، وفى النهاية أعاده إلى الدرج. كل شىء كان معدا. دق جرس الباب. حضر هانز باور، طيّاره المفضّل. لقد أرسل فى طلبه من أجل أمر بالغ الحساسية: حرق جثته. كان الأمر يستلزم كمية كبيرة من البنزين يصعب توفيرها وسط تلك الظروف فى أى من مناطق برلين التى لاتزال تحت سيطرة الألمان. تحدث مع الطيّار عن مخاوفه من أن يقع حيّا فى أيدى الروس. أخبره أن المعامل الألمانية قد توصلّت لتركيبة غاز تمكّن الإنسان من البقاء مخدرا لمدة أربع وعشرين ساعة، وأن بعضا من تلك المعامل قد استولى عليها الروس.

«أفادتنى مصادرنا الحربية أن الروس قد عرفوا بأمر الغاز وأنهم باتوا يعرفون تأثيره وطريقة استخدامه. لذا لا أستطيع أن أغامر بأن أظل حيّا فترة طويلة، فبالتأكيد عرف الروس مكانى ولن يطول الوقت حتى يدخلوا المستشارية. لذا، عندما أقرر أن خدماتى لم تعد تجدى نفعا لألمانيا، سأتخلّص من حياتى. كما أننى، لست

على استعداد أن يستولى أعدائى على جثتى، لذا آمرك بأن تحرقها هى وجثة زوجتى، التى قرّرت هى أيضا أن تموت إلى جوارى، وعليه يجب عليك تدبير كمية البنزين اللازمة لكلينا».

خرج هانز باور وهو ينعى هم تدبير تلك الكميات من البنزين ومكث هتلر وحيدا مرّة أخرى فى مكتبه. لابد أن القصف فى الخارج كان شديدا قياسا على الارتجاج المتواصل والشديد الذى يصيب البونكر. كان السقف يمطر قطعا من الجص، أدت إلى تكوين طبقة من الغبار على المكتب، راح هتلر يتسلى برسم أشكال عليها، كيفما عنّ له الخيال. تناول متثاقلا قلما. كم مستندا وقّع بهذا القلم على هذا المكتب؟ ماذا كان أول مستند وقعه. حاول جاهدا أن يتذكر، إلا أنه لم يستطع وإن كان تذكر مستندًا من أوائل ما وقع، لعلّه أهم مستند وقعه فى أيامه الأولى فى المستشارية: حل الرايخستاج والدعوة لانتخابات يوم ٥ مارس ١٩٣٣. لم يتمكن من منع ابتسامة ساخرة ارتسمت على شفاهه: «الواهمون. كانوا يظنون أن بإمكانهم إلجامى. فى أقل من شهرين، ملكت زمام كل السلطة فى ألمانيا!» تذكر فون بابين الذى كان يطمئن أتباعه: «لن يشكل هتلر أى خطر. لقد تعاقدنا معه ليدافع عن مصالحنا». ماذا هو فاعل فون بابين الآن؟ استدعى هتلر صورته إلى ذهنه بلا أية غضاضة. لم يكن بالشخص الذى يسبّب المشاكل، واعترف أن مثله خير ممثل باعتباره سفيرًا له فى فيينا أثناء الوحدة مع النمسا. لم

تكن مهمته الدبلوماسية فى أنقرة على نفس القدر من النجاح، فقد فشل فى إقناع تركيا بالوقوف إلى صف ألمانيا فى الحرب. بالمناسبة، وردت من سفارته، إلى برلين، التقارير الأولى عن إنزال الحلفاء فى نورماندى فيما عرف «بعملية أوفرلورد» والتى كانت تحمل توقيعا باسم غريب مستعار.أجل! «شيشرون». شخص واسع الاطلاع. عندما قطعت تركيا علاقتها مع الرايخ واضطر فون بابين للعودة إلى ألمانيا فى صيف ١٩٤٤. تذكر أنه استقبله ومنحه نوط الامتياز. لم تأته أخبار عنه بعد ذلك.

تذكر أيضًا واحدا من أول اجتماعاته باعتباره مستشارًا مع بدايات شهر فبراير من عام ١٩٣٣. مع كبار رجال الصناعة الذين التقى بهم فى مقر المستشارية، ليطلب منهم دعما ماليا لحملته الانتخابية. اسودت وجوههم لاضطرارهم لفتح خزائنهم أكثرَ من ضيقهم من الانتخابات الجديدة التى ستخوضها البلاد. لكنهم سرعان ما تبسموا مثل الأرانب عندما قال لهم: «أيها السادة، لا داعى للقلق ولتكونوا كرماء، فإننى أعدكم بحكومة ثابتة، قوية، مستقرّة، ولن تكون هناك انتخابات قبل عشر سنوات».

احتراق الحرية

لقبت حكومة هتلر، التى شكلّها عندما تولى مسئولية المستشار، «الحكومة الثانية ذات المنظار الأوحد»، حيث ضمّت، كسابقتها

برئاسة فون بابن، كبار وأعيان أرستقراط الاقتصاد فى ألمانيا. كان هؤلاء النبلاء واقعين تحت استقطاب النازية. فمنذ أن تولى هتلر مقاليد السلطة فى المستشارية، كثّف من جهوده فى اتجاهات خمسة: تدمير أو على الأقل تحييد أعدائه، إسناد جميع الحقائب الوزارية لأعضاء من الـ (NSDAP)، كسب ثقة الجيش، تفكيك أوصال النظام البرلمانى، ثم الحصول على انتصار قوى فى الانتخابات من شأنه أن يبرّر ديكتاتوريته. من أجل تحقيق ذلك، ألقى خطابين متتاليين قامت الإذاعة بنقلهما مباشرة، كما نشرت نصوصهما أغلبية الصحف فى الأيام التالية، وفيهما اتهم الشيوعية بالتسبب فى تدهور حال البلاد. كما أدان الديمقراطية البرلمانية التى «تكبل حرية الفكر الألمانى» وبشّر كبار مسئولى الجيش بأنه سيفرض، عمّا قريب، الخدمة العسكرية الإجبارية، كما أنه سينهى حالة تحديد التسليح التى قبلتها ألمانيا عقب الحرب الكبرى. حصل من الرئيس هيندينبورج على سلطات مطلقة لوزير داخليته ومن ثم تحكم، كيفما شاء، فى حق التجمهر ومنع التظاهرات والتجمعات السياسية، وتلاعب بالرقابة وألغى بعض المنشورات بحجة خطرها على أمن الدولة. وعلى اعتبار أن الوضع أصبح استثنائيا، انضم ما لا يقل عن أربعين ألفا من رجال الأس أى والأس أس، إلى قوات الشرطة وقاموا بمداهمة مقر الحزب الشيوعى ومصادرة ما به من مستندات، ومن ثم اتهامه بأنه يسعى لتنظيم انقلاب على السلطة.

وبحثا عن تمويل انتخابات تضمن نجاحًا ساحقًا للنازية، قام هتلر بجمع عدد من رجال الأعمال، مرّة أخرى وفرض عليهم ثلاثة ملايين مارك. كل ذلك خطّط له ونفذه هتلر ورجاله فى مدّة لم تتعد ثلاثة أسابيع، إلا أن مسيرة النازية نحو الديكتاتورية، كانت ستزيد من سرعتها فى الأيّام التالية.

فى أول ساعات المساء من يوم ٢٧ فبراير ١٩٣٣. اجتمع كل من فون بابن والرئيس هيندينبورج ليتناولا العشاء فى مطعم هيرينكلاب. كان هذا المطعم أحد الأماكن التى يتردّد عليها أبناء الطبقة الأرستقراطية والبرجوازية المقتدرة، وكذا الساسة المحافظون، الذين كانوا يستمتعون بإطلالته على الرايخستاج. كان المطعم فى أوج ازدهاره فى أيام «الحكومة الثانية ذات المنظار الأوحد» تلك، مميّزا غالى السعر ومناسبا لعقد جلسات العمل وتدبير المكائد الصغيرة. بعد أن تجاوزت الساعة التاسعة مساء ببضع دقائق، شهد المطعم بعض الهرج. فقد تخلّى بعض الحضور عن قواعد اللياقة وهرعوا للنظر عبر النوافذ. كانت هناك أضواء شديدة تغطى قبة الرايخستاج ، كما لو كانت جميع المصابيح قد أضيئت فى نفس الوقت. لم تدم الحيرة أكثر من دقائق معدودة، حيث سمعت أصوات انفجارات صغيرة فى الجوار: كان زجاج نوافذ الرايخستاج ينفجر تحت تأثير الحرارة. وبمجرّد أن تهشم الزجاج، اندفعت إلى أعلى سحب كثيفة من الدخان تصاحبها ألسنة لهب

مشتعلة أتت على جميع محتويات المبنى خلال ربع ساعة. اقترب نادل من فون بابن وهمس فى أذنه: «هناك حريق فى الرايخستاج». أسرع الرئيس ونائب رئيس حكومته إلى إحدى النوافذ: «شاهدنا قبة الرايخستاج كما لو كانت تضيؤها المصابيح، ومن حين إلى آخر كان لسان لهب شديد أو عمود دخان كثيف يخترقان المشهد». تابع فون بابن وهيندينبورج، فى ذهول وتأثر، كيف يذوى ذلك العمل الفنى للمعمارى والوت، فى حين كان الاضطراب هو السائد فى وسط برلين من جرّاء صفارات رجال الإطفاء. بينما يتابعان انهيار مبنى البرلمان الألمانى، وصلت أولى الشائعات إلى مطعم هيرينكلاب: لقد فعلها الشيوعيون وقد تم القبض على المشتبه فيه، أحد مثيرى الشغب من الأجانب.

كان منزل آل هافستانجل فى برلين يطل على الرايخستاج. تنبهت إحدى الخادمات للحريق ونبَّهت هانز هافستانجل الذى أسرع بمهاتفة جوبلز لإعلامه بالحدث. بالمصادفة، لم يكن هناك من داع للبحث عن هتلر، حيث كان فى تلك الليلة يتناول العشاء فى منزل مدير دعايته. أنهيا طعامهما، فى تؤدة، ولم يبد عليهما أى أثر للعجلة ولا للدهشة، كما أن هتلر لم يكن ليتنازل عن أى من الحلوى التى تعدها ماجدة جوبلز. توجها بعد ذلك إلى الرايخستاج. فى الجوار كانت الشرطة تمنع الجماهير من الاقتراب، حيث تجمّع الكثيرون وهم يشاهدون عجز رجال الإطفاء عن مواجهة النيران.

تقدم هتلر وجوبلز مع حرسهما الخاص واخترقا حواجز الشرطة فى تمام الساعة التاسعة و٤٧ دقيقة، حسب ما سجّل أحد الصحافيين البريطانيين، أى بعد نحو أربعين دقيقة بعد أن بلغ مسامعهما الخبر، وعلى الرغم من وجودهما على مسافة عشر دقائق من البعد. علق الفوهرر، وقد بدا عليه الأسى: «يبدو كشعلة سماوية». فى إشارة للحدث، بعد عدة أيام، استخدم نفس المعنى بعد أن أضاف إليه: «بدا كشعلة تنبئ ببداية عهد جديد من تاريخ البشرية».

كان جورينج، وزير الداخلية، هو الشخص الذى عانى الأمرين تلك الليلة، وظل طوال الوقت يتصبب عرقا وغرقا فى مسئولياته وراح يعلّق يمنة ويسرة وهو يصرخ: «هذه أفعال الشيوعيين. هذا هو الدليل الدامغ على مؤامرة الشيوعية ضد شعب ألمانيا. هذا ما حذر منه الـ (NSDAP) منذ عدة أسابيع». استنادا إلى الشائعة التى أطلقها هو بنفسه، أمر جهاز الشرطة ومعاونيهم من رجال الأس أى والأس أس، بأن يلقوا القبض على المتسببن فى ذلك الدمار. فى تلك الليلة، تم إلقاء القبض على أكثر من ألف من قادة الشيوعية، وكان الاستيلاء على أرشيف الشيوعيين وبعض قادتهم الذين كانوا فى السجن، أبلغ دليل على أن العملية قد تم الإعداد لها سلفا.

من الذى أشعل النار فى الرايخستاج؟ حتى هذه اللحظة لم يتم التوصل لمعرفة هوية عرّاف النار. على مقربة من مسرح الحدث،

ألقى القبض على مثير الشغب الهولندى مارينوس فان ديرلوب. شخص شبه مختل، وشبه مكفوف وبلا قدرات تذكر، فحتى لو أراد أن يشعل الحريق، لن تسعفه إمكاناته المعدومة. بالطبع تم اتهام عدد آخر من الشخصيات السياسية، مثل چورچ ديميتروف، وحكم عليهم، إلا أن حملة دولية اندلعت وأثبتت عدم نزاهة الحكم وضعف التهم الموجهة لهم، ومن ثم تم إطلاق سراحهم. أما فان ديرلوب فقد حُكم عليه بالإعدام عام ١٩٣٣، وانتهى تحت المقصلة فى يناير ١٩٣٤.

على الرغم من ذلك، كان جورينج وأعوانه يثيرون الشبهات حول قيامهم بالتخطيط للحريق وتنفيذه. إذ يتعلّق الأمر بحريق كبير فى مبنى من الصخر والإسمنت ولا يمكن لشىء فيه أن يحترق بسهولة سوى الستائر. أولا، لأن هناك ممرا يوصل بين بيته وبين الرايخستاج. ثانيا، لأن الحريق كان نتيجة عمل جماعى، فقد توصلت التحقيقات إلى أن النيران قد اندلعت فى أكثر من موقع فى نفس الوقت. ثالثا، لأن حرس الرايخستاج كانوا من رجال الأس أس، الذين لم يكونوا ليسمحوا بدخول أية مواد حارقة، أو أى أشخاص لا ينتمون لفكرهم. رابعا، لأن النازيين كانوا ينتظرون هذا الحدث حتى يكون ذريعة لحملتهم السريعة على زعماء الشيوعية، وأن يستصدروا بذلك أمرا بتوقيع من هيدينبورج - فى أقل من ١٥ ساعة - مما ينم عن ترتيب مسبق وليس رد فعل عكسيًا للواقعة.

ذكر الجنرال هالدير، الذى كان يشغل وقتها قائد أركان حرب الفيرماخت[1] فى مذكراته الشخصية، أنه قد سمع بنفسه فى إحدى حفلات العشاء، جورينج وهو يفخر بأنه صاحب خطة الحريق وأنه شارك فيه. مع كل ذلك، يصعب الاعتقاد بإقدامه على ذلك بمبادرة شخصية. الأرجح أن كائنا من كان قد تسبب فى حريق الرايخستاج، لابد وأن يكون قد عمل بإيعاز مباشر من هتلر. فقد سبق له أن أعلن فى أكثر من سابقة، خلال مسيرته السياسية، عداءه للبرلمان ورغبته الصريحة فى إلغائه. كما كان معروفا عنه أن مقدار بغضه للمؤسسة البرلمانية، كان أقل بكثير من بغضه لمبنى المقر، الذى كان يقول عنه إنه مزيج ما بين معبد يونانى وكنيسة رومانية وقصر عربى، وإن كان فى مجمله يبدو أقرب لأن يكون معبدا يهوديا و «كلما كان حريق هذا المبنى قريبا، كلما أسرعنا بالتخلّص من التدخل الأجنبى البغيض».

كانت لدى هتلر أسباب أكثر خطورة وأكثر تعجلا لكى يأمر بافتعال الحريق. كان يرى كل يوم بوضوح أكثر، كيف أن هايدينبورج قد بدأ يفقد صبره على مسبحة القرارات الجمهورية التى كان مستشاره يتقدم له بها. ومع ذلك، كان يعرف أن مسيرته لابد أن

---

(١) فيرماخت (Wehrmacht): بمعنى قوة الدفاع، هو اسم القوات المسلحة الموحدة لألمانيا بين أعوام (١٩٣٥ - ١٩٤٥) كانت تشمل كلاً من الجيش والبحرية وسلاح الجو.

تواصل تقدمها وإلا وجد نفسه خارج السلطة كما حدث مع سابقيه. لابد أن يعزّز مركزه وينتزع منه المزيد من الامتيازات الدستورية، حتى يتمكن من إجراء انتخابات تنتهى لصالحه وتعضّد من موقفه، ولم يكن أمامه من عقبة كئود سوى الحزب الشيوعى. كان بحاجة لضربة قاضية، ضربة تعيد الرئيس من جديد إلى صفه. لكل ما تقدم، لم يكن مصادفة أن يتم دعوة هيندينبورج للعشاء فى الهيرينكلاب ليلة الحريق، كما لم يكن من قبيل الارتجال، أن يحضر هتلر صباح يوم ٢٨ فبراير إلى مقر الرئاسة بمبررات داحضة:

«لقد لقنّا أعداء الوطن درسا فى كفاءتنا وقوتنا. لقد ألقينا القبض على الفاعل وشركائه، وأكثر من ألف شخص من المسئولين عن المؤامرة الشيوعية. لقد صادرنا أكثر من ثلاثة آلاف من المواد المتفجرة. خطتهم أمس كانت تبدأ بالرايخستاج وتنتهى بمقر الرئاسة والمستشارية وباقى الوزارات. لم يقف أمام ذلك المخطط سوى سرعة تحرك جورينج وحنكته. لابد وأن يروا أننا لن نتردد أبدا، ولن يعيقنا شىء عن أداء واجبنا. لذا أقترح أن توقع هذا المرسوم الذى من شأنه حماية الشعب والدولة».

كان هيندينبورج فى حالة ذهول من محتوى التقرير ويبدو أنه قد فكر بصوت عال، فى لحظة ما: «ثلاثة آلاف قنطار! إنها كمية متفجرات قد تستهلكها معركة كبيرة». تنفس المارشال العجوز الصعداء وشعر، فى تلك اللحظة، بامتنان لمستشاره، للحد الذى

جعله يوقع، بلا تردد على مرسوم يُسقط، مؤقتا، سبع مواد دستورية كانت تضمن الكثير من الحريّات الفردية: حرية الصحافة والرأى والاجتماع وسرية البريد والتلغراف والهاتف والحرية الشخصية، ما لم يصدر أحد القضاة أمرا بالسجن، وحرمة البيوت والملكية الخاصة. لقد سلّم الرئيس السلطة المطلقة للمستشار هتلر.

امتنان من تلك اللحظة توالت عمليات الاعتقال لأسباب سياسية بلا توقف. امتلأت السجون، حتى استوجب إعداد ثلاثة معسكرات للسجناء السياسيين فى بروسيا، خلال الأيام التالية، كان أولها معسكر أورانينبورج القريب من بوتسدام، والذى افتتح يوم ٢٠ مارس. فى اليوم التالى، ٢١ مارس، افتتح رئيس شرطة بافاريا وقوات الأس أس، هاينريش هيملر، معسكر داشو، الذى تحول بعد ذلك، لواحد من أسوأ معسكرات النازية، على مدى تاريخها، وفيه ستزل قدم هيملر إلى عالم السجون، الذى سيصبح المسئول الأكبر عنه. داخل جدران هذا المعسكر، الذى بنى على أنقاض مصنع قديم للذخيرة، سيتم إعداد فرق من رجال الأس أس عرفت باسم الجمجمة[١]. مع مقدم صيف ١٩٣٣. كان فى ألمانيا نحو خمسين معسكرا تعمل على تدريب القوات، لكن لا داعى لاستباق الأحداث.

---

(١) Totenkop: قطاع من الأس أس كان يتولى مهام إدارة معسكرات التعذيب النازية، ويستخدم رمز الجمجمة شعارًا له.

مع افتتاح سجن أورانينبورج، بعد ثلاثة أسابيع بالضبط من حريق الرايخستاج، كان بالسجون الألمانية نحو ١٥,٠٠٠ سجين سياسى.

فى تلك الفترة كانت انتخابات ٥ مارس قد تمت، وقد حظى هتلر، بالترتيب مع حلفائه، بأسبوع دعاية له وحده. استغل وزير الداخلية، السلطات الممنوحة له بموجب مراسيم الرئاسة، وفرض رقابة على كل ما يُنشر ضد (NSDAP). كما صادر وأغلق الصحف واستولى على مقرّات أحزاب، ومنع التجمعات وقبض على الزعماء وتجسس على اتصالات التكتلات المنافسة، كل ذلك بإنفاق من الأموال التى كانوا يتحصلون عليها من السلطة، فقدمت بكل ذلك النازية، حملة شرسة فى محاولة لكسب موافقة جميع أفراد الشعب الألمانى. مع ذلك، جاءت نتائج ٥ مارس انتخابات محبطة ومخيبة لآمال كل من جوبلز وهتلر. صحيح أن (NSDAP). قد اكتسح، لكن الحملة المتواطئة والموجهة، والعديد من حالات التزوير التى سمحت بها النازية، لم تجمع له سوى ١٧,٢٧٧,٣٢٨ صوتًا، أى ٤٣,٩٪ من إجمالى الأصوات الصحيحة، أى أنه لم يحصل على الحد الأدنى، ومع ذلك أعلن هتلر أنه حصل على النجاح الكامل. فى الحقيقة، فى ظل نظام ديمقراطى، كان هتلر سيواجه مشاكل، حيث لم يحصل إلا على ٢٨٨ مقعدا من إجمالى ٦٤٧ فى المجلس، غير أن هتلر، أخفى الأمر وأعلن نجاحه واستعد لفرض ديكتاتوريته. ومع ذلك، وحفظا لماء الوجه، سعى الـ (NSDAP) لعقد تحالف مع

الحزب الوطنى الألمانى (Stahlhelm) حتى يكون للقوتين معا إجمالى ٥١,٩ ٪ من إجمالى الأصوات، و٥٢٪ من إجمالى المقاعد. على كل حال، لم يكن ذلك الإجراء بذى أهمية تذكر، حيث لم يكن هتلر ليهتم بلعبة الديمقراطية.

بعد إلغاء الحقوق الفردية فى ٢٨ فبراير، دخل النازيون سباقا محموما وراء كل أدوات السلطة. فتم إلغاء النقابات وإلقاء القبض على زعمائها، كما تم الزج بعدد كبير من النواب الشيوعيين فى السجن، فى حين فضّل الآخرون المنفى. كان يتم إعفاء جميع موظفى دواوين وساسة القطاعات من مهام وظائفهم ما لم يكونوا من المنتمين للـ (NSDAP) أو من داعميه.

ثم ترفرف الأعلام النازية على السوارى ويقوم نازى بالعمل. كان يتم الاستيلاء على مقرّات الأحزاب، والجمعيات السياسية، والرياضية، والترفيهية، وحتى الدينية وتصادر مخازنها. كانت آلة الاشتراكية الوطنية المدمرة قد بدأت عملها فوصلت لإزهاق الأرواح دون أن تصدر أوامر من المستشارية. كانت الإرهاصات تتخفى بين ثنايا الأيديولوجية وفى الماين كامبف وفى آلاف الخطب والتعليمات التى كانت تُلقى. حاولت شخصيات من الكنيسة ومن المثقفين أن يوصلوا تحذيراتهم إلى الرئاسة، غير أن هيندينبورج كان يؤكد أنه قد تحدث مع مستشاره، وهو ما كان يتيح لهتلر تحديد هوية أعدائه، مما قضى على أى أمل لهم فى التوصل لحلول معقولة. صحيح أن

المارشال العجوز قد تملكه القلق فى بعض الأوقات، حول حصافة قراراته، إلا أن هتلر لم يكن ليعدم وسيلة لكى يبدد مخاوفه.

هذا ما حدث، مثلاً، يوم ٢١ مارس أثناء الاحتفالية الدينية ببوتسدام، بمناسبة صدور دستور البرلمان الجديد. ففى كنيسة المدينة العامة، حيث يرقد جثمان كل من فريدريك الأول وفريدريك الثانى، أقيمت صلاة شكر أظهر خلالها هتلر منتهى الاحترام والتوقير للرئيس، كما نظم على شرفه مسيرة لقوات المشاة، تتبعها أخرى ضمّت آلافًا من رجال الشرطة ورجال الأس أى والأس أس. كان ذلك تكريما واستعراضا للقوة، وهما عاملان كانا يأسران المارشال العجوز الذى حضر بحلته العسكرية الخاصة بالاحتفالات، التى تزدان بمجموعة خارقة من أنواط الامتياز لأربع حروب. كان لصلاة الشكر والمسيرة التى تلتها غرض آخر، حيث كان مبنى الرايخستاج الجديد سيتم افتتاحه فى ٢٣ مارس، وكانت الأروقة السياسية تتبادل أخبار نية هتلر طلب إقرار قانون السلطة المطلقة لمدة أربعة أعوام، ومن ثم كان من الضرورى تقوية الأواصر مع الأصدقاء وإظهار قوة الـ (NSDAP) للأعداء.

بعد تدمير قصر والوت، المقر السابق للرايخستاج، انعقد البرلمان الجديد بدار أوبرا كرولوبر فى تمام الساعة ١٤,٠٥ يوم ٢٣ مارس. أحاط بالمبنى مئات من رجال الأس أس، بزيهم الموحد راحوا، بالاشتراك مع الشرطة، يراجعون بطاقات دخول النواب

والصحافيين وأعضاء السلك الدبلوماسى وبعض المدعوين. آلاف من رجال الأس أس على رأسهم جوبلز يصيحون بصوت واحد «نريد قانون السلطة المطلقة... وإلا فسيكون هناك إطلاق نار». كانت ممرّات مسرح الأوبرا تلك تعج برجال من الأس أس، تم اختيارهم ممن يزيد طولهم على ١,٨٥ سم، كما كانت منصة الرئاسة مكتسية بعلم كبير يحمل شعار النازية. كل هذه الدعاية كانت لتتهاوى أمام ما جاء فيما بعد من أحداث. أولا، فاجأ رئيس الرايخستاج، هيرمان جورينج، الجميع عندما توجه للمجلس بلقب «الرفاق»، وبعدها، وفى تحقير صريح ومقصود تجاه باقى النواب، راح ينشد «انهضى يا ألمانيا»، تلك الأغنية التى ألفّها إيكارت وظلّت على مدى عشر سنوات جزءا أساسيا من الهوية النازية. فما كان من نواب الحزب الوطنى الاشتراكى، إلا أن وقفوا وأكملوا باقى المقاطع وسط دهشة وسخط من فى القاعة. حان بعدها وقت تمرير القائمة مع ملاحظة أن أكثر من مائة نائب لم يكونوا حاضرين: ٨١ شيوعيا - ما بين مسجون أو هارب - و١٩ اشتراكيا ديمقراطيا - ٩ مساجين والباقى خائفون-. واجه نائب الـ (NSDAP) ستوإيهر، اعتراضات الاشتراكيين الديمقراطيين بخصوص الأعضاء المسجونين ومطالباتهم بمنتهى الوقاحة بأن يتم إطلاق سراحهم عندما رد بقوله: «لا يمكن أن نحرم هؤلاء النواب من حماية الدولة التى تكفلها لهم».

أخيرًا، وصلنا للموضوع الكبير فى ذلك اليوم، وكان هتلر بنفسه هو من قام بعرضه وسط مدافع من التصفيق وصيحات التأييد! غير أن الفوهرر لم يسعفه الإلهام، على الرغم من ردود الفعل الحماسية لأتباعه. كانت أول مرّة يتحدث فيها فى البرلمان، ولم يخرج عن أسلحته المعهودة من ترسانته الجدلية: الأخطاء الجسيمة لجمهورية فايمار، خطر الشيوعية، المؤامرة المجهضة التى تمثلت، فى أبلغ دليل عليها، حريق الرايخستاج وامتياز الوطنية الاشتراكية، التى تنطوى على تفوق الجنس الألمانى والحاجة لزعيم ذى حضور... إلخ. حان بعدها وقت الاستراحة. اجتمعت أحزاب المعارضة ليقموا قوتهم: كان النازية بحاجة إلى ثلثى الأعضاء حتى يتمكنوا من إقرار قانون السلطة المطلقة، وهو ما لن يتمكنوا من الحصول عليه، مهما كانت المهمة مستحيلة. من ثم عرضوا على هتلر دعمهم، طالما سيسحب إلغاء حقوق الأفراد من مرسوم ٢٨ فبراير. تعهد هتلر وجورينج بأن يسلّم كل متحدث باسم حزب رسالة بنص هذا الاتفاق. عندما عادت الجلسة، لم تكن الرسائل قد وصلت بعد. أكد جورينج للجميع أنها فى الطريق، حيث يواجه حاملوها بعض المشكلات فى دخول المبنى نتيجة الزحام. بدأ التصويت وعاد جورينج ليؤكد لهم أن الرسائل ستكون بين أيديهم فى غضون دقائق معدودة، كما وعدهم هتلر. بعد ١٥ دقيقة، انتهى التصويت وفرز الأصوات: ٤٤١ موافقة و٩٤ رفضًا. تم تعيين هتلر

فى منصب الديكتاتور. لم تصل الرسالة الموعودة أبدا والحقوق الفردية لم تسترد. تعلم الديمقراطيون الألمان فى ذلك اليوم، أن الكذب والخديعة من بين صفات النازية، إلى جانب العنف، وانعدام الضمير، والسلطوية، ومعاداة السامية والماركسية. أسهم فى إنجاز ذلك اليوم، موقف لودويج كآس، رئيس حزب الوسط الذى كان النازيون يعتمدون على تأييده مسبقا قبل الجلسة. إذا كانت جمهورية فايمار تحتضر على مدى سنوات، فإنها قد قضت نحبها يوم أن أصبح هتلر مستشارا، ودفنت يوم ٢٣ مارس عندما حصل على السلطة المطلقة.

عملية الاتفاقية البابوية

يعد تواطؤ المركز، الذى يترأسه القس لودويج كآس، مع هتلر واحدة من أهم الخطوات المثيرة للجدل للغزو النازى للسلطة المطلقة. كان كآس الأنيق، الذى يلقب بالـ (الأسقف) نظرا لمظهره، الذى يجمع بين كونه خبيرا، لا يشق له غبار فى القانون الكنسى، وبين كونه نائبا فى الرايخستاج. كان قد تعرّف إلى الكاردينال أوجينيو باتشيللى عام ١٩٢٠. عندما حلّ ببرلين، باعتباره مبعوث بابويًا، لبحث توقيع اتفاقية بابوية مع ألمانيا المهزومة. فى عام ١٩٢٨ تولى كآس رئاسة حزب الوسط، فيما يبدو بتشجيع من صديقه وعقله المفكر الكاردينال باتشيللى، الذى تولى بعد ذلك بعامين منصب وزير خارجية الفاتيكان، بمعنى رئيس دبلوماسية الكنيسة.

منذ ذلك الحين بدأ وجود لودويج كآس فى مقر إقامة الكاردينال بالفاتيكان، حتى بدت معها كما لو أن سياسة حزب الوسط الألمانى تدار من هناك.

لم يكن يخفى على أحد أن أوجينيو باتشللى كان مهووسا بفكرة توقيع اتفاقية بابوية مع ألمانيا، إلا أنه لم يتمكن من ذلك فى عشرينيات القرن الماضى، عندما كان مبعوثا بابويا فى برلين، ولم يتوصل لسبيل لإخراجها إلى النور مع بدايات الثلاثينيات، فى ظل تعيين الكاثوليكى هاينريش برونينج، رئيسًا لحكومة ألمانيا.

تعرض أكثر المؤرخين تدقيقا، جون كورنويل، لشخص باتشيللى فى علاقته بالنازية، وذلك فى كتابه المثير للجدل البابا الخاص بهتلر. فتحدث، فى معرض حديثه عن تواطؤ الوسط الألمانى، أن بيوس الحادى عشر ووزير خارجيته، البابا بيوس الثانى عشر مستقبلا، كانا يبغضان الشيوعية والاشتراكية، ليس فقط بسبب ترجيحهما جميعًا المادة، وإنما لما جرى منهما من ملاحقات للكاثوليك فى روسيا وفى المكسيك. وهما لذلك كانا يعارضان ممارسة الكاثوليك، بصفتهم الدينية، للسياسة والأكثر من ذلك، كانا يمنعان أى تعاون بين الأحزاب التى تنطوى تحت راية الكاثوليكية مع غيرها من الأحزاب الاشتراكية. فى عام ١٩٢٤. مارس البابا بيوس الحادى عشر ضغوطا على الحزب الشعبى الإيطالى - الذى يضم أغلبية كاثوليكية ويرأسه القس لويجى ستورزو - حتى لا يضم

جهوده للاشتراكيين فى محاولتهم تحجيم أتباع موسيلليني من الفاشية. بعد مرور خمسة أعوام، أى عام ١٩٢٩. وعقب توقيع اتفاق ليتران - التى وضعت نهاية لصراعات البابا مع حكومة إيطاليا- عمل على حل الحزب الشعبى، مما كان له بالغ الأثر فى إزاحة آخر العقبات التى كانت تواجه حكم موسيلليني الشمولى.

كانت نية الكاردينال باتشللى تتجه لعمل مماثل بالنسبة لألمانيا. لم يكن على وفاق تام مع النازيين، كانت أسقفية الكاثوليك الألمان قد انتقدت، فى أكثر من مناسبة، مبادئ النازية العرقية والشمولية واتجاهات العنف فيها، إلا أنه رأى فيهم حلفاء، على قدر من القبول، فى مواجهة المد الشيوعى طالما سيلتزمون باحترام المؤسسات الكاثوليكية وامتيازاتها، خاصة فى مجال التعليم: من ثم كان اهتمامه البالغ بتوقيع الاتفاقية البابوية.

فى السنوات الى سبقت تولى هتلر السلطة، أثناء تولى حكومة برونينج الكاثوليكى، سعى باتشللى لإقناعه بتوقيع تلك الاتفاقية، إلا أن المستشار رفض، لأنه ارتأى عدم إقحام سبب لنزاع جديد فى بلد مثل ألمانيا كان يكتوى حينها بنار الأزمة الاقتصادية. كانت الاتفاقية تحمل مزايا كثيرة للكنيسة الكاثوليكية من شأنها أن تثير حفيظة الأغلبية البروتستانية فى البلاد. فى أغسطس ١٩٣١. زار برونينج الفاتيكان ودارت مباحثات بينه وبين باتشللى، طلب منه الأخير أن يتقرب الوسط من النازية الذين حصلوا على ١٠٧ أعضاء برلمانيين

فى انتخابات العام السابق وأصبحوا بذلك أكبر قوة مؤثرة فى البلاد.

اعترف برونينج فى مذكراته قائلا:

«صرّحت له بأن جميع المحاولات الشريفة، حتى تاريخه، الرامية إلى التوصل لاتفاق مع اليمين المتطرف لصالح الديمقراطية قد باءت بالفشل. لم يكن باتشللى على دراية بطبيعة الوطنيين الاشتراكيين. من ناحية أخرى، حتى وإن كان الاشتراكيون الديمقراطيون غير متدينين، فإن لديهم سماحة، على عكس النازية الذين لم يكونوا متدينين ولا ذوى سماحة».

لم تفلح صراحة عرض المستشار فى إقناع باتشللى، حتى جعلته يعترف فى مذكراته - ذاتها التى أوردها جون كورنويل- بأنه يعتقد أن الفاتيكان «ترتاح للتعامل مع هتلر عن التعامل معى أنا الكاثوليكى المكرّس».

بعد سقوط برونينج فى مايو من عام ١٩٣٢. ونجاح النازية فى انتخابات ذلك الصيف. عاد باتشللى لاستئناف جهوده لكى يتقرّب الوسط - الحاصل على ١٦,٢٪ من إجمالى الأصوات - من هتلر، حتى لو ضاعفت الأسقفية الألمانية فى الشهور التالية، من شكواها ضد الـ (NSDAP) الذى لم يكن له إله سوى هتلر، والذى كانت ترى فى ميوله للعنف وفى فكره العنصرى خطرا داهما، ليس فقط على

تعاليم الإنجيل، وإنما أيضا على الديمقراطية والحرية والحقوق الفردية. غير أن باتشللى ، تحت تأثير الخوف من بلشفة ألمانيا، وعلى الرغم من أن الشيوعيين لم يكونوا يملكون أكثر من ١٤٪ من الأصوات، كان يعتبر تلك الأخطار بمثابة قصر نظر أصاب الإكليروس، فجعله ينظر إلى الأشجار ولا يرى الغابة. كانت مهمته الاعتناء بالمصالح الإستراتيجية للكنيسة وليس بصغائر الأمور المحليّة. بما أن تقارب الوسط والنازية لم يكن ممكنا، لم يعد أمامه سوى ورقة الاتفاقية البابوية لبحثها معهم.

بعد صعود هتلر إلى رئاسة الحكومة، وبعد انتخابات ٥ مارس المذكورة، احتفظ الوسط بحجم مركزه أى بنسبة ١٤٪ من الأصوات. كان الحصول على دعم نوابه يهم هتلر فى مساعيه لتمرير قانون السلطة المطلقة، لكنه لا بد وأن يهتم أكثر بالحصول على دعم ٢٣ مليون كاثوليكى بمختلف منظماتهم، وأن يضمن تحييد ٤٠٠ مؤسسة نشر دورية. أدرك هتلر الداهية، على الفور، أنه سيحصل على كل هذا بعملية واحدة خالصة: الاتفاقية البابوية. على الرغم من عدم وجود مستندات تثبت وجود اتفاق مسبق بين لودويج كآس وهتلر يقضى بدعم الوسط لهتلر فى قانون السلطة المطلقة مقابل توقيع الاتفاقية البابوية، فإن مذكرات جوبلز توحى بذلك، كما أن توالى الأحداث قد سار بمحاذاة هذا السياق.

لم تمض فترة طويلة، حتى عدّلت الأسقفية الألمانية من سياستها التى تدين النازية. بعد أن لمست الكنيسة البروتستانتية التقارب بين هتلر والفاتيكان، سارعت لأداء مهامها فى التوصل لاتفاقيات تمنحها امتيازات تماثل تلك التى يحصل عليها الكاثوليك. وسط تلك الأجواء المتناغمة، بدأت أولى خطوات معاداة السامية، التى قبلها غالبية المسيحيين بجبن شديد: كتب كاردينال ميونخ مايكل فون فولهابر، ذو المواقف الصارمة ضد النازية، رسالة إلى باتشللى يقول فيها: إنه يعتقد أن الكاثوليك لا يجب أن يتدخلوا حتى لا يستعّدوا عليهم انتقام النازية، وبالتالى «على اليهود أن يتدبروا أمرهم بنفسهم». لم تكن هذه حال فولهابر فقط، فقد استشرى هذا الموقف وأصبح أكثر إثارة للدهشة، عندما طالت إجراءات مناهضة السامية، بعض اليهود ممن يدينون بالكاثوليكية .

خلال شهرى أبريل ومايو١٩٣٣. عندما كانت مناقشات الاتفاقية البابوية دائرة، تفتت حزب الوسط وتحول غالبية أعضائه الـ (NSDAP) اجتمعت أسقفية ألمانيا فى شهر مايو لتوحيد المواقف، وعلى الرغم من وجود بعض الأصوات التى كانت ترى أنه لا يوجد ما يمكن مناقشته مع هتلر، وأدانت من جديد فساد النازية، فإن الجميع وافق على الاتفاقية البابوية التى كانت أصعب موادها تقضى بمنع رجال الدين من ممارسة السياسة، ومن ثم كان حل حزب الوسط أصبح قاب قوسين أو أدنى.

مع حلول شهر يوليو تمت صياغة نص الاتفاقية البابوية. قرأها البابا بيوس الحادى عشر، وفيما يبدو أنها لم تقنعه تمامًا، إذ طلب أن تضاف لنهايتها فقرة حول الحصول على تعويض فى حالة تعرض مؤسسات وصحف وساسة الكاثوليك لأعمال عنف فى ألمانيا. كانت المحادثات قد وصلت لمرحلة لم يعد لهتلر فيها منازع، فقد عرف إلى أى مدى يمكن أن يصل تحديه. عندما وصل إلى يده النص النهائى، طلب من فون بايبن، الذى كان يتولى مهمة التباحث مع الفاتيكان أن يوافق على تلك المادة بشرط حل حزب الوسط. واختفى فى صيف ١٩٣٣ الزينتروم القديم، الحزب الوحيد ذو الشرعية الذى مازال فى ألمانيا - غير الـ (NSDAP) - اختفى، بمفعول السحر فى ٤ يوليو. أكد الكاردينال باتشللى، بعد مرور عام، أنه لا توجد أية علاقة بين حل الوسط والاتفاقية البابوية، إلا أن أغلب المؤرخين لا يتفقون على ذلك، وها هو برونينج، الذى كان قد تولى رئاسة الحزب قبل ذلك بأسابيع قليلة، ليتجنب تفتته، يشير إليه بالمسئول الأكبر:

«ندما تم الاتفاق مع هتلر، لم يكن البابا حاضرا، بل أعضاء مكتب الفاتيكان وزعيمه باتشللى كانت الأحزاب البرلمانية الكاثوليكية، مثل الوسط فى ألمانيا، تشكل عائقا بسبب استبدادها، وقد تم حلّها غير مأسوف عليها فى بلدان كثيرة لحكم (ذكر جون كورنويل).

بعد أن تمكن من القضاء على الوسط، عاد هتلر للعب مع باتشللى: فقد حاول محاموه أن يفرقوا بين تعريف المؤسسات ذات النشاط الدينى الصرف، وتلك ذات النشاط المدنى وعاد لمناقشة مادة التعويضات التى سبق أن وافق عليها منذ أيام قلائل. أثارت باتشللى تلك المراوغة، إلا أنه انتهى بالموافقة على التفريق بين الدينى والمدنى فى دراسة لاحقة. كان هتلر المكير قد تمكن من باتشللى الدقيق، حتى إن هذا، عند توقيعه الاتفاقية مساء يوم ٨ يوليو، أخطأ فى توقيعه أكثر من مرّة. جاء التأكيد النهائى للاتفاقية البابوية فى ٢٠ يوليو وقد قدّمها هتلر على أنها انتصار كبير: فقد كانت الكنيسة الكاثوليكية توافق، أدبيا، على سياسته وسيتخلى رجال الدين بموجبها عن رفضهم، حيث سيعتبر ذلك خرقا للاتفاقية ومن ثم تطبق عليهم قوانين النازية.

بعد عامين من توقيع الاتفاقية البابوية، اختفت الصحف الكاثوليكية، كما تم تسريح مدرسى الدين من المدارس العامة، وكانت عمليات التجسس تتم على الخطب الدينية والمناقشات الكنسية، كما تم منع تداول المطبوعات الدينية التى تتناول الموضوعات السياسية مثل العنصرية أو قطع أنسال من يعانون الأمراض أو التخلّف العقلى الوراثى، وامتنعت التجمعات الدينية مثل المواكب والحج فاقتصرت على فرق الكورال الكنسى، وتمت إعاقة الكثير من أعمال المساعدات الإنسانية مما كانت تقوم به

مؤسسات مثل «كاريتاس». خلال ست سنوات، تم غلق الـ ١٥,٠٠٠ مدرسة دينية كانت موجودة عام ١٩٣٣. كما تعرّض زعماء مؤسسات كاثوليكية ذات طابع روحانى أو رياضى أو دعائى للرمى بالتهم والاعتداء عليهم والقبض عليهم، فى فترة مبكرة بين عامى ١٩٣٣ و١٩٣٤. بمن فيهم المستشار السابق برونينج، الذى اضطر للهروب خارج ألمانيا لينجو بحياته. تم إغلاق مؤسسات الشباب وضم أعضائها إلى مؤسسة شباب هتلر.

نفد صبر الكنيسة الألمانية فى منتصف شهر يناير ١٩٣٧. ففى اجتماع للأساقفة، تم عرض ١٧ خرقا للاتفاقية البابوية، وتم الاتفاق على السفر إلى روما لعرض الشكاوى على باتشللى وعلى البابا بيوس الحادى عشر. وهكذا خرجت الرسالة البابوية - (Mit Brennender Sorge) - (بقلق بالغ) إلى النور. كتب مسودتها الكاردينال فولهابر، ووضع صيغتها النهائية باتشللى ووقعها البابا بيوس الحادى عشر مع نهاية الشهر. تمت ترجمة المستند إلى الألمانية وإدخاله، فى سرية تامة إلى الرايخ، ثم طباعته فى اثنتى عشرة مطبعة متناثرة، ومن ثم توزيعه على جميع الإبرشيات، عن طريق أعضاء من أبناء الكاثوليكية. كان الكاثوليك لا يزالون يتمتعون بتنظيم جيد فى ألمانيا وهو ما يثبته عدم وقوع المستند فى يد شرطة النازية قبل قراءتها فى ١٤ مارس.

كانت الرسالة البابوية، حتى لو لم تذكر هتلر صراحة ولا الـ (NSDAP) فإنها كانت تنتقد بشدّة الرايخ الثالث فيما يختص بالكنيسة والخرق الممنهج لللاتفاقية البابوية وجهود القضاء على التعليم الدينى، كما طالبت باحترام القوانين الطبيعية، ولم تدن معاداة السامية صراحة.

على الرغم من الحرص السياسى الذى تحلّت به الكنيسة، فإن هتلر كان مثل الثور الهائج: أمر بإغلاق المطابع التى تمت فيها طباعة الرسالة وحبس المسئولين عنها وكذا ملاكها. بعد مرور شهر ونصف الشهر، وفى أثناء خطبته ١ مايو، هدّد بقصر عمل رجال الدين على الجانب الروحانى لو حدّثتهم أنفسهم بتحدى سلطة الدولة برسائل بابوية جديدة، أو أية منشورات دينية أو مطبوعات أخرى مشابهة. كشف رد الفعل هذا أن كنيسة وكاثولى ألمانيا يثيرون قلق هتلر، وأن تصرفهم كان من شأنه أن يعيق تقدم مسيرة النازية وبطبيعة الحال كان هذا يشمل برامجه المعادية للسامية.

اعترفت بذلك الأسقفية الألمانية فى عام ١٩٩٥. بمناسبة الاحتفال بتحرير أوشفيتز، أبشع معسكرات الإبادة النازية:

«لم يكن بالعدد القليل أولئك الذين تركوا أنفسهم تحت تأثير الأيديولوجية الوطنية الاشتراكية، ووقفوا لا يحركون ساكنا إزاء الجرائم التى كانت ترتكب ضد ممتلكات وأرواح اليهود. دعم آخرون

هذه الجرائم حتى تحولوا هم أيضا إلى مجرمين. لا يمكن حصر أعداد هؤلاء الذين فجعوا فى فقد جيرانهم من اليهود دون أن تكون لهم القدرة على الاعتراض بأعلى صوت. بقى أولئك الذين ساعدوهم، مخاطرين بارواحهم معزولين عن الحياة العامة. واليوم نأسف بشدة لوجود مبادرات قليلة متفرقة ساندت اليهود المطاردين دون أن يكون هناك احتجاج علنى وصريح ولا حتى عند ارتكاب مذبحة نوفمبر ١٩٣٨» (نقلا عن أندريا ريكاردى، قرن الشهداء).

مع هذا، ذكرت بيانات لمؤتمر أسقفية ألمانيا، أن أكثر من عشرة آلاف من رجال الدين والكهنة تعرضوا للمطاردة، والتحقيق، والفضائح، والتهم، والحبس، ودخول معسكرات التعذيب. كما لقى ٢٥٠ حتفهم، مدافعين عن إيمانهم بمعسكرات الإبادة النازية، وبعضهم، مثل برنهارد ليشتنبورج، لقى حتفه بسبب كفاحه المعلن ضد معاداة السامية.

بعد انضمام النمسا لألمانيا، فى مايو من عام ١٩٣٨. تم تطبيق نفس قوانين ألمانيا. كان هناك عشرات من الكهنة ورجال ونساء الدين ممن فقدوا أرواحهم من أجل إيمانهم ومن أجل مساعدة اليهود، والوقوف فى وجه النازية ودفاعا عن الحياة والحرية. سيزداد مصير الكنيسة سوءا فى الحرب العالمية، خاصة فى بولندا وأيضا فى فرنسا وإيطاليا وباقى الدول، التى تعرضت للغزو، حيث تم إزهاق أرواح آلاف من الكهنة ورجال ونساء الدين.

كانت فكرة هتلر عن الكنيسة واضحة: الإبادة طالما لم تلتزم بتعليماته. فى ديسمبر ١٩٤١. عندما كان لا يزال يعتقد فى انتصاره العسكرى، كان يتصور المستقبل ويرى فيه مهمة عليه أن ينتهى منها، ألا وهى القضاء على الكاثوليكية: «ستضع الحرب أوزارها، وستبقى لى مهمة أخيرة فى حياتى: حل مشكلة الكنيسة». لقد تناقشت الكنيسة مع الوحش على اعتبار أنها ستتمكن من السيطرة عليه، ولم تكسب سوى احتقاره. لم يتم خداع الكنيسة فقط: وقعت معها فى الخديعة، ديمقراطيات الغرب التى كان يمكن أن تحجمه، ولكنها اختارت التعايش معه حتى وجدوا أنفسهم مضطرين لقتاله.

على أية حال، هذا أمر لم يحسم التاريخ موقفه منه نهائيا: يبقى أن يتم بحث أوراق الحقبة التى سيضعها الفاتيكان بين أيدى الباحثين فى ٢٠٠٣. ولكن لا داعى لاستباق الأحداث.

محكمة تفتيش النازية

لنعد أدراجنا إلى الموافقة على قانون السلطة المطلقة بالرايخستاج مساء يوم ٢٣ مارس ١٩٣٣. فبعد أن امتلك هتلر بيده هذا السلاح، لم يعد هناك من يقف فى طريقه. كان اليهود أول وجهة توجه لها هتلر بحنقه وسلطته الشمولية. ففى يوم ١ أبريل ١٩٣٣. تم تنظيم يوم مقاطعة ضدّهم. توالت بعدها سلسلة من القرارات الرسمية أمرت باستقالة جميع من ليسوا من الجنس

الآرى من مناصبهم فى الإدارة، والجامعة، والقضاء، والطب. طالت هذه الإجراءات آلاف اليهود الذين اضطروا للاختيار بين تغيير العمل أو النفى. ولعلّ أهمها حالة البروفيسور آينشتين، أستاذ الفيزياء بجامعة برلين الذى اضطر للهجرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٣٣. بلغ الأمر الرئيس هيندينبورج، الذى لم يكن يتابع مجريات الأمور، فوجه رسالة لهتلر يعترض فيها على تلك الإجراءات ويذكره بخدمات اليهود الجليلة إبّان الحرب الكبرى: «لو كانوا أهلا للكفاح وتقديم دمائهم فداء لألمانيا، لابد أن تعتبرهم أهلا لأن يستمروا فى خدمة الوطن من مواقع عملهم». تذرع هتلر أمام الرئيس بمجموعة من الأسباب ووعد بأن تأخذه بهم الرحمة، إلا أنه لم يرجع عن أى من القرارات التى كان قد فرضها، واكتفى بوقف مؤقت لباقى حزمة الإجراءات المزمع تنفيذها.

جاءت الضربة التالية، لعالم الفكر، فنظم جوبلز، وزير الدعاية آنذاك، عمليات حرق منظمة لأعمال أدبية وسياسية وفلسفية تخص أولئك الذين تم اعتبارهم من معاديى الأفكار الوطنية الاشتراكية. بدأت المحارق فى برلين، ومنها انتشرت فى باقى ألمانيا وفيها استعرت أعمال كل من مآن، ورومارك، وبروست، وويلز، وآينشتاين. ولم ينج من النار أدباء من الماضى مثل هاين، وزولا. المصير نفسه كان ينتظر لوحات رسامين ممن كان هتلر يكرههم،

مثل كانديسكى، وكلى، ونولد، وديكس، وبيكاسو، وكوكوشكا، وفان جوخ، إلا أنها نجت من النيران عندما أقنع جوبلز الفوهرر بأنه من الأفضل سحبها من العرض على الجمهور الألمانى وعرضها، بعد ذلك للبيع خارج البلاد، حيث كانت لها سوق رائجة وطالبوها يدفعون الكثير لاقتنائها.

أما الجزء الثانى من هذا الهجوم، فقد طال التعليم. فأصبح لزاما على كل الشباب من الجنسين الذين تتراوح أعمارهم بين العاشرة والثامنة عشر الانضمام إلى منظمة شباب هتلر، على الرغم من أن الانضمام لم يكن إجباريا حتى عام ١٩٣٩. كان عدم الانضمام يحرم من ميزات عديدة، حتى دفعت بكل الأطفال والشباب الألمان لأن تدرج أسماؤهم فى كشوفها. أما فى الجامعة، فقد كان كل الطلبة يجبرون على الانضمام لاتحاد طلبة ألمانيا، وأن يعملوا لصالح الحكومة، أربعة أشهر فى العام وأن يقضوا شهرين آخرين فى أحد معسكرات الأس أى.

ظهرت إيديولوجية النازية فى المناهج التعليمية، وفى جميع المستويات الدراسية. فجرى تحريف التاريخ والأدب واللغة الألمانية، ولم يتوقف التعصب عند مادة الطبيعة، إذ امتدت إلى الفصول المتعلقة بالوراثة، فأضيفت ملاحظات تتعلق بتفوق الجنس الآرى. لم يكن الهجوم الموجه إلى المعلمين، بأقل فظاعة، خاصة ضعاف

المستوى منهم أو ذوى الأصول السامية. طرد ١١٠٠ أستاذ جامعى من أصل ٧٧٠٠ كانوا يشكلون أعضاء هيئات التدريس. كان منهم الحاصل على جائزة نوبل ألبرت آينشتاين، وكذا توماس مان، وجوستاف هيرتز، وفريتز هاللر، وجيمس فرانك.

أما من بقى، فقد انضم قرابة ألف منهم إلى الحزب، وأظهر آخرون إعجابهم بالنظام الجديد، منهم الفيلسوف مارتين هايديجر، عميد جامعة فريبورج الذى وصلت به الحال أن صرّح بالقول: «لا يجب أن تكون الأفكار والمبادئ هى الهدف من وجودكم. إن الفوهرر، وحده فقط، هو حاضر ألمانيا ومستقبلها، وقانونها الوحيد». كما أظهر الفيلسوف الشهير توافقه التام مع أفكار النازية حول التعليم: «إن الهدف الأساسى من إنشاء المدارس هو تشكيل شباب ضمن مبادئ الوطنية الاشتراكية وذلك لخدمة الوطن والدولة».

أما ثالث إجراء اتخذه هتلر من أجل إحكام قبضته من السلطة المطلقة، والتى لم يكن قد بدأ تنفيذها بعد، فقد كان حل الأحزاب السياسية. جاء أول قانون نازى فى هذا الصدد فى ٢٦ مايو١٩٣٣ لينزع ممتلكات الحزب الشيوعى. بعد مرور شهر، تم اعتبار الحزب الشيوعى حزبا غير شرعى، وفى ١٤ يوليو صدر القانون النهائى المنظم لهذه المسألة: منع تشكيل الأحزاب السياسية الجديدة، وبالتالى أصبح الـ (NSDAP) هو القوة السياسية المنظمة الوحيدة

على الساحة. تم، بالتزامن مع ذلك، إلغاء النقابات المهنية واحتلت مقارها وصودرت ممتلكاتها، فى نفس الوقت الذى كان يجرى فيه إنشاء الجبهة الألمانية للعمل، التى ستضم جميع العاملين فى البلاد. وأعد جوبلز نصرا دعائيا آخر بإعلان يوم ١ مايو عيدا وطنيا للعمل، تعطل فيه الأعمال وتقام فيه الاحتفالات الوطنية الاشتراكية.

أخيرا أصبح هتلر يستطيع أن يتنفس بارتياح، فلم يعد هناك من تنظيم يشاركه أصوات بنى بلده، فدعا لانتخابات الرايخستاج فى ١٢ نوفمبر١٩٣٣. تمت دعوة الألمان للتصويت على قائمة الفوهرر. قائمة أحادية ورمادية حصلت على إجماع ٩٥٪ من إجمالى الأصوات. كان الألمان، فى تلك المرحلة، يعرفون الخطر الكبير الذى يكتنف أى نوع من المعارضة لهتلر: التصويت بـ "لا" أو الامتناع عن التصويت كان يمكن أن يكون سببا للحبس ودخول معسكرات التعذيب التى كانت تنتشر فى جميع أنحاء الرايخ. حصل هتلر بذلك لنفسه على رايخستاج يحمل جميع نوابه عضوية حزب النازية، ومقابل ٨٠٠ مارك شهريا، كانوا يوافقون على قوانينه ويستمعون لخطبه بين جنبات المكان، ويتغنون بالنشيد الوطى وبنشيد الحزب على حد سواء. فى الكواليس الخفية والضيقة للمعارضة، انتشرت هذه النكتة: «إن الرايخستاج هو أغلى كورال فى العالم».

بما أن تعطشه للسلطة لم يكن ليرتوى، وكما لم يكن يرغب فى رؤية أية أسوار تفصله عن استبداده، راح هتلر يفكك أوصال نظام بسمارك الخاص بحكومات الدول. كان هتلر يرغب فى ألمانيا موحدة ويحكمها نظام مركزى محكم خاص به. من ثم، وفى ٣١ مارس ١٩٣٣. راح يستصدر القوانين التى تقلّص من الامتيازات الكبيرة التى كانت الولايات تتمتع بها. انتهت عملية إنشاء المركزية بقانون ٣٠ يناير ١٩٣٤، الذى يعيد تشكيل الرايخ على شكل دولة فيدرالية. تم حل برلمانات الولايات وتحويل تبعية حكوماتها إلى برلين. وحتى يحافظ على مظاهر الشرعية، حصل هتلر من الرايخستاج على موافقة بحل الغرفة الفدرالية.

أصاب هذا الطوفان من القرارات الشعب بحالة من الدهشة والإعجاب. لم تكن الأحوال الاقتصادية قد تحسنت، وكانت معدلات البطالة لا تزال مقلقة، غير أن الأمل كان يملأ قلوب الألمان لأن النظام الجديد أعطاهم انطباعا بأنه ينجز الكثير وأيقظت فيهم إجراءاته المسرحية الآمال العريضة. مع كل ذلك، لم يخبر قسوة وتكبر حكام ألمانيا الجدد سوى من تعاملوا معهم عن قرب، من ثم دب الخوف فى أوصالهم. كان أصغر نقد للنظام يستتبع السجن الذى كان يعنى الموت فى كثير من الأحيان. تم تقويض دعائم النظام القضائى وبث سوس الفساد فيه. فكان يتم استبدال من يستغلق طيّه من المحلّفين أو يفصل، ولم تعد العدالة سوى استجابة لرغبات النظام النازى، الذى لم يهتم حتى بصياغة قوانين لتنظيمه.

سعت الصقور الجديدة، من رجالات النظام، لتكوين ممالك الطوائف الخاصة بها، وأطلقوا بيّن ربوعها العنان لكل رغباتهم. كان جوبلز يكن الكثير من الكراهية لجورينج، وسعى للاحتيال عليه بجهازه الدعائى. من ناحيته، كان جورينج يتجسس على جوبلز ويسخر منه، كما كان يتجسس على روم ، على الرغم من أنه كان يخشاه. أما روم، فلم يكن له من هم سوى زيادة أعداد رجاله من الأس أى الذين بلغ عددهم، عام ١٩٣٤، أربعة ملايين عضو، وكان يرى أن منظمته لا بد أن تأخذ الصبغة العسكرية، إن لم تتحول إلى نوع من الجيش الداخلى للبلاد، على أن يتولى الرايخسويهر مهام الصراعات الخارجية. كان هؤلاء الرجال الثلاثة هم الأقوى فى ألمانيا بعد هتلر وبعد الرئيس العجوز المريض هيندينبورج، وكان ثلاثتهم عبارة عن خرابة من الأخلاق.

لم يمض وقت طويل حتى عُرف عن جوبلز شهوانيته، وأنه بلا ضمير، ولا رادع له: لنرى كيف كان يحكم عالم السينما مثلا، كانت كل من ترغب فى التمثيل يتم استكشافها، بكل دقة من جانب شخص الوزير ذاته. ذلك القصير المتصنع الذى كان يقبض عينيا، فى مكتبه، ثمن خدماته السياسية. كان حال جورينج أسوأ منه، فقد كان مولعا بمخدر المورفين وبالشراب وصائدًا لا يهدأ للثروات: تمكن خلال عام واحد من شراء ستة منازل تغطى أرضياتها أفضل السجاجيد، وأثاثها من أفخم ما يمكن، وكذا أدوات مائدتها،

ولوحات جدرانها. كان يزور المتاحف ويطلب «على سبيل الاستعارة» أكثر اللوحات التى تحوز على إعجابه، مثل لوحتى لوكاس كراناش المصنوعتين من القماش واللتين حملهما من متحف ميونخ للوحات الزيتية. لم يعد رجال الأعمال يرون عوائق أما طلباتهم، بما أن وزير الداخلية ورئيس الرايخستاج سيفعل المستحيل لتحقيقها، طالما كانت الرشوة مناسبة.

أما روم، فقد كان يتسم بالعنف، كما كان سكيرا وشاذا. كان يشعر بعقدة عدم انخراطه فى العمل بين صفوف الجيش، الذى تخرّج فيه برتبة نقيب، وكان يشعر بالضيق عندما يعامل بدونية، مقارنة بجنرالات تخرجوا عام ١٩١٨ مثله تماما بلا أدنى فرق، وأصبح تحت سيطرتهم عام ١٩٣٤. قوات تقل ثلاثين مرة عن قواته.

أما هتلر، الذى لم تظهر عليه علامات الفساد، فقد كان يبذّر المال تبذيرا. كانت هداياه لإيفا براون عبارة عن مجوهرات وفيلات وسيّارات من حساب الدولة. كان يطلب ويحرّك السيارات والطائرات كيفما شاء، كما لو كانت ملكية خاصة له. والحق أنه آنذاك كان أكثر رجل يجنى المال فى ألمانيا، وذلك لأن ناشره ومدير إدارته، ماكس أمان، كان قد اكتشف الدجاجة التى تبيض ذهبا: كانت الدولة تقدم كهدية لحديثى الزواج كتب الماين كامبف، وهى عملية كانت تؤمن له دخلا يقدر بـ٣٠٠,٠٠٠ مارك سنويا، تحت بند حقوق المؤلف. وحتى نتعرّف أكثر على قيمة هذا المبلغ، يكفى أن

نذكر أن مرتبه باعتباره مستشار لم يكن يصل إلى ٢٠٠٠ مارك شهريا، وأن سعر السيارة الفولكس فاجن كان ٩٠٠ مارك، وأن منزلا ريفيا يليق بوزير يمكن أن يباع بنحو٣٠,٠٠٠ مارك. لا بد أن حقوق المؤلف عن الماين كامبف قد وصلت لأرقام فلكية بين عامى ١٩٣٣ و١٩٣٤ عندما تمت ترجمته إلى اللغة الانجليزية - ونشر فى كل من إنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية - وكذا إلى لغات أخرى منها الإيطالية، والروسية، والسويدية، والبرتغالية، واليابانية، والإسبانية...إلخ.

غير أن هتلر، ذلك النزيه، الذى كان يتغاضى عن شهوانية جوبلز، ويغض الطرف عما كان جورينج يسلب، قد خامره القلق، مع نهاية ١٩٣٣. حول مطامع روم. كانت القوة الوحيدة القادرة على مواجهته آنذاك، هى الرايخسويهر والأس أى. وقد قرر توحيدهما، بحيث لا يمكن للعسكريين أن يقفوا فى وجهه. الخطوة الثانية، كان لا بد وأن تكون السيطرة على نتيجة الاندماج، ومن ثم زاد من صلاحيات هيملر وولاه رئاسة جهاز الشرطة بأكمله، باستثناء شرطة بروسيا وإدارة الأس أى. الذين كان عددهم قد زاد عام ١٩٣٣. من ٣٠٠٠٠ إلى ١٠٠٠٠٠ . فى نفس الوقت طلب من جورينج أن يشكل جهاز شرطة سريًا يختص فقط بمواجهة الجرائم التى ترتكب ضد الدولة، فكان أن خرج إلى الوجود جهاز: "الجيستابو" - (Geheime Staatspolizei) - كان هتلر يؤمن بمبدأ «فرّق تسد» لذا

سعى لإنشاء هذا العدد من أجهزة الشرطة المتوازية، التى كان يصعب تعريف مهامها، وكان على رأسها شخصيات مختلفة، كلها من أتباع الفوهرر الأوفياء وياحبذا لو تناحروا فيما بينهم. لذا كانت عداوة هيملر لروم واضحة ومعلنة، وكذلك كان احتقار هذا الأخير لمرؤوسه. مع نهاية ١٩٣٣ أصبحت أحجية الأجهزة الأمنية الخاص بهتلر شبه مكتملة: روم على رأس الأس أى. سيتولى أمر الجيش، وهيملر على رأس الأس أس، سيقف حائلا أمام تطلعات روم، وجورينج على رأس الجيستابو، سيسحق أعداء النظام السياسيين أو أيًا من تسول له نفسه التغريد خارج سرب البناء النازى.

سيد المشنقة والسكين

كان الفشل من نصيب رغبة هتلر فى دمج الأس أى. ضمن الرايخسويهر، فقد اعترض هيندينبورج، الذى لم يكن يتابع المجريات، إلا أنه استجمع قواه ليقول له: «أيها المستشار، لا تشغل نفسك بغير الحكومة، أما الجيش، فأنا كفيل بتحمل مسئوليته». بعد فشل استصدار قرار جمهورى لعملية الدمج، نشطت مباحثات سريّة بين رئيس هيئة أركان حرب الجيش، الجنرال فون فريتش ورئيس الأس أى، روم، انتهت باتفاق يقضى بأن يتولى ضباط الجيش القدامى مسئولية تدريب الأس أى، وأن يتيح الجيش، إذا لزم الأمر، السلاح للأس أى، على أن يحتفظ بملكيته ويقوم بالتفتيش عليه ومراقبته. وافق هتلر على الاتفاق الذى تم توقيعه

فى فبراير١٩٣٤. على الرغم من أنه كان قد منع روم من زيادة أعداد الأس أى التى بلغت ميزانيتها أرقاما مهولة. غير أن الاتفاق لم يخرج إلى حيّز التنفيذ.

اعتقد هتلر أن خطورة روم ستزداد، إذا ما حصلت قوات الأس أى على أسلحة حربية، حتى لو كانت ملكا للرايخسويهر. تأكّدت مخاوفه لاحقا عندما ثرثر روم بفخر واندفاع، عقب إحدى المآدب، أن اتفاق تعاونه مع الجيش قد تم تجميده لأن هتلر واقع تحت تأثير جورينج «مدمن الهيروين»، وجوبلز «السياسى الفاشل» اللذين كانا يكرهانه ويحسدانه. ثم أكمل: «غير أن هذا الوضع لن يستمر طويلا، فحتى لو رفض هتلر، سأواصل أنا المسيرة، وعندها سيتبعنى مئة ألف». وصل هذا الكلام غير المسئول، فى غضون ساعات قليلة إلى مكتب رئيس الجيش، فون بلومبرج، ثم لم يلبث أن كان بين يدى هتلر.

بعدها، سيطر الغموض على علاقة الجيش بالأس أى، وراحت شخصيات الحزب تتحاشى روم، الذى أصبح يرافقه عن قرب فى كل تحركاته، أحد مساعدى هيملر: راينهارد هايدريخ، ملازم بحرى، ذو ذكاء خارق كان يشغل رئيس قطاع الأمن بقوات الأس أى. كان طموحه بلا حدود وله بصيرة نافذة جعلته يرى أن سقوط روم سيعلى من شأن قوات الأس أس وسط قوات هتلر شبه العسكرية، وبالتالى سيعطى دفعة قوية لمسيرته السياسية. فلم يجعل له شاغلا سوى تشويه صورة روم، وإطلاق الشائعات حول عيوبه الحقيقية

والمختلقة وإحاطته دائما بجو من التآمرية. بدأت سلسلة من التقارير تتسرب إلى فون بلومبرج، كانت تعكس الحقيقة، إلا أن نسبة المبالغة والإضافة فيها كانت عالية، كما كانت تتضمن بيانات حقيقية سطحية وغير ذات شأن لإضفاء طابع الصدق عليها. فحسب ما جاء بها، فإن قوات الأس أى ، كانت تسعى، سرا للتسلّح بهدف القفز على السلطة. ثم لم يلبث هايدريخ أن ضاعف الهجوم مع نهاية شهر يونيو من عام ١٩٣٤: فقد وصلت برقية من مجهول إلى مكتب الاستعلام بالرايخسويهر، مفادها، أن قوات الأس أى لابد أن تنهى تسليحها فى أقرب وقت لأن «الساعة قد حانت». كانت الحيلة من السذاجة حتى جعلت رجال الجيش يعرفون من الذى وراءها. غير أن بذرة الشك كانت قد زُرعت وبدأت تنبت عندما تم اكتشاف قوائم - يفترض أنها موجهة لأعضاء من الأس أى - تحوى أسماء الضباط الذين يجب التخاص منهم حال نجاح البوتش.

ساور القلق هتلر، المستفيد الأول من الحيلة، خشية أن تكون كذبته قد تحولت إلى حقيقة. مع ذلك، كان روم وغيره من كبار رجال الأس أى، بعيدين تماما عن تلك المكائد، فقد كانوا مشغولين بتنظيم عطلات رجالهم الصيفية، وكان كل اهتمامهم منصبا على رحلات الترفيه وأسابيع الراحة التى كانوا يتحرقون شوقا للقيام بها. كانت هذه لحظة هتلر المواتية، ففى ٢٨ يونيو سافر إلى مدينة إيسين لحضور عرس أحد رؤساء المناطق. عقب المأدبة، واصل

المدعوون احتفالهم بالرقص، وهى الفترة التى انتهزها هتلر للاجتماع بجوبلز وجورينج، على انفراد فى غرفة منعزلة، ووضعوا خطة دقيقة للإطاحة بالمسئولين الأساسيين فى قوات الأس أى ، بحجة أنهم كانوا يخططون لانقلاب. كان هايدريخ قد هيأ لهم الجو المناسب برسائله المتتالية التى صورت، ثم راحت تعضد من فكرة وخيالات البوتش. فكل تحركات العطلات وتجمعات الأصدقاء للوداع قبل حلول الصيف، تم تفسيرها على أساس أنها تحركات لحشد القوات وتنسيق التحركات ووضع الخطط وتوزيع المهام. فى تلك الغرفة، التى كانت موسيقى الحفل تصل لها، تم وضع خطة القضاء على روم وأعوانه: يعود جورينج إلى برلين، فى حين ينتقل هتلر إلى ميونخ، أما جوبلز الذى كان من المفترض أنه على علم بكل تفاصيل الخطة وتوزيع الأدوار فيها، فقد فضل البقاء إلى جانب هتلر، مظهرا وفاءه له، ومبطنا شعوره بأن الخطة يشوبها الكثير من المخاطر وخشيته من الابتعاد عن الفوهرر، حتى لا يضمه لقائمة الأعداء إذا ما وقع أى خطأ من جانبه.

وصل هتلر إلى ميونخ فجر يوم ٣٠ يونيو ١٩٣٤. كانت آخر إخباريات هايدريخ تفيد بأن قوات الأس أى ستتظاهر تلك الليلة ضد المستشار فى العاصمة البافارية. بالفعل، عند بلوغه ميونخ، كانت هناك بعض المجموعات فى طريق عودتها إلى منازلها. ما لم يعرفه هتلر هو؛ أن المظاهرة لم تكن ضده وإنما كانت لتحية النظام

وأن أوامر تنظيمها لم يكن يعرف بها أحد من المسئولين المحليين. نظم عقل هايدريخ الميكيافللى المظاهرة فى نفس الوقت الذى نقل الوشاية للفوهرر، الذى لم تعد فى عقله ذرة لم يطغ عليها الغضب، ونجحت المكيدة فى أن تمحو من نفسه أية مراجعة لما سوف يتخذ من إجراء تجاه هؤلاء الخونة. بدأت الاعتقالات على الفور فى ميونخ وقام بها رجال من الأس أس. تولى هتلر بنفسه مهمة إرسال رئيس شرطة ميونخ، شنايدهوبر، إلى سجن ستاديلهايم، ومعه كبير مسئولى قوات الأس أى بميونخ، شميد.

قبل طلوع النهار، وصل هتلر إلى فندق ويسى، بالقرب من ميونخ، حيث كان روم قد وضع مقر قيادة عطلته، على أمل أن يجد هناك راحته، التى نصحه الكثيرون بأخذ قسط منها حتى يستعيد صحته التى كانت قد تدهورت. هجم سفاحو هتلر على حرّاس رئيس الأس أى الذين كانوا يغالبون النعاس، وباغتوهم وسط ذهولهم من وجود هتلر. لقى بعض الحرس حتفهم فى أماكن نومهم، وانهار آخرون تحت ضرب البنادق. عندما وصلوا إلى غرفة روم لم يستطيعوا إيقاظه، فقد كان ينام تحت تأثير المهدئات بسبب إصابته بآلام فى الأعصاب. عندما فتح الباب، وجد نفسه وسط كابوس يغلب عليه صياح هتلر ودفع أعوان له، وإهانات توجه للزوجات، ثم مفاجأة صعوده لحافلة من السجناء لا يعلمون ما الذى كان يجرى.

فى تلك الليلة التى عرفت باسم «ليلة السكاكين الطويلة» أو «ليلة سان بارتولومى الألمانية»، تم إلقاء القبض على جميع مسئولى قوات الأس أى الموجودين فى ألمانيا، باستثناء مجموعة صغيرة، نجت بقرار من الفوهرر. غير أنهم لم يكونوا الهدف الوحيد لجنون هتلر، الذى استغل الفرصة لتصفية بعض الحسابات القديمة: ففى داشو، قتل رجال الأس أس، فون كاهر، قائد شرطة بافاريا الذى تخلى عن دعم هتلر عقب بوتش حانة بورجربراوكيللر بميونخ. هذا بالإضافة إلى الضحايا الآخرين الذين سقطوا بعاصمة بافاريا تلك الليلة: القس جيرونيمو ستامبفل، الذى صحّح صياغة الماين كامبف. وكذا الموسيقار ويلهيم إ. شميدت، الذى لقى حتفه بسبب تشابه اسمه مع اسم طبيب، كان هو المطلوب.

أما فى برلين، فقد تحرك جورينج بخفة وكفاءة على غير عادته. ألقى القبض وقتل كل من جاء على قوائمه، وزاد عليها من رغبة القتل لديه: «لقد تفوقت على الأهداف التى وضعت لى». كان جورج ستارسر، ثانى أهم رجل نازى حتى عام ١٩٣٢. أحد ضحاياه. أما فى ضواحى برلين، فقد لقى الجنرال كورت فون شلايشر، المستشار السابق، وإن كان ذلك بمبادرة من هيملر وهايدريخ. كما قتلت أيضا زوجته التى حاولت أن تساعده، من قِبل المأجورين الذين اقتحموا منزله.

لم يسقط فى ليلة المجون الدموية تلك، زعماء الأس أى وبعض الساسة والعسكريون ممن كان هتلر يمقت فحسب، وإنما استغل رجاله الفوضى فى تصفية حساباتهم الشخصية، والتخلّص من بعض الالتزامات والقفز بضع درجات على سلم السلطة. مات أكثر من ثلاثمائة شخص خلال تلك الأيام - هناك آراء تتحدث عن رقم مغاير يقترب من الألفين- منهم كل من كان فى سجن ستاديلهايم فى بافاريا. هناك، وبلا محاكمة لقى رؤساء الأس أس فى بافاريا مصرعهم تحت وابل من الطلقات النارية، وكان من بينهم شنايدهوبر، وشميد اللذان تلقيا قبل مقتلهما التفسير التالى للحكم عليهما «لقد حكم الفوهرر عليكما بالموت». لم يمت روم يوم المجزرة العامة. فى يوم ٢ يوليو أُرسل له من برلين مسدس لكى ينتحر، إلا أنه رفضه ورد بقوله: «إذا كان هتلر يريدنى أن أموت فليتولى هو العمل القذر». كان رد الفعل أن تلقى سجانوه الأمر بإطلاق النار عليه من خلف باب الزنزانة. القائد إرنست روم، أحد رفاق هتلر الأوائل وأحد أهم الوطنيين الاشتراكيين الذين قدّموا الكثير لوصوله إلى السلطة، ظلّ يتتبعه حتى بعد مماته، فقد جاءت الرواية الرسمية لإلقاء القبض عليه، لتؤكد أنه قبض عليه متلبسا فى السرير مع شاب صغير.

كافأ الفوهرر فيكتور لوتز، أحد أعضاء الـ (NSDAP) منذ عام ١٩٢٢، رئيس الأس أى فى أكثر من منطقة، وأحد من خانوا روم

واشتركوا فى مؤامرة هتلر فى «ليلة السكاكين الطويلة» بأن جعله رئيسا لقوات الأس أى، غير أن هذا التنظيم خضع لعملية تهميش تدريجية تراجعت به لمرتبة أقل، فى حين زاد دعم قوات الأس أس ورئيسها هيملر الذى أصبح أحد أهم رجال ألمانيا وأكثرهم سطوة ودموية، وراح يجمع المناصب ومنها رئاسته لكل معسكرات التعذيب. وبعد مرور فترة، تولى رئاسة جهاز الشرطة بالبلاد وشغل منصب الرجل الثانى فى وزارة الداخلية.

فى ١٣ يوليو توجه هتلر إلى الرايخستاج، الذى لم يعد فيه سوى نواب الـ (NSDAP) وتحدث عن أن تلك الجرائم كانت إجراءات ضرورية لتأمين سلامة البلاد. مع أن حديثه كان موجها لجمهوره الخاص، فإنه فزع من الحقيقة المخيفة وغيّر فى الأرقام وقللها إلى الثلث. فى نهاية مداخلته، قال إنه إذا كان متهما بعدم الالتزام بالإجراءات القانونية، حين أمر بالإعدام بلا محاكمة، فإنه سيرد بأنه كان «فى تلك الساعة الحساسة مسئولا عن مصير الأمة الألمانية، وأنه اعتبر أن الشعب هو القاضى الأعلى».

كان فون بابن واحدا ممن نجوا بحياتهم ليلة «السكاكين الطويلة»، وذلك بفضل حماية جورينج له، غير أن السياسى المحنّك شعر أن تلك اللعبة كانت أخطر من أن تتحملها صحته، مما حدا به لتقديم استقالته من منصبه باعتباره نائبًا للمستشار، ولم ينس أن يشكر له «ما اتخذ من إجراءات ليلة ٣٠ يونيو لإنقاذ البلاد». قبل

هتلر استقالته وهو يتضاحك مع مستشاريه المقرّبين من قلق وخوف الرجل الذى أسهم فى صعوده إلى السلطة، غير أنه لم يلبث أن عاد ودعاه للعمل إلى جواره.

منذ أن صعد هتلر إلى السلطة، وهو يسعى لتأجيج نار مؤامرات الوطنيين الاشتراكيين بالنمسا ضد مستشار النمسا إنجيلبرت دولفوس، حيث كانت فكرة انضمام النمسا لألمانيا لاتزال تسيطر على تفكيره - منذ سنوات عمره الأولى فى فيينا، وبعد أن جاءت ضمن برنامج النازية عام ١٩٢٠، وعُرضت بالتفصيل فى الفصل الأول من الماين كامبف -. كان مستشار النمسا القصير، الذى كانوا يسخرون منه ويلقبونه بالمليميترنيخ - مزج تلاعبى بين كلمة ملليمتر واسم ميترنيخ - يمثل العقبة الكبرى على طريق أهداف هتلر فى ضم البلدين. رسم نازيو النمسا، بدعم مالى وعملاء ألمان، وبتشجيع من برلين على التحرك، خطة لاختطاف أعضاء حكومة النمسا واستبدالهم بآخرين أقرب لتحقيق مصالح هتلر. جاء ذلك بعد أن تلقوا موافقة موسولينى الذى كان يعارض أية عملية تمس مستشار النمسا، الذى كان صديقه وجاره فى منتجع ريتشيونى الإيطالى، حيث كان بينهما موعد للقاء يوم ٢٦ يوليو.

فى يوم ٢٥ يوليو١٩٣٤. قبيل الثانية عشرة ظهرا، بدأت ثلاث مجموعات من الأس أس تنفيذ خطة القضاء على الحكومة. كانت الخطة تقضى بأن تستولى أولى المجموعات على وزارة الداخلية،

والثانية على مبنى الإذاعة، والثالثة على المستشارية، إلا أن الخطة تم كشفها وقامت قوات الشرطة والجيش بالقبض على مجموعتين ولم يتمكن سوى بعض من المجموعة الثالثة، نحو ١٥٠ رجلاً، من دخول مبنى المستشارية، حيث لم يجدوا الحكومة مجتمعة، حسب ظنهم، حيث عاد كل وزير إلى مقره، بعد أن حذرتهم الشرطة. غير أنهم وجدوا المستشار دولفوس، الذى تعرّض لإصابات بالغة أثناء المواجهات بين قوات الأمن والمعتدين.

تُرك دولفوس ينزف، وانتشر متآمرو النازية فى المبنى وعضّدوا من مقاومتهم - دون أن يسمحوا بأن يتلقى المستشار أية إسعافات طبية، أو حتى ينقل لأى مستشفى - إلا أنهم استسلموا نحو الساعة السابعة والنصف مساء، مقابل تركهم يعودون إلى ألمانيا فى أمان. عندما دخلت قوات الشرطة مبنى المستشارية ووجدوا المستشار جثة هامدة، رأى كورت فون شوسشنيج - الذى تولى رئاسة الحكومة مؤقتا - أن لا ضرورة فى الالتزام بالاتفاق المبرم مع المعتدين، وأمر بالقبض عليهم وإيداعهم السجن ومحاكمتهم. حُكم بالإعدام على ١٣ منهم، على الرغم من أن المسئولين الأساسيين كانوا قد تمكنوا من الفرار والاحتماء داخل حدود ألمانيا.

تلقى موسولينى نبأ مقتل دولفوس بعد الساعة الثامنة بدقائق قليلة، وهو برفقة زوجته دونا راتشيلى، فتوجها على الفور إلى الشاليه المجاور، حيث كانت زوجة المستشار ترعى ابنتها المريضة

وهى ترتعد من الخوف والقلق من الأخبار المريعة التى كانت ترد من فيينا. تلقت خبر وفاة زوجها من موسولليني شخصيا، وعرض عليها وضع طائرة تحت تصرفها لتقلّها إلى فيينا، وعرضت زوجته أن تبقى هى لرعاية الطفلة المريضة. لم تمض ساعات قليلة حتى كان موسولليني قد أعلن حالة الطوارئ بين قوات شمال إيطاليا مع أمر بالتوجه إلى حدود ألمانيا فى اليوم التالى. لم يكن الأمر سوى مناورة تحذيرية، حيث كان موسلليني متأكدا أن إنجلترا لن توافق على الحرب، كما أنه كان على دراية بمحدودية إمكانات جيشه، ولم يكن ليجرؤ بأن يزج به فى مغامرة غير محسوبة العواقب.

استهدف الرهان الإيطالى هتلر كرأس للمكيدة. كان الفوهرر فى بايروث لحضور مهرجان فاجنر عندما بلغه نبأ انقلاب الوطنيين الاشتراكيين فى النمسا. من ناحية، شعر بالرضا، غير أن القلق ساوره وانشغل فكره، حيث لم يكن يسيطر بيده على مقاليد أمور الوضع هناك، وبالتالى لم يكن متأكدا من نجاح العملية، كما أنه لم يكن يعرف على وجه الدقة نتائجها. شعر بأنه مضطرب الفكر، ولكنه لم يغادر المسرح. عندما انتهى العرض، بلغه خبر وفاة دولفوس، وقرر أن يتوجه لأحد المطاعم وأن يواصل برنامج يومه، كما لو أن أحداث النمسا لم يكن لها علاقة بألمانيا ولا بمستشارها.

قضى الساعات التالية ينتظر فى قلق، حتى أكدت له سفارته فى روما، خبر تحرك القوات الايطالية إلى الحدود مع ألمانيا، واحتمال

وصولها فى اليوم التالى. كان موسولينى على استعداد لتلبية أى طلب مساعدة قد تتقدم به النمسا. كان هذا ما اعتقده هتلر بقلق بالغ، فماذا لو طلبت النمسا مساعدة إيطاليا وهاجمت كلتاهما ألمانيا؟ كان هناك احتمالان لا ثالث لهما: أن يرفض هيندينبورج الحرب، وفى هذه الحالة سيضحى به ويسلّم رأسه للنمسا وسيتم طرده من المستشارية بواسطة الرايخسويهر، أو أن يقرر خوض الحرب. فى حالة إعلان الحرب، ستحارب ألمانيا بنتقص عددى بالغ، مقارنة بجيوش النمسا وإيطاليا التى كانت تتفوق بثلاثة أضعاف على جيش ألمانيا. أما فيما يخص العتاد، فإن إيطاليا تمتلك الطائرات والمدافع والسفن الحربية وكل الأسلحة المحظورة على ألمانيا بموجب معاهدة فرساى، حتى لو كانت ألمانيا تخرق المعاهدة أحيانا بمساعدة موسكو. رأى أيضا أن أسواق السلاح فى العالم ستكون مفتوحة للنمسا وإيطاليا وستتمكنان من ابتياع ما تريدان، أما ألمانيا، فستقف وحيدة فى صفها. كانت الهزيمة مؤكدة وكذا تدهور وضعه السياسى. كان هتلر يحترق تحت نار الغضب والعجز. لم يكن ليسمح بإعلان حرب سيقضى عليه. لابد من البحث عن مخرج سياسى. تذكر حينها فون بابين، الذى كان، تقريبا، الرجل الوحيد القادر على التفاوض مع النمسا، والذى سيقبل أن يقوم بذلك بالنيابة عن هتلر.

وصل فرانز فون بابن إلى بايروث يوم ٢٧ يوليو وعرض خطته التى قبلها هتلر بلا مناقشة. إقالة ثيوهابيخت، أحد الإشتراكيين الوطنيين النمساويين الذى كان يتمتع بمزايا ورتب شرفية فى ألمانيا ، كما كان المسئول الأكبر عن مقتل المستشار والالتزام بعدم مساعدة أى من الاشتراكيين الوطنيين النمساويين، وتراجع ألمانيا عن أية محاولة لضم النمسا بالقوة. كانت هذه الإجراءات كفيلة بنزع فتيل الأزمة وتجنب المواجهة الحدودية. كان ضم النمسا مسألة وقت، غير أنها كانت قد تقررت، حيث كانت الاستفتاءات العامة تؤيد الوحدة مع ألمانيا، وفى تلك الفترة، لم تكن قوات المنتصرين فى الحرب الكبرى لتعارض ذلك.

غير أن هتلر كان قد فقد، مؤقتا، اهتمامه بهذا الشأن. فقد تنفس الصعداء بمجرّد أن بدأ فون بابن مهمته، ولم تمهله الأقدار الكثير من الوقت حتى انشغل بأمر آخر بالغ الأهمية: هيندينبورج على فراش الموت. كان الرئيس قد غادر برلين مع بدايات شهر يونيو، حيث كان لا يزال فى استطاعته الوقوف على قدميه، وتوجه إلى مزرعته فى ناوديك فى بروسيا، حيث كان يرغب أن يموت ويدفن هناك بجوار زوجته. مع منتصف شهر يوليو لم يعد قادرا على مغادرة فراشه، ورأى الأطباء أن نهايته قد قاربت، وأنه سيفارق الحياة بين لحظة وأخرى. فى ٣٠ يوليو، دخل بطل معركة تانينبورج، مرحلة الاحتضار. قطع هتلر يوميات الأوبرا وتوجه إلى بروسيا

ووصل إلى ناوديك يوم ٣١ يوليو. على الرغم من رفض الأطباء، فإنه أصر على أن يدخل ليودعه ولو لدقائق معدودة وطلب أن ينفرد بالمارشال. عندما خرج من الغرفة، أكد أن هيندينبورج قد تنبه عندما دخل عليه وتحدث معه بثبات كبير. شكك الأطباء فى حدوث ذلك، غير أن آلة جوبلز الدعائية استغلت الحدث الذى لم يدم لأكثر من دقائق معدودة ونشرت أخبار تعرّف هيندينبورج على هتلر، وكيف أنه قد تمكن من أن يعطيه بعض الوصايا.

انتهى احتضار هيندينبورج فى الساعة التاسعة من يوم ٢ أغسطس ١٩٣٤ .أكد الطبيب ساوربوخ، الذى كان يسهر على رعاية الرئيس إنه قد سمعه وهو يتمتم بعبارات – "Mein Kaiser, Mein Vaterland" – أى «قيصرى، وطنى». لم تكن دماء الرئيس قد بردت بعد، عندما نشرت الجريدة الرسمية أن منصب الرئيس سيتم توحيده مع منصب المستشار، ومن ثم فإن جميع صلاحيات الرئاسة «ستؤول إلى شخص الفوهرر، المستشار أدولف هتلر الذى عليه أن يحدّد مساعديه الأمناء». أدى ذلك إلى الإسراع بتشكيل حكومة جديدة كان نصف وزرائها من النازية. وهكذا حصل كل من هيس وسيلدت، وداری، وروست، على حقائبهم الوزارية، غير الثلاثة الذين كانوا قد تحصلوا عليها من قبل: جورينج وجوبلز وفريك.

أصدر فون بلومبرج، الذى لم يكن فى منصبه باعتباره وزيرًا للدفاع، بتوقيعه المرسوم الذى يقضى بأن يؤدى جميع أفراد قوات

الجيش القَسم التالى الذى لم يسبق له مثيل - حسب رأى المؤرخ ه. س. هيفنر- فى ألمانيا وكان شديد الإلزام، فلم يكن ليُنقض إلا بالموت: «أقسم بالله أن أطيع، بلا قيد أوشرط، أوامر فوهرر الرايخ الألمانى والشعب الألمانى والقائد الأعلى للجيش، أدولف هتلر، وإننى على استعداد، باعتباره جندى، أن أقدم حياتى فداء لهذا القسم». كما أصدر بلومبرج - الذى كان يلقّب بالأسد المطاطى، نظرا لبنيته القوية التى لا تقوى على فعل شىء - أوامره بأن يتوجه جميع العسكريين لهتلر بلقب ماين فوهرر، أى «زعيمى». لم يعد أمام هتلر سوى القيام بإجراء واحد لكى يجمع بين يديه كل السلطات، ويحصل على دعم جميع مظاهر الشرعية: أن يتم تثبيته فى الرئاسة بأصوات الألمان. من أجل ذلك دعى لاستفتاء عام يوم ١٩ أغسطس بدعم من جميع الأجهزة الدعائية الخاصة بالـ (NSDAP) والدولة وبكل القدرة الإقناعية التى كانت لقوات الأس أى، والأس أس، والجستابو. قدّمت صناديق الاقتراع النتيجة المرجوة: ٣٨,٢ مليون ألمانى اعترفوا به رئيسًا للدولة. غير أن هناك أمرًا لم يرق لهتلر، ولا لجوبلز، ولا لجورينج، ولا لهيملر: هناك ٤,٢ مليون ألمانى صوتوا بـ"لا" ونحو ٨٧٠,٠٠٠ أبطلوا أصواتهم، وهو ما يعنى شجاعة بالغة، فقد كانت قوى القمع النازية لديها من الوسائل لأن تتعرف فى أغلب الأحيان، على هويات المعارضين.

أكثر بهاء وفرادة من نوعه، هو استفتاء إقليم السار، الذى كان خاضعًا للسيطرة الدولية منذ انسحاب فرنسا منه عام ١٩٣٠. فى يوم ١٣ يناير من عام ١٩٣٥. خرج سكان سار متحمسين إلى صناديق الاقتراع وصوتوا على عودة انضمامهم إلى ألمانيا بنسبة ٩١٪ وهو القرار الذى احترم دوليا، على الرغم أن أبدت فرنسا بعض التحفظات. سعد هتلر بالنتائج وصرّح، فى محاولة منه لإزالة أية شكوك، بأنه يعتبر عودة السار بمثابة تصفية كاملة للحساب مع فرنسا. فى ١ مارس ١٩٣٥. عاد إقليم السار لينضم كولاية إلى ألمانيا الأم .

كذب هتلر. فباستعادة إقليم السار، بدأت حملته الدولية والتى كان يطلق عليها تسمية العمل الحكومى، على سبيل الترادف، من وجهة نظره. لم يكن الفوهرر يهتم كثيرا بأعمال وزرائه. كان يمنحهم الصلاحيات، بدون أن يتدخل فى أعمالهم، طالما التزموا بتنفيذ خططه؛ ومن يخالف منهم، يتم تهميشه أو استبداله. فى هذا الخصوص، كتب هجالمار شداخ، رجل الاقتصاد اللامع الذى أسهم فى وصول هتلر إلى السلطة، وشغل منصب وزير فى حكوماته على مدى عقد من الزمان:

«أثناء قيامى بمهام وظيفتى، سواء فى بنك الرايخ أو فى وزارة الاقتصاد، لم يكن هتلر ليتدخل فى عملى. لم يحاول قط أن

يعطينى تعليمات، وإنما كان يتركنى أخرج أفكارى، على طريقتى، ودون أى انتقاد. مع ذلك، عندما تراءت له أن وسطية سياستى الاقتصادية، تشكل عائقا أمام خططه المخيفة - فيما يتعلّق بالسياسة الخارجية - بدأ، عن طريق جورينج، فى مراقبتى والاعتراض على قراراتى».

لعل من أبلغ الدلائل على عدم اهتمامه بأداء حكومته، كان ندرة الاجتماعات الوزارية، فقد عقد آخرها فى ٤ فبراير ١٩٣٨. ولم يعقد أى اجتماع آخر على مدى السنوات السبع التى استمر فيها على رأس النظام الوطنى الاشتراكى. كل عمل الحكومة يجب أن يكون مكرّسا لخدمة أهداف ألمانيا الخارجية، حسب الرؤية التى عرضها هتلر بكل تصميم على مدى خمسة عشر عاما من اللقاءات السياسية، والتى حددها بمنتهى الدقة فى ماين كامبف، وتنقسم إلى ثلاثة محاور: أولا، محو أى أثر لمعاهدة فرساى وتفريعاتها؛ ثانيا، توسيع نطاق الرايخ ليمتد حتى آخر حدود أوربا، حيث يوجد ألمان النمسا، وجبال التشيك، وبلاد البلطيق، والألزاس، وإقليم لورين...؛ وثالثا، يأتى الـ (Lebensraum) أى المجال الحيوى، أو التوسع الذى لا غنى عنه لعظمة ألمانيا، وهى المهمة التى سيُعهد بها للمزارعين، الذين سيتعيّن عليهم أن يقوموا بمثل ما قام به المستعمرون الأمريكيون فى غزوهم لمناطق الغرب، وكل ذلك من ذكريات قراءاته لكارل ماى.

كان ذلك هو حلمه الجميل الذى سخّر له كل طاقاته وحيله. قال آلان بولوك:

«مثلما كان الحزب النازى (NSDAP) وسيلة الـ فى الاستحواذ على السلطة فى ألمانيا، كانت الدولة ستصبح الآن وسيلته فى الوصول إلى السيطرة على أوربا».

حتى يحقق أهدافه، كان هتلر بحاجة إلى جيش قوى وتسليح مناسب، فراح يستحث السبل لكى يحصل عليهما: التجنيد الإجبارى، والتدريب العاجل، وسياسة صناعية ذات أهداف تسليحية، وشبكة مواصلات ممتازة لخدمة الصناعة، وأخيرا، الجيش. كل هذا، كان من شأنه أن يستتبعه تطور هائل فى برامج الأبحاث والإنتاج الصناعى وإنشاء شبكات الطرق وخطوط السكك الحديدية.

غرقت الثورة الاجتماعية التى طالما حلمت بها الطبقات العاملة فى الحزب، فقد كانت خدعة من الـ NSDAP ولكن هيهات أن تكون هناك معارضة، فقد تم القضاء على النقابات المختلفة وزعماء الشيوعية والاشتراكية، وتم الزج بالنقابيين فى السجون أو تم نفيهم، ولم يحكم الأمور سوى الجستابو والأس أس، علاوة على ذلك، فالمجتمع الألمانى كان قد وصل لحالة عالية من الرفاهية الاجتماعية تفوق أفضل أيام جمهورية فايمار.

تقلّصت معدلات البطالة، إحدى أهم آفات ألمانيا التى دفعت هتلر إلى السلطة، بسرعة كبيرة، حتى اختفت تماما مع نهاية عام

١٩٣٨. غير أن هذا لم يكن نهاية الإجراءات، فقد وجد الطلاب، الذين تعيّن عليهم العمل لمدّة ثلاثة أشهر لصالح الدولة منذ عام ١٩٣٣. وجدوا أنفسهم مضطرين للعمل العام لمدة ستة أشهر، بعد أن قرّر هتلر مضاعفة الفترة عام ١٩٣٦. إحدى دعائم هوسه كانت شبكة الطرق، إحدى أفضل شبكات العالم فى عصره، والتى لن تلبث أن تنتقل عبرها السيّارات الشعبية «فولكسفاجن» التى طرحت طراز الخنفسة الشهير فى الأسواق عام ١٩٣٦ بسعر رمزى: ٩٠٠ مارك. غير أن هذا السعر لم يكن فى متناول الجميع - على عكس ما كانت الدعاية تروج - فقد كانت القدرة الشرائية للعمّال قد انخفضت خلال تلك السنوات.

الدائرة التى تحرّك فيها اقتصاد النازية كانت دائرة ضيّقة ولكنها فاعلة بالنسبة لخدمة أهدافها. فتحولت الدولة لأكبر منفّذ لعمليات رصف الطرق ومد خطوط السكة الحديد والسيارات والسلاح. كانت المصانع تعمل بكامل طاقتها الإنتاجية، وحتى تم استحداث صناعات جديدة لتلبية طلبات الدولة. لم يعد للبطالة وجود. منحت فرص العمل الكاملة للمواطنين الألمان قدرة شرائية لا بأس بها، وتمتعوا بها حتى بدايات الحرب. لم ترتفع المرتبات، غير أن التضخم كان ضئيلا نتيجة تبنى الحكومة لسياسة ضبط الأسعار. كما استغلت الدعاية والضرائب على سلع الرفاهية فى زيادة قدرة المواطنين الادخارية، فوجهوا مدخراتهم إلى الاستثمار

فى الدين العام. وهنا تنغلق الدائرة وتجد الدولة نفسها فى وضع ضخ الاستثمارات مجددا.

كان دوام العمل الكامل يسمح بأن يعيش الجميع، حتى لو لم يكن الكل فى مستوى أفضل. أما كبت الحريّات فتسبب فى معاناة الكثير من الألمان، مع ذلك كانت الأغلبية تشعر بالرضا بفعل التقدم والنظام والوضع الدولى المميّز. كان عام ١٩٣٦ عاما فاصلا: فى ٧ مارس أعادت الجيوش الألمانية احتلال الراينلاند؛ وفى ٩ مايو بدأت رحلات المنطاد هيندنبرج عبر المحيطات؛ وفى ١٩ يونيو حمل لواء المجد الرياضى، الملاكم ماكس شيمليج الذى هزم غريمه البطل الأمريكى جولويس بالضربة القاضية فى الجولة الثانية عشرة(وهى المباراة التى جاء ثأرها بعد مرور عامين بهزيمة «مدفع ديترو ا» لبطل ألمانيا فى الجولة الأولى، وعتمت عليها آلة جوبلز الدعائية)؛ فى ١٦ أغسطس تم افتتاح دورة برلين للألعاب الأوليمبية، والتى تميّزت بالتنظيم الدقيق الفخم وروجت لها الدعاية النازية كأحسن ما يكون، حتى كاد النظام أن ينصب ملكا للألعاب، إلا أن الرياضى الأمريكى الأسود الفذ، جيس أوين، حصد أربع ميداليات ذهبية وتبوأ عرش البطولة، على غير رضا من العنصريين. فى نفس هذا العام تجرأت ألمانيا على تجاوز حدودها وعلى التدخل فى إسبانيا لمساندة تمرد ١٨ يوليو العسكرى ضد الجمهورية الثانية، فحاربت كتيبة (كوندور)، داخل شبه الجزيرة الإيبيرية، وهى الكتيبة التى

كانت مزودة بأحدث الطائرات والمدفعيات المضادة للطائرات. انتهى هذا العام الناجح لنظام هتلر بتوقيعه مع موسلليني معاهدة تعاون عرفت باسم محور برلين - روما.

كل هذا أصبح في الإمكان نتيجة استعانة هتلر بسلاح الكذب للتغطية على كل تحركاته، وتبنيه منحى سلميا في سياساته وتصنّع مناورات مسالمة وفاعلة والاستغلال الدهائي لنقاط ضعف ونواقص القوى الأخرى. تفوق هتلر، ذو المخزون الثقافي المحدود والشراسة الحقيرة بمساعدة ملكاته من المكر والتصميم والفطنة والتحليل على منافسيه من خريجي أفضل جامعات أوربا ورواد أفخم صالونات الدبلوماسية عبر قارات العالم.

بمجرّد تربعه على المقعد، تبنى سياسة دولية مسالمة وداعية إلى أن تلتزم الدول بمعاهدات نزع السلاح، وبعد أن لمس عدم الإستجابة لدعوته - بالطبع، لم يكن ينتظر غير ذلك - تحول إلى خطاب الضحية: كانت ألمانيا هي الوحيدة التي تلتزم بمعاهداتها الدولية. ألمانيا هي البلد الوحيد غير المسلّح والتي لا يسمح لها سوى بالأدوار الثانوية، والتي يحال بينها وبين الاهتمام بوسائلها الدفاعية. كانت خطوته التالية هي الانسحاب من عصبة الأمم، فيما رآه معظم الساسة ردة فعل منطقية للموقف الألماني.

في هذه المرحلة، بدأ هتلر سياسة تسلّح في الخفاء، حتى لا يثير

حفيظة أحد وحتى لا يدع مجالا لأى شك، أوكل لجورينج مهمة التقارب مع بولندا، أكثر البلاد تهديدا بعودة التسلّح الألمانى بسبب ممر دانتزيج، الذى كان يقسم بروسيا الشرقية. سافر جورينج عدة مرات إلى وارسو واستطاع أن يكسب ثقة الحكومة البولندية، وسعى، بطريقة غير رسمية، لتحقيق نوع من الوحدة الألمانية - البولندية بهدف مهاجمة الاتحاد السوفيتى. أدى هذا التقارب لاتفاق عدم تعد بين ألمانيا وبولندا فى يناير ١٩٣٤. أثار هذا الاتفاق بعض الاستياء فى ألمانيا وهو ما سعى جوبلز لتسريبه للصحافة، حتى يصرّح هتلر الداهية، فى الرايخستاج «سيتعيَّن على الألمان والبولنديين أن يتعلموا كيف يتعايشون».

كشف اتفاق عدم التعدى مع بولندا النقاب عن مكائد فرنسا بخصوص الاتحاد مع غيرها. إذ لم ترتح باريس لرأى بريطانيا من ضرورة رفع ألمانيا إلى مستوى تسليح باقى دول القوات الأوربية. استمر هتلر فى سياسة التسلّح فى الخفاء، بعد أن شعر بالسوء نتيجة ذكر اسمه مقترنا بمقتل دولفوس. أمام نواب دائرة السين، وخلال زيارة جون جوى فى نوفمبر ١٩٣٤. التزم نغمة السلام والعمل.

تمكن الـ (NSDAP) بفضل سياسته من توفير فرص العمل والرفاهية الاجتماعية، من أن يقدم لألمانيا أكثر بكثير مما قدمه سابقوه ممن جرّوا البلاد إلي النزاعات: «أنت وأنا نعرف أن لا جدوى من الحرب»، سلّطت الصحافة الفرنسية الأضواء على

الزيارة وأسهبت فى الإشارة إلى تعليقات هتلر. بدأت باريس تهدأ، خاصة بعد وفاة وزير خارجيتها، لويس، الذى كان معروفا بعدائه الشديد للألمان، وبعدم تصديق ميول هتلر السلمية، وبعد أن حل محله بيار لافال، خبير سابق للتفاوض وضليع في تسوية الخلافات. وسط هذه الأجواء، تم الاستفتاء الشعبى بإقليم السار وانضم لألمانيا فى ١ مارس ١٩٣٥.

ستكون تحركات هتلر المناورة بعد ذلك، أكثر تصميما وستعتمد دائما على إحدى نقاط القوة. أعلن صراحة أن ألمانيا ستستعيد تسليحها، فى نفس الوقت الذى دعا فيه إنجلترا إلى مناقشة توسيع إجراءات الأمن الجماعية. عقب إعلان ألمانيا، ردت إنجلترا بزيادة ميزانيتها العسكرية، فما كان من هتلر إلا أن دعا وزير الخارجية البريطانى لزيارة برلين فى نفس الوقت الذى أعلن فيه أن ألمانيا أصبحت تملك قوات جوية. عمت برلمان إنجلترا موجة من السخط، غير أن الحكومة حكمت الموضوع مؤكدة زيارة وزير الخارجية الذى سيضغط على هتلر. فى هذه الأثناء، قررت فرنسا إطالة فترة الخدمة العسكرية، وهى الفرصة التى انتهزها الفوهرر ليقدم حركته التالية فى ١٦ مارس ١٩٣٥. حيث أعلن إعادة إقرار الخدمة العسكرية الإجبارية وتنظيم جيش قوامه ٥٥٠,٠٠٠ جندى، كل هذا، بالطبع، من أجل مواجهة الآخرين الذين لم يلتزموا أبدا بعدم التسلّح، والذين بدأوا فى زيادة ميزانياتهم العسكرية وزيادة استعدادات قواتهم.

من هنا بدأ سباق التسلح الذى سيستمر حتى بداية الحرب التى دخلتها ألمانيا وهى متفوقة على الجميع. كانت ميزانية إنجلترا العسكرية، عام ١٩٣٥. هزيلة لا تتجاوز نسبة الـ٢٪ سرعان ما قفزت إلى ١٠٪ من إجمالى الموازنة العامة عام ١٩٣٩ . أما فرنسا، فبعد أن كانت تنفق ٥٪ من ميزانيتها على الدفاع عام ١٩٣٥. زادت من إنفاقها ليصل إلى ٨٪ عام ١٩٣٨ ثم ليقفز إلى ٢٣٪ عام ١٩٣٩ . غير أن هذا الضخ المالى سيصل إلى أبعد الحدود. خصص هتلر ٨٪ من إنفاق موازنته عام ١٩٣٥. زادت إلى ١٣٪ بين عامى ١٩٣٦ و١٩٣٧. ثم لم تلبث النسبة أن قفزت إلى ١٧٪ عام ١٩٣٩. ثم ٢٣٪ عام ١٩٣٩ . أى أن الإنفاق العسكرى النازى، كان أكثر من إنفاق إنجلترا وفرنسا مجتمعتين.

كانت نتيجة هذا التسلّح المتعجل، تكوين أسطول حربى يضم أربع مدرّعات وثلاث مدرّعات جيب وثلاث عبّارات ثقيلة وثلاثًا أخرى خفيفة و٣٤ مدّمرة و٥٧ غواصة. لم يكن ذلك بالأمر الكبير، مقارنة بما كان لدى البريطانيين أو الفرنسيين، غير أن تلك الفترة شهدت ميلاد تكنولوجيا وخطط بناء آلاف من الغواصات أثناء النزاعات، وتشغيلها فى الحروب وتزويدها بأحدث الاختراعات وأكثرها تقدما. أما عن سلاح الطيران، فقد قامت شركة هينيكل بتصنيع طائرات ذات أجنحة عالية، مزدوجة ومفردة، منها طرازات

(He-45، He-46)، اللذان اشتركا فى الحرب الأهلية الإسبانية، بنفس جودة وكفاءة تلك التى كان الاتحاد السوفيتى يصدرها للقوات الجمهورية. ثم شهد عام ١٩٣٥ بداية تصنيع الميسيرشميت ب. ف١٠٩ - تلك الطائرة الحربية التى أدخل عليها العديد من التحسينات، والتى كانت بمثابة العمود الفقرى لسلاح الطيران الألمانى على مدى سنوات الحرب العالمية الثانية. فى هذه الفترة، تم تجهيز مصانع جونكر وهينيكل، ودورنيير، وميسيرشميت، لكى تمد ألمانيا بما يضمن تفوقها الجوى، وهو ما سيظهر خلال أول سنتين من الأزمة. فى هذه الفترة بدأ الحديث همسا عن بداية تصنيع سلاح المدرعات الألمانى، روح بيلتزكريغ - «الحرب البرق[1] - وذلك بتصميم دبّابات الاستطلاع والمعارك (PzKw) من طراز ١. ٢. ٣. ٤، التى شكلّت فيما بينها سلاحا لا يقهر حتى عام ١٩٤٢.

كل هذا، إلى جانب تلك القطعة المهمة المضادة للطائرات، مدفع (فلاك ٨٨ مم) الذى استخدمته كتيبة كوندور خلال الحرب الأهلية

---

(١) حرب البرق (Blitzkrieg): مفهوم عسكرى يستخدم فى العمليات الهجومية. تعتمد الحرب البرق على استخدام عنصر المفاجأة والهجوم بسرعة لمنع العدو من الصمود دفاعيًا. طورت عدة دول المبادئ التى قام عليها مفهوم الحرب البرق خلال العشرينيات والثلاثينيات من القرن الماضى، لكن الجيش الألمانى أفضل من طبق هذا المفهوم واستخدمه على نطاق واسع خلال الحرب العالمية الثانية.

الإسبانية، وعمل بكفاءة عالية جعلته يعتبر أفضل سلاح مضاد للدبّابات وهو نفس المدفع الذى تسلّحت به المدرعات الألمانية المتقدمة من طراز (تايجر وبانثر) أو النمر والفهد.

غير أن كل هذا كان سيكون قليلا ولن يمكنه أن يبرّر تفوق هتلر الباهر عسكريا، خلال السنوات الأولى من الحرب العالمية الثانية، لو لم يعتمد على جيش ألمانيا القديم: الرايخسويهر، الذى شكل جنوده وضبّاطه، البالغ عددهم مائة ألف، النواة الأساسية لجيش هتلر: الرايخسماخت. فقد تحولوا هم إلى ضبّاط وضبّاط صف قاموا بقيادة مليونى جندى جمعهم الفوهرر عام ١٩٣٩، وكانوا هم من صاغ أفكارًا جديدة للحرب تفوقت على غيرها من الجيوش التى واجهوها عام ١٩٤٣.

غير أن كل هذه القوة لم تكن سوى أفكار تدور برأس هتلر فى أواخر شتاء عام ١٩٣٦. عندما قرّر إعادة تسليح الضفة اليسرى لنهر الراين. فى منتصف شهر فبراير، أمر رئيس هيئة أركان حرب الجيش، الجنرال فون فريتش، بتشكيل تسع كتائب مشاة وثلاث مجموعات من المدفعية، لكى تقوم بعملية استحواذ رمزية لقوات حماية الراين. فى يوم ٢ مارس، أضاف طلبا آخر للجنرال ألا وهو إعداد بعض قوات الخيّالة والطيران ، حتى تخرج عملية التلسيح على أكمل وجه. حتى مع كونها عملية رمزية، نظرا لقلّة الأعداد، طلب منه أن يكون مستعدا لتلقى أوامر فورية، حدث أن صدرت له

يوم ٦ مارس. فى تمام الساعة الثانية عشرة والنصف من صباح يوم السبت ١٩٣٦. كانت أحذية الجنود، المزدانة بالمسامير، وحداوى وجياد الجيش، ووحدات المدفعية تعبر جسر هوهينزويرن الواقع على نهر الراين بمقاطعة كولون. عاد الجيش الذى، سبق وأن عبر هذا الجسر وهو يجر أذيال الهزيمة، في اتجاه الشمال، عام ١٩١٨. بأعداد قليلة، إلا أنها كانت تعبّر عن القوة الخارقة التى كان هتلر يجهز بها ألمانيا من الداخل. كانت هذه هى الصورة التى وصلت لسكّان المدينة، الذين هرعوا لاستقبال الجنود وتحيتهم، فى حين، راح جوبلز، وسط جوقة الصحافة التى تم اصطحابها إلى هناك لكى تشهد الحدث، يقف لكى تُلتقط له الصور وهو يبتسم، بينما كان طابور الجند ينسل وراءه فى الخلفية.

فى نفس تلك اللحظات كان هتلر يتحدث أمام الرايخستاج: «لقد استعادت الحكومة الألمانية اليوم سلطتها وسيادتها الكاملة على كامل أراضيها، بعد أن دخلت قواتها إلى منطقة الراين، منزوعة السلاح». ضجت القاعة بالتصفيق الحاد، إلا أنه لم يستطع أن يبدّد القلق البالغ الذى كان يعتريه. غادر بعدها إلى مقر المستشارية، حتى يتابع ردود الفعل الدولية تجاه عملية الراين. كانت الحكومة مجتمعة فى باريس، أما فى لندن، فلم يظهر أى رد فعل، فقد كان الساسة الإنجليز منشغلين بعطلة نهاية الأسبوع. مع مقدم المساء، تواترت الأنباء المزعجة : فقد حشد الجنرال جاملين، رئيس قيادة

جيش فرنسا العليا، قرابة ١٢ و١٥ فرقة على الحدود مع ألمانيا. نصح، فون بلومبرج، وزير الجيش، الفوهرر بإعادة توزيع القوات، إلاّ أن هتلر رد عليه بعناد، بأن المخاطرة محسوبة، وأنه، إذا ما كان سيسحب قواته، فلن يكون ذلك إلا فى آخر لحظة، إذ لا بد أن يصل التحدى إلى نهايته. كان باطنه يموج بحالة من القلق. اعترف بذلك بعد مرور عدّة سنوات: «لقد كانت الثمانى والأربعون ساعة التى أعقبت دخول إقليم الراين، من أكثر الأوقات العصيبة فى حياتى. فلو كان الفرنسيون قد هاجموا، كنا سنضطر للانسحاب بطريقة مشينة، فقد كانت قواتنا الدفاعية، أبعد ما تكون عن الحفاظ على مقاومة جادة». كما قال فى مناسبة أخرى: «إننى أعرف ما كنت سأقدم عليه، لو كنت فرنسيا. كنت سأتحرك بلا تردد لأمنع أى جندى واحد من عبور الراين».

مر يوم الأحد ككابوس وسط تقارير الجيش عن الحشود الفرنسية الكثيفة على خط ماجينو. غير أن هتلر كان مقتنعا أن المفتاح كان بيد لندن من خلال اجتماع البرلمان مساء يوم الإثنين ٩ مارس. مع حلول مساء ذلك اليوم، كان مزاج هتلر فى حالة جيّدة وقد تحدّث مع بلومبرج:

«يمكنك الآن أيها الجنرال، فى بدء إجراءات إرسال وحدة أخرى الأسبوع المقبل. فقد شجبت لندن إرسال القوات، على اعتبار أن

ذلك مخالف لمعاهدة فرساى، ولم تر فى موقفنا أية خطورة. ستكشّر لنا فرنسا عن أنيابها، غير أنها لن تتحرك بدون دعم بريطانيا».

كان هتلر على حق عندما قال «إن أوربا ليس بها أى تضامن، وإنما كل ما هنالك هو الخضوع». كان يمكن لجيش فرنسا أن يقضى على هتلر فى مارس من عام ١٩٣٦ بمجرّد نزهة عسكرية، لو كان قد تمكن من الحصول على دعم من بريطانيا. لعلّ أبرز مثال على عدم التضامن هذا، هو الحرب الأهلية الإسبانية، التى تعرّضت فيها الجمهورية، صاحبة الشرعية الدستورية، للهجوم من الجيش المتمرّد، بالتعاون مع الأحزاب والقوات المحافظة فى إسبانيا. لم تتمكن الحكومة من الحصول على أى دعم غير مشروط من أى بلد أوربى. فقط عندما دفعت من مخزون الذهب لديها، استطاعت أن تحصل على السلاح من الاتحاد السوفيتى، فى حين التزمت باقى الدول باتفاق حياد، كان أحيانا ما يحترم وأخرى لا، وهو ما قامت به إيطاليا وألمانيا بطريقة منظمة، عندما كانت ترسل آلافًا من الجنود والأسلحة لدعم قوات التمرّد.

يبدو أن هتلر كان قد قرّر أن يدعم فرانكو، دون أى سبب ظاهر، أو على الأقل فى البداية. ذكر جوبلز فى مذكراته: «قرر الفوهرر أن يتدخل، بعض الشىء، فى إسبانيا، بطريقة غير معلنة. فمن يدرِ ما

سينتج عن ذلك، لم نطلب أى ثمن. ستكون التصفية فى المستقبل».

حملت هذه المذكرات الكثير من أمثلة تلاعب النظام النازى ونفاقه ووحشيته. ولعل قصف مدرعة الجيب دويتشلاند من قبل قوات الجمهورية يكون مثالا صارخا لكل ذلك. فقد قدّمت برلين احتجاجا شديد اللهجة أمام حكومة الجمهورية، يرقى لأن يكون إنذارا بالحرب، على حسب وصف جوبلز، إلا أن هذا لم يكن كل شىء:

«اتصلت مساء الأمس بالمستشارية. وتحدثت مع الفوهرر الذى كان يستشيط غضبا. كان ينوى قصف مدينة بلنسية، ثم يعطى الأوامر للدويتشلاند بأن تنزل جرحاها بجبل طارق، ولمدرعة القائد شير بأن يتوجه فى اليوم التالى إلى مدينة المرّية ليقصفها ويقضى على جيمس الأول. هذا هو ردنا المناسب. لم تعد مكانتنا تسمح لنا بمجرّد الاكتفاء بالاعتراض. يرغب الحمر فى أن يعرفوا إلى أين يمكن أن نصل والآن نخبرهم». (٣١/ ٥/ ١٩٣٧).

مع فجر يوم ٣١ مايو، أطلقت مدرعة الجيب القائد شير إلى جانب أربع من قاذفات الطوربيد، نحو ٣٠٠ قذيفة على ميناء ومدينة ومدفعية المرّية، وأدت إلى مقتل ١٩ شخصا، وإصابة ٥٥ آخرين، وتدمير ٤٩ منزلا وخلّفت تدميرا جسيما فى مئات المساكن وفى منشآت الميناء. أعاد هذا الهجوم الوحشى الهدوء لنفس هتلر حسبما ذكر جوبلز فى مذكراته: «لقد هدأ والحمد لله. إن الفوهرر راض تماما عن النتائج».

لا بد أن هتلر، فى لحظة ما، نظر إلى إسبانيا على أنها تصلح لأن تكون امتدادا لألمانيا النازية، أو لإيطاليا الفاشية، وهو ما قد يفسر اهتمامه العسكرى بها، لكنه سرعان ما فقد الأمل فى فرانكو باعتباره سياسيًا وإيديولوجيًا: «لم يعد الفوهرر يؤمن بإسبانيا فاشية. كان فرانكو جنرال جيش ولم يكن هناك من قوة تقف خلفه. كان يعتمد على نفسه فى إحراز النصر». وفى موضع آخر جاء: «إن فرانكو يشكل حزبه من العسكريين فقط. إن أفقه ضيق، فهو مجرد عسكرى، ماذا يمكن أن ينتظر منه». مع نهاية الحرب، عرفت ألمانيا، أنها لم تخرج بشىء من إسبانيا:

«تحدثت فى المساء كثيرا مع الفوهرر حول الشأن الإسبانى. فقد كانت برشلونة توشك على السقوط. وتحدثنا عن قدرة فرانكو على قيادة المعركة الأخيرة. على الأقل ستضمن لنا إسبانيا الوطنية، أثناء أى نزاع مستقبلى، موقف الحياد».

لو كانت سياسته الخارجية وإعداداته للحرب - التى كان يعتقد أن ألمانيا يمكن أن تخوضها عام ١٩٤٢- تستنزف الكثير من طاقته، لكنه كان يحتفظ بقدر منها لمواصلة هوسه بفكرة القضاء على اليهود. فبعد صدور قوانين عام ١٩٣٣ التى قضت بطرد العديد من الأعمال الحكومية من غير ذوى الأصل الآرى، أى اليهود، تنفس

هؤلاء الصعداء، إلا أنه وفى ١٥ سبتمبر ١٩٣٥. بمناسبة عقد مؤتمر النازية بمدينة نورمبرج، تقدّم هتلر بمجموعة من الإجراءات عرفت باسم قوانين نورمبرج، وكانت تهدف «لطرد اليهود من الحياة السياسية فى ألمانيا» وتحويلهم إلى مواطنين من الدرجة الثانية. ومن بين هذه القوانين، كان هناك قانون منع الزواج من اليهود أو ممارسة الجنس معهم وحتى القيام بالأعمال المنزلية فى بيوتهم، كما كان يحظر عليهم رفع علم الرايخ، أو استخدام ألوانه، أو الاشتراك فى الانتخابات، أو تولى الوظائف العامة أو أية وظيفة ذات مسئولية مدنية. استوجب على الجنود اليهود أن يخرجوا من الجيش، ولم يكن من حق أى جندى أو ضابط أن يحصل على المعاش ما لم يكن تاريخ تعيينه سابقا على تاريخ بداية الحرب العالمية الأولى. وإذا كان نفى اليهود، حتى هذا التاريخ، كان يتم بأعداد كبيرة، فبعد قوانين نورمبرج، قد أصبح يتم بشكل جماعى، فحرموا حتى من تسهيلات مغادرة البلاد. فقد كان عليهم أن يتنازلوا عن ممتلكاتهم للدولة، حتى تتسنى لهم مغادرة حدودها، أما غير ذوى الأملاك، أو من ادعوا ذلك، فلم يكن يمنح لهم تصريح المغادرة، إلا بعد لأىٍ بعيد وجهد جهيد.

ضيّق هتلر الخناق من خلال سياسته المعادية للسامية. فما بين تنفيذ قوانين نورمبرج وبين "ليلة الزجاج المكسور"- نوفمبر ١٩٣٨ - أصبحت حياة اليهود فى ألمانيا تتحول تدريجيا إلى كابوس. فقد

ذهب إلى حد منعهم من حضور حفلات الموسيقى أو الذهاب إلى السينما أو المسرح، ووصل أنه منع أولادهم من ارتياد المدارس الحكومية. لم يكن هذا كل شىء، بل سحبت منهم رخص القيادة وحرموا من ممارسة بعض المهن مثل طب الأسنان والطب البيطرى. لم يعد من حقهم التقدم لوظائف البعثات التجارية أو الصناعية أو الحرف اليدوية. قام النازيون بحصر أسماء اليهود فى قوائم تتيح لهم الاختيار من بينها، وفرضوا على من لا يحمل اسما شخصيا من المصرّح بها أن يضيف إلى اسمه اسم إسرائيل، إذا كان ذكرا وسارة إذا كانت أنثى. الكثيرون ممن كانوا يملكون بعض المال، اختاروا طريق المنفى، أما من لم يكن يملك ولا يستطيع أن يدبّر المال اللازم للمغادرة، لم يكن من السهل أن يتدبر أمره أو حتى يجد من ينقذه من خارج البلاد. فى النهاية، بقيت فى ألمانيا تلك الأسر التى مضى على وجودها أكثر من عشرة أجيال، وكانت تمتلك بعض الأعمال الصغيرة، كمصدر إعاشة وعمل لها، فقد فضّلت البقاء على أمل أن تلك الفترة العصيبة ستمر، بلا شك، وأن المستقبل يحمل أوقاتا أفضل.

مع نهاية نوفمبر ١٩٣٨. أدركوا أنهم قد تشبثوا بأمل كاذب. كان هتلر يخطط للاحتفال بالذكرى الخامسة عشر للبوتش فى ميونخ، حيث كان ينوى العودة إلى حانة بورجربراوكيللر فى ٩ نوفمبر، ليذكّر جمهوره بوعوده فى ذلك العام البعيد، ١٩٢٣. كان يقول لهم: إنه قد وفى بوعده لإنهاء ذل معاهدة فرساى ومشكلة الشيوعية،

وأن مشكلة اليهود تقترب من نهايتها، حيث سيتم نزع ملكياتهم وتدمير معابدهم، وحتى لا يشك أحد فى صدق وعوده، سيقول إنه سيكلّف قوات الأس أس بالتعامل بما يستحق مع كل من تسول له نفسه التهرّب، حتى لو كان قانونيا، غير أن الخطاب لم يخرج بهذه الصورة، حيث جاء لاحقا على الأحداث.

فى ٧ نوفمبر، قام هيرشيل جرينزيان، شاب يهودى بولندى، يبلغ السابعة عشر من العمر، بالتهجم على سفارة ألمانيا فى باريس، وهو يحمل بندقية أراد بها أن يقتل السفير، فى محاولة منه لأن يلفت الأنظار للظلم الذى يتعرّض له اليهود فى ألمانيا. لم يتمكن سوى من قتل سكرتير السفارة الثالث، إرنست فون راث، الذى لفظ أنفاسه الأخيرة، بعد ٤٨ ساعة متأثرا بجراحه. أدت هذه الحادثة إلى التعجيل بالمخطط، فقد حاصرت قوات الأس أس والأس أى الأحياء التى يتمركز بها اليهود، وقاموا بأفعال يندى لها جبين ألمانيا حتى يومنا هذا. ففى تلك الليلة المرعبة، تم قتل ٣٩ يهوديا وألقى القبض على ٣٥,٠٠٠ وتم اقتيادهم إلى معسكرات التعذيب، كما تم حرق ٨١٥ متجرا ونهب ٧٥٠٠ محل وتكسير واجهاتها، (من هنا تأتى تسمية تلك الليلة التى شهدت وحشية النازية: «ليلة الزجاج المهشم». لم يكن هذا كل شىء، فقد تم إضرام النار فى ١٧١ مسكنا خاصا و١٩١ معبدا، بالإضافة إلى تدمير ٧٦ معبدا آخر.

وكما لو كان كل هذا، غير كاف، طلب جورينج من الجالية اليهودية تقييم الخسائر، والتى بلغت ألف مليون مارك، ثم لم يلبث أن طالبهم، بعد شهر واحد أن يدفعوا ذلك المبلغ كغرامة، وذلك لدعم الخطة الرباعية. فى هذه اللحظة عرف جميع اليهود مصيرهم، فقام بعضهم ببيع بيوتهم بأسعار زهيدة وغادروا البلاد، فى حين استنجد آخرون بعائلاتهم وأصدقائهم بالخارج ليقرضوهم ثمن الفدو. عندما وصل هتلر إلى السلطة، كان فى ألمانيا قرابة ٦٠٠,٠٠٠ يهودى، ومع بداية الحرب العالمية الثانية -١ سبتمبر ١٩٣٩ - لم يكن هناك سوى ٢١٠,٠٠٠ من بينهم ١٧٠,٠٠٠ يهودى بالسجون ومعسكرات التعذيب النازية.

مسيرة الانتصار نحو الحرب

كان هتلر يحقق أهدافه بطريقة متواصلة، غير أن طبعه المتعجل، لم يكن يدع له فرصة الاستمتاع بإنجازاته. لم يكد ينهى مشروعا حتى يبدأ فى التالى. فى مساء ٥ نوفمبر ١٩٣٧. جمع رؤساء الجيش خفية، فى المستشارية مع وزير خارجيته. إلى مكتب الفوهرر الفاخر، وصل على التوالى: رئيس الدبلوماسية الألمانية، فون نوراث، ووزير الحرب، فون برومبرج، ورئيس هيئة أركان الحرب، فون فريتش، ورئيس القوات الجويّة، حديث العهد برتبته، جورينج، ورئيس البحرية القائد الأعلى، رايدر، وأخيرا مساعد هتلر للشئون العسكرية، العقيد هوسباخ. طلب منهم الفوهرر، حلف يمين كتم ما

سوف يقال فى ذلك الاجتماع، وطلب من مساعده أن يكتب محضر الجلسة.

«أيها الفرسان، لا بد أن يكون هدف السياسة الخارجية لألمانيا هو تحقيق الأمن للشعب ورفعة معنوياته ومادياته. إن مسألة المجال الحيوى، متشعبة وكبيرة ولا يمكن حلّها، بوسيلة أخرى غير الحرب».

بدأ هتلر منولوجا استمر ثلاث ساعات ونصف الساعة، حدّد خلاله أهداف، ومواقيت، ونظريات، ووضع حتى بانوراما مخيفة أمام مستمعيه المشدوهين. كان لابد أن نجمع فى ألمانيا الكبرى كل الألمان، بداية من بالنمسا ويتبعهم من بالسوديت[1]. لم يكن هناك مناص من توحيد الأراضى الألمانية التى يقسمها الدانتزيج، ومن توسيع الحدود حتى تتاح الفرصة لانتشار السكان، وسيكون ذلك فى البداية على حساب بولندا. كل هذا سيتم عندما تنهى ألمانيا برامج تسليحها - ما بين ١٩٤٣ و١٩٤٥- وقبل أن تنهى أى من فرنسا أو إنجلترا برنامجها.

---

(١) السوديت: هو إقليم يقع فى غرب التشيك على الحدود مع ألمانيا، شكلت منطقة السوديت محور نزاع بين ألمانيا النازية وتشيكوسلوفاكيا قبيل الحرب العالمية الثانية. تقع المنطقة حسب التقسيم التشيكى ضمن أقاليم بوهيميا ومورافيا سيليسيا، وكانت تقطنها غالبية ساحقة من الألمان حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، حيث تم ترحيل معظم هؤلاء إلى ألمانيا.

ومن ناحية أخرى - واصل هتلر حيثياته-، فإن بريطانيا مشغولة بأمور إمبراطوريتها أكثر من اهتمامها بشئون أخرى بوسط أوربا. فسيكفى، حتى يهدأ روعها، اتفاق يضمن لها سلامة مستعمراتها فيما وراء البحار وسيطرتها على البحار، وربما حتى إن البريطانيين، إذا ما راقت لهم التسوية، يسمحون لألمانيا أن تسيطر على أنجولا، التى كانت تنتمى لإمبراطورية البرتغال الاستعمارية. لم تكن فرنسا عقبة: فقد كان الفرنسيون منقسمين على أنفسهم ومشغولين بالحرب الأهلية فى إسبانيا وبالمد الإيطالى فى البحر الأبيض المتوسط.

فى منولوجه الذى لا ينتهى، راح هتلر يحدّد الأهداف. الأول هو؛ لابد من مواجهة مسألة النمسا وتشيكوسلوفاكيا. لن تتدخل إنجلترا. حتى نضمن عدم رد فعل فرنسا، علينا أن ننتظر وقوع أية مشكلة داخلية فى أو اندلاع نزاع بينها وبين إيطاليا. يمكن أن يعتبر الاتفاق مع بولندا ضمانة لحيادها. كان الحماس يأخذ هتلر، يحاول أن يخرج محدثيه من الصمت الذى أطبق عليهم، وفى الساعة الحادية عشرة شعر الجميع بصحوة مفاجئة، عندما أنهى الفهرر حديثه بقوله: إنه بما أن الوضع كذلك، فإن الهجوم على النمسا وتشيكوسلوفاكيا يجب أن يسبق كل التوقعات، أى لا بد وأن يكون فوريا: «أنسب تاريخ هو صيف ١٩٣٨».

بعد أن طلب منهم أن يطرحوا أسئلتهم وأن يعبروا عن رأيهم،

شكّك فون بلومبرج فى قدرة القوات الألمانية على اختراق الحدود مع تشيكوسلوفاكيا، وأكد على أن فرنسا، حتى مع انشغالها بصراع البحر الأبيض المتوسط، فإن لديها قوات تستطيع أن تهاجم ألمانيا من الجنوب. اتفق فون فريتش مع هذا الرأى وتحدّث عن أن القوات الفرنسية تفوق الألمانية بالضعف، وأن منطقة الراين، ستكون تحت رحمتها، فى حالة اندلاع الحرب. استمع هتلر لهم فى تمعن، ومع ذلك انبرى فون نوراث، وزير الشئون الخارجية، لإضافة رأيه الذى يستبعد أية حروب بين فرنسا وإيطاليا، فى المدى القريب.

بعد أن استمع هتلر لهذه الآراء المخالفة، صرفهم وفى عقله تعتمل فكرة مزدوجة: كانت رؤيته واضحة، عندما يرى أن الآخرين لا يملكون بعد النظر الذى يمكنهم من قراءة جيّدة للموقف. كما لم يكن ليتهاون إذا ما تعلّق الأمر بجيشه وبدبلوماسيته ويتركهما فى أيدى من لا يملكون جرأة تواكب عقليته الفذة، ولا تواضع الانقياد الأعمى له. فصدر حكم على كل من فون نوراث، وفون بلومبرج، وفون فريتش: تمت تنحية الأول عن منصبة وتعيينه على رأس جهاز، لم ينجح فى أن يكون له أى دور. كان فون بلومبرج أرمل وكان قد تزوج حديثا من سكرتيرة شابة، وكان شاهداه على العقد هما هتلر وجورينج. كشف جهاز الجستابو عن ماض مخز للزوجة، فقد كانت تمارس الدعارة أثناء سنوات الأزمة الاقتصادية فى ألمانيا، وعليه، طُلب من فون بلومبرج أن يستقيل من منصبه. لم يكن المنصب يعنى

الكثير لفون بلومبرج، فقدّم استقالته إلى هتلر وسافر فى عطلة إلى إيطاليا. كان تصرّفه مشرفا ووداعه راقيا، حتى استحق معهما «أسد المطّاط» رسالة توصية من الفوهرر إلى بينيتو موسولليني، ضمنت له عطلة ملكية وتقاعدا سعيدا، بعد عودته إلى ألمانيا. أما اتهام فون فريتش، بالشذوذ الجنسى، فقد كان تدبيرا إقصائيا أكثر قسوة. فقد تبارى الجيستابو مع الأس أس فى تدبير شهود الزور وتلفيق الأدلة ضد رئيس أركان الحرب، الذى تم تجريده من منصبه. غير أنه تمكّنِ بعد محاكمة طويلة، من إثبات براءته وإحراج متهميه، وبعد أن تم قبوله فى الجيش مجددا، تسلّم قيادة إحدى فرق المدفعية ولقى حتفه على أرض المعركة أثناء الحملة على بولندا. آلت وزارة الخارجية إلى جواكيم فون ريبنتروب؛ أما هيئة أركان الحرب، فقد أوكلت إلى ويلهلم كايتل (Lakeitel ، أى «خادم هتلر» الذى كان أعداؤه يلقبونه به)؛ أما الفوهرر، فقد اقتدى بموسلليني واحتفظ لنفسه بوزارة الحرب.

ملك هتلر بيمينه جميع مفاتيح اللعبة فى منتصف شهر فبراير. كانت الفرصة مواتية لبدء العمليات، وكانت النمسا بداية الاستهلال وفريسته الأولى. كان تشوسنيج، الاشتراكى المسيحى وخليفة دولفوس، رأى ازدياد نفوذ النازية فى النمسا، على الرغم من كل العراقيل التى كانت حكومته تضعها، فى الوقت الذى يقل فيه الدعم الدولى عن فيينا. بعد توقيع عام ١٩٣٦، على اتفاق إيطالى -

ألمانى، لم يعد فى إمكان تشوسنيج أن يعتمد على دعم موسوللينى، كما لم يكن يحظى بقبول لدى فرنسا، وكانت إنجلترا لترضى عن استفتاء شعبى لضم النمسا إلى الرايخ الألمانى. فحاول، على ذلك، أن يشكل اتحادا صغيرا مع تشيكوسلوفاكيا والمجر، غير أن التشيك كانوا يشعرون بالتهديد فآثروا السلامة حتى لا يستثيرون هتلر، فتراجعوا عن الوحدة؛ أما المجريون، فقد كانوا يقفون على مسافة أقرب إلى برلين منها إلى فيينا. لم يكن فى وسع جيشه سوى القيام ببعض عمليات الدعم على الحدود، ولم يكد يبدأ، حتى تم تحديد موعد له مع هتلر، يوم ١٢ فبراير ١٩٣٨ فى أوبرسالزبورج، ودار الحوار بينهم «بلا رسميات» فاتسمت معاملة هتلر له بعنف مقصود، لم يكن أحد ليباريه فى ذلك. فى هذا الاجتماع تم ترويع مستشار النمسا وإهانته وخداعه وتهديده بإعلان فورى للحرب وبغزو بلاده، وانتهى بأن وقع تشوسنيج الملتاع المحاصر على وثيقة كانت تعنى انضمام النمسا إلى الرايخ الثالث.

وقع المستشار على إنهاء حظر عمل الـ (NSDAP) بالنمسا، والعفو عن أعضائه المعتقلين، وتضمين حكومته ثلاثة وزراء نازيين (ليس أقل من وزارة الدفاع، والاقتصاد، والداخلية، وهذه الأخيرة تولاها آرثر سايس إنكارت، أحد أهم شخصيات متحف النازية للترويع)، وحتى يتم تحلية الأمر، يتم توقيع اتفاقية اقتصادية مع ألمانيا. بعد أن عاد تشوسنيج إلى فيينا، وبعد أن استوعب نتائج توقيعه، حاول

أن يلعب بأوراقه القليلة، فقامر بالدعوة لاستفتاء شعبى على الانضمام إلى ألمانيا من عدمه. لم يتمكن أحد من معرفة قرار النمساويين، حيث غزت القوات الألمانية الأراضى النمساوية ليلة ١٢ مارس ١٩٣٨، دون أية مقاومة تذكر. كان الاستفتاء قد تحدّد له يوم ١٣ مارس، وقد دخل هتلر النمسا عن طريق مسقط رأسه براوناوآم إن. يصف لنا مصوره هووفمان، اللحظة:

«عند منتصف الجسر، أى بعد عبور الحدود الألمانية النمساوية، كان هناك ضابط فى الانتظار. أحاط مجموعة من الأطفال يرتدون ثياب الاحتفال، بسيارة الفوهرر وقدموا له الورود. كانت بروناو فى قمة الإثارة. هناك سمعنا لأول مرة أن القوات الألمانية قد عبرت الحدود وسط ترحيب وحماس بالغين. تساءلنا، دون أن نجد إجابة، كيف تمكن السكّان المحليون من الحصول على هذا الكم الهائل من أعلام سافاستيكا[1] ، وصور هتلر وتلك اللافتات التى تحمل شعارات مؤيدة لألمانيا. لم تكن الصور لتكذب: إنها تثبت أن عام ١٩٣٨، كان أغلبية النمساويين يؤيدون هتلر ويرغبون فى تحقيق الـ (Anchuluss).

(١) صليب سافاستيكا: (من السنسكريتية سافاستيكا) أو الصليب المعقوف، هو صليب متساوى الأضلاع مع أذرع ممتدة بزاوية قائمة إلى اليمين () أو إلى اليسار ().

«امتدت صيحات الهايل! وراحت على مدى ساعات ترن فى آذانى. كلّما كانت سيارة الفوهرر تتوقف، يتحول الهتاف إلى إعصار من الفرح. بلغنا لينز مع حلول المساء، وفى نفس تلك الليلة، أطل هتلر من شرفة مبنى الدستور الذى تجمعت أمامه الجموع الهادرة. كانت البلدة بأسرها هناك».

قدّم هتلر لهم خطابه على أنه مخلّصهم، من أعلى تلك الشرفة:

«إذا كانت إرادة الله قد شاءت أن أخرج من هذه المدينة، لكى أكون على رأس الرايخ، فإن ذلك كان لأنه يدخر لى رسالة أخرى، ألا وهى لمّ شتات وطنى، الرايخ الألمانى. لقد آمنت بالرسالة وعشت وكافحت من أجلها، وها أنا الآن أؤديها».

كانت جبال السوديت هى خطوته التالية، نحو٢,٨٠٠,٠٠٠ تشيكى من أصول ألمانية يعيشون فى بوهيميا. كان لـ (NSDAP) وجود قوى هناك، تحت قيادة كونراد هينلاين، وبدعم سياسى من برلين. مع حلول فصل ربيع عام ١٩٣٨. تحولت حركات تمرد ومطالبات التشيك إلى المشكلة الرئيسية أمام تشيكوسلوفاكيا، هذا إلى جانب الخطر الداهم والوشيك الذى كانت تشكله ألمانيا. أصدر هتلر يوم ٣٠ مايو التوجيهات التالية لقادته العسكريين: «قرارى النهائى هو غزو تشيكوسلوفاكيا فى المستقبل القريب». بدأت حملة تشويه تشيكوسلوفاكيا فى ألمانيا، بشتى أنواع الزيف والتزوير من

اتهام للتشيك بالتنكيل بالأقلية الألمانية ونهبها وقتلها، وجميعها تهم لا أساس لها سوى فى رأس جوبلز وتابعيه. أمام هذا الوضع المتردى، طلب رئيس وزراء إنجلترا، شامبرلين لقاء هتلر من "أجل التوصل إلى حل سلمى" .

فى يوم ١٥ سبتمبر١٩٣٨. استقبل هتلر شامبرلين فى منزله الكائن ببرختسجاتن، التى كانت تسمى حتى وقت قريب بيرجهوف. كما هى العادة، تحدث هتلر، بلا توقف، على مدار ثلاث ساعات، قص خلالها على محدثه كل ما جاء بالماين كامبف، والذرائع المتعددة التى تدعوه لاستخدام القوة ضد تشيكوسلوفاكيا. استمع شامبرلين له فى دبلوماسية، وبالكاد كان يقاطعه بجمل مقتضبة، غير أن توجسه كان يزداد مع الوقت. فى النهاية، لم يستطع أن يتمالك نفسه وباغت هتلر:

«لو كنت قد فهمتك جيدا، فإنك يا سيدى مهاجم تشيكوسلوفاكيا لا محالة. فلماذا إذن جئت بى إلى برختسجاتن؟ فى هذه الحالة، من الأفضل أن أغادر حالا. فالأمر برمته، لا طائل من ورائه».

هنا أدرك هتلر، أنه قد تجاوز حده، فعلى الرغم من أدبه وتسامحه وسلميته، فإن شامبرلين لم يكن مستشار النمسا. تراجع الفوهرر وغيّر من نبرة الحوار واقترح على رئيس الوزراء الإنجليزى

أن تتم تسوية مسألة التشيك على أساس مبدأ حق تقرير المصير. رد شامبرلين بأنه، إزاء هذا التحول، فإنه سيعود للتشاور مع حكومته، ومن ثم فهو يرغب فى أن يعود على الفور إلى لندن. «بعدها يمكننا استئناف هذا الحوار». أنهى رئيس الوزراء حديثه وأفاد بعدها مترجم هتلر، بول شميدت الذى حضر اللقاء، بأن الجملة الأخيرة قد أضيفت. بينما كان شامبرلين يتحدث، كان هتلر يفقد أعصابه، لأنه اعتقد أن إنجلترا ستعارض ألمانيا، أما عندما ترك باب الحوار مفتوحا، فقد عرف أنه يقف فى صفه. بالفعل، لم يكن فى لندن أى اعتراض على إجراء استفتاء لتحديد المصير، ولا حتى على احتلال ألمانيا للسوديت. أما باريس، التى كانت تربطها ببراغ معاهدة دفاع مشترك، فقد كانت ترغب فى تجنب الحرب بأية وسيلة، ومن ثم تحولت السوديت فى نظرها إلى ثمن السلام. على الرغم من ذلك، فإن لندن وباريس كانتا تعيان أن إجلاء التشيك من السوديت لا بد وأن تكون عملية منظمة وتدريجية، وأن نهايتها يجب أن تضمن سلامة الحدود الهشة منزوعة السلاح بين ألمانيا وتشيكوسلوفاكيا التى سيسفر عنها الوضع الجديد.

عاد شامبرلين من جديد إلى ألمانيا، ولقى هتلر يوم ٢٢ سبتمبر وقدّم له مشروعه القائم على الانسحاب التدريجى للتشيك من السوديت. لم يسع رئيس الوزراء الساذج، الذى كان يعتبر نفسه

نصيرا للسلام وحاميا لأوربا من الحرب، أن يتمالك دهشته، وفى النهاية سخطه، عندما رد عليه هتلر، فى واحدة من موجات الغضب التى كانت تلم به، بأن هذه المشاريع كانت ستكون مقبولة لو تم عرضها عليه قبل خمسة عشر يوما، أما الآن وبعد الأخبار الواردة من تشيكوسلوفاكيا، فإن أقصى ما يمكن أن يفعله هو أن يمهله مدّة يومين. رد البريطانى بأن بلده قد التزمت بتبنى مشروع إجلاء على مراحل، وهوه باعتباره سياسيًا ورجلاً، ليس لديه استعداد لأن يرجع فى كلمته. انتفض هتلر بعدها فى واحدة من موجات الغضب التى كانت تنتابه، وحسبما روى شهود عيان، أخذ يرتعد خلالها من أخمص قدميه إلى قمة رأسه، وتزوغ عيناه، ويخرج الزبد من فيه، ويلوِّح بقبضته فى الهواء بعشوائية، فيطيح بكل ما تصطدم به، وقد يسقط أرضا ويتلوى مثل الوحش من الحنق، وربما يصل لأن يعض السجاجيد. فى هذا الموقف، لم تكن الموجة بهذه القوة، غير أن شامبرلين فضّل أن يعود لفندقه بعد أن رأى تلويحه وسمع صياحه.

فى اليوم التالى، وبعد مباحثات مضنية تحايل فيها هتلر على تشيكوسلوفاكيا، وعلى غرور الوزير الأول ووافق فى النهاية أن يمنح الانسحاب التدريجى مهلة حتى يوم ١ أكتوبر، وهو ما أسعد البريطانى الساذج، وأكد له أن يقدم هذا التنازل الكبير فقط من أجل خاطره، وهو بهذا سيتحول إلى منقذ سلام أوربا. عاد شامبرلين إلى لندن وحاول، بمساعدة فرنسا، أن يقنع رئيس

تشيكوسلوفاكيا، إدوارد بينيز، أن يسلّم. بعد أن تخلّى الجميع عنها، استسلمت براغ. فى ٢٩ سبتمبر، عقدت فى ميونخ قمة حضرها هتلر وموسلليني عن إيطاليا، شامبرلين عن إنجلترا، ودالاديى عن فرنسا، وممثل عن الحكومة التشيكية. كان صوت هتلر هو الأعلى، فبالكاد تدخل موسولليني، واكتفى دالاديى بإبداء معض الملاحظات وطرح بعض الأسئلة الإيضاحية، ولم تعط الكلمة لممثل الحكومة التشيكية. تم توقيع اتفاق تقسيم تشيكوسلوفاكيا وتقديمها للفوهرر فجر يوم ٣٠ سبتمبر، وإن دُون بها تاريخ ٢٩ سبتمبر. عاد دالاديى إلى فرنسا يحمل تلك الوثيقة التى لم تكن تضمن استقلال باقى أراضى تشيكوسلوفاكيا، ولا المحافظة على سلام أوربا، وبدت له مجرّد ورق مبتل. أما شامبرلين، فقد عاد منتصرا إلى إنجلترا فى سذاجة بالغة. وكان يرد على كل من يشكّك فى جدوى تلك الوثيقة، وبأن هتلر، بنفسه، أكّد له أن هذه آخر مطامعه التوسعية.

فى هذه الأثناء، كانت القوات الألمانية تتوغل داخل السوديت. كان ذلك فى ١ أكتوبر ١٩٣٨، وقد احتلت كل الأراضى وخلال ستة أشهر، كانت تشيكوسلوفاكيا بأسرها قد اختفت من على الخريطة. أسهمت كل من بولندا والمجر فى تدميرها مع ألمانيا. وتم فصل سلوفاكيا تحت قيادة الكاردينال تيسو، أحد الموالين لبرلين. جاء آخر فصول ذلك االموت المعلنب يوم ١٤ مارس ١٩٣٩، من مستشارية

الرايخ. كان العجوز إيميل هاشا، رئيس تشيكوسلوفاكيا العجوز الذى خلف بينيس، قد توجه إلى هناك وطلب منه هتلر التنازل عن سيادة باقى أراضى بلاده. يروى هوفمان الذى كان يصور اللقاء، أن هاشا المسكين تعرّض لحالة إغماء:

«خر رئيس تشيكوسلوفاكيا على المقعد، وتقطعت أنفاسه، وبدا أنه يتعرّض لانهيار عصبى. أعطاه الطبيب موريل، طبيب هتلر، حقنة، وبمجرّد أن استعاد العجوز وعيه، تم استئناف المباحثات».

بعد أن أمسك بالوثيقة الموقعة فى يده. شعر هتلر بالفخر والسعادة ومازح طبيبه قائلاً: «فلتذهب إلى الجحيم بحقنتك الملعونة! لك أن تفخر بنفسك. لقد منحته قوة ووعيا، جعلتنى أشك فى أنه سيوقع الوثيقة». ليلة ذلك اليوم، من الرابع إلى الخامس عشر، احتلت القوات الألمانية براغ، وكذا المراكز الحيوية الأخرى فى البلاد، وأصبحت هى حامية بوهيميا ومورافيا. فى نفس هذا اليوم، يوم الغزو، توجه هتلر إلى براغ، ليتذوق حلاوة انتصاره. فى صباح اليوم التالى، أى ١٦ مارس، خرج على رأس العرض العسكرى الذى جاب شوارع العاصمة المغطاة بالثلوج.

أُعجب هتلر بإنجازه، حتى إنه قرّر أن يكرره فى ٢٣ مايو١٩٣٩. فى ميمل، تلك المدينة القديمة المحصنة التى أنشأها فرسان

تيوتون[١] الألمان، والتى آلت إلى بروسيا الشرقية حتى نهاية الحرب الكبرى. قضت معاهدة فرساى بضمها إلى ليتوانيا، إلا أنها اضطرت للتنازل عنها لهتلر إزاء تهديداته لها بدخول أراضيها بحرا وجوا. شعر هتلر بأنه لا يقهر. فبدون طلقة رصاص واحدة، استعاد السار وميمل ونشر جنوده فى راينلاند وضم النمسا والسوديت، وفرض حمايته على بوهيميا مورافيا. فى تلك الأثناء، كان موسولينى قد ضم ألبانيا، وكانت الجمهورية الثانية فى إسبانيا قد انهارت فى ١ أبريل ١٩٣٩. ووقعت إسبانيا تحت نير الديكتاتورية العسكرية. كان الوضع فى أوربا يثير القلق، حتى دفع رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، فرانكلين روزفلت، لأن يوجه رسالة لكل من هتلر وموسلينى لكى ينهيا سياستيهما التوسعية، ولأن يوقعا على اتفاقيات يضمن السلام فى ربوع أوربا مدّة عشرين عاما،

---

(١) فرسان تيوتون: طائفة عسكرية دينية ألمانية. تأسست سنة ١١٩٠، باعتبارها منظمة تمريضية، لكنها تحولت وشاركت فى الحروب الصليبية وكان لها مقر فى عكا. اعترف بها البابا سنة ١١٩١، وفى سنة ١١٩٨ أقاموا نظاما عسكريا. كان فرسان التيوتون يلبسون أزياء بيضاء عليها صليب لاتينى. غزوا بروسيا سنة ١٢٢٦، وأبادوا سكانها بحجة تحويلهم للمسيحية وأقاموا فيها مستعمرات يسكنها ألمان. فى ١٢٤٢ تمردت القبائل البروسية عليهم فشنت عليه حملة صليبية كانت تتكون من ٦٠ ألف ألمانى وبوهيمى لإنقاذ التيوتونيين الذين سيطروا من جديد سنة ١٢٦٠. تحولوا للبروتستانتية سنة ١٥٢٥، لكن الطائفة استمرت كاثوليكية فى ألمانيا حتى ١٨٠٥.

ويتعهد فيها، من ناحيته، باتفاقيات تحرير للتجارة. تضمنت الوثيقة أيضا، ضمان عدم التعدى ولا التوغل داخل أراضى دول أوربا الثلاثين ودول الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. لم يرد هتلر على الرئيس الأمريكى إلا فى ٢٨ أبريل، من خلال خطاب أعاد فيه سرد كل الحجج التاريخية القديمة، ومخازى معاهدة فرساى، وعدم جدوى الدول التى تم إنشاؤها عقب الحرب الكبرى، وتهديداتها لألمانيا، ومسيرة الـ (NSDAP) الطويلة على درب إنقاذ ألمانيا من البطالة والانهيار، والجهود الحثيثة التى يبذلها من أجل حقن الدماء فى أوربا، وحل النزاعات عن طريق الاتفاقيات. بلغت صفاقة ومانوية وزيف وتأليه هتلر أعلى مستوياتها فى هذا الخطاب الذى كانت خاتمته:

«سيدى روزفلت، لقد رأبت صدع وحدة تاريخ الأمة الألمانية، ولقد حققت ذلك دون إراقة قطرة دم واحدة ودون أن أجر وطنى، وبالتالى الآخرين، إلى بؤس الحرب. أنا، من كنت، منذ واحد وعشرين عاما، مجرّد عامل مجهول وجندى مغمور، تمكنت من إنجاز هذا، بفضل ما أوتيت من قدرات، ومن ثم، سيّد روزفلت، يحق لى أن أحجز مكانتى فى التاريخ، إلى جانب أولئك الرجال الذين بذلوا قصارى جهدهم، مثلما يمكن أن يُنتظر من شخص واحد».

بالفعل، كان هتلر سيدخل التاريخ. فقد كان قد بلغ الخمسين من العمر، وبدأ يخشى أن تمنعه أعراض الشيخوخة من استكمال

مشروعاته التوسعية، ناحية الشرق، على حساب بولندا والاتحاد السوفيتى، لكى يتمكن من القضاء على الشيوعية. كان يتعيّن عليه أن يسرع الخطى، إن كان يريد أن يرى نهاية مشروع «الرايخ الألفى» قبل أن تعيقه مشاكل السن من أن يراه رأى العين. كان متعجلا، حتى إنه فى اليوم التالى لخطبته تلك، اجتمع بعدد من رؤساء القيادات العسكرية، وأخبرهم أن غزو بولندا أصبح وشيكا، وأن حالة بولندا ستستدعى القتال، لا محالة، حيث إنه لن يطيق صبرا، حتى تستجيب فرنسا وإنجلترا للابتزاز، كما كانت الحال مع تشيكوسلوفاكيا. كانت الملاحظات التى دوّنها مساعد هتلر، العقيد شموندت، قاطعة ولا تسمح بالتأويل. ظن هتلر، أنه سيضطر، هذه المرّة إلى محاربة فرنسا والمملكة المتحدة، غير أنه كان يعتقد أن لديه الحل السحرى لإقناعهما:

«أهم ما فى الأمر، أن تشن هجوما ساحقا على العدو منذ البداية. لا مجال هنا للتوقف لدراسة بنود المعاهدات ولا أية اعتبارات أخلاقية ولا لتأملات حول الخير أو الشر».

وإذا كان الجيش قد بدأ فى أخذ أهبته، فإن الدبلوماسية كانت قد سبقته، حيث كان فون ريبنتروب، يعمل منذ الخريف السابق على مشروع لإيجاد سبب للحرب مع بولندا. فى ٢٤ أكتوبر ١٩٣٨. دعا وزير خارجية ألمانيا السفير البولندى، جوزيف ليبسكى، إلى الغداء بفندق جراند هوتيل بيرشتيستاجين. كان يواقيم فون ريبنتروب،

دبلوماسيًا محنكًا ومحاورًا ممتازًا وخبيرًا فى الخمور، فقد حرص على الحفاظ على حلاوة الحديث طوال الغداء، حتى شعر السفير البولندى، الذى لبّى الدعوة وهو مشحون بالهواجس، بالراحة ساعة تناول طبق الحلوى. عندها، قام الوزير الألمانى، كما لو كان قد توصل لاكتشاف جديد لتوه، بمباغتة ضيفه «بخطة نهائية» لحل النزاع الألمانى البولندى. تتنازل وارسو عن دانتزيج لصالح ألمانيا، وتسمح للرايخ الثالث بإنشاء الطرق والسكك الحديدية، بحقوق خارج أراضيها، عن طريق بوميرانيا البولندية. علقت قطعة الحلوى بحلق ليبسكى وهو يستمع لبنود الاتفاق: مزايا اقتصادية، ومواصلات مع ميناء دانتزيج، ومد اتفاقية عدم التعدى إلى خمسة وعشرين عاما، وهى الاتفاقية التى وقعتها بولندا عام ١٩٣٤ وكانت سارية حتى ١٩٤٤.

أبلغ السفير البولندى وزير خارجيته، جوزيف بيك، بأحداث ذلك الغداء العسر. وعلى الرغم من استنفار حكومة وارسو، فإن بيك، أعطى سفيره تعليمات بأن يعتبر الأمر برمته مجرّد مبادرة شخصية من وزير، ذى خبرة قليلة، مثل فون ريبنتروب، وأن يترك الموضوع حتى يبرد، بلا رد من جانبه. أجّل ليبسكى لقاءه بفون ريبنتروب، حتى ١٩ نوفمبر، حيث أبلغه أن بولندا ترغب فى السلام والتعاون مع ألمانيا، إلا أن حاجتها لميناء دانتزيج الحيوية، تجعل من التنازل عنه للرايخ أمرا غير ممكن. ومع ذلك، فإن بولندا، على الرغم من صعوبة توفيق الوضع، على استعداد «لإحلال ضمانات وقرارات

عصبة الأمم، باتفاق ثنائى بين البلدين» يضمن وجود المنطقة الحرّة وحقوق سكّانها الألمان والبولنديين.

بطريقة دبلوماسية، أوضح ليبسكى أن ضم دانتزيج للرايخ الثالث بالقوة، سيقود حتما إلى صراع. بدا الوزير الألمانى ودودا خلال اللقاء، حتى جعل السفير يتأكد من أن رؤيته للأمر على أنه مبادرة من الوزير، هى رؤية صحيحة، وأن الأمر ليس بالخطورة التى كان يعتقد.

دام السلام بين برلين ووارسو أربعة شهور، لم تخل، رغم كل شىء، من بعض التجاوزات المتفرقة. استقبل هتلر بيك بحفاوة فى بيرشتستاجن وأخبره شخصيا اهتمامه برؤية بولندا قوية: «القوات التى تنشرها بولندا على الحدود مع روسيا، ستوفر على ألمانيا، «نزال قواتها هناك».

فى يناير ١٩٣٩. زار فون ريبنتروب وارسو، وعلى الرغم من عدم إحرازه أى تقدم، ظلّت العلاقات طبيعية بما فيها من تفاصيل الود. حتى إن هتلر صرّح فى خطبته يوم ٣٠ يناير قائلا: «على الرغم من تقلبات العام الماضى، فإن العلاقات بين ألمانيا وبولندا بقيت كدعامة استقرار وسلام فى الحياة السياسية فى أوربا».

بيد أن كل هذه التصرفات المسالمة، لم تكن سوى ستائر دخان، استعان بها هتلر لتهدئة القوى الأوربية حتى يتمكن من إحكام احتلال بوهيميا مورافيا، ومن ضم ميمل إلى الرايخ. بعد أن تحقّق

له ما أراد، تسارعت الأحداث تباعا. ففى ٢٦ مارس عاد فون ريبنتروب ليباغت ليبسكى: «أى إعتداء من بولندا على دانتزيج ستعتبره ألمانيا بمثابة اعتداء على الرايخ». بعد مرور يومين، جاء رد وارسو بإبلاغ السفير الألمانى لديها، فون مولتك: «أى محاولة من جانب ألمانيا لتغيير وضع دانتزيج، ستعتبره وارسو اعتداء على سيادة بولندا». ويمكن تصور نهاية هذا اللقاء على النحو التالى:

مولتك: تريدون مباحثات تحت تهديد السلاح !

بيك: بل هذا أسلوبكم.

ولكن، من أين تستمد بولندا هذه الصلابة؟ فى الأساس، من تحالفاتها، حيث تربطها بفرنسا معاهدة دفاع مشترك منذ عام ١٩٢١. كما كانت لديها ضمانات بريطانية ومباحثات جارية لتوقيع معاهدة مماثلة، خرجت إلى النور فى ٣١ مارس بعد أن أقرّها مجلس العموم:

«حكومة جلالتها، ستضطر، على الفور، لدعم بولندا بجميع السبل، فى مواجهة أى خطر من شأنه أن يهدّد استقلالها، وبمجرّد أن تقرّر حكومة بولندا مقاومته، باستخدام قواتها الوطنية».

بطبيعة الحال، كانت بولندا تثق فى إمكانات جيوشها. فى تلك الفترة، كانت جيوش العالم أجمع قد تعلّمت من الدروس القاسية للحرب العالمية الأولى. من ثم كان جيش بولندا يرى أنه قادر على مواجهة الويهرماخت. كانت إمكانات قوات هتلر المسلحة تذهل الجميع، غير أن ثقة بولندا فى جيشها، الذى كان يتسم بالتواضع،

كانت ثقة عمياء. ففى عام ١٩٣٩ مثلا، كانت بولندا تعتقد فى قدرة فرق الخيّالة الست، غير أن هذا السلاح لم يتم استخدامه من جانب إيطاليا إلا فى مواقف محدودة، فى حين اكتفى الروس بإسناد مهام الملاحقة له.

لم تكن برلين تعير انتباها لأسباب بولندا. كانت على استعداد لخوض الحرب، مع أنها كانت تفضل انتصارا سهلا، على شاكلة انتصارها فى تشيكوسلوفاكيا. أما عن إمكاناتها العسكرية، فقد كانت تفوق إمكانات بولندا بمراحل: تتفوق عليها فى سلاح المشاة بأربعة أضعاف (١,٦٠٠,٠٠٠ جندى، مقابل ٤٠٠,٠٠٠)، وبستة أضعاف فى سلاح المدرعات، ٢٥٠٠ دبّابة قتال، مقابل ٤٠٠ ذات طرز قديمة وأحجام صغيرة)، وبخمسة أضعاف فى سلاح الطيران (٢٥٠٠ مقابل ٥٠٠ تقل عنها فى الأسلحة والسرعات).

لو كان هناك ما يشعر ألمانيا بالقلق، فهو الاتحاد السوفيتى. كان هتلر لا يزال يذكر الكابوس الذى عاشته ألمانيا، عندما كانت تحارب فى جبهتين أثناء الحرب الكبرى. ولذا، فإنه عندما لمس أن بولندا لن تلين بالسلم فى مسألة دانتزيج، أعطى أوامره فى شهر يناير لفون ريبنتروب، ببدء مباحثات مع موسكو. ولم تكن المهمة يسيرة. كان وزير خارجية روسيا، ليتفيوف، على وشك أن يترك منصبه فى الثالث من مايو، ليخلفه الوزير مولوتوف. وكان على الوزير الجديد أن يستهل مهمته باتفاق ثلاثى بين موسكو وباريس ولندن، من شأنه أن يغل يد برلين لو كان قد سار فى الطريق الصحيح. تحرّكت

الدبلوماسية النازية، بسرعة أكبر: فى ٢٩ مايو استقبل مولوتوف فى مكتبه سفير ألمانيا، فريديك ويرنر فون ديرشولينبورج، لبحث سبل التعاون السياسى بين البلدين. أوضح الوزير مولوتوف فى بداية الجلسة، أنه لن يكون هناك أى اتفاق ما لم يكن مدعوما «بأسس سياسية» وثيقة بين موسكو وبرلين. لم يتمكن سفير ألمانيا أن يجعل الوزير الروسى يفسر له ماهية «الأسس السياسية» غير أن هتلر وفون ريبنتروب رأيا، أنه يقدّم لهما فرصة فريدة من نوعها.

فى الشهور التالية، راح مشروع الاتفاق الثلاثى بين الاتحاد السوفيتى وبريطانيا وباريس، يتعثر نتيجة تعنت من جانب موسكو، فى حين تم استقبال سفير ألمانيا فى موسكو، ما لا يقل عن خمس مرّات، من قِبل مولوتوف. بالتوازى، عقد القائم بالأعمال الروسى لدى برلين، أربع جلسات مع فون ريبنتروب ومساعديه. فى أحد هذه اللقاءات، تحديدا لقاء يوم ٣ أغسطس، تم صراحة بحث اقتسام منطقة البلطيق وبولندا، بين ألمانيا والاتحاد السوفييتى. كان من الواضح أن ستالين يفضل التحالف مع برلين على لندن وباريس. بدت المزايا، حتى تلك اللحظة، واعدة ولا يشوبها أى شك: مكاسب توسعية وتعاون سياسى وصناعى وتكنولوجى مع هتلر أو الحرب ضده. عند هذه النقطة، تسارعت وتيرة المحادثات. فى ١٤ أغسطس، أرسل فون ريبنتروب برقية إلى مولوتوف، يخبره فيها بنية فرنسا وإنجلترا، محاربة ألمانيا والاتحاد السوفيتى. من ثم، فهو

يرى ضرورة ملحّة لعقد اتفاق بين ألمانيا وروسيا من أجل مواجهة الخطر المحدق. تلاقت المصالح وتوافقت المواقف، فتم توقيع المعاهدة التجارية فى يوم ٢٠ من نفس الشهر، أما يوم ٢٣ منه، فقد شهد، بحضور ستالين مبتسما ومولوتوف فون ريبنتروب ، توقيع معاهدة عدم إعتداء، ذات بروتوكول سرّى، يقضى بأن يقتسم الموقعون على المعاهدة ، منطقة دول البلطيق (فنلندا، إستونيا، ليتونيا، وليتوانيا) وكذا بولندا.

أصاب الخبر أوربا بالذهول. أدركت باريس ولندن أن الحرب قادمة لا محالة، وأن بولندا قد ضاعت. فى اجتماع عاجل للجنة الدفاع الوطنى بفرنسا وبرئاسة دالاديى، تقرّر الالتزام بالاتفاقيات العسكرية مع بولندا، على أمل أن يتمكن البولنديون من الصمود حتى الربيع، وهو الوقت الذى ستستغله كل من فرنسا وإنجلترا للاستعداد لمواجهة أى هجوم ألمانى. أما لندن، فقد وقعت من جانبها، فى وارسو، يوم ٢٥ أغسطس، اتفاق دفاع مشترك، فى حال تعرّض أى من البلدين لهجوم من الخارج. لم تكن ألمانيا تنتظر هذه الضربة التى وقعت عليها كالصاعقة. يروى هوفمان مصور وصديق هتلر الموقف:

«كنت فى المستشارية ورأيت هتلر، بعد أن أبلغه فون ريبنتروب بالخبر، انهار على المقعد وقد شخص بصره وغاصت بداخل أفكاره وارتسم على وجهه تعبير حيرة وارتباك. ألقى بذراعيه فى بؤس

واستسلام وراح يتمتم بهذه الكلمات الغريبة: «من كل هذا يجب أن نشكر المحنكين فى الشئون الخارجية، أى، هؤلاء المجانين».

كان هتلر قد أعطى أمر الهجوم يوم ٢٦ أغسطس، غير أنه أجّل التوغل لحين إشعار آخر وشيك. لم يصل أمر عدم الهجوم إلى كل الوحدات، فدخل بعضها فى معارك ضارية، تم تصويرها على أنها مناوشات حدودية، وردها إعلام جوبلز إلى استفزاز من الجانب البولندى. أصاب موسولينى خبر اتفاق إنجلترا وبولندا بصدمة قوية. أبلغ شيانو، وزير خارجية إيطاليا، فون ريبنتروب بأن بلاده غير مستعدة للحرب. فى نفس هذا اليوم العصيب، ٢٥ أغسطس، أبلغ سفير فرنسا فى برلين، فون ريبنتروب رسالة تحذير من حكومته مفادها واضح ومحدّد، ألا وهو أن أى هجوم على بولندا ستكون نتيجته الحرب. حذت بريطانيا حذو فرنسا فى اليوم التالى. أصابت هذه التحذيرات هتلر بالقلق وحاول أن يزيح بريطانيا عن دائرة الحرب التى كان قد قرّرها، على أن يضمن لها سلامة إمبراطوريتها ويمنحها جميع المزايا الاقتصادية والتجارية. وصله رد بريطانيا يوم ٢٨ أغسطس بالرفض لعرضه، ومقترحا أن تتدخل باعتباره وسيطًا لإيجاد حل للمشكلة. وافق هتلر: طلب مفاوضا بولنديًا ذا سلطات كاملة، قبل نهاية يوم ٣٠ أغسطس.

رأى هتلر، بدون شك، فرصة تكرار سيناريو ميونخ جديد، بالحصول على دانتزيج وشبكة المواصلات، دون أن يطلق رصاصة

واحدة، باستثناء مناوشات الحدود التى سبق أن وقعت. سيكون هناك وقت لإتمام ضبط يراعى البولنديين. إذا ما لم ترسل وارسو مفاوضا ذا سلطات كاملة، أو إذا رفض هذا طلبات ألمانيا، ستكون الحجة فى صف برلين، حيث ستكون وارسو قد امتنعت عن التفاوض. هل يكفى هذا لوقف حلفاء بولندا؟ على الأقل، كان هناك احتمال.

بينما كانت الدبلوماسية تلعب آخر أوراقها، تلقى الويهرماخت أمر الهجوم على بولندا يوم ١ سبتمبر. لم يصل إلى برلين يوم ٣٠ أغسطس أى ممثل مفوض لبولندا، أمام إحباط السفير البريطانى فى ألمانيا، حيث كانت وارسو قد تعلمت درس الماضى القريب جيدا، فلم تكن ترى أى أمل فى التوصل لاتفاق. هذا ما أوضحه بيك للسفير البريطانى، حيث لم تكن الاختيارات تتعدى الاستسلام أو القتال. اختار البولنديون الخيار الثانى، مع أنهم قاموا بمحاولة متواضعة، فى اللحظة الأخيرة وبوساطة بريطانية، حيث توجه ليبسكى مساء يوم ٣١ إلى مكتب فون ريبنتروب ليبلغه رغبة بلاده فى إجراء مفاوضات مع ألمانيا. سأل فون ريبنتروب فى برود قاطع:

هل لديك تفويض كامل لبدء المفاوضات؟

لا. أجاب البولندى.

إذن، سعادة السفير، ليست هناك جدوى من الكلام. أرجوك أن تغادر.

بعد مرور اثنتى عشرة ساعة، ومع الساعات الأولى من فجر يوم ١ سبتمبر ١٩٣٩، هاجمت قوات الويهرماخت بولندا ودخلت ميناء دانتزيج. فى نفس هذا اليوم حشدت باريس ولندن قواتهما وطلبتا من برلين توقيف أى عملية لها داخل الأراضى البولندية، وأن تنسحب منها، وإلا «فإنهما، ستنفذان على الفور، التزاماتهما تجاه بولندا». لم يشأ هتلر الاستجابة لهذه المطالب، ثم كان يوم ٣ سبتمبر، حيث تسلّم فى الساعة التاسعة صباحا، مترجمه بول شميدت من سفير بريطانيا فى برلين، نيفيل هيندرسن، رسالة بمهلة زمنية: «إذا لم تتلق حكومة جلالتها ضمانات مرضية تفيد وقف الاعتداء على بولندا وانسحاب القوات الألمانية من أراضيها، حتى الساعة الحادية عشرة، بتوقيت إنجلترا الصيفى، فإن ذلك سيكون بمثابة إعلان لحالة الحرب بين بريطانيا العظمى وألمانيا». لم تكد تمر ١٥ دقيقة، حتى دخل شميدت إلى مكتب هتلر، الذى كان برفقة فون ريبنتروب. قرأ البرقية وسط صمت مطبق، امتد لما بعد الانتهاء من قراءة نصها ببضع ثوان. صاح بعدها هتلر، بصوت غاضب موجها سؤاله إلى فون ريبنتروب: ماذا سنفعل الآن؟

روى شميدت فى مذكراته، أنه قد لقى جوبلز عند باب المكتب، وهو فى طريقه للخروج وأبلغه بأمر المهلة. طأطأ وزير الإعلام رأسه وعجز عن التلفظ بأية كلمة. أما جورينج، فقد كان أكثر تعبيرا، فقد كان لا يزال يسعى لمباحثات عن طريق علاقاته الجيّدة بالسويد،

عندما بلغه تليفونيا نبأ المهلة البريطانية، هنا وضع رأسه بين راحتيه وتمتم: «لو خسرنا هذه الحرب، فلا نجاة لنا سوى برحمة من الله». فى نفس هذا الصباح قدّم سفير فرنسا، كولوندر رسالة بلاده التى تضع مهلة زمنية أخرى. كانت صياغة الرسالة تشبه سابقتها البريطانية، مع اختلاف أنها قد أجلّت موعد إعلان الحرب إلى الساعة الخامسة مساء نفس هذا اليوم، ٣ سبتمبر ١٩٣٩. كانت الحرب العالمية الثانية قد بدأت.

كم كانت تلك الأيام من شهر سبتمبر ١٩٣٩، تختلف عن الأيام البغيضة لشهر أبريل من عام ١٩٤٥! فكان هتلر، وهو لا يزال جالسا فى مكتبه فى البونكر، يتذكر حتى أدق تفاصيل قطار القيادة أميريكا الذى صعد فيه آخر ساعات مساء ٣ سبتمبر ليتابع عن قرب -واقفا فى محطة سكة حديد صغيرة فى بوميرانيا- تطورات الحملة على بولندا. هذا لا يعنى خلو مراحل الحرب الأولى من وجود مشاكل، فقد كانت موجودة وكانت من الخطورة بمكان: لو أن فرنسا هاجمت جناح الجيش الألمانى فى الجنوب، بفرقه المائة وأحد عشر التى كانت تتمركز هناك، لكانت قد «دهسته» حيث كانت أعدادها تفوقه بأربعة أضعافه نظريا، أما فعليا، فلم يكن هناك سوى اثنتى عشرة فرقة متناثرة، تقف فى وضع القتال، لم يكن لها من مهام سوى الدفاع عن جبهة تمتد لخمسين كيلومترا. باختصار، لم تكن سوى قوة تكاد تفوق قوة جمركية بقليل. ومع هذا،

فإن فرنسا لم تهاجم وسمحت له بدخول بولندا ليكرّس جهوده بعد ذلك لتقوية جبهته الجنوبية. كان هتلر يسترجع ذكريات انتصارات الماضى، والرعب الذى تمكن من زرعه فى لندن وباريس، حتى إنهما لم تجرؤا على مهاجمته إلا بعد ثمانية أشهر، وكيف استطاع تجميد جيوش كانت تفوقه بمراحل.

فجأة، ارتسمت على وجهه ابتسامة مرارة، فقد تغير كل شىء! أين هو الآن من قطار أميريكا الذى عاش فيه ثلاثة أسابيع من الانتصارات؟ أين أشجار الصنوبر الظليلة فى بوميرانيا التى كانت تميّز أواخر الصيف، والتى كانت تنشر عبق الراتينج فى الأمسيات الطويلة الجافة عام ١٩٣٩؟ أين هم رجال الأس أس، النظاميون، ذوو القامات الهيفاء، الذين كانوا يحرسون القطار ويحيطون به من جميع الجهات وهم يرتدون خوذاتهم ويرفعون أسلحتهم اللامعة. أين اختفى جودل، وكايتل، تابعاه العسكريان الوفيان، المهذبان ودائما الابتسام؟ أين مساعدوه، شموندت، وفون فورمان، وروميل، قائد مقر القيادة العامة، وهادلر، رئيس هيئة أركان حربه؟ أين مشيروه وشعل حربه الذين بثوا الرعب فى قلب كل أوربا: فون براوخيتش، وفون روندستيدت، وليست فون رايخنو، وبلاسكوفيتز، وفون كلوج، وفون بوك، وفون كوشلر؟ لقد لقوا حتفهم، أو اختفوا، أو انعزلوا، أو سجنوا، أو هزموا. فى تلك الأمسية الكئيبة من يوم ٢٩ أبريل ١٩٤٥ لم يبق هناك من كل ما سبق سوى الخراب والبؤس وقد دارت عليه

الدوائر وحان دوره. طرق أحدهم باب المكتب: إنه الطبيب هاس، حلّ محل الطبيب موريل الذى اضطر لترك البونكر بعد أن اشتد عليه المرض منذ أسبوع. كان قد أرسل فى طلبه، لأنه أراد أن يجرّب فاعلية السم الذى طلب تحضيره للانتحار إذا ما قرّر أن يكون السم هو وسيلته. بما أن هيملر هو من أرسله، فمن المحتمل ألا يكون فاعلاً. ذلك الخائن الذى حصل على كل شىء، على الرغم من مظهره السخيف، فقد ولاه أمر قوّات الأس أس، والشرطة، والجستابو، والسجون، ومعسكرات التعذيب، ووزارة الداخلية، وحتى رئاسة الجيش فى الأسابيع الأولى من عام ١٩٤٥. حيث كشف عن انعدام كفاءته. كان ينتظر منه أى شىء، إلا الخيانة، إلا أن يبحث سرا، مع الأعداء استسلام ألمانيا. كان الطبيب هاس ينتظر.

«أعتقد أننا يجب أن نجرّب فاعلية السم. ماذا ترى؟».

ظل هيس يفكر، فى قلق، ويبحث عن إجابة مناسبة؛ إذ لم يعد فى البونكر أى أحياء سواه من البشر. إلا أن هتلر بادره:

«يمكنك أن تجرّب الفاعلية فى كلبتى، بلوندى، لا يمكن أن نترك الحيوان المسكين يعيش».

تنفس الطبيب الصعداء. ثم سرعان ما تبادر إلى ذهنه، أنه لم يكن ليجرؤ على مجرّد اقتراح تسميم بلوندى، كلبة الفوهرر المفضلّة، التى كانت قد وضعت بعض الجراء حديثا. عاد إلى العيادة، أخذ حقنة وملأها ببعض الملليلترات المكعبة من السائل

القاتل. مشى إلى نهاية الممر، حيث كانت بلوندى المدلّلة تقيم هناك فى غرفة متناهية الصغر بجوار الحمّامات، فوجدها ترضع صغارها فى حب وحنان. ملّس هيس على ظهر الكلبة، ثم دس السم فى عروقها. ماتت الكلبة، فى التو وبلا جلبة، فى حين ظل صغارها يرضعون من ضرعها. عاد هيس إلى مكتب هتلر.

«سيّدى الفوهرر. إن السم ذا فاعلية عالية. لقد ماتت بلوندى على الفور».

رافق هتلر الطبيب إلى غرفة الكلبة، وألقى عليها نظرة تحسر وندم، ثم نادى على مساعده الشخصى عقيد الأس أس، أوتوجونشيه، عملاق أشقر له وجه يشبه الكلاب أكثر مما تشبهه بلوندى ذاتها، وأمره أن يدفن الكلبة مع جرائها. وضع جونشيه جثة الكلبة مع جرائها فى صندوق من الكارتون وخرج بهم إلى حديقة المستشارية، وهناك، حفر حفرة ووضعها جميعا فيها، ثم أطلق الرصاص على الجراء وأهال عليها التراب فى عجلة، فقد كانت المدفعية الروسية قد عاودت القصف بسرعة بعد هدنة قصيرة، وكانت قنابلها تسقط بالقرب من محيط المستشارية.

كانت تصفية بلوندى هى الاستسلام قبل الأخير لهتلر، حسب تصريحات الممرضة إيرنا فلايجيل وسكرتيرته تراودل جونج، حيث كان يقضى الساعات الميّتة فى البونكر وهو يلاعبها. بل أكثر من ذلك، كما اعترفت الممرضة إيرنا فلايجيل للقوات الأمريكية عند

الفصل الخامس
غروب شمس الآلهة

عاد البونكر لتلك الحالة من الارتجاج وهو ما تقبله هتلر فى يأس، وراح يصدر تعليماته لعقد اجتماع مع حكومة الحرب. كانت الأخبار قليلة ومحبطة: كانت معركة برلين تدور وسط استبسال الطرفين، غير أن جانب ألمانيا كان آخذا فى الانهيار، حيث أصبح من الصعب توفير الذخيرة. كان الجنود الروس قد تمكنوا من دخول شارع ويلهلمستارس واقتربوا من مقر وزارة الطيران، الذى كان يدافع عنه جنود من اللوفتفافه(١). لن تلبث المستشارية أن تصبح فى المقدمة. لم تكن هناك أية أخبار عن جيوش الإنقاذ. فى تمام الساعة الثامنة إلاّ ثمانى دقائق مساء، أمر الفوهرر بالاتصال بجودل وطرح خمسة أسئلة عليه تستوجب الرد الفورى:

---

(١) اللوفتفافه: سلاح القوّات الجوية.

١ - «أين طلائع فينك؟ ٢ - متى ستهجم؟

٣ - أين هو الجيش التاسع؟

٤ - فى أى اتجاه يتقدم الجيش التاسع؟

٥ - أين طلائع هولست؟»

انتظروا وصول الرد، إلا أن انتظارهم ذهب سدى. شحب لون هتلر واغتم وجهه، فقد رأى معالم الهزيمة. جيوش من اللعب يقودها جنرالات لا يتحركون. هذا كل ما تبقى. كان بورمان هو الوحيد الذى ظل على رباطة جأشه وشجاعته، وقد أرسل بعد ساعة رسالة حادة فى ظاهرها للقائد دووينيتز:

«يتزايد لدينا الانطباع الأكيد بأن القوّات المرابطة ببرلين، لا عمل لها سوى تضييع الوقت، بدلا من إنقاذ الفوهرر. لم نعد نتلقى سوى معلومات مراقبة ومختصرة ومعدلة على يد تايلهاوس (كايتل). لا يمكننا إرسال رسائلنا إلا عن طريق تايلهاوس. إن الفوهرر يطلب منك أن تتخذ كل الإجراءات الفورية والحاسمة ضد كل الخونة».

ألقى هتلر نظرة هائمة على البرقية وابتسم فى داخله وهو يقرأ تسمية القائد، ويدرك مقدار الكراهية والشك الذى كان بورمان يكنهما لقائده الأعلى. يا له من رجل، بورمان هذا! حاول كثيرا أن يتذكر كيف تعرّف إليه، ولكن بلا جدوى، كل ما أدركه أن ذلك كان فى مرحلة متأخرة، حيث لم يكن من الرعيل الأول للـ (NSDAP).

قدّمه له رودولف هيس الذى كان يقدره باعتباره ذراعًا أيمن له، ذا طاقة لا تنضب وصرامة لا تلين. كانت غرائب هيس وراء اعتماده المتزايد على بورمان، خاصة بعد رحلة بريطانيا الحمقاء، التى قام بها صديقه ومساعده المقرّب عام ١٩٤١ . كان بورمان يتسلّق درجات السلطة فى احتراس ومثابرة، حتى وصل إلى الأمانة العامة التى تمكّن من خلالها من التآمر على الجميع. يا لبورمان المسكين! شديد الوفاء والكفاءة ولكنه كان فظا، غامضا، يفتقر لموهبة التعامل، عندما تمكن أخيرا، من إقصاء جورينج وهيملر وكايتل، لم يجده ذلك نفعا.

خلال هذا الانتظار البغيض، فى نحو الساعة التاسعة من مساء يوم ٢٩ أبريل، بلغ البونكر خبر وفاة موسللينى فى اليوم السابق. قالت بعض المصادر إن الخبر بلغ البونكر بصورة مختصرة عبر برقية، فى حين أكد مصدر آخر: إن إحدى الإذاعات الإيطالية أذاعت الخبر بكل تفاصيله، وأشارت لمقتل بينيتو موسوللينى وحبيبته كلاريتا بيتاتشى على يد فرقة من المرتزقة الشيوعيين. لابد أن رواية الإذاعة قد بثت أيضا خبر تعليق جثث الدوتشى[1] وحبيبته ونحو ستة آخرين من قادة الفاشية، من أقدامهم أمام محطة بنزين ستاندر أويل، بميدان لوريتوبميلان. مع أن احتمال بث التفاصيل

(١) الدوتشى: لقب كان يستخدم للإشارة إلى زعيم الفاشية: بينيتو موسللينى. وتعنى القائد.

الإذاعية يعد غير وارد، فالمرجح أن هتلر لم يعرف ما انتهى إليه جثمان حليفه فى المحور. على أية حال، سواء بلغته الأخبار الوحشية أم لا، كان هو وإيفا، قد قررا حرق جثتيهما، بحيث يمنعان عنها أى امتهان محتمل.

وقع خبر مقتل موسوللينى وقوع الصاعقة على المجتمعين فى ذلك المؤتمر العسكرى. لم تكن تتوافر لديهم أية أخبار عن سير العمليات العسكرية فى إيطاليا حينها، إلا أن موت الدوتشى كان أكثر الأنباء صدمة: لقد انتهت الحرب فى إيطاليا. أما برلين، فلم يبق أمامها سوى مواصلة القتال، ولم يبق أمام المقاومة سوى ساعات معدودة. ساد المكان صمت لكرب وهزيمة أصابت الجميع، باستثناء بورمان، الذى كان لا يزال يحتفظ ببعض الطاقة لمواصلة القتال. بعد دقائق من الساعة العاشرة أبرق برسالة أخرى:

«لا يزال الفوهرر حيا ويقود الدفاع فى برلين».

غير أنه لم يعد لدى الفوهرر ما يقوده، وأصبح موته فى حكم المقرّر. غاص فى مقعده الوثير وتداعت إلى ذهنه من بعيد ذكريات علاقته بموسوللينى، حلوها ومرّها. كان يخشاه ويكرهه عندما تم قتل دولفوس، غير أنه شعر بتقدير بالغ له عندما قام بدعمه فى ميونخ أثناء مشكلة السوديت. كم رغب فى شنقه، عندما عرف أنه على اتصال بالفرنسيين وبالإنجليز مع بداية الحرب. بيد أنه لم يلبث أن شكر له استمرار وفائه للمحور، وامتناعه عن فتح جبهة

ثانية عليه. شعر بالسخط عليه عندما ظهر ضعف الجيوش الإيطالية فى حرب اليونان وشمال أفريقيا، لكنه تعاطف معه، عندما تم إقصاؤه عن السلطة واحتجازه بجبال الغران ساسو(١). علاقة متقلبة ما بين الحب والكراهية، كان عليه أن يعترف بمسئوليته عن هذا التقلب. حيث لم يخبره باتفاقه مع السوفيت ولا بموعد هجومه على بولندا ولا بخطط معركة فرنسا. بطبيعة الحال، كان له عذره، فكل الأسرار تهون على لسان هؤلاء الإيطاليين الثرثارين، الذين لم يكن ليمنعهم أى شىء عن الثرثرة بما لا يجب وبالتالى تضيع خططه.

أصاب الصمت الطويل الحضور بحالة من الخمول. عاد هتلر بذكرياته لخريف ١٩٣٩، وانتصاره الساحق فى بولندا. تلمست يده، فى حركة آلية، صليبه المعدنى الذى تقلّده مع بداية حملته على بولندا، وظل متمسكا بحمله على مدى خمس سنوات كاملة. عندما استسلمت وارسو فى ٢٧ سبتمبر ١٩٣٩. لم يكن هناك من يستطيع

(١) بحلول عام ١٩٤٢، كانت إيطاليا على الهاوية. جيشها مهزوم وجائع، يعانى نقصًا فى العتاد والسلاح، وكان هناك نقص فى المؤن داخل إيطاليا نفسها. غضب الشعب وانقلب على الحرب ورأى أن موسللينى قد كذب عليهم حتى دخلت بلادهم الجيوش البريطانية والأمريكية فأصبح موسللينى عدو الشعب الأول. أمر الملك باعتقاله فاعتقل وكان سجنه عبارة عن فندق فى منتجع للتزلج فى أعالى الجبال غران ساسو فى منطقة أبروتسو بوسط إيطاليا.

أن ينكر أنه حاول التوصل إلى اتفاق مع إنجلترا وفرنسا. كان العالم أجمع سيشهد أنه سعى لعقد مؤتمر عالمى للسلام فى محاولة لتجنب ذلك النزاع العالمى، إلا أن بريطانيا وفرنسا تمسكتا بالدفاع عن بولندا، ذلك البلد المصطنع الذى كانت حدوده قد تعدلت فى جميع الاتجاهات على طول التاريخ. بأى حق يمنح للبولنديين ممرا عبر الأراضى الألمانية؟ غير أنه هو، هو وحده، بتغيير بسيط ساذج فى خطط أركان حرب جيش ألمانيا كان من الممكن جرهم إلى نتائج تشبه الحرب الكبرى، هزمهم فى هجوم من أروع ما عرفت الحروب الحديثة. رووا له أن هيندينبورج قال عنه ذات مرة «العريف الصغير البوهيمى» ومع ذلك، فقد حقق هو فى فرنسا «أكبر انتصار عرفه تاريخ العالم» فشل فيه هيندينبورج نفسه ولوديندورف.

أيام النصر الجميلة

أبهر الانتصار السريع فى بولندا، الذى كان استهلالا للبليتزكريج، أو الحرب البرق، كلا من إنجلترا وفرنسا ونوّمهما مغناطيسيا وهما تتابعان مناورات ألمانيا فى بولندا، دون أن تقدرا على شىء -على الرغم من وقوع حدود ألمانيا الجنوبية تحت رحمتهما- سوى السعى وراء إنتاج المزيد من الأسلحة من أجل التفوّق على هتلر.

عقب استسلام وارسو، عاد هتلر إلى برلين سعيدا بانتصاره وقلقا من ردة فعل أعدائه. ما لم يتوقع الفوهرر كان الاستقبال الذى

كان ينتظره. فقد حلم باستقبالات الفاتحين فى الأساطير الجيرمانية أو بالاستعراضات العسكرية على شرف انتصارات الجنرالات الرومان. غير أنه لم يكن هناك أى استقبال. لم يكن هناك أى ترتيب رسمى، ومن ثم لم يكن هناك أى رد فعل تلقائى لاستقبال الفاتحين مما كان يعرفب بـ (ritorna vincitor). لم يثر انتصار بولندا الألمان، الذين أصابهم القلق منذ يوم ٣ سبتمبر، عندما أعلنت كل من إنجلترا وفرنسا الحرب على ألمانيا.

هذا القلق نفسه أصاب الفوهرر. فقد آثر تأجيل معركة فرنسا أكثر من مرّة، حيث كانت تتخلى عنه شجاعته كلّما اقترب التاريخ الذى حددّه. كان خطابه يتضمن استهجان الفرنسيين وكذا البريطانيين، كان يتحدث فى اجتماعاته العسكرية عن تفوّق ألمانيا فى المدفعية والجو وفى المدرعات، غير أن كل ذلك لم يحمله لقرار الهجوم. كان القلق النفسى هو الذى يسيطر عليه (خشية التورط فى حرب أخرى كالحرب العالمية الأولى) وإن كان سبب (افتقاره لخطة حرب تقنعه كلية) كان يمنعه أيضا. لكنه بدأ يدرك أن مرور الوقت ليس فى صالحه: كانت لندن وباريس معا تتفوقان فى إمكانات الحشد والتنظيم على ألمانيا، وكانتا تتفوقان اقتصاديا وصناعيا، وبالتالى فطالما لم يتم فتح جبهة ثانية أمام هتلر، فإن القرار الصائب هو تأجيل المعركة قدر المستطاع.

كان هذا هو الوضع لفترة من الزمن وهو ما عرف باسم – drole)

(de guerre – أو «الحرب الزائفة». التى خاض خلالها الفريقان سباقا شرسا للتسلّح والتخطيط بموقف هجومى من برلين ودفاعى من باريس ولندن. دامت هذه الفترة من خريف ١٩٣٩ حتى ربيع ١٩٤٠. ولم يكن بها مجرّد حرب زائفة، وإنما حرب ساخنة، كانت تنذر فى مظاهر شتى، بما سوف تشهده السنوات الخمس التالية.

أما فى البحر، فقد بدأ هتلر يعانى من أولى مشاكل أسطول المسطحات. فقد اضطر طاقم المقاتلة البحرية جراف سبيى لإغراقها أمام سواحل مونتيفيديو - بعد أن فشلوا فى كسر حصار بريطانيا - وذهبت معها نشوة انتصارات أسطول المقاتلات البحرية التى كانت قادرة على إغراق السفن البريطانية، بما فيها حاملات الطائرات، مثلما حدث مع الرويال آووك. غير أن تكاليف بناء الغوّاصات لم تكن تتناسب مع خسائرها فى الشهور الأخيرة. ومن هنا تحوّل الوضع إلى الآتى: لم تعد قوّات ألمانيا البحرية قادرة على المنافسة مع القوّات البريطانية. مع أن أسطول غوّاصات الرايخ الثالث كان يسبب الكثير من وجع الرأس لدى الحلفاء، ولكن خسائره ستكون كبيرة حتى إنه لم يعد بناء الغوّاصات الكبيرة الفاعلة قادرا على مواكبة الاحتياجات المطلوبة.

أما اليابسة، فهى التى شهدت الانتصارات. كانت النرويج مستهدفة من طرفى الحرب. فقد أدركت بريطانيا أهمية قواعدها للهجوم على ألمانيا من ناحية البحر. تنبه الألمان للخطر المحدق بهم

من بحر الشمال، إذ كان بالإمكان حصارهم وتعقيد الأمور أكثر إذا ما زادت الضغوط على السويد -التى كانت تستورد منها ألمانيا احتياجاتها من خام الحديد اللازم لصناعاتها العسكرية- وامتنعت عن التصدير لألمانيا، وقد يصل الأمر لإجبارها على الانضمام للحلفاء إذا ما انضمت له جارتها النرويج. نجح الألمان بأيديهم، فقد نزلت قوّاتهم فى مدن ترومسو، ونارفيك، وتروندهايم، وبيرجن، وأوسلو، كما احتلوا الدنمارك فى أبريل ١٩٤٠. فى نفس هذا الشهر، قامت إنجلترا وفرنسا بإرسال قوّاتها إلى نامسوس ونارفيك واشتبكت على مدى شهر كامل مع الألمان، إلا أنه مع نهاية الشهر اضطرت قوّات الحلفاء للانسحاب والإستسلام. وهنا سجل هتلر ثانى انتصاراته فى الحرب.

غير أن ما سبق لا يمكن مقارنته بحملة هولندا ولا بحملة فرنسا. كانت هيئة أركان الحرب الألمانية قد أعدت خطة هجوم من هولندا وبلچيكا - عرفت باسم الخطة الصفراء - كانت تبدو مثل نسخ سيئ عن خطة شليافن التى نفذها الألمان فى الحرب الكبرى. كان هتلر يكن له الكثير من الكراهيه وكان جوديريان - عقل ألمانيا المدبّر لحرب الدبأبات الحديثة - يمقته، كما كان فون مانستاين - رئيس هيئة أركان حرب المشير روندستيدت وتقريبا ألمع مخططى الحرب العالمية الثانية - يرى فى الخطة الانتحار بعينه. سعى الحلفاء لمحايدته، حيث كانت خدماته الاستخباراتية قد توصلت

لدلائل حول مخططات ألمانيا. كان هتلر يدرك تماما، أنه لن يستطيع مهاجمة «خط ماچينو» تلك القلعة الفرنسية الرابضة جنوب ألمانيا، فقد كان من الصعب اختراق حصونه المنيعة، كما كان على يقين - عن تجربة- بأن الهجوم عن طريق حقول فلاندر، لن يؤدى إلا إلى حرب خنادق لا تهدأ ولا تنتهى، مثلما حدث بين سنوات (١٩١٤ - ١٩١٨) لم يكن هناك سوى طريق ثالث: منطقة الأردين الواقعة بين الطريقين. كانت أراضيها وعرة وغير مستوية وتكثر بها الغابات، وليس بها من دروب سوى القليل الضيق ويصعب على الجيوش الغفيرة عبورها، بمهماتها. غير أن هذه المنطقة كانت هى نقطة ضعف الحلفاء ومنها كان الألمان سيهجمون، بينما يصرفون نظر قوّات الأعداء بعملية الهجوم المتوقع على بلچيكا وهولندا. بطبيعة الحال، لن يخلو مسرح الأحداث هنا من الفانتازيا العسكرية، إذ سوف يتم إنزال جنود المظلات والطائرات الشراعية خلف الخطوط البلچيكية.

على التوازى كان فون مانستاين يحاول إقناع المشير روندستيدت بخطة مشابهة، أشاد بها جوديريان مؤكدا أن دباباته القتالية تستطيع عبور الأردين، إذا ما كانت هناك عملية عسكرية أخرى تستحوذ على انتباه الإنجليز والفرنسيين فى الأراضى المنخفضة. أدى التوافق بين رأيى هتلر وفون مانستاين لوضع خطة صفراء جديدة، شهدت إضافة «ضربة المنجل». يهاجم الألمان بلچيكا

ليجتذبوا لهذه الجبهة قوات الأعداء الرئيسية، فى هذه الأثناء تعبر قوات المدرعات منطقة الأردين بأقصى سرعة، وتخترق الجبهة الفرنسية فيما بين سيدان ونامور، ثم تتجه يمينا - مثل ضربة المنجل- حتى تصل إلى البحر عند نقطة كاليه وتحاصر قوّات الحلفاء فى بلچيكا. يبدو هذا اليوم أمرا بسيطا ومنطقيا، إلا أنه وقتها كان من الجرأة أن اعترض عليها بشدّة، المشير فون براوخيتش رئيس الفيرماخت، ولم يشك القائد الأعلى لقوّات الحلفاء فى أدنى احتمال لأى هجوم من هذا الطريق الذى لم يكن يؤمنه إلا بعض القوّات البسيطة.

كانت هذه هى الخطة التى ستحسم معركة فرنسا ومصير أوربا على مدى السنوات الخمس التالية. أما فيما يتعلق بمعدات القتال، فالأمر كانت متعادلا - على الأقل ورقيا -. كان للحلفاء ١٢٧ فرقة مشاة، فى حين كان لألمانيا ١٣٦. قوّات مدرعات الحلفاء كانت تتفوق عددا على ألمانيا، وكانت لديهم دبابات أفضل من الطراز الصغير التى كان الألمان يستخدمونها. أما طيران الرايخ الثالث فقد كان أكثر عددا وأحسن حالة. بمعنى أن الحرب ستدور بين جيشين متعادلى القوى من حيث العدد ومعدّات الحرب، غير أن الفرق الكيفى بينها كان مخيفا: كانت للألمان قيادة أفضل. كانت نظرياتهم حديثة ومبدعة، خاصة فيما يتعلق باستخدام دبّابات القتال والتعاون الذى كان يتم بينها وبين القوّات الجوية عند اختراق

الجبهات. كان الألمان قد تمرسوا فى معارك بولندا، وكانوا قد حلّلوا وأصلحوا ما وقعوا فيه من أخطاء خلالها. كما كانت لديهم خطة هجوم مفاجئة وجريئة. أما الحلفاء فقد كانت مفاهيمهم عن الحرب متقادمة: لم يكونوا يهتمون بالاستخدام المركز والمستقل للمدرعات، حيث كانوا يكتفون بدورها الداعم للمشاة. لم يعرفوا ماهية التنسيق بين سلاح الجو وسلاح المدرعات. كانت القيادة رخوة والتدريب متوسطا مما أدى إلى انخفاض المعنويات، خاصة بعد ثمانية أشهر من الجمود داخل الخنادق، فى حين كان العدو النازى يفتح بولندا ويُسيطر على النرويج والدانمارك.

بدأ الهجوم الألمانى يوم ١٠ مايو. تمت العملية بمنتهى النجاح كما لو أن الأمر يتعلق بإخراج سيناريو سينمائى. تم اختراق جبهة الأردين فى ١٣ مايو. فى ٢٠ مايو وصلت قوّات كلايست المدرعة إلى قناة المانش، وطوّقت غالبية جيش الحلفاء فى منطقة الدونكيرك. فى ٣ يونيو، استسلمت قوّات الحلفاء للألمان فى دونكيرك. تكبد جيش الحلفاء فى معركة بلچيكا خسائر بشرية تزيد على المائة ألف جندى وثلاثمائة ألف جريح. كما وقع مليون ونصف مليون أسيرًا، فى يد الألمان، هذا غير غنائم حرب لا حصر لها. أما معركة فرنسا التى كانت ستدور بين ٥ و٢٢ يونيو، فقد كانت أكثر صعوبة على الألمان من سابقتها، غير أن المقدر لهم كان قد سُطر مع هزيمة حقول فلاندر. فى ١٤ يونيو، دخلت قوّات

الألمان باريس، بينما اختفت الحكومة فى بوردو لتناقش، وسط ذهول الجميع، الاستسلام أو الانسحاب إلى الجزائر، لمواصلة الحرب من هناك، بالأسطول والقوّات التى سيتمكنون من إنقاذها. فرض رأى المشير بيتاين نفسه عندما قال: «لا يمكن حمل الوطن على نعل الحذاء». من ثم لابد من البقاء بفرنسا وطلب وقف القتال والدفاع عما يمكن من أراضى المتروبول. فى ١٧ يونيو تولى بيتاين رئاسة الحكومة وطلب الهدنة وتم توقيعها فى ٢٢ يونيو فى غابة كومبيان.

كان هتلر يتابع على مقربة من الجبهة معركة الأسابيع الستة المذهلة. فى البداية فى مينستير إيفل بألمانيا على مقربة من جبهة بلچيكا، بعد ذلك فى برولى دوبيش ببلچيكا، بالقرب من الحدود مع فرنسا. قضى أربعين يوما تحت ضغط عصبى كبير، معتقدا دائما أن الفرنسيين يعدون لخداعه وسيقع جنرالاته ضحايا نتيجة تعجله للأمور. خلال اجتماعاته مع مساعديه، كان يحاول كبح التقدم السريع لقوّات المدرعات، ويأمر أن تقوم الدبّابات بانتظار المشاة. فى ١٧ مايو طلب أن تبطئ خطوط مدرعات كلايست من تقدمها نحو القناة. فما كان من جوديريان، الذى كان يقود المعركة أن قدّم استقالته: أعطى تدخل هتلر الخاطئ يوم هدنة للحلفاء. فى ١٨ مايو احتد على هادلر وبراوخيتس بالألفاظ والسباب: فقد كانت الفيرماخت على وشك أن تخسر الحملة. سجّل هادلر فى مذكراته:

«إن الفوهرر شديد العصبية. فزع أمام نجاحه، يخشى قبول بعض المخاطر ويفضل كبح مبادراتنا، لم تثمر زيارته للجيش (B) إلا عن تخبط وحيرة».

جن جنونه فى ١٩ مايو عندما لم تتمكن هيئة أركان حربه من حصار خمسين فرقة للحلفاء كان يعتقد أنه تم حصارها بالفعل فى فلاندر. أما يوم ٢٠ فقد كانت ثورته عارمة عندما بلغه خبر وصول قوّاته المدرعة إلى القناة. حتى إنه تذكر وزير الحرب الذى قام بتنحيته واستبداله منذ عامين:

«لا يجب أن أنسى فى هذه اللحظة ما أدين به للمشير فون بلومبرج. فبدون مساعدته لم تكن الفيرماخت لتصبح تلك الأداة الرائعة التى حققت لنا النصر».

أدت هذه الصحوة به لأن يأمر دبّابات جوديريان - الذى كان قد استعاد قيادته بعد أربع وعشرين ساعة من استقالته - بأن توقف تقدمها نحو دونكيرك، لتدع الفرصة لتجمع نحو نصف مليون جندى من الحلفاء الذين أمكن بعد ذلك إجلاؤها إلى الجزر البريطانية. عندما غيّر رأيه يوم ٢٦. تأخرت مدرعاته لساعات قبل استئناف المسيرة، ولقوا مقاومة عنيفة من قبل الحلفاء كانوا قد أعدوا لها فى تلك الهدنة التى أهداها لهم هتلر.

أما خلال باقى الحملة، فقد شعر هتلر بأنه المنتصر فى الحرب. عيّن المحامى النمساوى سايس، إنكار، حاكما لهولندا وأمر بإعادة

تشكيل البلاد بما يتمشى مع مبادىء الوطنية الاشتراكية. أما البلچيك - الذين كانت مقاومتهم قد أعجبت بهتلر - فقد كانوا أوفر حظا، حيث حظوا بالجنرال فالكنهاوزن حاكمًا، والذى لم يكن يتمتع بقدر كبير من الحنكة مما أوقعه فى التهلكة عام ١٩٤٤. غير أن أهم ما كان يشغل بال هتلر، كان صياغة وثيقة استسلام الفرنسيين والاحتفال الذى سيصاحبها. وصل الوفد الألمانى إلى غابة كومبييان يوم ٢١ يونيو، حيث قامت فرقة ألمانية من الجيش الألمانى باستقبالها على أنغام نشيد الدويتشلاند أوبر ألليس. هناك، فى أحد أماكن الغابة الواضحة، وقفت عربة المطعم التى تم فيها توقيع وثيقة استسلام ألمانيا، والتى وضعت نهاية الحرب العالمية الأولى: هنا سيتم توقيع معاهدة استسلام فرنسا، وسيجلس هتلر على نفس المقعد الذى جلس عليه الجنرال فوش(١) حينها. عند وصول أعضاء اللجنة الفرنسيين - الجنرالان: هونتزيجر، وبيرجرى، ونائب القائد لولوك، والدبلوماسى ليون نويل - عزفت الفرقة موسيقى الدويتشلاند أوبر ألليس. دخلوا العربة وقام الوفد الألمانى - هتلر، هيس، جورينج، فون ريبنتروب والمترجم بول شميدت، والجنرلان كايتل وبراوخيتش، والقائد رايدر- بتحيتهم

---

(١) فرديناند فوش: جنرال وكاتب عسكرى فرنسى. خدم فى الجيش خلال الحرب العالمية الأولى، واختير مارشالاً لفرنسا عام ١٩١٨، بعد فترة قصيرة من بداية هجوم الربيع (محاولة ألمانيا النهائية لكسب الحرب)، واختير قائدًا أعلى لجيوش الحلفاء.

بانحناءة بسيطة وباردة من الرأس. قرأ كايتل المقدمة وشروط وقف إطلاق النار، وقام المترجم بول شميدت بالترجمة إلى الفرنسية. بعدها وقف هتلر وأدى تحية الذراع إلى الأعلى، وغادر العربة وعندما خرج إلى الهواء الطلق عزفت الفرقة مجددا الدويتشلاند أوبر ألليس. تبعه باقى الجنرالات والقادة النازيين، ولم يبق لقراءة بنود الوثيقة مع الوفد الفرنسى سوى كايتل والمترجم بول شميدت اللذين لم يمنحاه الوقت لدراسة محتوى الوثيقة. أصر الوفد الفرنسى على دراستها وفى النهاية، اضطر كايتل للرضوخ لطلب الفرنسيين وتأجل التوقيع حتى الساعة ١٨,٥٠ من يوم ٢٢ يونيو. بعد انتهاء المراسم. تم تسيير العربة المطعم على قضيب السكة الحديد ليعود برلين. كل الذكريات باستسلام ألمانيا ١٩١٨، تم تدميرها وبقى فقط، بأمـــر هـتلر، تمـثال الجنرال فوش، والذى ما زال موجودا فى كومبييان.

دخل اتفاق وقف إطلاق النار حيّز التنفيذ يوم ٢٥ يونيو. وصل هتلر إلى باريس يوم الجمعة ٢٨ فى تمام الساعة الخامسة والنصف فجرا على متن طائرة حطت بمطار لوبورجيت. استقبلته ثلاث سيارات مصفحة من طراز مرسيدس لتنقله هو والوفد المرافق له إلى المدينة. أقلّت السيارة الأولى الفوهرر والمهندسين سبيير وجياسلر والنحّات بريكر ومساعده شموندت. كانت أولى محطاته فى باريس هى زيارة دار الأوبرا، ذلك المبنى من طراز النيو باروك الذى صممه المهندس جارنييه، والذى حاز على إعجاب هتلر: «أوبرا

أحلامى! منذ سنوات شبابى الأولى وأنا أحلم بأن أرى، رأى العين، هذا الرمز للعبقرية المعمارية الفرنسية».

استعرض الفوهرر أمام مرافقيه مخزون معلوماته عن المبنى وتقسيماته وتاريخه، مما عرفه من خلال قراءاته حول أشهر دور الأوبرا. تابع الزيارة - بالسيارة مع وقفات قصيرة لرؤية ما قد يثير اهتمامه عن قرب - وسط المدينة التى كانت قد بدأت تصحو: شارع الشانزليزيه، ولاماديلين، والتروكاديرو، وبرج إيفل الذى توقفوا عنده، وهناك صورة شهيرة يظهر فيها هتلر، محاطا ببعض العسكريين، يظهر فيها وهو يتنزه والبرج من خلفه. فى الحقيقة، كان هناك ثلاثة مدنيين صدرت لهم أوامر بارتداء الزى العسكرى الرسمى لألمانيا: النحّات بريكر، على يسار الفوهرر والمهندسان سبير وجياسلر عن يمينه. كما زار قوس النصر، ونصب الجندى المجهول، ومجمع ليزانفاليد[1]، حيث توقف لدقائق أمام قبر نابليون بونابرت. عندما غادروا، قال للمصوّر هوفمان: «كانت هذه أروع لحظة فى حياتى». مع ذلك لم يظهر أى اهتمام بكنيسة نوتردام، ولا

---

(١) (Les Invalides): عبارة عن مجمع من المبانى يقع فى الدائرة السابعة من باريس. يحتوى على متاحف ونصب تذكارية تتعلق بالتاريخ العسكرى الفرنسى، فضلا عن مستشفى ودار للمتقاعدين من قدامى المحاربين. وبه أيضا متحف الجيش الفرنسى ومتحف التاريخ المعاصر، بجانب موقع لدفن بعض أبطال الحرب فى فرنسا ومن أبرزهم نابليون بونابرت.

بسانت شابيل، ولا بمتحف اللوفر. توقف عند كاتدرائية القلب المقدّس، لبضع دقائق يحيط به حرّاسه، فى حين بدأ توافد المصلّين على الكاتدرائية لاقتراب موعد القداس. قال ألبرت سبير «لقد عرفه بعض المصلين، غير أنهم لم يعيروه أى اهتمام». عندما انتهت الزيارة فى تمام الساعة التاسعة ، قال هتلر لسبير: «كانت زيارة باريس حلم حياتى. أعجز عن وصف مقدار سعادتى بعد أن تمكنت من تحقيق هذا الحلم». كان هذا آخر عهده بباريس، فلم يعد لزيارتها قط. فى مساء ذلك اليوم طلب من مهندسه أن يبدأ فى التخطيط لمشروع بناء برلين جديدة تغطى عظمتها وبهاؤها على العاصمة الفرنسية. لم يخرج مشروع جنون العظمة هذا، إلى النور أبدا، إذ أتت الحرب على كل طاقات وموارد البلاد وانتهت بتدمير ألمانيا.

كانت أحلام هتلر متعددة فى تلك الأيام. كانت لديه قناعة بأن المملكة المتحدة ستوقع اتفاق سلام مع ألمانيا. عندما فقد الأمل فى ذلك، أصدر تعليماته للجيش الميدانى بشن حملة على الجزر البريطانية فيما عرف «بعملية أسد البحر» التى كانت تستلزم وجود أسطول قوى قادر على مواجهة أسطول بريطانيا. كان لا بد من تخطيط محكم للحملة، فأصدر أوامره لأسطوله البحرى لبذل أقصى جهد لإرهاق واستنزاف البحرية البريطانية، وذلك بالتوازى مع قيام سلاح الجو، اللوفتفافِه، بالهجوم على الموانئ البريطانية.

من هنا، أغسطس ١٩٤٠. بدأت المعركة التى عرفت باسم معركة بريطانيا. قال سبير إن الألمان، الذين لم يعودوا يتحمسون لأى من الانتصارات التى كانت جيوشهم تحققها، قد بدأوا يجدون أسبابا حقيقية للخوف من المستقبل.

أظهرت الهجمات على الموانئ ومراكز الصناعة والمطارات والمدن البريطانية، أوّل أعراض ضعف القوّات الألمانية. لم تكن مقاتلاتها قادرة على مواجهة تفوّق مثيلاتها البريطانية. كما لم تستطع قاذفات القنابل الألمانية الصمود أمام المقاتلات البريطانية، إذ كان نطاق تحركها ضيقا، بالنسبة لهذه المهام. كما أن مصانعها لم تكن قادرة على مواجهة خسائر الطائرات، ولم تتمكن مراكز التدريب من تأهيل طيّارين، على المستوى المطلوب، ليحلوا محل أولئك الذين كانوا يتساقطون داخل أراضى العدو، كما أن النتائج التدميرية لعملياتها كانت أقل بكثير، ولا تتناسب مطلقا مع تكاليفها. بإيجاز، خسرت ألمانيا معركة إنجلترا، لأنها لم تتمكن من تحقيق السيطرة على سمائها ولا من هزيمة القوّات الجويّة الملكية، ولا استطاعت أن تشل صناعاتها أو تدمر موانئها أو تعيق خطوط المواصلات بين المستعمرات والدولة الأم. ثبتت هذه الهزيمة، مع نهاية شهر أكتوبر، مع استمرار بعض أذيالها لما بعد ذلك، بما لا يدع مجالا للشك، خاصة إذا ما قدرنا خسائر بريطانيا (يوليو- أكتوبر ١٩٤٠): ٩١٥ طائرة مقابل ١٧٣٣ خسرتها ألمانيا. بعدما ظهرت نتائج تكافؤ

القوّات الجويّة الملكية مع سلاح الجو الألمانى اللوفتفافِه وتفوّق سلاح البحرية البريطانية الساحق على البحرية الألمانية، كان على برلين أن تتخلى عن حلم السيطرة على الجزر. مع نهاية شهر أكتوبر، قرّر هتلر وقف عملية «أسد البحر» وإرجاءها إلى ربيع عام ١٩٤١.

سيّد أوربا

غير أن الوقت لم يتسن لهتلر حتى يتفرّغ لبريطانيا فى خريف ذلك العام ١٩٤٠. أحد أكثر أعوام حياته ازدحاما بالأحداث. كانت نشوة الانتصار قد أصابته بحالة من الهياج العصبى تدفعه لتغيير مقار قيادته العامة من مكان لآخر، دون سبب واضح. بالإضافة إلى ذلك، لابد وأنه قد سافر مرّات عديدة ما بين شهور سبتمبر ونوفمبر، لتسخير كل تحالفات ألمانيا لأغراض الحرب.

فى ٢٧ سبتمبر، تم توقيع الاتفاق الثلاثى بين كل من ألمانيا وإيطاليا واليابان، فيما عُرِف لاحقا بمحور برلين - روما - طوكيو. فى ٢٣ أكتوبر، عقدت مباحثات مع فرانكو فى بلدة إندأى على الحدود الفرنسية الإسبانية، فقد كان هتلر مهتما بدخول إسبانيا الحرب إذ كان يريد السيطرة على مضيق جبل طارق وجزر الكنارى لاستخدامها قواعد لقوّاته، غير أن مدريد كانت بحاجة للكثير من الأسلحة والوقود والأغذية، فرأت برلين أن مشاركة إسبانيا ستكلفها الكثير. كما أن فرانكو قد طلب بعض الامتيازات فى المغرب لم يكن الفوهرر على استعداد للموافقة عليها، خاصة أن اليوم التالى كان

سيشهد لقاءه ببيتاين، ولم يكن يرغب فى إثارة حفيظة رئيس الدولة الفرنسى. فى ٢٨ يوم، اجتمع بموسوللينى فى فلورنسا، وهو اليوم نفسه الذى هاجمت فيه القوّات الإيطالية اليونان.

الأهم من كل ذلك، كانت زيارة مولوتوف، وزير خارجية الاتحاد السوفيتى، لبرلين يوم ٢ نوفمبر. كان هتلر يرغب فى توسيع مجال اتفاقية تعاون حلف ألمانيا مع روسيا الموقع عام ١٩٣٩. لم يكن ليطلب من روسيا أن تخوض الحرب، إلى جانب ألمانيا، وإنما كان يريد التأكيد على بنود الحلف وزيادة إمدادات المواد الخام، خاصة الوقود. لم يكن مولوتوف على ثقة من انتصار ألمانيا على إنجلترا، كما كان يؤكد له فون ريبنتروب، خاصة بعد أن شهد بنفسه الغارات الجوية البريطانية على برلين، مما حدا به إلى التمسك بكل شروط موسكو: السيطرة على فنلندا، إطلاق يد روسيا فى دول البلطيق ومخرج لروسيا على البحر المتوسط عن طريق البحر الأسود، وإنهاء ضمانات ألمانيا لرومانيا وتوقيع معاهدة عدم تعد مع بلغاريا، مما يسمح بإرساء قواعد عسكرية لروسيا فى هذا البلد. لم يوافق الفوهرر على أى من هذه الطلبات، وقدّم عرضه هو بتوسيع الإمبراطورية السوفيتية على حساب بلاد فارس والهند مما سيمكّن روسيا من الوصول إلى المحيط الهندى.

بطبيعة الحال كان العرض مغريا، غير أن موسكو كانت على علم بأن بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية على وشك توقيع اتفاق

تخوض فيه الولايات المتحدة الأمريكية الحرب إلى جانب إنجلترا: هكذا عرف ستالين الداهية أن هدية الهند وبلاد فارس ما هى إلا هدية مسمومة. من ثمّة، أرسل وزير خارجيته بتعليمات محدّدة للمماطلة حتى تظهر بوادر انتصار ألمانيا المزعوم على إنجلترا، وأن يكتفى مؤقتا بأن يحصل من هتلر على المزايا التى ذهب فى طلبها. بدأ الفوهرر يفقد صبره، وينظر لمولوتوف على أنه متطاول لا يعرف من هو سيّد أوربا الجديد، وإلى ستالين على أنه بحاجة لمن يلقنه درسا. وإذا كانت لديه قديما قناعة بأنه يجب محاربة الاتحاد السوفيتى من أجل القضاء على الشيوعية، ومن أجل توفير «المجال الحيوى» لألمانيا، فالآن بدأ يستشرف أن الهجوم يقترب. أما عن الدافع الذى كان ينقصه، فقد جاءه على طبق من فضة، مما أسّر به مولوتوف لـ «فون ريبنتروب»، أثناء مأدبة عشاء معه، فى سفارة بلده ببرلين، حول أطماع روسيا فى البلطيق والسويد واحتمال مطالبة ألمانيا بالتنازل عن بعض القواعد فى الدانمارك.

لم يكد مولوتوف يغادر برلين، حتى بدأ هتلر فى الحديث عن مهاجمة روسيا. حاول كل من رايدر وجورينج، إثناءه عن عزمه، على الأقل، حتى ينتهى من المسألة البريطانية. من المستحيل معرفة نتيجة مساعيهما، لكن المؤكد، أن الوقت لم يكن فى صالحهما. ففى نهاية نوفمبر جاءه رد من ستالين، يقبل بعرض ألمانيا اقتسام أراضى الإمبراطورية البريطانية ويعرب عن رغبته فى تحقيق باقى طلباته.

لم يرد هتلر. بينما اعتقدت موسكو أنه يفكر فى الأمر ليرتب أوراق مساوماته، كان هو قد أصدر تعليماته التى حملت رقم ٢١ بتاريخ ١٨ ديسمبر ١٩٤٠:

«يجب على القوّات المسلّحة الألمانية أن تستعد، حتى قبل نهاية الحرب مع إنجلترا، لسحق روسيا من خلال حملة سريعة».

على الرغم من أنه لم يحدد تاريخا، ذكر فى ذلك المستند أن الاستعدادات يجب أن تنتهى يوم ١٥ مايو١٩٤١.

بالتزامن مع هذه الأحداث السياسية المهمة، كانت هناك أحداث أخرى أخذت حصتها من اهتمامه، مثل ضم المجر ورومانيا وسلوفاكيا للحلف الثلاثى وكذا محادثاته مع بوريس زعيم بلغاريا، وليوبولدو زعيم بلچيكا، وسيرانوسونيير(١) والكونت تشيانو(٢). أما على الصعيد العسكرى، فإن أكثر ما كان يقلقه، كان الفشل المتوالى للعمليات الإيطالية فى إفريقيا واليونان. ففى ليبيا كانت قوّات إيطاليا تتراجع أمام قوّات بريطانيا التى بلغت السلّوم بعد أربعين يوما من القتال، واستعادت ما كان موسولينى قد فتح خلال حملته،

(١) رامون سيرانو سونيير: وزير خارجية إسبانيا آنذاك. كان نسيبا لديكتاتور إسبانيا فرانكو.

(٢) جيان غالياتسوتشانو: وزير خارجية إيطاليا آنذاك. كان نسيبا للزعيم موسلينى.

آخر الصيف. أما الأمور فى اليونان، فقد كانت أسوأ، حيث تقهقرت قوات إيطاليا أمام القوّات اليونانية ولم تكن الحال مختلفة فى البحر المتوسط، حيث كبّد الأسطول البريطانى خسائر فادحة للجانب الإيطالى. بدأ الوضع يثير قلق ألمانيا، التى أصبحت تخشى على جناحها الجنوبى من إنجلترا، حتى إنها اضطرت لإرسال مضادات طائرات لحماية حقول بترول رومانيا، المصدر الأساسى الذى كان يمدّها بالوقود.

فى ٤ ديسمبر ١٩٤٠. نفد صبر هتلر من عدم كفاءة الجانب الإيطالى، وثار وهو يأمر بإرسال سرب طائرات قصف على الفور إلى صقلية حتى يعيق حرية الحركة التى كان يتمتع بها الأسطول البريطانى، ويضع فى علم موسللينى أنه سيكون بحاجة إلى هذه الطائرات خلال شهرين حيث ستوكل إليها مهام أخرى.

كتب الجنرال جيشونيك، رئيس هيئة أركان حرب سلاح الجو اللوفتفافّه، فى مذكراته:

«مباحثات بين هتلر وميلش (مشير باللوفتفافّه) حول إمكانية مهاجمة مواقع بريطانية فى البحر المتوسط. قدّم المشير مجموعة من الطلبات، حيث كانت هزائم إيطاليا فى اليونان قد أثّرت على الحالة المعنوية، مما كان له أثر سيئ على مواقف إسبانيا وأفريقيا معنا، إذ أصبحت مترددة».

كيف لهتلر ألا يهتم باتفاق الإقراض والإيجار الذى أقرته الولايات المتحدة الأمريكية فى ١٦ ديسمبر، وهو يعادل إمدادات هائلة من السفن والأسلحة والمواد الخام والمواد الغذائية للمملكة المتحدة ويقدّم لخوض أمريكا للحرب. لكن مع نهاية عام ١٩٤٠. وعلى الرغم من كل ما كان يشغل باله، ظل هتلر على اعتقاده بأنه أقوى رجل فى العالم، ولم يتمكن أحد، ولا حتى نابليون بونابرت، من السيطرة على هذه المساحة الشاسعة من أوربا. فقد ضمّت ألمانيا النمسا واحتلت النرويج والدنمارك وبولندا وتشيكوسلوفاكيا وبلجيكا وهولندا ولوكسمبرج وفرنسا، وتحالفت مع إيطاليا والمجر ورومانيا وتصادقت مع إسبانيا.

غير أن العام التالى، لم يكن ليقلّل من تأليهه. إذ طلب منه موسولينى المساعدة، فقرّر هتلر أن يرسل بعض القوّات إلى شمال أفريقيا فى محاولة داعمة لتجنب انهيار القوّات الإيطالية. من ثم تم تشكيل جيش صغير متخصص فى القتال فى الصحراء والذى عرف باسم «أفريكا كوربس» أو الفيلق الأفريقى، تحت قيادة جنرال حديث الترقية، بعد ما أظهر من بسالة وإقدام ومهارات قيادية، فى إحدى فرق المدرعات أثناء حملة فرنسا: إرفين روميل. بدأ روميل حملته اللامعة بفرقة واحدة وبباقى القوّات الإيطالية، وتمكن من هزيمة الإنجليز فى أسبوعين، واستعاد ما كانوا قد سيطروا عليه من أراض خلال شهرين. غير أن نجاح معارك الصحراء، التى أحرز

من خلالها روميل رتبة مشير، لم تكن سوى سراب صحراوى خدع هتلر وجرّه إلى بذل الغالى والنفيس. فبعد الانتصارات الأولى فى ليبيا، أدرك روميل أن تقدمه مرهون بما يتحصل عليه من مؤن وذخيرة. أما الفوهرر، فقد لعبت الأطماع به، بالمخالفة لكل منطق عسكرى، وبدلا من أن يلتزم بهدفه الأوّل من مناوشة الإنجليز فى أفريقيا ودعم الإيطاليين، راح يحلم بالسيطرة على قناة السويس وعلى حقول البترول فى العراق وإيران، فانطلق فى سباق للحصول على المؤن التى كانت تكلّفه الكثير، ولم يتمكن أبدا من كفايتها. كبّد الأسطول البريطانى وسائل نقل المحور خسائر باهظة، وبالكاد استطاع ذلك المجهود الكبير من تمكين روميل من الوصول إلى العلمين، حيث واجه (فى سبتمبر - أكتوبر١٩٤٢) هزيمة نكراء على يد مونتجمرى نجم جديد من نجوم جنرالات بريطانيا.

أخطر ما فى الأمر - على الرغم من استباق الأحداث - هو أن إيطاليا وألمانيا قد دخلتا حربا واسعة المجال، لم يكن لهما بها قِبل ولم تستعدا لها وضحتا فيها بعدد ضخم من الموارد البشرية (قرابة نصف مليون جندى) وآلاف الطائرات ودبّابات القتال وأكثر من عشرة آلاف مدرعة، وأكثر من مائة ألف عربة ومئات آلاف من أطنان الذخيرة والسفن الضائعة. بيد أن هذه الكارثة لن تحل قبل مرور عام. ففى عام ١٩٤١. كان لا يزال فى إمكان هتلر أن يحلم بغزو الشرق الأوسط، وإصابة الإمبراطورية البريطانية فى مقتل.

كانت معارك البلقان أكثر نجاحا. هاجم هتلر يوغسلافيا التى انضمت فى ٢٥ مارس ١٩٤١، لحلف دول المحور. غير أنه، فى صبيحة اليوم الثانى، أطاح انقلاب عسكرى بالحاكم بابلو الموالى لألمانيا، وأصبح بطرس الثانى ملكا على البلاد. كان يمكن لهتلر أن يتجنب هذه الحرب: فقد أسرع النظام اليوغسلافى الجديد فى بحث اتفاق جديد مع ألمانيا لمنع تعديها، غير أن الفوهرر اعتبر التغيير بمثابة لطمة على خدّه هو. «سأبيد البلقان عن بكرة أبيها» أكد لكل من كان يحاول أن يقنعه بعدم تشتيت القّوات، خاصة مع اقتراب موعد معركة الاتحاد السوفيتى، من أجل هذا أصدر تعليماته التى حملت رقم ٢٥: «اعتبارا من هذه اللحظة، يجب اعتبار يوغسلافيا عدوا، حتى مع مقترحاتها للوفاء، وبالتالى إبادتها بأسرع ما يمكن». فى أقل من أسبوع، أعدت هيئة أركان حرب ألمانيا خطة الهجوم على يوغسلافيا التى عرفت باسم «عملية العقاب». فى ٦ أبريل بدأ الهجوم الألمانى. فى نفس هذا اليوم تسلّمت أثينا إعلان حالة الحرب من الرايخ الثالث. جاء هجوم القوات المسلّحة، الفيرماخت، من خلال العملية، التى أطلق عليها اسم «عملية ماريتا» ساحقا فى البلدين. دخل الألمان سالونيك[1]، فى ٩ أبريل، ودخلوا

(١) سالونيك: مدينة يونانية ومركز لبلدية تقع فى شمال البلاد، وهى عاصمة لمقاطعة مقدونيا الوسطى الإدارية، وأيضاً عاصمة إحدى مقاطعات هذا الإقليم والتى تحمل نفس اسم المدينة.

بلجراد فى ١٢ أبريل، وفى يوم ١٨هزموا قوّات جيش يوغسلافيا، وفى يوم ٢٣ استسلم لهم جيش اليونان، وفى يوم ٢٦ وصل الألمان إلى مدينة كورنث. انسحبت قوّات الاستطلاع البريطانية من اليونان، وفى ٢٠ مايو استولى رجال مظلات ألمانيا على جزيرة كريت.

طار هتلر غبطة وتيها ولم يعد يعاند رغباته. تكفى العبارة التالية لكى تصف ذلك: «ليس هناك مستحيل أمام الجندى الألمانى»، وهو التصريح الذى أدلى به أمام الرايخستاج فى يوم ٤ مايو. غير أن هذا الشهر شهد حدثين سيكون لهما بالغ الأثر السيئ عليه. ففى مساء يوم ١٠ مايو، ركب صديقه رودولف هيس، ثانى رجال هتلر أهمية بعد جورينج، طائرة إم-١١٠ مزدوجة المحرّك، على أساس أنه سيجرّبها، كما اعتاد أن يفعل فى الشهور الماضية، وطار بها حتى بريطانيا. لم يتمكن أحد من معرفة طبيعة مهمة هيس، الذى كان قد بدأت تظهر عليه بعض أعراض التخبط. أكثر الروايات قبولا، هى تلك التى تقول بأنه كان يميل إلى بريطانيا العظمى، وأنه اعتقد أن لندن ستحسن استقباله، وأنه هناك سيتمكن من إقناع حكومة بريطانيا بأن توقف حربها ضد ألمانيا وأن تحارب الاثنتان جنبا إلى جنب توسعات الشيوعية. سواء كان هذا هو السبب الحقيقى، أم أى سبب آخر، المؤكد أن جنون هتلر قد جُن عند سماع الخبر ولم يتمالك نفسه عن الصراخ: «إلهى! يا إلهى! طار إلى

إنجلترا!». قضى هتلر يومين كاملين مثل الليث الأسير، تارة يلعن صديقه وتارة ثانية يفترض تعرضه لعملية اختطاف أو مؤامرة، وثالثة يناقش مع جورينج قدرته على الطيران حتى يبلغ إنجلترا. كان هتلر يعتقد أن زميله القديم وناسخ الماين كامبف يعانى من علّة ما فى عقله، وإن كان يراه ذكيا وشجاعا وكفيلا بأبسل المهام.

بعد يومين من التردّد وبهدف تجنب أى خلل فى منظومة تحالفاته، وحتى يتم تجنب الفضيحة، خرجت الرواية التى تقول بأن هيس، وهو واقع تحت تأثير هذيان سببه له أحد العلاجات الطبية، خرج فى طائرته ولم يُعرف مصيره. شعر هتلر بالرضا عن هذه الصيغة، أما عندما عُرف أن هيس قد بلغ أسكتلندا، سخر هتلر من توقعات جورينج وأشاد بشجاعة هيس باعتباره طيّارًا وهو ما أثار استياء جورينج المترهل، الذى لم يعد قادرا على قيادة طائرة على الرغم من كونه أحد أسس أوائل دفعات الطيّارين الألمان. مع ذلك قال محاميه هانز فرانك : «بالنسبة لى، هو ميّت لا محالة، عندما نجده، أينما كان، سنشنقه». ذكر فرانك أن ما رآه على وجه هتلر من تعبير، لم يكن قد رآه منذ انتحار چيلى روبال. بعدها، أخذت نار ثورة هتلر تخبو، وفى المرّات القليلة التى عرض لذكر هيس، كان من أجل «الإشادة بتقديره له وبأن تصرفاته كانت دائما مستقيمة وأمينة حتى نهايته».

ثانى أحداث مايو المشئومة وقع فى البحر. ففى يوم ٢٢ خرجت البارجة بسمارك من قاعدتها، ترافقها العبّارة برينز أوجين. فى يوم ٢٤، وقعت آلة الحرب العملاقة تلك بين فكى رحى بارجتين بريطانيتين. هود، إحدى أفضل قطع البحرية الملكية، التى غرقت بعد خمس دقائق من القتال، وبرينس أوف ويلز، التى تمت إصابتها واضطرت للانسحاب. غير أن البارجة الألمانية كانت قد أصيبت أيضا وتسرّب منها الوقود. طاردتها السفن البريطانية، على مدى يومين عن طريق الرادار- اختراع تكنولوجى كان لايزال مجهولا بالنسبة لألمانيا - وفى يوم ٢٦ تم تحديد موقعها، وهجمت عليها طائرات أصابتها بطوربيد فى دفتها. فقدت بسمارك تحكمها وبدأت تدور فى دوائر، حتى غرقت يوم ٢٧ وسط العديد من السفن البريطانية التى كانت تطاردها.

فى مقر القيادة، انتشى هتلر من أخبار الانتصار الأوّل للبارجة، إلا أنه لم يلبث أن عايش، بمنتهى الأسى، مطارداتها ثم نهايتها. عندما بلغه خبر غرقها، غرق مقر القيادة العامة الذى كان فى بيرجهوف، وسط حداد عميق. كتب مراسل الخارجية، السفير والزير هيويل ببالغ الحزن والأسى: «لا يمكن وصف حزن الفوهرر بالكلمات، ولا سخطه على قيادات البحرية». منع بعدها أن تخرج أى وحدة عسكرية إلى أعالى البحار دون موافقته، وقد كان هذا أحد أهم قراراته الخاطئة أثناء الحرب. غرقت بسمارك وهى تقاتل دفاعا عن مصالح ألمانيا، بعد أن أغرقت عملاقا من نفس شاكلتها

واجتذبت أغلب قطع البحرية البريطانية المرابطة فى كريت لكى تغسل عارها فى البحر. تسبّب قرار هتلر، غير الحصيف، فى أن تبقى تيربيتز - بارجة مماثلة لبسمارك- عاجزة دون أن تتمكن من الخروج إلى القتال فى البحر، مع ضرورة تخصيص عدد من وحدات الطيران الألمانى لحمايتها من الهجمات البريطانية.

أحد أهم أسباب قرارات هتلر الخاطئة، فيما يتعلّق بقواته البحرية، كان ما حققته غوّاصاته من نجاحات عام ١٩٤٠، وخلال الشهور الأولى من عام ١٩٤١. أكثر من ألف سفينة بريطانية، بأوزان إجمالية تتعدى الأربعة ملايين طن، تم إغراقها أو الاستيلاء عليها عن طريق ما كان القائد دونتيز يرسل من أسماك قرش، على الرغم من عدم امتلاكه أكثر من ٤٠ أو٥٠ غوّاصة صالحة للعمل، عوضا عن ٢٥٠ أو٣٠٠ حسب الخطة الموضوعة عام ١٩٣٩. السلاح الآخر الذى أبلى بلاء حسنا فى عرقلة نقل البضائع البريطانية وأظهر تفوقا ملحوظا، كان سلاح الطيران، إذ دمر فى نفس هذه الفترة، وعلى الرغم من إمكاناته المتواضعة، ٥٠٠ سفينة، بلغ إجمالى أوزانها، حسب سجلاتها مليونًا ونصف مليون طن. على الرغم من كل ذلك، مع نهاية ربيع ١٩٤٠. غدت نتائج سلاح البحرية مخيبة لآمال الألمان: كانت البحرية الملكية تفرض سيطرتها على البحر المتوسط والمحيط الأطلنطى، كما أن خسائر الأسطول

التجارى البريطانى - أقل من ثمانية ملايين طن، حتى هذا التاريخ من الحرب - تمت تغطيتها ببناء سفن جديدة فى ترسانة المملكة المتحدة وبمساعدة من الولايات المتحدة الأمريكية. لم يكن البحر هو المكان الذى كانت ألمانيا ستحقق فيه الانتصار فى الحرب، حيث كانت الترسانات الأمريكية تدشن، سنويا، ستة ملايين طن من السفن.

لو كانت البارجة بسمارك قد كلّفت ألمانيا الكثير، فإن انتصارها فى اليونان ويوغسلافيا كلّفها أكثر من ذلك بكثير. فقد أنفقت الفيرماخت هناك ثمانية أسابيع رائعة، حيث كان مقدرا لعملية «باربا روسا» - الهجوم على الاتحاد السوفييتى- أن تبدأ يوم ١ مايو. هناك خسر الألمان ١٢,٠٠٠ جندى ما بين قتيل وجريح، ومئات الطائرات ودبابات القتال ومركبات النقل وآلاف الأطنان من الذخيرة والوقود. تطلب احتلال البلقان والقتال ضد رجال عصابات يوغسلافيا واليونان حضورًا قويًا للفيرماخت، التى حشدت فى هذين البلدين ١٥٠,٠٠٠ جندى عام ١٩٤١. كل هذه القوّات والعتاد يمكن استخدامها فى عملية «باربا روسا» بعد مرور شهرين، غير أن هتلر بعد أن شرب حتى الثمالة من كأس النصر، لم يكن ليفكر فى احتمال مواجهة الهزيمة أمام الاتحاد السوفيتى، التى كان يعتبرها سيئة التسليح وعلى وشك التفكك.

النصر ينتقل إلى الفريق الآخر

فى يوم ٢٢ يونيو من عام ١٨١٢، أعلن نابليون بونابرت الحرب على روسيا وخرج لغزوها بعد ٤٨ ساعة من إعلانه. وها هو هتلر فى يوم ٢٢ يونيو آخر، وبعد مرور ١٢٩ يهاجم روسيا بلا أى إعلان حرب. فى نحو الساعة الواحدة والنصف من فجر هذا اليوم، وصل الفوهرر ومرافقه إلى قلب إحدى غابات بروسيا الشرقية، على بعد ١٥ كيلومترا من راستنبورج. وولفسشانزى (جحر الذئب) كان معسكرا عسكريا، محاطا بالأسلاك الشائكة، والمخابئ، والحرّاس ويتكوّن من عدّة شون خشنة وبلا رفاهية بصفة عامة، قد أمر هتلر بإقامته ليدير من هناك «عملية بارباروسا». بُعيد الساعة الثانية صباحا بقليل، تلقى السفير السوفييتى لدى برلين، فلاديمير ديكانوسوف، خبرًا يفيد بأن وزير الخارجية، فون ريبنتروب، ينتظره فى مكتبه فى تمام الرابعة صباحا. فى نفس هذا التوقيت، كان السفير الألمانى لدى موسكو، كارل فون شولينبورج، يطلب مقابلة وزير الخارجية الروسى، مولوتوف، فى نفس تلك الساعة من الفجر. بفارق توقيتى لا يتعدى الثوانى، فى الرابعة من فجر يوم ٢٢ يونيو ١٩٤١. أبلغ فون ريبنتروب وفون شولينبورج، على التوالى، السفير السوفيتى ووزير الخارجية بأن ألمانيا تعلن الحرب على الاتحاد السوفيتى. بُهت مولوتوف ولم يسعه سوى التساؤل فى

ذهول «الحرب، هذه هى الحرب. أتعتقد سيادتك، يا سيادة السفير، أن هذا ما نستحق؟».

فى نفس هذا التوقيت، كانت المدفعية الألمانية تفتح نيرانها على الخطوط السوفيتية. قفز أحد القادة من على سريره فى معسكره وهاتف هيئة أركان حرب فرقته على بعد ٤ كيلومترات:

- إن الألمان يهاجموننا، يا سيادة العقيد!

- مستحيل. أسكران أنت؟ عد إلى فراشك ولا تزعجنى!

فى بريستليتوفسك، التى شهدت توقيع اتفاقية الهدنة بين ألمانيا والاتحاد السوفيتى، كتب الجنرال بلومنتريت، رئيس هيئة أركان حرب الجيش الرابع: «بدأت مدفعيتنا تنفيذ مهامها. واصل قطار برلين موسكو السريع، رحلته الطويلة، فى هدوء ودونما عائق». غير أن دهشة الجنرال زدادت عندما تلتقط إشاراته مظاهر الارتباك بين الصفوف السوفيتية. اتصل أحد جنود الصفوف الأولى بقيادة فرقته:

- إن الألمان يطلقون النار علينا. ما التعليمات؟

- ماذا حلّ بكم؟ هل فقدتم صوابكم؟ لِمَ لا تشفّرون رسائلكم؟

الأخطر من ذلك، كانت حال ستالين، الذى كان ينام ملء جفونه، فى تلك الساعة فى الداتشا (المنزل الريفى) خاصته، بضاحية

كونكسيف خارج موسكو. حاول مولوتوف أن يتصل به هاتفيا، إلا أن رئيس الحرس رفض إيقاظ الأمين العام. فى النهاية، اضطرت مجموعة من الجنرالات أن تتوجه إلى المنزل، بالسيّارة، فما كان من الضابط، إلا أن وافق على إيقاظ ديكتاتور روسيا الكبير بعد أن هالته الرتب الكبيرة. ذُهل ستالين من الخبر، لكنه أراد ألا يعطيه أهمية كبيرة:

- هل أنتم واثقون من أن الأمر ليس مجرّد استفزاز جديد؟ هل تعتقدون أنه هجوم حقيقى؟

- بالطبع، أيها الرفيق، الأمين العام. فالألمان يهاجموننا من ثلاث نقاط حدودية: بروسيا الشرقية، وبولندا، ورومانيا، كما أن إشارات قوّاتنا الحدودية تفيد بأن خطوط الهجوم الألمانى تبلغ أكثر من ٣٠٠ كم. ما التعليمات الواجب إعطاؤها لقوّاتنا؟

حاول ستالين أن يقيّم الوضع. إذا ما كان الأمر مجرّد استفزاز، فإن أى شكوى على المستوى الدبلوماسى كفيلة بحل المشكلة، أما إذا ما كان الأمر يتعلّق بالأخبار التى كانت تبلغه منذ أيّام والتى كانت تتحدث عن غزو، فلا فائدة من إعطاء أوامر متسرعة فى تلك الساعة المبكرة. فلعل الأمل فى تسوية دبلوماسية لا يزال قائما.

أعطوا أوامركم للوحدات بالتصدى للهجوم، على أن لا يقتربوا من حدود ألمانيا مطلقا.

من غير المصدق، أن تكون روسيا قد فوجئت بالهجوم. من غير المعقول، لأن ألمانيا مع حلفائها الأوائل - فنلندا، والمجر، ورومانيا- حشدوا على الحدود ثلاثة ملايين ونصف مليون رجل، و٧٢٠٠ مدفع، و٣٣٥٠ دبابة قتال، وأكثر من مائة ألف مركبة من مختلف الأنواع. وصلت موسكو، إلى جانب التقارير العسكرية حول هذه الحشود العسكرية الهائلة، تحذيرات من واشنطن ولندن، بعد أن اكتشف جواسيسها الهجوم الوشيك. لكن ستالين تحرّك بلا أدنى حرص، ثم أصابه الهجوم بحالة من التخبط، حتى إن مولوتوف هو الذى قام ظهيرة يوم الأحد بإعلان أن: «الفاشية المخادعة تهاجم أرض الوطن».

فى تلك الساعة، كانت خسائر روسيا قد بلغت ١٢٠٠ طائرة، أى ١٠٪ تقريبا من قوّاتها الجوية على الجبهة. مع حلول المساء، كانت الخطوط الوسطى والجنوبية من الدبّابات الألمانية قد توغلت لمسافة تتراوح ما بين ٦٥ و٩٠ كيلومترا داخل الأراضى الروسية. بعد ستة أيّام كانت طلائع الألمان الرئيسية على بعد ٢٠٠ كيلومتر من نقطة الانطلاق. كانت تلك الأخبار الرائعة تصل «جحر الذئب». كان مزاج هتلر فى غاية الصفاء وهو يكتفى بمجرّد التمعن فى خريطة الاتحاد السوفيتى، ويحاول أن يتكهن بمدى صلابة مقاومة ستالين. فى ٢٧ يونيو، اعترف لفون ريبنتروب وهو منفرج الأسارير: «لو كانت لدّى أدنى فكرة عن ضخامة الجيش الأحمر، لما اتخذت

قرار الحرب». فى الحقيقة، لم يكن هتلر يدرك الحجم الحقيقى لعدوه، وحتى جنرالاته لم يكونوا على دراية بذلك، على الرغم من أن بعضهم كان قد بدأ يعرف.

عندما بدأ الهجوم الألمانى كان قوام الجيش الروسى أربعة ملايين ونصف مليون جندى و٢١,٠٠٠ عربة مصفّحة ونحو ١٥,٠٠٠ طائرة. كانت هذه الأرقام تعطى ستالين تفوّقا بنسبة ٢٠٪ بالنسبة للمشاة، فى حين كانت الدبّابات السوفيتة للألمانية تقدّر بنسبة ٧ إلى ١. ونسبة الطائرات كانت ٥ إلى ١. غير أن عنصر المفاجأة، والتدريب الجيّد، وكفاءة القيادة، وخبرة عشرين شهرا من القتال وتطبيق مفاهيم جديدة للحرب، قلبت الموازين المعروفة. فبسرعة كبيرة، استطاع الألمان أن يحققوا التفوّق العددى فى المشاة وفرضوا سيطرتهم على الطيران بعدما أسقطوا الطائرات السوفيتية القديمة، التى لم يكن طيّاروها على مستوى جيّد من التدريب، ولا كانت لديهم خبرة القتال الجوّى. غير أن المدرّعات، كانت هى ملكة تلك الحرب. فمنذ البداية، فرض الألمان قوّة وتنسيق وسرعة وحداتهم المصفّحة التى تمكنت من تدمير آلاف الدبّابات الروسية صغيرة الحجم، كبيرة التهالك. مع ذلك، اكتشف الألمان أن لدى ستالين طرازين ممتازين - وهما T34 و KV1، يعادلان، إن لم يكونا يفوقان آخر صيحات صناعة الدبّابات الألمانية من طراز مارك ٤. التى كانت بمثابة العمود الفقرى لفرق المدرعات على مدى

أربعة أعوام. لحسن حظ الألمان، كان تفوّق السوفيت فى هذا السلاح بنسبة ٣ إلى ١ (١٤٧٥ مقابل ٤٣٩) غير أن هذا الفارق العددى لم يكن بذى أهمية أمام حسن توظيف المدرعات.

بينما كانت جيوشه تتقدم فى اليوم الواحد مسافة ٣٢ كيلومترا، ظل هتلر يداعب أحلامه أمام خريطة الاتحاد السوفيتى التى كان قد علّقها على أحد جدران غرفة الطعام، وهو ينتظر بين لحظة وأخرى وصول طلب هدنة بتوقيع ستالين. لم يكن هناك الكثير من العمل، حسبما ذكرت إحدى سكرتيراته:

«إذا تساءلت عما أفعل طوال اليوم، فالإجابة القاطعة هى: لا شىء ألبتة. ننام، ونأكل، ونشرب، ونترك الآخرين يتحدثون إلينا عندما يمنعنا الكسل من الكلام».

هذه السكرتيرة نفسها تعطينا فكرة واضحة عن كيف كانت الحياة فى «جحر الذئب» التى كانت محتملة فى شهور الصيف، باستثناء مشكلة الناموس. كان الفوهرر يستيقظ متأخرا. يتناول إفطاره نحو الساعة العاشرة ويتلهى قرابة الساعة فى متابعة أخبار المعسكر أو أخبار برلين. يتوجه بعدها إلى مكتبه ويجرى مقابلاته أو يطالع أوراقه ويضع الخطط. فى تمام الواحدة هناك مؤتمر يومى لمعرفة أخبار المعركة. كانت الدبابيس الملوّنة الممثلة للجبهات تتقدم على الخرائط الكبيرة، وتشير إلى تقدم القوّات الألمانية، بينما يعدّد

العقيد شموندت خسائر العدو ويزيل الدبابيس، التى كانت تمثل القوّات السوفيتية، كلما تم تحطيمها أو تدميرها. بعدها، يحين موعد الغداء، الذى لم يكن يتعدى مجرّد عصائد الخضروات. بعد حديث الغداء، يتطلب مع الحر «الاستلقاء»، الذى كان بمثابة قيلولة إجبارية نظرا لطبيعة هتلر التى تميل إلى السهر:

«فى الخامسة مساء الخامسة، ينادينا الفوهرر ويوزع علينا الحلوى. كان يبارك من يأكل أكبر قدر منها. تمتد ساعة قهوة حتى السابعة مساء. بعدها نعود لقاعة الطعام الثانية لتناول العشاء. ثم لا نلبث أن نفر إلى الخارج للتنزه فى الجوار، حتى يدعونا الفوهرر إلى الاستديو الخاص به حيث تقام كل ليلة اجتماعات تقدم فيها القهوة والحلويات لكل من يحضر من مساعديه المقرّبين. تمتد هذه الاجتماعات إلى "ساعات متأخرة جدا"».

كانت الأمور تسير على ما يرام. مع نهاية يوم ٨ يوليو، وبعد ١٧ يوما من العمليات، كتب هادلر، رئيس هيئة أركان الجيش، أن الفيرماخت قد أطاحت بـ ٨٩ فرقة من إجمالى ١٦٤ فرقة كان ستالين يضعها على الحدود (كانت لديه مائة فرقة أخرى على حدوده الآسيوية تحسبا لهجوم يابانى)؛ من ثم، لم يكن يتصدى لهم سوى ٧٥ فرقة، أى ما يزيد بقليل على مليون جندى. أما مدرعاته فقد وصلت إلى ٩ فرق بدلا من٢٩. أما سلاحه الجوى فقد اختفى. مع ذلك، لم يكن هناك ما يبشر بالاستسلام ولا بالانهيار الداخلى

ولا بالتمرّد العسكرى. كان الألمان يتقدمون بمعدلات جيّدة، حتى مع وجود مقاومة روسية، كما كانوا يخسرون رجالهم، نحو ثلاثين ألف قتيل ومائة ألف جريح فى هذه المدّة القصيرة.

مع منتصف شهر يوليو، بدأ مزاج هتلر يعتل، وينفد صبره، وتنضب رغبته فى تناول الحلوى مع سكرتيراته. كان غير راض نهائيا عن جهاز استخباراته (الأبفير، برئاسة القائد كانارى)، الذى لم يكن قد اكتشف الأعداد الكبيرة لدبّابات الحرب الروسية، وجانبه الصواب تماما بخصوص ما تملكه روسيا من مصفحات: «يقول الفوهرر إنه لو كان يعلم بامتلاك روسيا لدبابات ثقيلة، لم يكن ليخوض هذه الحرب» كتب فى الـ٢٠ من يوليو عقيد من جهاز الاستخبارات، الذى بلغه الغضب العارم «بجحر الذئب». فى ٤ من أغسطس انتقل هتلر إلى القطاع المركزى من الجبهة ليقدم التهانى لقوّاته التى كانت قد توغلّت لمسافة ٥٠٠ كيلومتر داخل الاتحاد السوفيتى. صرّح للجنرال جوديريان، أحد أفضل قادة المركبات: «لو علمت أن أرقام الدبّابات التى تذكرها سجلاتك صحيحة، كنت سأفكر مرّتين قبل بدء الهجوم». (عام ١٩٣٧ ذكر جوديريان أكثر من عشرة آلاف مدرعة سوفيتية). مع بداية شهر أغسطس ذكرت التقارير الألمانية أنها قد كبّدت العدو أكثر من ٧٠٠,٠٠٠ قتيل وجريح وأسرت ٨٠٠,٠٠٠ جندى؛ ودمرت واستولت على ١٢,٠٣٥ دبّابة و٨,٣٩٤ مدفعا. بيد أن ألمانيا أيضا كانت تئن تحت وطأة

خسائرها: ١٠ ٪ من قوّاتها الأولى التى بلغ فيها عدد القتلى ٩٨,٦٠٠ جندي. بدأت مركباتها ومدرعاتها تعانى التعب، كما تسببت وحول أمطار شهر يوليو فى ساحات المعارك، وحر الصيف، والطرق غير الممهدة فى استهلاك الوقود وتشغيل المركبات لأكثر من طاقتها المحتسبة.

كان غضب هتلر سيصل إلى عنان السماء إذا ما عرف أن مرسوم ستالين للحشود كان يشمل التجنيد ما بين مواليد أعوام ١٩٢٥ و١٩٣٨. وهو ما يعنى مد الجيش برجال ما بين سن التاسعة عشر والأربعين، أى نحو ١٥ مليون رجل على أهبة الاستعداد. كما لم يعرف هتلر أن ستالين نقل كل المصانع الكبيرة إلى شرق البلاد، فيما وراء عن نهر فولجا، وحتى جبال الأورال. نقلت مليون ونصف مليون عربة سكّة حديد ١,٥٢٣ مصنعا و٥ ملايين عامل إلى الشرق حتى يبدأوا العمل على الفور. أدت عملية النقل هذه، إلى جانب خسائر الحرب، إلى انخفاض الإنتاج الصناعى السوفيتى بنسبة ٤٠٪ خلال النصف الثانى من عام ١٩٤١. غير أن بعض الصناعات الإستراتيجية استفادت من هذه الأوضاع. قامت روسيا بتصنيع ٨,٠٠٠ طائرة (ضعف ما أنتجته فى النصف الأول) وأكثر من ٣,٠٠٠ دبّابة من الطرازات الحديثة. لم يصدق هتلر قط هذه الأرقام، حقيقة غير عادية ولا تفسير لها سوى الحماس البالغ الذى ولدته هذه «الحرب الوطنية» وما قدمه الشعب الروسى من تضحيات.

بدأ قلق هتلر يزداد بتزايد طلبات جنرالاته. طلب جوديريان ٣٠٠ محرك جديد لدبّاباته، كما طلب قادة جميع فرق المدرعات معدات صيانة وقطع غيار كثيرة. بصفة عامة، لم يكن هناك، يوم ٢١ أغسطس، ما يهدد انتصار ألمانيا، فهى خلال شهرين قد توغلت لمسافة ٧٠٠ كيلومتر داخل الاتحاد السوفيتى. أصبحت موسكو على مسافة أقل من ٣٠٠ كيلومتر. ولكن حينئذ، وقعت كارثة غيّرت مجرى الحرب. فهتلر، الذى كان يعقد مؤتمرين عسكريين فى اليوم الواحد لا تقل مدتهما عن ست ساعات، وجد الوقت لكى يضع هو خطة مغايرة لخطة هيئة أركان حرب الجيش الألمانى. ففى يوم ٢١ أغسطس أرسل أمرا استهله بعبارة: «اقتراح الجيش ليوم ١٨ أغسطس، لا يتفق مع تصورى، لذا آمر...»، وما أمر به كان إيقاف كل العمليات فى اتجاه موسكو، وإعطاء الأولوية لحصار لينينجراد والالتحام بقوّات فنلندا فى الشمال، والاستيلاء على شبه جزيرة القرم، ومنطقة القوقاز فى الجنوب.

أصيب المشير براوخيتش بأعراض أزمة قلبية عندما بلغه الخبر. بينما انخرط هادلر فى نوبة بكاء هستيرى. كتب يوم ٢٣ أغسطس يقول لزوجته:

«تقدمت باستقالتى مرة أخرى حتى لا أصاب بالجنون. لكنهم رفضوها. إن الهدف الذى أسعى إليه، ألا وهو هزيمة الروس قبل نهاية العام، لن يتحقق».

هذا اليأس نفسه هو ما سيطر على مقر قيادة الجنرال فون بوك، الذى أرسل جوديريان ليتحدث مع هتلر مباشرة. طار جوديريان إلى راستنبورج، وذهب للقاء الفوهرر فى «جحر الذئب». عرض الجنرال، الذى كان من القلائل الذين لا يخشون مواجهة هتلر، مميزات مهاجمة موسكو. سيدمرون قلب الجيش الكبير الذى كان لستالين هناك، سيحققون نصرا نفسيا مهمًا، وسيستولون على الكثير من الصناعات الثقيلة لم تنقل بعد وسيقللون من إهلاك الدبابات، حيث لا يجب نقلها إلى جبهات تبعد لأكثر من ٨٠٠ كيلومتر. رد هتلر أن أولويات اهتمامه هى غلال أوكرانيا، وبترول القوقاز، وحديد دونتس، وشبه جزيرة القرم، قاعدة هجمات الروس ضد آبار بترول بلوإستى برومانيا. «إن جنرالاتى ليست لديهم فكرة عن اقتصاديات الحرب». كان هذا تعليق هتلر عندما خرج جوديريان يائسا من اللقاء.

جاءت النتائج الأولية لصالح نظرية هتلر. فبعد أن دار جوديريان لمسافة ٨٠٠ كيلومتر، لقى دبّابات كلايتس التى كانت قد اخترقت الخطوط السوفيتية من الشمال. دخلت أوكرانيا كاملة فى قبضته وأسر الألمان خلال شهر من المعارك ٦٠٠,٠٠٠ جندى، واستولوا أو دمروا قرابة ألف دبّابة وأربعة آلاف مدفع. مع نهاية سبتمبر، وبعد مائة يوم من بداية الحملة، كانت خسائر روسيا، مليونى رجل و٢٢,٠٠٠ مدفع و١٨,٠٠٠ دبّابة، لكن الألمان كانوا لا يزالون على

بعد ٣٠٠ كيلومتر من موسكو، ولم يكونوا قد حاصروا ليننجراد، وكان التقدم نحو القوقاز يسير ببطء كبير بالنسبة للمساحة الشاسعة الواجب قطعها. حصل ستالين على مهلة شهرين، من تغيير هتلر لتعليماته، أحسن استغلالها فى نقل صناعاته إلى الأورال (لم يبدأ نقل الصناعة إلا يوم ١٠ أكتوبر ولم ينته إلا عندما كان الألمان على مسافة ٥٠ كيلومترا من العاصمة). بعد أن جاءته يوم ١٤ سبتمبر أخبار من جاسوسه، ريتشارد جدارج، تفيد بأن اليابان لا تنوى مهاجمة روسيا، سحب قواته من سيبيريا ونقلها إلى الغرب. كان رجال التجنيد ينضمون إلى الصفوف ويعوّضون الخسائر البشرية بسرعة، كما بدأت الكثير من صناعات الحرب تعمل بجميع طاقتها. بدأ الألمان يلاحظون أن الجيش الروسى يتلقى إمدادات من إنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية.

فى ٢ أكتوبر، عاودت جيوش ألمانيا الوسطى مسيرتها فى اتجاه موسكو، بعد أن نجحت فى تكوين جبهة متصلة على طول ١٨٠٠ كم، تمتد من ليننجراد إلى القرم. ١٠٠ يوم من الحملات المتواصلة أهلكت أحسن وحدات الجيش الألمانى، وأثرت بالسلب على كفاءة مدرعاته بنسبة تزيد قليلا على ٥٠٪. على الرغم من كل ذلك، تمكّن من اختراق جبهة الروس، غير أن تقدمه كان قد تباطأ وواجه عراقيل أخرى،إلى جانب المقاومة السوفيتية، مثل الأمطار الموسمية الخاصة بذلك الخريف والتى حوّلت الطرق وساحات القتال إلى

برك من الوحل يصعب تجاوزها، وكذا خطط روسيا المسماة «بالأرض المحترقة»: كانت القوّات الألمانية تتقدم فى مناطق غير آهلة، ذات قرى صغيرة ومهجورة وطرق ملغومة وجدار مهدمة. حل شهر نوفمبر ومعه بعض التحسن، فقد جمّدت درجات الحرارة المنخفضة الوحل وعادت العربات للتحرك بيسر أكبر. إلا أن هذا لم يدم سوى عشرة أيام. منذ تلك اللحظة دخل فى العراك، فى صالح السوفيت، «الشتاء العام».

يوم ١٢ نوفمبر سجلّ الترمومتر ١٢ درجة تحت الصفر، ثم واصلت درجات الحرارة انخفاضها حتى سجلّت ٣٥ درجة تحت الصفر يوم ٤ ديسمبر. فوجئ الجنود الألمان، الذين كانوا يرتدون ملابس الطقس المعتدل والتى تهلهلت بسبب الحرب. تأخر لباس الشتاء عند الحدود بأوامر من هتلر، الذى كانت لديه أولويات أخرى، مما أدى إلى كارثة بين صفوف الفيرماخت: أصاب التجمد نسبة ١٠٪ من قوّات المشاة. كان عدم الاستعداد للشتاء بالغ الخطورة، إلى الحد الذى تعذر معه توفير مانع التجمد للمحركات، مما أدى إلى إصدار قرار باستمرار تشغيلها، وبالتالى زيادة نسبة إهلاكها واستهلاك الوقود. لم تصل كذلك للصفوف الأمامية إمدادات خطاطيف سلاسل الدبابات التى تمكنها من الوقوف على الأراضى المثلجة. أصيبت الجياد بالإرهاق الشديد نتيجة نقل الأحمال وقطع المدافع، فكانت تتساقط مثل الذباب من البرد

والجوع، دون أن تتمكن من التقدم بسبب الثلوج مثلما كانت تفعل مثيلتها الروسية. على هذه الحال كان القطاع المركزى بجبهة الألمان عندما وصلت طلائعه إلى مشارف موسكو، غير أنهم لم يتمكنوا من دخول عاصمة روسيا، لأن تلك قوات لم تقو على التقدم ولو خطوة واحدة. كانوا يصدون هجمات الروس كيفما اتفق، حتى إن بين يومى ٣ و٥ يسمبر، اتجهت صفوف الألمان الأولى إلى الدفاع، فى الوقت الذى كانت فيه الجيوش الروسية تستعد للانقضاض.

لم يصدق هتلر الأخبار، فبعد أن خسر قرابة ثلاثة ملايين رجل وما لا يقل عن ٢٠,٠٠٠ دبّابة، كيف لستالين أن يشن هجوما على جبهة موسكو بعشرة جيوش قوامها لا يقل عن مليون جندى مجهزين بدبّابات ومدفعية وخيّالة، فى حين أن الفيرماخت، بخسائر أربع مرات أقل، كانت على وشك التهاوى. غير أن مشكلة ألمانيا كانت أكثر خطورة مما كانت برلين تعتقد. مع بداية ديسمبر، كانت لدى ستالين ثلاثة ملايين جندى على أهبة الاستعداد لمواجهة االشتاء القارس وفى أفضل تسلّيح؛ كانت لدى قوّات مدرعاته ٢٦٠٠ دبّابة، جميعها من طرازى T34 و KV1، كما كان لديها عدد هائل من الخيّالة اللازمة لعمليات المطاردة. بهذه القوّات تمكنت من صد هجوم ألمانيا على موسكو، ودفعت مدرعات هوبنير وجوديريان، رأس حربة قوّات هتلر، إلى التقهقر. كان الألمان، بعد مأساة ديسمبر، قد

استعدوا أفضل لمواجهة الشتاء، وشكلوا جبهة من «تشكيلات القنفذ» ذات إمدادات كافية قادرة على الدفاع فى جميع الاتجاهات.

مع ذلك، واجهت الفيرماخت ما هو أسوا من كارثة موسكو: علّمت عدوها دروس الحرب، ولم تخف عنه نقاط ضعفها. كانت قد خسرت آلاف الضبّاط، وضبّاط الصف، الذين يصعب تعويضهم، ومئات من قادة المركبات ذوى الخبرات العملية المتراكمة. لم تتمكن المدرعات الألمانية، مع أنها كانت أقوى مما كانت عليه فى عامى١٩٤٠ و١٩٤١. من أن تستعيد عمليتها بنفس التواصل والسرعة فى حملتها الأولى فى روسيا. وما كان أسوأ من كل ذلك، كانت المشاكل التى تعرّض لها جنرالاتها وأدت إلى خروجهم من الخدمة: كان براوخكتش مريضا جدا، لقى رايخينو حتفه فى ساحة القتال، وتم طرد هوبنير من الفيرماخت، ومُنح جوديريان إجازة مفتوحة، وطلب فون ليب التقاعد فتولى هتلر بنفسه قيادة الجيش. فى الحقيقة، كان هذا إجراء صحيحا فى بادئ الأمر، حيث أعاد بث روح القتال والتضحية فى روح الجيش المتهالكة ومعنوياته التى كانت فى الحضيض. طاقة الفوهرر وإقدامه دعمت جبهة روسيا، غير أن هذه الروح ستنتقل من المستوى السياسى إلى مستوى العمليات، وسيتدخل، حتى فى أدق تفاصيلها، مما كان سيؤدى إلى مضاعفة الأخطاء.

إحدى النتائج السيئة المترتبة على الهزيمة فى معركة موسكو، كان تأثيرها على معنويات الألمان الذين كانوا مقتنعين بفعل الخطاب الإعلامى لجوبيلز، إن الانتصارات المتوالية للفيرماخت كانت مؤكدة. على الرغم من كل خدع وزارة الإعلام، فإن الألمان بدأوا يلمسون مع بداية عام ١٩٤٢ تقهقر قوّاتهم، فى نفس الوقت الذى بدأت تدخل بيوتهم أخبار مقتل رجالهم على الجبهة. منذ بداية الحرب، فقد الألمان ٢٧٠,٠٠٠ جندى (منهم ١٧٣,٠٠٠ فى الاتحاد السوفيتى) كما أصيب منهم ٨٥٠,٠٠٠. من ناحية أخرى، تحوّلت الحرب لتقترب من الوطن: فعلى الرغم من استمرار هجمات الطيران الألمانى على بريطانيا، فإن رد بريطانيا أصبح أكثر كثافة وبدأ سكّان المدن الكبرى يعرفون صفّارات إنذار الغارات الجوية والخوف من القصف واختناقات المخابئ وكوارث وفوضى أكوام الأنقاض فى المراكز الحضرية.

غير أن ما زاد من قلق المدنيين، هو خبر دخول ألمانيا الحرب ضد الولايات المتحدة الأمريكية، بعد الهجوم اليابانى على بيرل هاربور فى ٧ ديسمبر ١٩٤١. ما لم يكن معقولا هو أن روزفلت لم يعلن الحرب على هتلر، وإنما كان هتلر هو من تولى المبادرة. ففى ١١ ديسمبر حدّد فون ريبنتروب موعدا للقاء القائم بالأعمال الأمريكى بالمستشارية، وبعد الساعة الثانية ظهرا بدقائق قليلة، تلا

عليه بيان إعلان الحرب. شتّان ما بين صولات هتلر فى الرايشستاج وما كان يحيط بها من عظمة، وما بين إحساسه الداخلى. هناك العديد من الشهود الذين يؤكدون قلق هتلر وانزعاجه من الدخول فى حرب مع أمريكا، ومن الوضع الذى آلت إليه ألمانيا واضطرارها للقتال فى جبهتين. وهو ما حدا به لتعيين مشير القوّات الجوية، ألبرت كيسلرينج، قائدا عاما للجنوب.

أصبح طابع الحياة غريبا فى ألمانيا خلال العام. فقد تضاءلت أوقات التفكير وتعاظمت ساعات العمل، مما حوّل السكان إلى حالة من الانشغال بلقمة العيش عما سواها. ذكر أحد العاملين بقطاع الصناعة، بعد نهاية الحرب بأربعين عاما:

«عندما تدور عجلة عملك على ثلاث ورديات، ويتم إدراجك على قوائم جبهة العمل،لا يتبقى لديك وقت للاعتراض. بالطبع، كان هناك بعض المعترضين، إلا أنهم كانوا قلّة وكانوا سرعان ما يعدلون عن رأيهم. تجد نفسك تصحو فى الموعد المحدّد ولا تتجاوز الأوقات المحددة لراحاتك، فإغراء المال أقوى من أى شىء. لم أكن أهتم بما يفعله النازيون، وباستثناء مشاركتى الإجبارية فى جبهة العمل، لم تكن تربطنى بهم أية علاقة».

على الرغم من كل ذلك، كانت هناك جبهة معارضة صامتة وحادة، كانت تظهر فى عمليات تجسس وتخريب وحتى محاولات

لاغتيال هتلر، أو كانت تكتفى بالمقاومة السلبية ورفض التعامل مع النظام. مقاومة تجاوزات النازية كانت موجودة، منها مثلا ما تعلّق ببرنامج القتل الرحيم الذى كان يقوده بورمان وكان يتم بعلم هتلر. فقد كان برنامج القتل الرحيم يهدف إلى إنهاء حياة المرضى الذين لا يؤمل فى شفائهم، وكبار السن الذين يودعون دور المسنين ويتم تصنيفهم على أنهم «مواطنون غير منتجين». ألقى أسقف مونستر البروتستانتى، فون جالين، خطبة شهيرة فى أغسطس ١٩٤١، كانت لها تداعيات خطيرة، مما دفعت فون بابين لتضمينها فى مذكراته:

«ليس من المقبول أبدا، أنه فى الوقت الذى يتعيّن فيه على البلاد أن تتوحد لبذل المزيد من الجهود، أن تبدأ الآن حملة جديدة على الكنائس، بدا لى أن هتلر قد اقتنع بمنطقى، إلا أنه، كما هى عادته، ألقى باللوم على متطرفى الحزب. أعطى مارتين بورمان تعليمات لوقف هذه الحملة غير المسئولة، حيث إنه غير مستعد لتحمل أية صراعات داخلية. إلا أن بورمان، كما يبدو، ذيّل تلك التعليمات لرجاله من رؤساء المناطق، بأنه لا يجب أخذها على محمل الجد».

غير أن القلق السياسى الذى حركه فون جالين، قد آتى ثماره. فقد أشار جوبلز بعدم اعتقاله، وأعلن وقف برنامج القتل الرحيم.

كان لا يزال مأساويا مصير اليهود، والغجر، وبيبلفورشر (طائفة شهود يهوه[1]، مجموعة من دارسى الإنجيل الذين كان عددهم نحو ٢٠,٠٠٠ تم الحكم على نصفهم بعقوبات حبس، فى حين لقى نحو ٥٠٠٠ منهم حتفهم فى معسكرات التعذيب)، وأسرى الحرب الروس، والمدنيين من الروس والبولنديين وسكّان جميع البلاد التى دخلتها ألمانيا. فى سبتمبر ١٩٤١. أمر هيملر بإلقاء القبض على جميع الغجر وإيداعهم معسكرات التعذيب للتخلص منهم: تم قتل ١٧,٠٠٠ منهم. لقى أسرى الحرب الروس مصيرا مشابها حيث لم تكن ألمانيا مستعدة لإطعامهم، فكان يتم توجيههم للأعمال الشاقة حتى يموتوا، أو يتم التخلّص منهم عندما لا ترجى منهم أية استفادة. شهد معسكر تريبلينكا فقط مقتل سبعمائة ألف أسير. كان الطلب المتزايد على عمالة صناعات الحرب، يتم تغطيته من السكان المدنيين من الدول التى تُحتل. فقد تم استعباد أكثر من ٢٠ مليون شخص، أغلبهم من الروس والبولنديين، فى الكثير من الشركات وفى قوّات الأس أس وعملوا لكى تتضخم مكاسبهم. كان أصحاب الأعمال يدفعون ما بين ٣ أو ٦ ماركات يومية العامل، ويوم

---

(١) شهود يهوه: إحدى الطوائف المسيحية ولكنها لا تعترف بالطوائف المسيحية الأخرى. يفضلون أن يُدعوا بشهود يهوه تمييزًا لهم عن الطوائف المسيحية الأخرى. كانت بداياتهم فى أوائل سبعينيات القرن التاسع عشر فى ولاية بنسلفانيا الأمريكية على يد تشارلز تاز راسل".

الأس أس، الذى لم يكن ينفق أكثر من ٠,٣٥ مارك على طعامه. وعندما يتحوّل السجين إلى حطام إنسان، لا يقوى على أداء أى عمل، كان الحل هو التخلّص منه، وحتى فى هذا كان عليه أن يشارك فى دعم تقدم الرايخ، فكان رماده يُباع كسماد ويُستخدم شعره فى تصنيع اللباد. باع معسكر أوشفيتس وحده لمصنع أليكس زينك، ٦٠ طنًا من الشعر البشرى بثمن ٣٠,٠٠٠ مارك. بل كانت هناك شركات قامت على استغلال مخلفات البشر، مثل شركة " أكشن راينهارد"، التى كانت تشترى من الأس أس كل متعلقات الأسرى مما يمكن بيعه: ساعات، سلاسل، حُلى، أسنان...إلخ.

لم تكن الحرب لتشغل هتلر عن بغضه للسامية. فقد صدرت تعليمات عليا لهايرديخ بتاريخ ٣١ يوليو١٩٤١، لتذكره أن إجراءات ألمانيا ضد اليهود يجب أن تطبق فى الدول التى تحتلها ألمانيا. من أجل تنسيق جهود الأقسام المعنية، دعا هايرديخ لاجتماع بمقر الجستابو فى فانسيى حضره فى ٢٠ يناير١٩٤٢، ممثلون عن المستشارية، ووزارة العدل، والخارجية، والداخلية، والخطة الرباعية، وإدارة الأراضى المحتلة. سجّل أدولف آيخمان، الذى كان ينتمى للـ RSHA (الجهاز الأعلى لأمن الرايخ)، سجل الموضوعات التى نوقشت وكتب محضر الاجتماع. عندما تمت محاكمته فى إسرائيل، عام ١٩٦١. اعترف أن «اجتماع فانسيى تناول القتل والتصفية والإبادة». فى ذلك الاجتماع وضعت خطط استغلال اليهود، رجالا

ونساء كل على حدة، بصفة أساسية فى أعمال شق ورصف الطرق، على أمل أن يقضى هذا العمل المضنى على معظمهم. أما من يصمدون، فلا بد من التعامل معهم «حسب الاتفاق» وذلك لتجنب أن يعود اليهود للظهور إذا ما تم تحريرهم. فى فانسيى تم تحديد حجم مشكلة اليهود بأحد عشر مليون شخص. لكن، لا كفاءة الألمان، ولا الأعمال العامة التى كانت تقوم بها الأس أس، ولا المحارق، ولا غرف الغازات السامة تمكنت من تنفيذ تلك المذبحة. لايزال هناك الكثير من اللغط حول أرقام الهولوكوست، مع ذلك، يجمع غالبية المتخصصين على رقم خمسة ملايين يهودى تعرضوا للإبادة.

ولكن، من هم المسئولون المباشرون عن هذا العمل الجنونى؟ إنهم عشرات، لكن لابد من إبراز هيملر، وبورمان هايدريخ، وكالتينبرونر، وجوبيلز، وكايتل (المسئول عن القمع العسكرى)، وفرانك، وفريك، وفوق كل هؤلاء، هتلر، الذى لم تكن أوراق الشجر لتتحرك بدون إذن منه. مع كل ذلك، نجد أن رأى البسطاء فى الفوهرر هو رأى غريب نوعا ما، فنجد بستانى من نايسى يصفه: «برجل بسيط وبيتوتى يحب الأطفال والكلاب. أما جريت، إحدى الشابات الصغيرات، وقت الحرب، فتذكر أن والدتها كانت من أعضاء الـ (NSDAP) ولم تحصل على أية مكاسب من وراء ذلك سوى جلوسها فى الأماكن الشرفية أثناء اجتماعات الحزب. تقول إنها كانت تعشق هتلر،

وكانت تقسم على أن ما يصل مسامعها من جرائم النازية المروعة، مجرّد افتراءات من الحاقدين. غير أن والدة جريت كانت لها تجربة فظيعة، حيث كانت ضمن المدنيين الذين أجبرتهم أمريكا على زيارة معسكر داشو، بعد أيام قليلة من فتحه: «عانت أمى من صدمة عصبية، استغرقت وقتا طويلا لعلاجها».

غريب أيضا فقدان الألمان لذاكرتهم فيما يتعلّق بسياسة النازيين فى الإبادة: لم يكن أحد يعلم أى شىء، على الأكثر، كان هناك البعض ممن بلغتهم بعض الشائعات - مثل والدة جريت -. كان هذا الجهل المعمم زائفا. فقد كان أكثر من خمسين ألفا من رجال الأس أس يعملون فى معسكرات التعذيب، وقد تخصصوا فى إبادة الروس والبولنديين. كما كان هناك أكثر من مائة ألف شرطى يأتمرون بأمر الـ (NSDAP) وكانت مهمتهم نقل المنشقين من اليهود، والغجر، والبولنديين، والتشيك، والروس إلى معسكرات الاعتقال. مئات الآلاف من الألمان كانوا يعيشون على مقربة من تلك المعسكرات. ولابد أن رائحة الموت التى كانت تخرج من تلك المعسكرات قد التصقت بأجسادهم على مدى أربع سنوات كاملة. فقد كان عشرات الآلاف من البشر يدخلونها ولا يخرج منها أحد على قيد الحياة. لابد أن صناعات ألمانيا الكبرى كانت على علم، فقد كانت تنتج الغازات السامة التى كانت تستخدم فى تلك الإبادة، كما كانت تتاجر فى بقاياهم ومتعلقاتهم. ليس هناك شك، أن قطاعا كبيرا من الألمان عرفوا ما يجرى، إن لم يكن لسبب، فلأنه، منذ صعود هتلر

إلى السلطة وحتى انتحاره، لقى أكثر من مليونى ألمانى حتفهم على يد النازية. لكن كيف تم نشر هذا الستار من السرية؟ فى الرايخ الثالث، كانت هذه الجرائم يتم التعتيم عليها إعلاميا وبالأفواه المكممة بكمامات الخوف: لم يكن أحد يجرؤ، ولو على سبيل السهو، على تحديد أرقام المحبوسين فى معسكرات الإبادة. بعد انتهاء الحرب، فضل الألمان عدم مواجهة الأمر، إما لإخفاء تصرفاتهم أو لعدم الرغبة فى الدخول فى مشاكل أو خجلا مما حدث على عتبات بيوتهم. علّق مانفريد روميل، نجل المشير روميل وعمدة شتوتجارت فى التسعينيات، على هذا الجهل العام: «كان الكثير معروفا، كان يمكن أن يُعرف المزيد، أمّا ما تبقى، فلم تكن هناك رغبة فى معرفته».

بطبيعة الحال، لابد أن الألمان قد استغرقوا فى أمور حياتهم مع بداية عام ١٩٤٢. فما بين شهرى يناير ومارس، لم تكن ترد من الجبهة سوى أخبار الانتصارات الدفاعية التى كانت تجبر الجيوش الألمانية على التقهقر. فالثلاثة شهور الأولى من عام ١٩٤٢. مات أكثر من اثنين وخمسين ألف جندى تحت ثلوج روسيا، وعاد إلى أرض الوطن نحو مائة وثمانين ألف مصاب. وبدأت شوارع ألمانيا تشهد مرور أبطال مبتورين أو مصابين بالشلل النصفى. أما أخبار جبهة شمال أفريقيا، فقد كانت مشجعة نوعا ما، حيث كان روميل يواصل تقدمه فى اتجاه الحدود المصرية. أما فى البحر، فقد كانت

الغوّاصات الألمانية تهدد بعزل الجزر البريطانية. وكان اليابانيون، فى المحيط الهادى، قد سيطروا على الفليبين، وماليزيا، وإندونيسيا، واقتربوا من طرد الأمريكان من هاواى. فى هذا الوقت، كان هتلر يُعد، بمنتهى العناية، حملته الربيعية على روسيا وضم المزيد من المجندين إلى صفوف الجيش. تم تدريب مليون جندى بين صيف ١٩٤١ وربيع ١٩٤٢.

كان هتلر قد قرّر تنفيذ حملته التى لم يتمكن من تنفيذها فى الخريف السابق، بواسطة ذلك الجيش الجديد المجهّز. نسى موسكو، مؤقتا، وقرّر التقدم نحو القوقاز وستالينجراد. قرّر أن يحرم السوفيت من البحر الأسود، ومن فحم وحديد دونتس، ومن قلاع الصناعة فى مدن روستوف، وفورونيز، وطغانروج، وستالينجراد، وسيباستوبول، ومن بترول القوقاز، ومن غلال أوكرانيا، وجورجيا، وأرمينيا، وكم اقترب من تحقيق ذلك.

من جديد عادت الجيوش الألمانية لتظهر تفوقها على جيوش روسيا، إلا أن هذه كانت قد وعت الدرس، فسعت لتجنب المعارك فى الساحات المفتوحة ولسحب قواتها وتكثيف المقاومة فى المدن والنقاط الإستراتيجية التى تكسر الحصار. من ثم تقدم الألمان فى سهولة، غير أن أعداد أسراهم قد تضاءلت، مقارنة بالحملة السابقة، وقل حجم خسائرهم من العتاد. من جديد، تسبب اندفاع

هتلر وقلّة صبره، فى تغيير خطته، ليركز هجماته على روستوف، مما أدى إلى إرباك قواته وأعطى هدفا إستراتيجيا، مثل مدينة ستالينجراد، شهرا كاملا لتدعم من دفاعاتها. وبعد أن دخلت قواته مدينة ستالين، اكتفى بهذا الهدف، الذى لم يكن سوى كوم من الأطلال ارتوت أنقاضها بدماء جنود أفضل جيوش الأرض وقتها. فى حين كان نقص الرجال والمركبات والذخيرة والوقود يعيق تقدمه إلى القوقاز، حيث كان كل ذلك يستهلك فى ستالينجراد. كان الجنرال كلايست يتعجب فى يأس: «لم يكن أمامنا أى جندى روسى، كما لم تكن فى صفوفنا الخلفية أية ذخيرة». غير أن الروس واصلوا تطبيق تكتيك «الأرض المحترقة» فى مواجهة تقدم الألمان، فقاموا بحرق حقول بترول مايكوب بمنتهى القسوة، حتى إنه لم يعد الإنتاج قبل عام ١٩٤٨.

مع نهاية صيف ١٩٤٢. تأكد تدهور القدرة العسكرية للمحور. كانت القوّات الألمانية تتخبط فى ستالينجراد، فلم تتقدم إلى لينينجراد ولم تحقق أهدافها فى القوقاز، وتحولت إلى الدفاع على جبهتى موسكو والعلمين. بعد أن سب هتلر رئيس هيئة أركان حربه، هالدر، الذى طلب منه الانسحاب إلى المنطقة المركزية من الجبهة الروسية، وقام بتعيين الجنرال زايتزيلر، مكانه. لابد أن المشهد كان عنيفا جدا، بحضور عشرات الجنرالات الذين اجتمعوا فى مقر القيادة الجديد الذى عرف باسم «الرجل الذئب»:

«إن رجال البنادق والملازمين الشجعان يموتون بالآلاف، لأن رؤساءهم يُمنعون من الحل الوحيد المقبول. إننا نقيّد أيديهم. قال هالدر الذى أظهر، أخيرا، بعض الاهتمام.

رد هتلر وهو يكظم غيظه:

«لقد ظللت طوال الحرب العالمية الأولى يا سيّد هالدر تجلس على مقعدك، وهو نفس ما تفعله الآن. هل تعتقد أن لديك ما تعلّمنى به شيئا حول جنودى؟ أنت تحديدا، يا من لا يحمل زيه، أى نوط يشير إلى أى إصابة وقعت لك؟ وأشار هتلر إلى الشريط الأسود الذى يشير إلى إصابته فى الحرب الكبرى».

فى أقل من أسبوعين، كان قد استبدل اثنين من مشيريه الذين كانوا قد أظهروا جدارة فى قيادة القوّات الألمانية، بداية من حملة بولندا: فون بوك وفون ليست، رؤساء جيوش الوسط والجنوب. تولى هو رئاسة جيش الجنوب. من على مسافة ١٥٠٠ كم من الجبهة، تحديدا فى المحيط الهادى، كان حلفاؤه اليابانيون يخسرون معركة ميدوأى، واستولى الأمريكان على جزيرة جوادالكانال بالمحيط الهادى.

فى ٧ نوفمبر، غادر هتلر الجبهة الشرقية ليحضر إحدى مناسبات الحزب الرسمية: الذكرى التاسعة عشر للبوتش. كان روميل قد خسر معركة العلمين، وكان يتقهقر فى اتجاه ليبيا، بينما

كانت إحدى الفرق المجهزة من قوات الحلفاء تتجه إلى البحر المتوسط. فى الوقت الذى كانت فيه القوّات الألمانية تخوض معارك ضارية فى ستالينجراد، ولا تستولى إلا على أمتار معدودة من حطام المدينة، كان هتلر يتخيل ما الذى يمكن أن يفعله بتلك القوات الإنجليزية والأمريكية التى كانت تستعد للرسو على سواحل البحر المتوسط. لم يسمعه أحد، ولا فى مناسبة واحدة، ولا فى أى وقت، يهتم أو يأسى على قوّاته المهزومة. تحدث يوم ٨ مارس فى حانة بورجربراوكيللر التاريخية، ولم يكن من قبيل المصادفة أن يشير إلى اثنين من أكبر انتصاراته: إبادة اليهود والتقدم على جبهة ستالينجراد. قال عن الانتصار الأول: «من بين أولئك الذين ضحكوا فى البداية، الكثيرون لم يعودوا يضحكون». أما عن الثانى فقد افترض كسب المعركة:

«كنت أريد أن أبلغ نهر الفولجا، عند نقطة محددة، عند مدينة تصادف أنها تحمل اسم ستالين، مدينة إستراتيجية تتحكم فى مرور ٣٠ مليون طن من البضائع. إنها مدينة هامة على شبكة النقل النهرى. هذا ما أردت أن أحصل عليه، وهذا ما أصبح بين أيدينا».

كان خطيب الحانات ذاك، يرج جنبات الحانة بصيحات مريديه، غير أن قوّات الخلفاء كانت تفرض سيطرتها، فى تلك الأثناء، على نصف شمال أفريقيا وتحاصر الجيوش الألمانية فى ستالينجراد. مع

نهاية ١٩٤٢، أصبح المحور فى حكم المهزوم. كلّفت معركة ستالينجراد، إحدى أهم معارك الحرب العالمية الثانية، كلا الطرفين مليون و٤٠٠,٠٠٠ جندى، من بينهم ٦٠٠,٠٠٠ قتيل. فى هذه المعركة خسرت ألمانيا وحلفاؤها ٣٦٠,٠٠٠ من جنودها، وأصيب وأسر نحو نصف مليون آخرين. بدأ الرايخ الثالث يتهاوى ويقترب من الدرك الأسفل. بينما راحت جيوشه تتقهقر بعنف ناحية الغرب، بدأت بيوت الألمان تسمع أخبار مقتل أو إصابة مليون من أبنائها فى ذلك العام. فى تلك الأثناء، وعلى الرغم من تضليل جوبلز، عرف الكثير من الألمان أنهم قد خسروا الحرب ولم يحفظ الأمن فى المدن سوى خشية الجستابو. فقط، من لم يرد أن يعرف الحقيقة، ظل على عهد الاعتقاد فى إمكانية النصر، خاصة بعد أن شهدوا تدمير نصف إنتاج العام الصناعى، ذلك الخريف، بعد خسارة شمال أفريقيا، وبعد مشاهدة أداء القوّات الأمريكية فى الجبهة الغربية. أسوأ ما فى الأمر كانت غارات الحلفاء على ألمانيا، حتى ذلك الحين، فبعد أن كانت مجرّد هجمات متقطعة، أصبحت متواصلة وبدا جليا عدم قدرة اللوفتفافة، على صد أى منها.

أدى توالى الهزائم العسكرية، وانزعاج المدنيين وانعدام الانتصارات البحرية إلى زيادة حدة طباع هتلر، الذى بدأ ينعزل وتزداد طباعه حدّة وعنفا. ذكر سبير أن هتلر كان يفقد أعصابه، عندما يسمع بتلك الهزائم ويصرخ، بلا هوادة فى قادته العسكريين:

«لستم جبناء فقط، وإنما كذّابون أيضا! أنتم محتالون وماكرون! هل تتعلمون فى أكاديمية أركان الحرب الخداع والنصب! زايتزلر، هذه البيانات غير صحيحة! أيكذبون عليك أنت أيضا؟ أؤكد لك أن هناك مبالغة فى عرض المسألة حتى أعطى أوامرى بالانسحاب!».

كما كان يشتكى أيضا من ضعف الجنود الألمان فى تلك الفترة، مقارنة بأولئك المقاتلين فى الحرب الكبرى:

«كان جنود الحرب الكبرى أكثر صلابة! كم تحملنا من أهوال فى فيردون وسوميل، لاشك أن جنود اليوم سيفرون مذعورين من مواقف كتلك».

غناء البجع

لم تعد هناك فائدة من ادعاء البطولة. كان عدد سكان دول الحلفاء أربعة أضعاف، وعليه فإن معين تجنيد الرجال منها لا ينضب، وكذلك إمكاناتها الصناعية كانت تتفوّق بأربعة أضعاف وكان موقفها الإستراتيجى أفضل بكثير. مع نهاية شتاء ١٩٤٢ ثم ١٩٤٣. كانت الجبهة الشرقية قد شهدت تقهقرا ملحوظا لقوّات ألمانيا مقارنة بالعام السابق، وأصبح جنرالات روسيا على يقين من أن النصر غدا فى صفهم. فى جبهة شمال أفريقيا، لم تكن المقاومة اليائسة لقوّات ألمانيا وإيطاليا سوى سراب فى الصحراء الكبرى: فهناك فرض الحلفاء، سادة البحر الأبيض المتوسط، سيطرتهم

وأصبح النصر حليفهم. أما فى البحر، فعلى الرغم من خسائر غوّاصات دونيتز التى لم تصل لنصف خسارة العام السابق، فإن مصانع إنجلترا وفرنسا كانت تضاعف إنتاجها باستمرار. وأما عن الجو، فقد بدا جليا أن اللوفتفافة قد اضمحلت أمام التفوّق العددى والتكنولوجى لقوّات الحلفاء، التى بدأت تدك، ليل نهار، المراكز الصناعية والمدن الألمانية والإيطالية والفرنسية. فى عام ١٩٤٣ عانت هامبورج، وبرلين، وبريمن، ورين، وروان، وبوردوونانتس، وروما من القصف الجوى، كذلك حقول البترول الرومانية فى بلواستى ومعاقل الصناعة فى راينلاند وكولون. لم تكن الأمور فى المحيط الهادى بأفضل، فقد حطت الأمريكان بنجاح على جزر الوشيان وسليمان وجورفيا الجديدة وغينيا الجديدة. على طوال عام ١٩٤٣ تم إجبار المحور على التراجع فى شمال أفريقيا، كما نزلت قوّات الحلفاء بإيطاليا وتم عزل موسللينى؛ وفشلت آخر أكبر حملات ألمانيا على الجبهة الشرقية، فى كورسك. أما فى الاتحاد السوفيتى، فقد بدأ الروس يسيطرون على الجو، وأصبح الطيران الأحمر هو الغالب، وتمكن ستالين من الإمساك بزمام المبادرة والهجوم.

لم تكن الأوضاع فى البحر المتوسط أفضل حالا فى ذلك الخريف من عام ١٩٤٣. فقد تحوّلت إيطاليا إلى صف الحلفاء وبدأت تواجه ألمانيا. أما موسللينى، فبعد أن نفى إلى جبال الغران

ساسو، شكل حكومة فاشية فى سالون لم تكن سوى إحدى عرائس مسرح قرارات ألمانيا. علّق هتلر على أزمة حليفه فى بلاغة كبيرة:

«من المنطقى أن أشعر بالحزن إزاء الظلم البيّن الذى يعانى منه الرجل، وإزاء الإهانة التى يتعرّض لها. فهذا الزعيم، السياسى، خلال السنوات العشرين الماضية كافح فقط من أجل إسعاد شعبه والآن تتم معاملته باعتباره مجرم همجيًا».

بناء على ما تقدم، أصدر هتلر أوامره لقوّاته بإطلاق النار على جميع القادة الإيطاليين الذين يحاربون ألمانيا، فى الوقت الذى تعيّن عليه تدعيم الجبهة الجنوبية لوقف زحف قوّات الحلفاء. لكم كان هتلر يكره الحرب فى جبهتين، فكيف به الآن وهو مضطر للمحاربة فى أربع جبهات: الشرق، وإيطاليا، والطيران، وعمّا قريب، فرنسا.

مع كل هذا، ومع اقتراب هذا العام المأساوى من نهايته، كانت ألمانيا لاتزال تمتلك جيشا رائعا قوامه أربعة ملايين جندى، غير أن البلاد كانت على شفا الانهيار. فقد تعدت أعداد القتلى المليون واقتربت أعداد المبتورين والمشوّهين من هذا الرقم، وكانوا سبّة فى جبين الحرب فى جميع المدن الألمانية. غير أن الأسوأ كانت المعاناة من هجمات بريطانيا الجوية التى تستمر طوال الليل، ثم تتسلم الغارات الأمريكية منها الراية نهارا. خلال شهر ديسمبر من عام ١٩٤٢، نفذ الأمريكان ٥٦١٨ عملية قصف على مواقع داخل أراضى

الرايخ الثالث، ألقوا خلالها ٢٥,٠٠٠ طن من القنابل التى استهدفت قلاع الصناعة وشرايين الطرق وحقول البترول. فى نفس هذا التوقيت، تولت بريطانيا أمر المدن الألمانية: فبين شهرى نوفمبر وديسمبر ١٩٤٣، ألقى على برلين ١٤,٠٠٠ طن من المتفجرات، حولت عاصمة الرايخ إلى ساحات من الحطام. إذا جمعنا كل ذلك، فسنجد أن الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا ألقتا على ألمانيا ١٣٥,٠٠٠ طن من القنابل، خلال عام ١٩٤٣ فقط، مما تسبب فى دمار كبير بالبلاد وخسائر فادحة فى الأرواح والممتلكات. كان تأثير ذلك أقل على الإنتاج الصناعى، الذى حطّم كل الأرقام القياسية فى ذلك العام. غير أنه لا بد من الإشارة إلى أن ألمانيا خصّصت، لأغراض الدفاع الجوّى عن الرايخ فقط، ربع ما تملك من القوّات البشرية ونسبة مقاربة من إنتاجها من المدفعية، وهو ما كان أكثر مما كانت تستخدم إيطاليا أو فرنسا(١٠٪ و٢٠٪ على التوالى).

بينما كانت المدن الألمانية تتحوّل إلى حطام، ويواجه سكانها أخطار القصف والجوع، الذى لم تتمكن من سده حصص التموين المقررة؛ وأحزان الحداد، التى غزت غالبية الأسر؛ ومن إرهاق ساعات العمل الطويلة؛ ومن الخوف من الجستابو، التى امتلأت سجونها بكل من سوّلت له نفسه الاعتراض. لم يكن هتلر يشعر تجاه هذا الشعب الذى واصل الصمود على الجبهتين الداخلية

والخارجية، على الرغم من إنهاكه وجوعه وخوفه، سوى بمشاعر الاحتقار: "لو خاننا شعب ألمانيا، فلن يكون أهلا لكفاحنا من أجل بناء مستقبله، وعندها، سيكون حريا بنا أن نتخلّص منه، وعن استحقاق".

لم تلبث فرنسا أن دخلت ساحة الأحداث. مع نهاية عام ١٩٤٣. قام أحد الخدم من العاملين بالسفارة البريطانية بأنقرة، عرف باسم كودى هو «شيشرون» بإمداد السفير الألمانى لدى تركيا، فون بابين، بمعلومات مهمة تفيد فتح جبهة ثانية كان اسمها المشفر هو «أوفرلورد». تناول هتلر هذا الأمر فى توجيهاته التى حملت رقم٥١:

«لايزال الخطر محدقا فى الشرق، غير أن هناك تهديدا أخطر بدأ يطل برأسه من الغرب: عملية إنزال لقوات من أمريكا وبريطانيا! فى الشرق، تتيح المساحات الشاسعة التقهقر، إلى مسافات كبيرة دون أن يصاب الجهاز العصبى الألمانى بما لا يمكن علاجه! غير أن الوضع فى الغرب مغاير تماما! لو تمكن العدو من اختراق دفاعاتنا، فإن النتائج ستكون كارثية. كل المؤشرات تتبئ بأن العدو سيشن هجوما من الجبهة الغربية الأوروبية، وأن ذلك لن يكون بعد نهاية الربيع المقبل، إن لم يكن قبل ذلك».

بهدف مواجهة هجوم حلفاء الدول التى احتلها عام ١٩٤٠. من جبهة المحيط الأطلنطى، أمر هتلر بإنشاء «جدار الأطلنطى» وهو

خط دفاعى من التحصينات يمتد من حدود إسبانيا إلى النرويج. فى حقيقة الأمر كلمة جدار كان مبالغًا فيها، إذ لم يكن بالقوة الكافية سوى فى نقاط معدودة، حسب ما تأكد منه روميل، الذى أسند إليه هتلر، مع نهاية ١٩٤٣، مهمة تسريع عمليات البناء الدفاعية.

كان هتلر يعتمد على نصف مليون جندى للدفاع عن هذا الساحل، جنود كانت المقاومة الفرنسية قد أجهدتهم. فقد أحسن الفرنسيون التعاون مع ألمانيا خلال عام ١٩٤٠. أما فى عام ١٩٤١، فقد بدأت برلين تحتاج لأيد عاملة للسفر إلى ألمانيا، وهو ما حدا بالكثير من الفرنسيين للتحايل على الموقف. زادت المقاومة الفرنسية عام ١٩٤٢، للحد الذى أعدم معها الألمان ٤٧٦ رهينة ما بين شهور نوفمبر ١٩٤١ ومايو١٩٤٢، فى محاولة لوقف عمليات الهجوم. غير أن عام ١٩٤٣، شهد ارتفاع كفاءة المقاومة وتنظيمها والوسائل التى كانت تستخدمها. تلقت من بريطانيا ٨٤٥٥ طنًا من المواد تمكن الألمان من وقف تهريب نصفها تقريبا. يكفى للتدليل على كفاءة المقاومة أنها، خلال شهر مايو من عام ١٩٤٤ - تم عشية عملية أوفرلورد- قد تمكنت من تدمير قاطرات وعربات قطار وترام أكثر مما دمر القصف الأمريكى الإنجليزى فى ذلك الربيع. أما عن أرقام العمليات، فهى تحمل عميق الدلالات: حصر الألمان ٧٥٩٧ عملية ضدهما بين شهور سبتمبر ١٩٤٣ ومارس ١٩٤٤. خسائرها البشرية تعكس نشاطها: ٨٢٣٠ قتيلاً و٢٥٧٨ مختفيًا. كان قوام نشطاء

المقاومة، فى أحلك فتراتها، ١٥٠,٠٠٠ شخص، ثلثاهم من المخبرين والمراسلة، والثلث الأخير من المسلّحين.

مع عدم التقليل من أهمية عمليات المقاومة الفرنسية، فإن أكثر ما كان يثير قلق ألمانيا هو محاولتهم تخمين المكان الذى سيهاجم منه الحلفاء. كانت هناك ثلاثة آراء. كان روميل يرى أن النقطة المختارة ستكون السين نظرا لاتساع شواطئها ونقص دفاعها. أمّا فون روندستيدت، قائد قطاع الغرب، فكان يرى أن كالى ستكون نقطة الهجوم، صحيح أن دفاعها أفضل، غير أنها الأقرب إلى الجزر البريطانية وتتصل جيدا بباريس. غير أن هتلر كان يرى أن الهجوم سينحو أكثر ناحية الشمال، جهة هولندا، مما سيمكنهم من الهجوم مباشرة على قلب برلين. كانت قوّات الحلفاء، بقيادة الجنرال آيزنهاور، على علم بتساؤلات جنرالات هتلر، ومن ثم أمطرهم بوابل من المعلومات المغلوطة: قصف جميع النقاط المحتملة للهجوم وفعل المستحيل حتى يعتقد الألمان أن كالى هى نقطة انطلاق «أوفرلورد». كان التساؤل الثانى لجنرالات ألمانيا هو كيفية مواجهة الهجوم. كان رأى هتلر أن يتم إلقاء العدو فى نفس البحر الذى سيأتى منه، غير أن فون رودنستيدت، كان يرى أن المقاومة على السواحل لن تجدى، وأن من الأفضل أن يهزمهم عندما يتوغلون، دون أن يتمكنوا من تثبيت أقدامهم ولا تنظيم إمداداتهم.

كان هتلر مترددا وكان يستمع إلى المشيرين ويوافق على رأى الأخير فى العرض. مما أدى إلى حالة هجينة من الصعب تعريفها:

كـان يـدافع قـلـيـلا عن كل الآراء ويـسـتـجـمع الـدفـاعـات المـهـمـة للانقضاض على نقطة ما والهجوم عليها. يجب أن تلقى بالعدو إلى البحر، منذ اللحظة الأولى، ولكن مع تجهيز أفضل التحصينات فى الداخل لحمايتها من مدافع الأعداء. إذن، فإن استعدادات ألمانيا من أجل الدفاع عن كل شىء، ستؤدى لئلا تدافع ألمانيا عن أى شىء. بدا أن نظريات روميل هى الأقرب إلى الصحة، غير أن المشير لم يكن لديه الوقت والوسائل ولا المخصصات التى تتيح له تحصين خليج السين، كما كان يريد. كما لم يتم إمداده بوحدات المدرعات الساحلية كما طلب. اليوم وبعد ثلاثة آلاف دراسة حول عملية الإنزال التى تمت فى نورماندى، يتفق المحلّلون، بأغلبية كبيرة، على أنه كان باستطاعة روميل أن يكبّد الأعداء خسائر فادحة، حتى إن فتح الجبهة الثانية معها كان سيتأخر لأكثر من عام لو أنه حصل على ما طلب من تجهيزات.

خسر هتلر، بسبب عمى بصيرته وغروره وجهله ببواطن الأمور ومجريات الحرب آخر فرصه الكبيرة لتوجيه ضربة قوية لتداعيات وجوبية كان الحلفاء سيفرضونها عليه، فى الوقت الذى كانت فيه أركان كل ما هو حوله تتقوّض.

فى الواقع كان المحور يتهاوى. ففى المحيط الهادى، كان الأمريكان قد نزلوا بجزر مارشال وكارولين وواك، وتمكنوا من حصار اليابانيين فى بيرمانيا. غير أن أكثر المناطق الميئوس منها بالنسبة لهتلر كانت فى الشرق وفى إيطاليا. فقد استعاد الروس

أوكرانيا، بيلاروسيا والقرم فى النصف الأول من عام ١٩٤٤. وتوغلوا داخل أراضى بولندا ورومانيا. أما الحلفاء فبعد أن تكبدوا خسائر فادحة، راحوا يدعّمون جبهات مونتى كاسينووأنزيو ويدفعون الألمان إلى الانسحاب من روما التى استقبل سكانها القوّات الأمريكية استقبال الفاتحين فى ٤ يونيو. تخلص هتلر من حليفه النرويجى القائد هورتى واحتل البلاد حتى يضمن عدم تحولها. من جهتها، أعلنت تركيا موقفها المؤيد للحلفاء وأوقفت إمداداتها من الكروم للرايخ الثالث. كان القصف يدمر ألمانيا شيئا فشيئا. من يناير إلى يونيو وجه الحلفاء ١٠٢ تشكيلة جوية كبيرة - بعضها كان يتكون من أكثر من ٢٥٠ «قلعة طائرة[1]»- على المدن الألمانية: برلين، ونورمبرج، وفرانكفورت، وهانوفر، وماجديبرج، ودويزبورج، ولايبزيج، وغيرها الكثير. لم يحقق قصف الحلفاء هدفه من ضرب صناعة السلاح ولكنه نجح نسبيا فيما يتعلق بالوقود، حيث انخفض إنتاجها إلى النصف من إنتاج الخام وتصنيعه وتكريره. كان تأثير ذلك كارثيا على شبكة الطرق التى اهترأت تماما وكذا على شعب ألمانيا، حيث أصبح ملايين الألمان بلا مأوى، وحصلت موجة من الهجرة الداخلية للبحث عن مأوى يحميهم من عقاب السماء الشديد. فى نفس الوقت الذى كانت قواهم خائرة من جرّاء ساعات

---

(١) القلعة الطائرة ترجمة عن الإنجليزية (Flying Fortress) ، بمعنى قاذفة القنابل الثقيلة.

العمل الطويلة، وسُحب الركام وإعادة رصف الطرق ومداواة الجرحى ودفن الموتى.

أدى سوء الأحوال على الجبهات والتهديد بالغزو والفوضى والدمار الداخلى إلى تدهور صحة هتلر. ذاك الرجل الذى كان قد بلغ ٥٥ عاما فى شهر أبريل، وإن كان يبدو أكثر من سنه بكثير، وقد تخلّى عنه نشاطه وطاقته الخارقة. وصفه الجنرال سالموث فى ذلك الربيع: «رأيت شيخا عجوزا يدخل من باب الحجرة، محنى الظهر وذا وجه مريض متورم. كان مظهره مجهدا ومرهقا وفى رأيى، كان يعانى من المرض». نضب معينه من القوى، وتم استهلاك صحته عن آخرها. لم يعد فى رأسه سوى هاجسين: أمله فى الأسلحة الجديدة، قنابل طراز V ومقاتلات الصد ورغباته الانتقامية. كان يحلم بتدمير لندن، وأعطى أوامره بقتل طيارى الحلفاء الذين يقعون فى الأسر، لو كانوا مسئولين عن قصف المدنيين من الألمان.

مع فجر ٦ يونيو، وبعد ليلة طويلة تحت صفارات الإنذار ومعارك قوّات مظلات تم إنزالها وسط المدنيين، بدأت حملة الحلفاء من فرنسا والمعروفة باسم «عملية أوفرلورد». بدأت مثلما توقع روميل، من خليج السين. ومثلما خشى المشير، كانت دبّابات القتال بعيدة عن مواقع كفاءة قتالها، عندما أصدر هتلر أوامره بتحركها. حتى مع وجود معوقات غير منتظرة، فإن عملية الإنزال تمت بنجاح

وتمكنت بعد مرور شهر واحد من إنزال مليون جندى راحوا يشقون طريقهم فى اتجاه باريس ويدمرون آخر قوى هتلر. فى تلك الفترة، بدأت ألمانيا تطلق على إنجلترا قنابل V1 و V2 الشهيرة التى لم يكن لها تأثير كبير، باستثناء الصدمة الأولى: تم قصف لندن بـ١٠,٥٠٠ قنبلة، ولم يتمكن سوى ربع هذه العدد من تحقيق هدفه فدمرّت نحو ١٥٠٠ مجمع سكنى، وقتلت ٦٠٠٠ شخص وأصابت ١٨,٠٠٠. الكثير من الدماء والكثير من الألم، غير أن كل ذلك لم يغير من المقدّر شيئا.

لابد أن نعترف أن ما كان سيغيّر القدر حقا، ويحل المشكلة قطعيا، ويحفظ حياة عشرة ملايين إنسان، كان بالتأكيد محاولة اغتيال هتلر التى قام بها العقيد فون شتاوفنبورج يوم ٢٠ يوليو ١٩٤٤ بمقر «جحر الذئب». كان العقيد جزءا من مؤامرة عسكرية ومدنية تسعى لإنهاء الحرب بأسرع ما يمكن. اشترك فى هذه المؤامرة جنرالات متقاعدون مثل بيك ومشيرين من المفضلين لدى هتلر، مثل روميل وفون كلوج. فى أحد الاجتماعات بمقر القيادة العامة لهتلر فى راستنبورج، قام فون شتاوفنبورج، بزرع قنبلة، كان يخفيها فى حقيبة مستنداته، أسفل طاولة الاجتماع، ثم تعلّل بعذر ما للانسحاب. انفجرت القنبلة بعد بضع دقائق وأودت بحياة ثلاثة من المجتمعين وأصابت عددا كبيرا من الحضور، بمن فيهم هتلر، الذى جُرح ذراعه وتعرّض لبعض الحروق والرضوض بساقيه

وتأثرت طبلة أذنه. فشلت المؤامرة، بسبب تردد بعض المشتركين فيها، مثل المشير فون كلوج - رئيس جبهة الغرب -، وبسبب أخطاء متآمرين آخرين فى برلين، ومن ثم لم يبرح هتلر السلطة ولم تتوقف التراجيديا. امتدت إلى المتآمرين أو المشتبه فيهم: تم اعتقال سبعة آلاف شخص وتم إعدام ١٧٠ آخرين. فضّل روميل وفون كلوج إنهاء حياتهما بأيديهما، فانتحرا. لم يكن هتلر ليعرف الرحمة، وكانت أوامره بهذا الخصوص أكثر من واضحة: «يجب أن يتم تعليقهم كما تعلّق الذبائح فى السلخانة». لم تكن تلك المذبحة الهوجاء سوى مثال لما كان يجرى فى الرايخ: فقد كانت معسكرات الاعتقال فى الشرق يتم إخلاؤها من نزلائها عن طريق إطلاق الغازات السامة ليلقوا حتفهم فى التو، أو بشحنهم على مراكب تجارية قديمة فى بحر البلطيق، على أن يتم ثقبها فتغرق. أو بشحنهم فى قوافل لا نهائية الطول، مشيا على الأقدام فى اتجاه الغرب، فيموتوا تعبا ومن لم يمت منهم، يتم إطلاق النار على رقبته ليلقى المصير المطلوب.

بعد أن عانت من ويلات الحرب التى سحقتها مرتين باعتبارها ضحية لها، قررّت وارسو أن تثور على الألمان بعد أن استشعرت القوة، باقتراب القوات الروسية من ضواحيها. يوم ١ أغسطس ثار جيش بولندا السرى على أوامر الجنرال بور كوموروسكى وسيطر على زمام المدينة. غير أن هجوما مضادا للألمان فى تشيكوسلوفاكيا، اضطر الجنرال بور كوموروسكى للتراجع مئات

الكيلومترات، واضطر الثوار لمواجهة انتقام النازية، التى سلّطت عليهم آخر ما تبقى لديها من قوّة ضمت رجال الشرطة والمجندين المحدثين والروس المرتدين. لم تتجه جيوش روسيا إلى المدينة لدعمها، ربما نتيجة الإجهاد أو القرار السياسى. كما منع ستالين طيران تشرشل من أن يمد المحاصرين بالذخيرة والأغذية، مما حدا بالكثيرين لأن يفسروا هذا الموقف برغبة موسكو فى أن يقضى النازيون على البولنديين. صمدت مقاومة الجنرال بور كوموروسكى اليائسة حتى ٢ أكتوبر. خلال شهرين من القتال، لقى ٢٢,٠٠٠ بولندى مصرعه وتم إطلاق النار على ما لا يقل عن ١٥,٠٠٠ مدنى، باعتباره إجراء قمعيًا بسبب الانتفاضة. على مدى سنوات الحرب، خسرت بولندا ٥,٥ مليون نسمة من أبنائها، لم يكن منهم سوى ٢٠٠,٠٠٠ من غير المدنيين. كانت ردود فعل غضب وعجز من جرّاء الهزيمة الموشكة وردود فعل مريضة كانت تسعى للقضاء على ما تجده أمامها لعلمها أن الهزيمة قادمة لا محالة، وأن المنتصر سيقضى عليها.

يوم ٢٥ من أغسطس ١٩٤٤، استسلم الألمان فى باريس؛ كما شهد يوما ٢٤ و٢٥ فسخت كل من رومانيا، وبلغاريا، وفنلندا، تحالفها مع هتلر، وطلبوا بعدها بقليل وقف القتال، استولى الحلفاء على جميع الأراضى الفرنسية وتوغلوا فى ألمانيا وهولندا، حيث واجهوا خسارة آرنهيم[1]، التى أوقفت الزحف فى اتجاه الغرب، مما

أعطى هتلر فرصة لالتقاط أنفاسه. غير أنها كانت فرصة وجيزة للغاية، فقد كان الألمان يخسرون فى البلقان واليونان، وكان السوفيت يتوغلون داخل تشيكوسلوفاكيا والمجر. فى الوقت الذى كان فيه الحلفاء يخترقون دفاعات ألمانيا عند «خط سيجفريد». أما فى المحيط الهادى، فقد كان الأمريكان قد رسوا عند الفلبين وانتصر الإنجليز فى بيرمانيا. غير أن هتلر لم يكن مهتما بجبهة المحيط الهادى: كان يعتبر اليابانيين حلفاء أنانيين وغير أوفياء، تسببت سياستهم مع روسيا فى بالغ الضرر لألمانيا.

ألقت روح الهزيمة بظلالها على مقر قيادة هتلر. دوّنت إحدى سكرتيراته فى مذكراتها ما يلى:

«كان من المثير للأعصاب أن ترى الرجل، الذى كان بوسعه وبجرة قلم أن يضع نهاية للمعاناة والألم، يقبع منهكا على مقعده، ينظر إلينا مرهقا وهو يراقب كيف كان كل شىء ينهار من حولنا».

غير أن هتلر، حتى مع تعبه وعجَزه، كان لا يزال يرسم خيالات انتصاراته ويعطى أوامره بتجنيد كل من يمكنه أن يحمل السلاح، حتى لو كان رجلا تعدى الخمسين من عمره أو أطفالا فى الخامسة

---

(١) آرنهيم: مدينة وبلدية هولندية تقع فى شرق البلاد، وهى عاصمة مقاطعة خيلدرلند. يبلغ عدد سكانها ١٤٢,٦٣٦ نسمة.

عشر والسابعة عشر، حيث يتم تدريبهم فى الفولكستورم ومراكز شباب هتلر. بهذه الطريقة، كان لديه مع بداية عام ١٩٤٤، جيش من ٤ ملايين جندى، على الرغم من أن مستواهم كان أقل من جيش أعوام (١٩٤١ - ١٩٤٣) وتدريبهم سطحى وتسليحهم أسوأ، خيث كان غطاؤه الجوى فى تلك الفترة ضعيفا لا يقوى على شىء.

بهذه القوّات الجديدة وبفضل تضاؤل نشاط الحلفاء، تسنى لهتلر أن يستجمع قواه، وأن يلعب آخر أوراقه. كان جنرالاته يرون فى تلك القوّات الوسيلة المثالية لتوجيه ضربات لبعض القوّات السوفيتية التى كانت قد تمركزت فى نقاط إستراتيجية داخل حدود ألمانيا أوالمطرقة التى سيستخدمونها فى معاقبة حلفاء الغرب، حينما يفكرون فى عبور الراين. لم يكن هتلر مقتنعا لا بالرأى الأول ولا بالثانى، لأنه كان يعرف ان تلك القوّات سرعان ما ستفقد تماسكها فى جبهة أو أخرى ولن تتمكن، على أحسن التقديرات سوى من تأخير الهزيمة شهرا لا أكثر. كان اقتراحه أكثر جرأة وخيالا: سيعود لتجربة حظه فى الأردين[1]، ويخترق الجبهة الهشة للحلفاء، التى لا يحميها سوى برد الشتاء وضباب شهر

(١) الأردين «بالفرنسية: Ardennes» منطقة غابات تقع بين بلجيكا ولوكسمبورج وفرنسا. شهدت المنطقة إحدى أواخر معارك الحرب العالمية الثانية فى نهاية عام ١٩٤٤، وبدايات عام ١٩٤٥، والمعروفة بمعركة الثغرة. يخترقها نهر الميز أحد روافد نهر الراين.

ديسمبر المعتاد الذى يلف المنطقة، لينعطف بعدها ناحية البحر، ويباغت نحو مليون جندى من الحلفاء فى هولندا. سيتمكن من إحراز نصر كبير يتيح له التفاوض على سلام، على حدة مع إنجلترا وفرنسا ليوجه كل قوته إلى السوفييت الذين تجاوزوا كل الحدود فى اعتداءاتهم على المدنيين مقارنة بممارسات ألمانيا أثناء حملاتها فى السنوات السابقة. كان هتلر يحلم وهو مستيقظ، غير أنه كان محقا فى شىء واحد: انتصاره فى الأردين سيمنع الحلفاء من القتال لمدة لا تقل عن ستة أشهر.

بدأ هجوم ألمانيا مع فجر يوم ١٦ أغسطس وكان مفاجأة أذهلت الأمريكان الذين، على الرغم من تفوقهم، فإنهم استسلموا فى كثير من الأصعدة، غير أن الوقت لم يطل قبل أن تتبدى نقاط ضعف ذلك «الكل شىء أو لا شىء» الذى لعبه هتلر. كان هناك نقص فى الوقود والمؤن والقوّات والتدريب، وكانت هناك فرضية أن الأمريكان سيصمدون لوقت أقل أو أنهم سيفرون تحت تأثير الرعب. بما أن هذا لم يحدث، بدأ الهجوم يفتر شيئا فشيئا حتى توقف نهائيا فى ٢٣ ديسمبر، حيث انقشع الضباب وخفت السحب، مما سمح بعمل القوات الجوية للحلفاء. فى هذه اللحظة فقد الألمان آخر آمالهم فى أى انتصار. فى منتصف الطريق إلى تحقيق أهدافهم، تلقوا عقابا جويا أجبرهم على التراجع، مع نهاية العام. قد يكون الحلفاء قد خسروا ٧٧,٠٠٠ قتيل و٧٣٣ دبّابة قتال و٥٩٢ طائرة، غير أن

خسارة الألمان كانت ٨٢,٠٠٠ قتيل، و٣٢٤ دبّابة قتال و٣٢٠ طائرة. إن الفرق الكبير كان يكمن فى أن الحلفاء سيتمكنون من استعاضة خسائرهم خلال شهر؛ أما بالنسبة للفيرماخت، فكانت «غناء البجع».

فى مقدمة الترام

ظهر جليا استنزاف قوّات الألمان خلال أيام معدودة. فى ١٢ يناير ١٩٤٥. بدأت حملة السوفيت الهجومية الكبرى من أعلى جسر فارانوف ببولندا، حيث تلقت إشارة الانطلاق خمس فرق من الجيش، يبلغ إجماليها ثلاثة ملايين جندى انتشروا على طول ١٢٠٠ كيلومتر، من ليتوانيا حتى المجر. خاضت الفيرماخت القتال بنقص عددى بنسبة ١ إلى ٢ فى سلاح المشاة و١ إلى ٣ فى المدرعات و١ إلى ٥ فى المدفعية و١ إلى ١٢ فى سلاح الطيران. ليس من العسير التنبؤ بالنتائج: فى ٦ فبراير، استولى الروس على بولندا وبروسيا الشرقية وجزء من بوميرانيا، وأصبحوا على مسافة ٥٠ كيلومترا من برلين. أدى هذا الزحف السريع إلى أكبر حركة نزوح مدنى، على مدى التاريخ. يذكر المؤرخ العسكرى، إيدى باور، أن ثمانية ملايين شخص انطلقوا إلى الطرقات، تحت درجات حرارة بلغت ٢٥ درجة تحت الصفر، مما تسبب فى ارتباك كبير، واضطرار الجيش إلى الانسحاب. لم يتمكن مليون ونصف مليون شخص من بلوغ الضفة الغربية لنهر أودر - نيس، ولقوا حتفهم مجمدين على جنبات

الطرق، أو تحت مطرقة السوفيت، أو دهستهم أقدام الجماهير الغفيرة الهاربة بعد أن تمكن الرعب منها. فى تلك الأيام، مات أكثر من ثلاثمائة ألف جندى ألمانى، وهم يقاتلون فى معارك دفاعية يائسة، وتم أسر خمسمائة ألف آخرين وترحيلهم إلى سيبيريا التى لم يتمكن من العودة منها، سوى عُشر هذا العدد. كان هتلر هو المسئول عن تلك الكارثة. كان جودريان الذى خلف زايتزلير فى رئاسة هيئة أركان الحرب، قد طلب من الفوهرر أن يأمر بسحب قوّات ألمانيا المرابطة فى كورلاند والنرويج. نحو ثمانمائة جندى مدججين بالسلاح، ليقوموا بحماية حدود ألمانيا. ثار هتلر بعد سماعه هذا الطلب، إذ كان يعتقد بأن أعداد القوّات الروسية، بها الكثير من مبالغات جهاز الإعلام الألمانى، وأن طلب جودريان كان مجاوزا لكل الحدود، حيث كان سيتسبب فى إهدار الأسلحة الثقيلة التى كانت بحوزة تلك الجيوش. لم يكن فى مقدور الجنرال أن يقنع هتلر، الذى ظل متمسكا بأمله فى الانتصار وبرأيه فى أن عمليات الانسحاب تلك، كانت بمثابة تخليه عن تلك الأحلام.

لم يكن فى استطاعة أحد أن يفسر أساس تلك الآمال، سوى أنه قد أصيب بلوثة عقلية. عاد إلى برلين من «عش النسر» أحد مقرات قيادته المتعددة أثناء الحرب، يوم ١٦ يناير. مرّ قطاره بعشرات المحطات المدمرة، وتسببت الأنقاض فى تعطيل تقدمه لساعات طويلة نتيجة الدمار البالغ الذى أصاب ألمانيا ولم يطق

صبرا على الانتظار. قال أحد العقداء الذين اعتادوا مرافقته بصفة دائمة، عبارة تلّخص حال تلك اللحظة: «عمّا قريب، ستصبح برلين أفضل مقر قيادة، حيث سنتمكن من الذهاب إلى الجبهة الشرقية بالترام، وبالترام أيضا سنتوجه إلى الجبهة الغربية». لم يتعرف هتلر على معالم برلين، كما لم تتمكن القوّات العامة التى خرجت لاستقباله من إزاحة آثار الدمار التى كانت تسد الكثير من الشوارع. كان بالمدينة مليون وثمانمائة ألف منزل تعرّض نصفها للقصف بالقنابل وأصبح ثلثها غير صالح للسكن. انهار جناح كامل من مقر المستشارية، وتحولت الحديقة إلى ما يشبه سطح القمر من كثرة الحفر التى صنعتها انفجارات القنابل، كما لم يكن هناك لوح زجاج واحد سليما فى المبنى كله. حتى غرف هتلر الخاصة، أضحت مثالا للدمار: تم تنظيفها فى عجالة، لكن آثار التجريح والتلف علت قطع الأثاث، من جراء تساقط الجص عليها، وظهرت الشقوق على الجدران. على الرغم من ذلك، بقى هتلر هناك، وشهد آخر أيام ذلك الجحيم الذى كان هو من فتح فوهته، حتى دفعته موجة جديدة من القصف لأن يقرّر الانتقال إلى البونكر.

مع بدايات عام ١٩٤٥. ذلك العام المشئوم بالنسبة للنازية، كان هناك مؤتمر مشترك للحلفاء، ستستمر قراراته حتى القرن الواحد والعشرين: مؤتمر يالتا . فى منتجع شبه جزيرة القرم، اجتمع زعماء الدول الثلاث االكبرى: ستالين وروزفلت - الذى كان وقتها مجرّد

جثة متنقلة - وتشرشل. هناك تم ترسيم حدود ما بعد الحرب وإنشاء هيئة الأمم المتحدة وتحديد نقاط سيطرة الإيديولوجيا الروسية والرأسمالية وتقسيم ألمانيا... إلخ. مجموعة من التخطيطات امتدت لنحو نصف قرن ولم تزل بعض تأثيرتها ملموسة حتى يومنا هذا.

لم يتأثر هتلر عند سماعه أخبار يالتا المبهمة. لكنه استشاط غضبا عندما بلغه خبر استيلاء مجموعة صغيرة من مقاتلى الولايات المتحدة الأمريكية، على جسر ريماجن، على نهر الراين. وسط تلك الفوضى، لم تكن عملية ريماجن سوى مزحة، حتى إن الأمريكان لم يحسنوا استغلالها، لكنها كانت كافية، لأن يعود هتلر لإظهار حالات غضبه المميتة وأذاه اللامعقول. أولا، أمر بإعدام أربعة من المسئولين عن الوحدات الموجودة على مقربة من الجسر، وثانيا، وبينما ألمانيا تغرق فى بحر من الفوضى، شهد ذلك الجسر جميع أنواع الهجمات، بما فيها استخدام لصواريخ V2-. كان الجسر سينهار من تلقاء نفسه، أثناء عبور قوّات الحلفاء الغفيرة يومى ٢٣ و٢٤ مارس لنهر الراين، من نقاط كثيرة ويقتربون، فخورين فى اتجاه إلبا. لقى نصف مليون من جنود ألمانيا حتفهم، أو أصيبوا، أو أسروا، أو طوردوا فى تلك العمليات. أصبحت المسيرة نحو برلين عبارة عن نزهة عسكرية، ومع ذلك توقف الأمريكان والإنجليز عند الضفة اليسرى لإلبا. أهدى آيزنهاور برلين

للسوفيت. يقال إن الجنرال برادلى أبلغ قيادته أن بلوغ برلين سيكلفه قرابة ١٠٠,٠٠٠ جندى، وبالطبع، على ضوء هذه الكلفة، تم اتخاذ قرار التنازل عن عاصمة ألمانيا. لو صح ذلك، لكان الجنرال برادلى يجهل تماما حجم القوّات الألمانية التى كانت تسد الطريق إلى ألمانيا، مجرّد ٢٥٠,٠٠٠ جندى، سيئى التسليح وبلا طائرات ومعنوياتهم فى الحضيض وبلا أى دافع قتالى ضد الحلفاء الغربيين. أو أن آيزنهاور كان مصابا بالعمى السياسى. دامت آثار ذلك القرار حتى عام ١٩٨٩.

بطبيعة الحال، كان ستالين يعرف قدر برلين وقيمتها الرمزية، وحتى مع إجهاد قواته نتيجة معارك شهور يناير وفبراير ومارس، أعطى أوامره لمسيريه باستئناف الهجوم. فى ١٦ أبريل، بدأت مجموعات جيش المشير زوكوف إطلاق نار ٢٠,٠٠٠ مدفع بطول ١٠٠ كيلومتر على جبهة أودر. برلين، على بعد ٨٠ كيلومترًا، سمع دوى الانفجارات وهى ترتعد من الخوف. صمدت مقاومة ألمانيا أربعة أيام، انتهت بالسيطرة والتطويق وأسر وتدمير قواتها المستنزفة.

وقعت الكارثة الجديدة، يوم ٢٠ أبريل. فى هذا اليوم بلغ هتلر عامه السادس والخمسين. صعد درجات السلم مستهترا وخرج إلى حديقة المستشارية، حيث هنأ مجموعة شابة من جماعة شباب هتلر، كانوا قد تميزوا فى القتال. كانت هذه آخر مرّة رأى فيها

ضوء النهار. فى المساء، اجتمع بالبونكر عدد كبير من العسكريين وكبار الساسة ليقدموا له التهنئة. استقبل الكبار منهم واحدا تلو الآخر واختلى بالحديث معهم لبضع دقائق. حضر بعدها اجتماع حرب، فشل الحضور، خلاله، فى إقناعه بالخروج من برلين. مع ذلك أمر دونيتز بنقل مقر قيادته إلى شمال ألمانيا ومعه كبار القيادات العسكرية، بمن فيهم كايتل وجودل، على أن يخرج جورينج، الذى كان قد جهز قافلة كبيرة من عربات النقل لإخراج كنوزه -التى تم جمعها من مقراته ببرلبن، ومن قصر كارينهال- متجها إلى بيرختيسجادن. ذكر بعض شهود العيان أن هتلر فوجئ بخروج جورينح، فى حين أكد آخرون أنه ودعه بمنتهى الود، وطلب منه أن يأخذ حذره، ويتأكد من أن الحلفاء لن يتمكنوا من قطع الطرق. عندما خرج الجميع، غرق البونكر فى صمت مطبق. بعد أن عاد هتلر إلى مكتبه، قال لسكرتيراته:" أشعر كأننى لاما فى التبت، يواصل فى يأس، تدوير دولاب الصلوات. لابد أن أنتصر على القدر هنا، أو أن أموت فى برلين". فى صباح اليوم التالى، أيقظه خادمه، لينج، ليخبره وهو يرتعد خوفا، بأن السوفيت قد بدأوا قصف برلين. بالفعل، كانت المدفعية الثقيلة، تقصف نقاطا على بعد ٢٠ كيلومترا من قلب العاصمة. كان السوفيت قد اخترقوا صفوف الألمان، وراحوا يتقدمون بسرعة كبيرة إلى عاصمة هتلر. بعد ثلاثة أيام، تحديدا يوم ٢٤ مارس، أحكمت الكماشة السوفيتية قبضتها على برلين.

كان لايزال بالمدينة قرابة مليوني مدني ونحو ٢٠,٠٠٠ رجل مسلّح تجمعوا من وحدات سبق وأن تقوّضت - منسحبة أمام زحف الروس - وبعض قوّات الشرطة ومن دفاعات الوزارات والبلديات ومن شباب هتلر ومن الفولكستروم. كانوا مسلحين بجميع أشكال الأسلحة، حيث كان عباقرة المخترعين فى ورش سلاح برلين وضواحيها قد تم حشدهم، لكنها كلها كانت أسلحة فردية: مسدسات وبنادق ورشاشات وبانزيرفاوستن (قنابل مجوّفة التعبئة، مصنوعة لمواجهة الدبابات، تم استخدامها بنجاح كبير فى برلين أثناء قتال الشوارع).

كانت هذه آخر قوّات هتلر، حيث إن باقى القوّات التى تمسك بها، عن غير وعى المقيمين بالمستشارية، لم تكن سوى آمال خادعة. كان الجيش التاسع، بقيادة الجنرال بوس، عبارة عن جيب متحرك، انسحب من الأودر فى اتجاه الغرب وسط الجيوش السوفيتية، وضم بين أعداده الكثير من اللاجئين المدنيين. قادتهم براعة بوس إلى إلبا، حيث استسلم للحلفاء بعد أسبوعين من المقاومة. كان فيلكس ستاينر، أحد جنرالات الأس أس، الذى حصل على ترقية من هتلر فى وقت ليس بالبعيد. جاءته أوامر بكسر حصار برلين من الشمال، والتقى قوات سوفيتية تفوقه بكثير من حيث العدة والعدد، مما أجبره على التحوّل إلى الدفاع. كان ستاينر ذا طابع عنيف، كما كان

يفتقر إلى الحنكة، لكنه لم يكن غبيا، وكان على دراية، بأن تلك المجموعات، غير المتجانسة التى يقودها، بأسلحة لا تتجاوز البنادق والمسدسات والرشاشات، لم تكن لتشكل قوّة من شأنها أن تخترق صفوف زوكوف. تم استبدال ستاينر بهولست، الذى لم يتمكن، هو الآخر من تغيير الوضع الدونى الذى كان عليه الجنود. كانت الآمال المعقودة على وينك، ترتكز إلى أساس كونه قائدا للجيش الثانى عشر الذى استطاع أن يدور من إلبا إلى برلين ولم يهتم بأمر هتلر ورجاله، وإنما بسكان العاصمة العزّل. خاضت قواته معارك ضارية ضد جيوش السوفييت، من أجل كسر الحصار وتمكن فى ٢٨ أبريل من الالتحام بحامية بوتسدام وبمقدمات جيش بوس. فى ٢٩ أبريل، كان الجيش التاسع والثانى عشر، قد أهلكا استنزافا، اضطرا للتراجع إلى إلبا، تحت ضغط السوفيت. كان لا بد لهتلر أن يواجه قدره بمفرده.

فى انتظار المعجزة

قبيل منتصف ليل يوم ٢٩ أبريل، حضر إلى البونكر، رئيس دفاع برلين، الجنرال وايدلينج. لم يكن يعلم بتفاصيل الوضع خارج المدينة، غير أن أخباره المتعلقة بحرب الشوارع، لم تكن على ما يرام. كانت المعارك عنيفة، حتى تلك الساعات عند محطة بوتسدام، إلا أن رجاله كانوا بحاجة إلى قنابل وأسلحة ثقيلة، ولم تكن هناك من

سبيل لإصلاح دبابات القتال ولا مدافع الهجوم، وكان هناك نقص فى البانزيرفاوستن.

«سيدى فوهرر، إن رجالنا يقاتلون ببسالة وإيمان لا يلينان، غير أننا قد استنزفنا وأحيط بنا. لن نتمكن من الصمود لأربع وعشرين ساعة أخرى».

ران صمت رهيب على المكان، لم يقطعه سوى صوت هتلر وهو يسأل جنرال الأس أس موهنك، رئيس البونكر العسكرى، إذا ما كان هذا نفس رأيه.

«أجل سيدى الفوهرر، تعوزنا الأسلحة الثقيلة وتنقصنا الذخيرة. لا نستطيع أن نسد فراغ من نفقد من رجالنا، حيث لا توجد لدينا أى قوّات احتياط. كما أن المساحة المتبقية لنا قد تضاءلت، لدرجة أصبح علينا أن ننقسم إلى مجموعتين لمواجهة السوفيت».

كان هتلر قد سمع ما يكفيه. نهض بجهد جهيد، وأشار بالخروج من القاعة الصغيرة، غير أن سؤالا من الجنرال وايدلينج استوقفه:

«سيدى فوهرر، ما الأوامر التى سأعطيها لرجالنا، عندما تنفد الذخيرة؟».

سكت هتلر برهة متأملا:

«بما أننى لا أستطيع أن أعطى أوامر باستسلام برلين، فلتقل لرجالك عندما تنفد الذخيرة، أن يخرجوا فى جماعات صغيرة ويحاولوا أن يخترقوا صفوف السوفيت وينضموا لقوّات دونيتز».

خرج من الغرفة، غير أن آخر فكرة ظلّت تشغل باله، حتى إنه كتب رسالة تأكيد على ما قال فيها للجنرالين وايدلينج وموهنك. بمجرّد أن انتهى من كتابتها، مع منتصف تلك الليلة، وصلته برقية كايتل التى يرد فيه على الأسئلة الخمسة التى سبق وأن سألها هتلر فى الساعة: ١٩:٥٢

١ - إلقاء القبض على قوّات وينك، جنوب بحيرة شويلو.

٢ - بالتالى، لم يتمكن الجيش الثانى عشر من مواصلة هجومه فى اتجاه برلين.

٣ - قوّات الجيش التاسع محاصرة.

٤ - اضطرت قوّات هولست أن تتحوّل إلى الدفاع».

لف صمت رهيب قراءة البرقية. لم تكن هناك حاجة للتعليق، لكى يتجلى معنى تلك الإجابات: انهزمت آخر قوّات ألمانيا. لم يعد هناك أى أمل فى أى إنقاذ. لقد حُكم عليهم بالموت.

من الصعب تحديد المدة التى استغرقها ذلك الوضع، غير أنه فى ساعة ما، بين الثانية والثالثة من فجر يوم ٣٠ أبريل، قامت إيفا براون بجمع النساء فى ممر الدور العلوى للبونكر، الذى كان يستخدم أيضا كقاعة طعام عامة. ماجدة جوبيلز والسكرتيرات والطبّاخة وبعض الممرضات وزوجات الضباط اللائى كن لايزلن كانوا لا يزالون هناك، اجتمعن معا ووقفن فى صف بمحاذاة

الجدار. كن شاحبات ومرهقات وقد ظهرت الهالات السوداء حول أعينهن. كن بمثابة تجسيد لهزيمة ألمانيا. خرج هتلر من مكتبه، برفقة بورمان، وصعد الدرج القصير الذى يفصل الدورين عن بعضهما، وهو يجر ساقيه. شد على أيديهن، واحدة تلو الأخرى، وهو يتلفظ بكلمات مبهمة، ردا على عبارات أمل خجولة. فقدت إحدى الممرّضات أعصابها وتحدثت بهستيريا متمنية له بالانتصار. قطع هتلر حديثها وأجابها بصوت متحشرج: «لابد أن أتقبل القدر مثل الرجال». وواصل مصافحة الباقيات. عندما انتهى، عاد إلى مكتبه، يتبعه ظله، مارتين بورمان.

تصف الممرضة إيرنا فليجيل - التى تم نشر أقوالها فى يوليو من عام ٢٠٠١. أثناء تحقيقات وكلاء وحدة الخدمات الإستراتيجية الأمريكان معها، عام ١٩٤٥ - ذلك الوداع البائس: «حاولت إحدى النساء دعمه "سيدى الفوهرر، نحن نؤمن بك وبأن النصر آت عمّا قريب" كان رده عليها: "لا بد أن يثبت كل إنسان فى مكانه ويصمد، حتى لو قُدر له أن يموت فيه". ابتعد بعدها وهو يوشك أن يموت تعبا».

فسّر الكثيرون وداع هتلر، على أنه إعلان عن نيته فى الانتحار على الفور. سرى الخبر سريعا فى الدور العلوى من البونكر، ولم يمض وقت طويل حتى علت ضوضاء الأحاديث والضحكات

والاحتفال. كان رجال الأس أس، ممن يحرسون البونكر لساعات طويلة، يتسلّلون كل ليلة إلى الشوارع المجاورة للبحث عن رفقة بعض النساء للتسلية. كانت هذه الممارسات الترويحية تتم وسط تكتم وإن كانت معروفة ومسموحًا بها. فى تلك الساعات الأولى، غطت أصوات اللهو على ما سواها حتى أصوات القصف فى الخارج، لدرجة اضطرت هتلر لأن يعطى أوامره لمساعديه العسكريين، بأن يفرضوا النظام والهدوء. لكن يبدو أنهم لم يوفقوا فى مهمتهم، حيث كان رئيس الحرس الشخصى للفوهرر، الجنرال راتينهوبر يشارك فى الاحتفال. لابد أن هتلر شعر بالمرارة، عندما شعر أن اقتراب نهايته كان وراء تلك الجلبة، حتى من جانب أخلص الناس له. لكن لابد أن الأمر لم تكن صيحات حبور، بقدر ما كان تعبيرا عن الإحساس بالراحة، بعد أن شعروا بقرب انفراج الضغط الرهيب الذى عايشوه على مدى أسابيع، فراحوا ينفسون عن المخاوف التى كانت تعتمل فى صدورهم مما هم على وشك أن يواجهوا. جميعهم كانوا يدركون أنهم، خلال ساعات معدودة، سيكونون فى عداد الموتى أو سيقعون فى أسر الجنود الروس.

لم يكن معروفا إذا ما كان هتلر سيتخلّص من حياته فى ذلك الفجر، لكن المؤكد أنه قد استسلم وانسحب إلى غرفته مع إيفا براون، مستعدا للخلود إلى النوم وليشهد، فى الصباح التالى ما سطر له القدر من مآس فى اليوم الجديد.

فى اليوم التالى، صحا هتلر مرتاحا، على غير المتوقع. كان قد استغرق فى نوم عميق لمدة تتراوح ما بين خمس إلى ست ساعات، وهوما لم يحدث فى الفترة الأخيرة. حلق لحيته بعناية مستخدما الموسى - ذكر فى إحدى المناسبات لإحدى سكرتيراته «لا أحب أن يقترب أحد بالموسى من رقبتيب» الوصول إلى الشعيرات البيضاء التى كانت تختبئ بين ثنايا تجاعيد رقبته. ماذا لو حدثت معجزة؟ فى كثير من مواقف حياته الصعبة، حدثت معجزات ساندته وخدمت مصلحته. استبعد، فى مرارة، بارقة الأمل تلك.

لقد أدارت الأقدار له ظهرها منذ زمن. ارتدى ملابسه متأنقا وفى ذوق عال: قميصا أخضر وحلة سوداء وجوارب وحذاء متناسقة الألوان. خرج إلى مكتبه. لم تكن إيفا هناك، فقرّر أن يتناول إفطاره بمفرده غير أنه سمع طرقا على الباب فى تلك اللحظة، إنه القائد العسكرى للبونكر، العميد موهنك، الذى قدم له ببعض الأخبار المشجعة. لقد استمرت طوال الليل معارك المقاومة حتى آخر حجر ببرلين. انخفضت كثافة قصف مدافع السوفيت، وهو ما كان ملحوظا فى البونكر ذلك الصباح؛ غير أن المشاة واصلوا قتالهم المستميت وفجروا أسافينهم فى الشمال والجنوب، فى محاولة منهم لقصم منتصف المدينة إلى نصفين، لإضعاف آخر جيوب المقاومة هناك. ذكر موهنك أن رجال الأس أس قد أغرقوا أنفاق المترو، مما أدى إلى غرق القوّات الروسية التى كانت تتقدم فيها، وأمكن

التصدى لهجماتهم، كما قادوا أكثر من هجوم مضاد عند المخارج، معتمدين على عنصر المفاجأة، ومستخدمين وابلا من قنابل اليد وقنابل الهاون. لقد استعادوا السيطرة عن طريق هجوم بقنابل اليد والخناجر على محطة مترو شلايشيسر وبعض المبانى، مما أدى إلى تخفيف حدة قبضة الروس، عما كانت عليه مساء اليوم السابق.

لم يكن هتلر ليجرؤ على أن ينساق وراء الأمل، الموجود دائما، فى المعجزات. تناول إفطاره زاهدا وفى عجلة، على الرغم من أنه لم يكن هناك ما يفعله سوى انتظار موعد المؤتمر العسكرى فى منتصف النهار. حضر هذا المؤتمر، الجنرالات كريبس وبوردورف وموهنك ووايدلينج. حضر هذا الأخير يعلوه الغبار وتحيط بعينيه هالات سوداء واسعة، وبذقن لم تحلق لمدة يومين وتفوح منه رائحة البارود، فقد كان قادما من الشارع، بعد أن قضى الفجر فى تشجيع وتنظيم المدافعين، داخل نطاقه الدفاعى الضئيل. حضر أيضا، جوبلز وبورمان. سأل أحد الحاضرين عن أخبار اليوم، فشعر وايدلينج، آخر من قدم من الشارع، بضرورة أن يعطى ردا اجتماعيا:

«فى الخارج الجو يشهد رياحا عاتية ورطوبة عالية. اعتقد أنه سيكون كثيف الضباب، بفعل دخان الحرائق، حيث لا يمكن التنبؤ بأمر التفجيرات، غير أنى أستطيع أن أقول إن النهار لم يطلع بعد على وسط برلين».

شرح بعدها تفاصيل الواقع المرير أمام الحاضرين من أعلى قيادات الرايخ الثالث، الذين كانت أعينهم لا تزال تنطوى على بعض من بريق الأمل. والحقيقة، أن الروس كانوا يتوغلون داخل حديقة الحيوانات، وكانوا قد دخلوا ميدان بوستدامربلاتز، وسيطروا على أرصفة محطة متروفرايدريشستراسى، وعلى أنفاق محطة فوستراسى، وكانوا مشتبكين على جسر وايدندامر، وكانوا قد احتلوا جزءا كبيرا من جادة أونتر دن لندن. بمعنى، أنهم يضغطون بقوة على قوّات ضعيفة، تقل عنهم بكثير، حتى لو كانت تستبسل فى القتال. كانت المدفعية الروسية قد تركت فرصة لالتقاط الأنفاس، ليس لنقص فى الذخيرة، وإنما لنقص فى الأهداف. لم يعد فى إمكان مدافعهم الثقيلة أن تنطلق، خشية أن يضربوا جنودهم. كان إغراق محطات المترو عملا مجنونا، صحيح أنها قد أوقفت تقدم السوفيت لبضع ساعات، ولكن جاء ذلك على حساب أرواح آلاف المدنيين من سكان برلين الذين لجأوا إلى أرصفة الأنفاق يحتمون بسقفها. فى الحقيقة، لم يتغير شىء. حافظ الروس على استمرار ثبات تقدمهم وسط مقاومة كانت أعدادها تتناقص وأسلحتها وذخيرتها تنفد. سمح وايدلينج لنفسه، أن يفتخر بإنجازات آخر المدافعين عن برلين، الذين كانوا فى أغلبهم من رجال الأس أس المدربين المتمرسين، ومن بعض المتطوعين بجبهات الشرق ورجال من فرق هانزشار، وإيتاليان، وفالونى، وفلاندرن، وشارلماجن،

ونوردلاند. أى أن آخر الرجال الذين قاتلوا ببسالة دفاعا عن برلين كانوا من الفرنسيين، والبلچيك، والهولنديين، والسلوفاك، والإيطاليين، والإسكندينافيين، والإسبان. لم يعدو ثباتهم وخبرتهم وإقدامهم أن تكون مجرّد جدار واه، يواجه هجمات الروس فى منطقة لا يزيد عرضها على كيلو متر واحد. لقد تضاءلت إمبراطورية هتلر لمساحة ١٢ هكتارا من الحطام.

سرعان ما انطفأت شعلة الأمل الضعيفة فى أعين هتلر والحضور. بعد عرض وايدلينج الملخص للوضع، اختلى هتلر بجوبلز وبورمان وأخبرهم بأنه سينهى حياته مساء ذلك اليوم. طلب بعدها العقيد جونشى وطلب منه بأن يحضر إلى مكتبه بعد ساعة، أى فى تمام الساعة الثالثة. سينهى هو وزوجته حياتهما، وعندما يتم ذلك، سيكون على العقيد التأكد من مفارقتهما الحياة، ولو ساوره أدنى شك، فعليه أن يطلق الرصاص على رأسيهما. سيتعين عليه، بعد ذلك، أن يخرج جثتيهما إلى حديقة المستشارية، ليلتقى كلاً من كيمبكا وبور اللذين سيحضران ٢٠٠ لتر من البنزين، كما طلب منهما فى اليوم السابق، ليستخدماها فى حرقهما وتحويلهما إلى رماد.

«عليك أن تتأكد بأن الاستعدادات تتم على أكمل وجه، وأن تجرى الوقائع كما أمرت. لا أرغب أن يعرض جسدى فى السيرك، أو فى

متحف شمع وأى مكان مشابه. آمرك أيضا أن تحتفظ بالبونكر على حالته. أريد أن يعرف الروس أننى قد بقيت هنا، حتى آخر لحظة».

عندما رد جونشى، ذو الوجه الكلابى، وقد انهمرت دموعه على شدقيه، بأنه سيحرص على تنفيذ كل الأوامر، بحذافيرها، سُمع صوت طرق على الباب. دخلت ماجدة جوبيلز دون أن تنتظر السماح لها بالدخول، وقد علت وجهها الشاحب أمارات المرض والحبس داخل البونكر ومعاناة معايشة رغبة زوجها فى انتحاره، ومشاركتها له فى هذه الرغبة، هى وأبناؤها الستة، فى انتحار جماعى. رجته ماجدة، وهى راكعة ألا يتخلى عنهم. فكّر هتلر، بشىء من الغرور، فى الحب الذى طالما أكنه فى صدره لتلك المرأة الجميلة، ولأخريات لم تتح له فرصة التقرب منهن، وشعر بأهمية أن يعطيها شرحا مهمًا وتاريخيا لفكرة موته: لو لم ينه حياته، فلن يتمكن دونيتز من التفاوض على وقف القتال، الذى أصبح هو الإجراء الوحيد الذى سينقذ إنجازاته ويحمى ألمانيا برمتها. خرجت ماجدة وتوجهت إلى الدور الأوّل لتنضم إلى أبنائها الستة، الذين كانوا كلهم لا يزالون أطفالا. أدركت أن هتلر، ذلك الرجل المعبود، على مدى خمسة عشر عاما، لم يفهم القصد من زيارتها. كانت تبحث عن فرصة لخلاصها هى حتى لا تضطر لقتل أولادها، الذين راحت تتأملهم بعينين مغرورقتين بالدموع، بينما كانوا يلهون فى غرف الدور الأول الضيّقة فى البونكر.

عندما قرر هتلر أن يتناول غداءه، كانت الساعة تشير إلى الثانية والنصف ظهرا. رافقته إيفا براون، شاحبة، حتى غرفة الطعام، فى كامل أناقتها، حيث كانت ترتدى فستانا أزرق مرقطا بالأبيض، وجوارب رمادية اللون، وحذاء إيطالى الصنع بنى اللون، وساعة من البلاتين مرصعة بالألماس، وإسورة ذهبية يزينها حجر أخضر؛ إلا أنها لم تشته الطعام وفضلت العودة إلى غرفتها. شارك الفوهرر، فى الغداء الأخير، سكرتيرتاه اللتان بقيتا معه فى البونكر، فراوتراولد جونجى وفراوجيردا كريستيان وطاهيته النباتية: فراولين مانزيالى. كان غداء بسيطا اكتنفه الصمت لم يدم طويلا. تناول الجميع الإسباجيتى بالصلصة، فى دقائق معدودة، لا تذكر أى من النساء الثلاث أن كلمة واحدة قيلت خلال تلك الدقائق.

عاد هتلر إلى غرفته بعد انتهائه من الغداء، غير أنه فوجئ فى الممر بوداع آخر. لحقت به هناك النساء الثلاث اللاتى شاركنه غداءه وانضمت إليهن فراولين كروجر، سكرتيرة بورمان، التى قدمت من بونكر. كما كان هناك زملاء قدامى من الـ (NSDAP) وجوبلز، وبورمان، والجنرالات كريبس، وبورجدوف، وممثل البحرية فى مقر قيادة هتلر نائب القائد الأعلى هانز إيريك فوس، ورئيس حرس هتلر الخاص هانز راتينهوبر وكذا وارنر ناومان - أحد مساعدى جوبلز كان يقوم بأعمال التنسيق بين الوزارة والمستشارية والدبلوماسى والتر هيويلز، أحد قدامى الأعضاء فى الحزب

ومنسق بين الخارجية والمستشارية - والمساعد جونش والقهرمان لينج، والطيّار باور والسائق كيمبكا. تقدمته إيفا وراحت تحتضن النساء، بينما كان الرجال يقبلون يدها. كانت شاحبة اللون، غير أنها كانت رابطة الجأش، حتى إنها رسمت ابتسامة خفيفة على شفتيها. أما هتلر، فقد كان متوترا وشد على يد الجميع فى برود دون أن ينبس ببنت شفه، وتبع زوجته إلى غرفة المكتب. غادر الجميع، باستثناء جونشيه ولينج، اللذين كانا ينفذان أوامر الفوهرر بالوقوف على بابه حتى بعد موته. كان ذلك نحو الساعة الثالثة والربع أو النصف من مساء يوم ٣٠ أبريل ١٩٤٥.

جلس فى غرفة الخرائط كل من جويلز وبورمان جحريبس وبورجدوف ينتظرون الحدث. جلس الجميع فى صمت تام، وتعلقت جميع جوارحهم بانتظار سماع صوت إطلاق رصاص من مسدس. غير أن أصواتًا مكتومة فى الممر قطعت الصمت. كانت ماجدة جوبيلز تقوم بمحاولتها اليائسة الأخيرة لإنقاذ عالمها والحفاظ على حياة أبنائها، وتتصارع مع جونشى، ذلك العملاق الذى كان طوله يقارب المترين من أجل أن تدخل غرفة المكتب. فشلت فى إزاحته عن طريقها، إلا أنها نجحت فى أن تجعله يدخل إلى المكتب وينقل رسالتها إلى الفوهرر:

«أبلغه أن هناك الكثير من الأمل، وأن انتحاره جنون. قلْ له أن يسمح لى بالدخول لكى أقنعه».

دخل جونشى إلى المكتب وحضر آخر دقائق من حياة هتلر. كان يقف أمام لوحة فريدريك الكبير بالقرب من مكتبه. لم يجد إيفا براون، وإن كان افترض أنها بداخل الحمام، حيث سمع صوت تشغيل سيفون المرحاض. نظر هتلر لجونشيفى باندهاش وتساؤل صامت. عندما شرح له الأمر، رد هتلر فى برود وتصميم: «لا أرغب فى مقابلتها».

بعد نحو عشر أو خمس عشرة دقيقة، ما بين الثالثة والنصف والرابعة عصرا، سُمع دوى إطلاق الرصاص. مرّت لحظات طويلة، بعدها أقنع لينج جونشيه بضرورة الدخول، وهما يعرفان ما كان ينتظرهما. فتحا الباب ووجدا أدولف هتلر وإيفا براون جثتين هامدتين. كانت إيفا حافية تجلس على الأريكة، وقد وضعت قدميها على هتلر واسندت رأسها على كتفه. كانت قد قضمت كبسولة سيانيد البوتاسيوم وكانت ساقاه متصلبتين، مما قد يُعزى إلى الألم الذى قد يسببه ذلك المركب، عالى السُميّة. كان هناك مسدس صغير لم تستخدمه، على الشمعدان، فى متناول يدها كما كانت هناك زهرية ورد صناعى، يبدو أنها أسقطتها مع سكرات الموت. أما أدولف فقد كان جالسا على الأريكة أمام صورة فريدريك الكبير. كانت رأسه تستند إلى ظهر الأريكة وفمه معوج وبه بقايا كبسولة السيانيد البللورية. فى جانب رأسه الأيمن، كان هناك ثقب أسود تسيل منه الدماء، وقد ظهرت آثار شياط على ما يحيط به

من شعر نتيجة الطلق النارى. كانت يده اليسرى موضوعة على قلبه وتمسك بصورة أمه التى احتفظ بها لمدة خمسين عاما. أما يده اليمنى فقد كانت تتدلى بلا حراك، بعد أن سقط منها على الأرض المسدس طراز والتر ٦٥.٧. الذى لابد وأنه قد استخدمه فى نفس الوقت مع السم.

بعد دخول جونشى ولينج المكتب، دخل جوبلز وبورمان، ثم تبعهما آكسمان، رئيس شباب هتلر، الذى كان يقاتل وسط أطلال برلين وكان قد حضر إلى البونكر خصيصا لوداع هتلر، ولم يتمكن سوى من رؤيته ميتا. تسجلت تلك اللحظة بصورة أمامية لهتلر التقطها أحد الحاضرين. لم يكن هناك وقت للمزيد. تم لف جثة الفوهرر فى بساط الأرضية، فى حين ظلت جثة إيفا على حالها عند موتها وتم إخراجهما إلى حديقة المستشارية، عن طريق سلّم الطوارئ. هناك ثلاث روايات حول عملية النقل: تقول الأولى، إن رجالا من الأس أس قد صعدوا بهما على سريرين متنقلين؛ وتؤكد الثانية، على أن لينج وبورمان قد حملا جثتى هتلر وإيفا على كتفيهما وصعدا بهما؛ أما الثالثة فهى قريبة من الثانية، إذ تختلف معها فقط فيمن حمل الجثتين على كتفيهما، لتشير إلى أنهما: السائق كيمبسا والعقيد جونشى. أيا كان من حملهما، فقد وضعاهما فى حفرة فى الأرض، من تلك التى تسببها قنابل القصف بالقرب من مخرج الطوارئ وسكبا عليهما البنزين وأشعلا النار.

وأسدل الستار

روى شهود تلك الوقائع روايتين عما كان بعد ذلك. بعضهم قال، إنه لم تمض بضع دقائق لهم أمام الجثث التى كانت تحترق - جثة هتلر كانت ملفوفة فى البساط - حتى بدأت المدفعية الروسية فى القصف وسقط عدد من الصواريخ على الحديقة، مما اضطر شهود العرض الجنائزى للاحتماء بالبونكر. أما الفريق الثانى، فيؤكد أن المجموعة الحاضرة ظلّت لفترة طويلة تراقب احتراق الجثتين وقد سكبوا المزيد من البنزين على كومة الإحراق، وانتهوا بأن شاهدوا العظام المتفحمة لهتلر وإيفا. تكفلت الأتربة التى رفعتها القنابل التى تساقطت مع مساء ذلك اليوم، بالتغطية على البقية الباقية، وإن كان من المرجح أن بعض رجال الأس أس قد قاموا بدفنهما، بناء على أوامر من راتينهوبر. كان شهود عملية الحرق هم: بورجدورف، وجونشى، ولينج، وكيمبكا، وثلاثة ضباط، وثلاثة من رجال الأس أس.

كان مصير جميع من شهد آخر يوم فى حياة أدولف هتلر، مصيرا مأساويا. أطلق جوزيف جوبلز وزوجته ماجدة النار على نفسيهما، بعد أن أعطيا السم لأبنائهما. انتحر بورجدورف جحريبس فى البونكر فى اليوم التالى. كما قتل كل من بورمان وجونشيى وموهنك، بعد ساعات أثناء محاولتهم الخروج من برلين. بينما ألقى الروس القبض على فوس وباور وراتينهوبر وهيويل

ولينج، ولم تعرف أى أخبار عنهم بعد ذلك. فى حين اختفى رجال الأس أس الثلاثة، الذين شهدوا احتراق الجثث، بين أطلال برلين.
يعود مصدر الروايات المختلفة حول موت هتلر ونقل جثته وحرقها إلى لينج - كان قد روى التفاصيل للسكرتيرات فراو جونجى، وفراو جحريستيان، وفراو جحروجر، اللاتى نجون من الحرب وكن شاهدات فى محاكمات نورمبورج- وإلى كيمبكا وآكسمان اللذين تمكنا من الخروج من برلين، قبل أن يلقى الأمريكان القبض عليهم وإلى جنود الأس أس الثلاثة، مانزفيلد، وكارنو، وهوفبيك، الذين شاهدوا النيران وهى تلتهم جثث هتلر وإيفا براون والذين نقل شهادتهم أحد أكبر المتخصصين فى فترة ما بعد هتلر، المؤرخ البريطانى هوج تريفور روبر.

فى ١٠ فبراير ٢٠٠٢. توفيت آخر شهود تلك الأحداث، تراودل جونجى، عن عمر يناهز الثانية والثمانين. عملت سكرتيرة لهتلر منذ عام ١٩٤٢، حتى وفاته. كانت هى من نسخت وصية هتلر وكانت أقوالها أثناء تحقيقات المخابرات الأمريكية وقضاة نورمبرج أساسية فى رسم معالم المأساة. فى عام ١٩٤٧. كتبت تراودل مذكراتها حول الثلاثين شهرا التى تعاملت فيها مع هتلر، غير أنها لم تنشرها سوى فى يناير من عام ٢٠٠٢. بعد أن شعرت باقتراب نهايتها، تحت عنوان «حتى آخر ساعة». إلى جانب نشر هذه المذكرات سجلّت لقاء مصورا، لمدّة عشر ساعات، مع أندريه جيلرز،

الذى قدم نسخة مختصرة منه فى مهرجان برلين السينمائى- بيرلينالى - فى نفس عام ٢٠٠٢. لم تقدم كل هذه المواد أى جديد، بالنسبة لما سبق أن صرّحت به فى أعوام (١٩٤٥ ، ١٩٤٦) باستثناء إحساس الندم الذى خالجها ومشاعر الاحتقار التى أصبحت تكنها لذلك النظام ولذلك المتوحش اللذين خدمتهما، مثلما فعل باقى أبناء وطنها:

«الآن، فى إمكانى القول إن هتلر كان مجرما، فمن قبل، لم أكن آراه كذلك، لا أنا ولا الملايين غيرى لم أسمعه قط يتحدث عن إبادة اليهود، مع أى أحد. لم يساورنى شعور ألبتة بأنه يتعامل مع نفسه على أساس أنه مجرم. كان يعتقد أنه يعمل وفق مبادئ معينة. لقد دهس جثث الملايين، فى سبيل تحقيق غاياته».

أى أنها تقدم تأملات ما بعد الأحداث، نتجت عن حياة عاشتها تحت ضغط كونها عملت سكرتيرة للوحش والشكوك التى كانت تحوم حول جهلها بالفظائع التى كانت ترتكبها النازية. غير أن هذه الرواية كانت بها جملة لافتة للنظر تصف إحساس من بقوا فى البونكر بعد انتحار هتلر: «كرهته، لأنه تخلى عنا بهذه الطريقة. لم يعرف أى منا كيف يتصرّف. لم تكن لنا حياة تخصنا».

بطبيعة الحال يعتبر مصير بقايا جثة هتلر موضوعا ذا روايات متعددة. يرى البعض أنها قد اختفت إلى الأبد. ثم هناك رواية

الروس، الذين صرّحوا بها بعد أعوام، وهى رواية تؤكد أن الجنود الذين دخلوا المستشارية بعد يوم ونصف يوم، قد تمكنوا من معرفة مكان تلك البقايا وأخذوها ونقلوها إلى موسكو، حيث قام أطباء روسيون بتشريحها، وتأكدوا من هويته وأكدوا لستالين موت هتلر. فى هذ السياق، تجدر الإشارة إلى أن الحكومة السوفيتية لم تبد أى اهتمام بمعرفة مصير هتلر، كما أن محكمة نورمبرج لم تشكك فى موته. غير أن سجلات روسيا الرسمية، لم تؤكد ذلك حتى الآن.

على الرغم من كل ذلك، نشرت مجلة دير شبيجل الألمانية الأسبوعية، بتاريخ ٣ أبريل ١٩٩٥. أن السوفيت بعد أن تأكدوا من شخصية هتلر قاموا بدفن بقاياه سرا، بالقرب من أحد معسكرات الجيش فى ماجدبورج، بالقرب من إلبا فى جمهورية ألمانيا الديمقراطية سابقا. كان رئيس جهاز الاستخبارات الروسية، يورى أندروبوف قد إقترح، عام ١٩٧٠. بأن يتم التخلص من تلك البقايا، لتجنب أية عملية تأليه قد يقوم بها بعض النازيين الجدد، إذا حدث وأن وجدوها. وافقه على ذلك ليونيد بريچنيف، سكرتير الحزب الشيوعى السوفيتى آنذاك، حيث تم إحراق البقية الباقية من جثث هتلر، وإيفا براون، وجوبلز، وماجدة، وإلقاؤها فى إحدى روافد نهر إلبا.

على جميع الأحوال، ففى عام ٢٠٠٠. وأثناء الاحتفال بالذكرى الخامسة والخمسين لانتصار الروس على ألمانيا النازية، تم عرض

جزء من جمجمة وخمس قطع أسنان ذهبية، قيل إنها تخص هتلر. سواء كان ذلك حقيقيا أم لا، لم يعد هناك أى غموض ولو نسبيا يكتنف الأمر. لكننا نورد هذه المعلومات المهمة لتكذيب تلك الخيالات التى تحدثت عن مشاهدة هتلر فى أكثر من مدينة على وجه الأرض. فى الحقيقة، لابد أن نعترف أن الألمان، فى تلك الأيام الأولى من شهر مايو عام ١٩٤٥. لم يكونوا ليهتموا بمسألة سطحية مثل مكان دفن أحد الموتى، فى الوقت الذى كانت فيه، فى برلين، آلاف الجثث غير المدفونة.

انتشر خبر موت هتلر شيئا فشيئا، بمنتهى البطء، حتى إنه بلغ مقر قيادة دونيتز، فى بلون، يوم ١ مايو، فى الساعة ١٨:١٥ من خلال هذه البرقية: «توفى الفوهرر أمس، فى تمام الساعة الثالثة والنصف عصرا. وصية يوم ٢٩ أبريل، توكل لك رئاسة الرايخ. متروك لتقديرك موعد وكيفية إبلاغ القوّات والرأى العام». كان البيان يحمل توقيع جوبلز وبورمان وعليه تاريخ صباح ذلك اليوم الأول من شهر مايو، الذى سيكون الأخير، فى حياة كليهما.

خاتمة

منتصرون ومنهزمون

لماذا عيّن هتلر هذا البحّار، الذى لا تربطه أية علاقة بالحزب النازى ولم تكن له من إنجازات سوى تنظيم سلاح الغوّاصات، وولاه رئاسة الكرايجزمارين(١) منذ عام ١٩٤٣. والتى لم يكن هتلر راضيا عن أدائها؟ يعد هذا أحد الألغاز التى لا تفسير لها فى مسيرة الفوهرر، على الرغم من أنه فى أواخر الأيام بالبونكر، بدأ هتلر يتحدث بإعجاب عن البحرية، التى كان قباطنها يغرقون مع مراكبهم.

سواء كان هذا هو السبب أم غيره، فالأمر هو أن القائد الأعلى دونيتز، رئيس أسطول بحرى قليل السفن، كان يقوم فى تلك الفترة

---

(١) الكرايجزمارين: هو اسم قوّات البحرية الخاصة بنظام النازية فيما بين أعوام (١٩٣٥ - ١٩٤٥).

بمهمة نقل الجنود والمدنيين من مرافئ بروسيا الشرقية فى اتجاه الغرب، قد تم تعيينه رئيسا للبلاد. كان مقر قيادته فى بلون، ما بين كيال ولوبيك، على بعد ٢٤٠ كيلومترا من برلين. توجه إلى هناك عدد من الرسل يحملون نسخًا من الوصية، بيد أن لا أحد منهم استطاع الوصول فى الوقت المناسب إلى بغيته؛ بل ما هو أكثر: دونيتز لم يستطع يوما أن يمسك بين يديه أيًا من تلك النسخ التى خرجت من البونكر يوم ٢٩ أبريل.

عرف القائد بالمسئولية الجسيمة التى ألقيت على عاتقه مساء يوم ٣٠ أبريل، بعد أن كان هتلر قد فارق الحياة. وحتى خبر الوفاة لم يصله سوى فى اليوم التالى. أما فى تلك اللحظة، فلم يكن لديه سوى تلك البرقية المقتضبة التى أرسلها له بورمان، والتى تأخرت أربعًا وعشرين ساعة فى الوصول إليه بسبب الفوضى التى عمت ألمانيا مع نهاية الحرب:

«عزيزى القائد الكبير: نظرا لأن كل الجيوش قد فشلت فى محاولتها للإنقاذ، وأصبح وضعنا ميئوسا منه، فقد أملى الفوهرر ليلا الوصية السياسية المرفقة. هايل هتلر! المخلص، بورمان».

عرف عبر الوصية - التى وصلت معها نسخة من صورة عقد زواج هتلر وإيفا براون - أن الفوهرر قرر أن يقاوم ويموت فى برلين وأنه قد تم تعيينه رئيسا للرايخ.

لم يكن دونيتز بالرجل اللامع، ولم تكن له أية خبرة بالسياسة ولا دراية بماهية أعمال الحكومة كما كان يجهل كل ما يتعلّق بالعلاقات الدولية. مع ذلك كان لديه التزام عال تجاه الواجب، وكان مدركا أنه فى لحظات الاحتضار تلك، كان عليه أن يتحرك بسرعة وبتدبر. كان هناك أكثر من ثلاثة ملايين جندى ألمانى يحملون سلاحهم وينتشرون داخل حدود أوربا، من النرويج إلى كريت ومن بحر الكرانتيك[١] حتى يوغسلافيا. مع نهاية كل يوم، يفقد الآلاف منهم حياتهم وهم يقاتلون بلا أمل، فى ظل نقص حاد فى الإمكانات.

كان دونيتز معروفا بين رجاله بالشجاعة وحسن المعشر والبشاشة. غير أن التركة الثقيلة التى وُضعت على كاهله، حسب ما جاء فى مذكرات الكونت لوتز شفيرين فون كروسيجك - وزير الخارجية فى تلك الحكومة الشبح، وناصح دونيتز الأمين خلال الثلاثة والعشرين يوما التى دامها حكمه - غيّرت من طباعه وألقت

(١) بحر الكرانتيك: (أو خليج بيسكاى) يقع مقابل الشواطئ الأوربية شمال شرق المحيط الأطلسى، وبالتحديد مقابل البر الجنوبى الغربى الفرنسى، ابتداء من مدينة برست أقصى الشرق الفرنسى وحتى الشمالى الغربى الإسبانى. تطل عليه بعض المدن المهمة مثل مدينة سان سباستيان الإسبانية ومقاطعة الباسك، ومن هذا استقى الخليج اسمه.

بظلالها على وجهه البشوش، وأحنت ظهره الذى ناء بحمل مصير الملايين من الألمان.

على كل الأحوال، قدّم القائد كل ما فى استطاعته خلال ظروف الهزيمة تلك وسط تخبط المنهزمين ومعاداة المنتصرين. بينما كانت بريطانيا وفرنسا وأمريكا تتوغل داخل الأراضى الألمانية، راحت تتكشف لهم الحقائق المفزعة للمعسكرات النازية للتدريب والإبادة. نشرت الصحف صور جنود بريطانيين فى بيردن-بيلسن، حيث وجدوا آلاف الجثث التى لم تدفن بعد. حتى القائد الأعلى لقوّات حلفاء الغرب بنفسه، الجنرال آيزنهاور، تجوّل وقد شحب وجهه وقبض يده من الغيظ أمام أكوام جثث أسرى الحرب والمدنيين الذين تخلت عنهم قوّات الأس أس فى معسكر أوهردورف، التابع لبوخنفالد. من ناحيتها، كانت الصحافة تتناقل فى تلك الأيام فظائع معسكر لاجر دورا-ميتلباو(١).

يمكن أن تكون الظروف صعبة للغاية، مع ذلك كان لابد من التوصل لاتفاق لوقف إطلاق النار على الفور. مع أن الوضع كان

---

(١) لاجر دورا - ميتلبو: معسكر اعتقال بجبال هارز بإقليم سكسونيا. كان أول وحدة خارجية تتبع معسكر بوشنفالد. كان يضم ٣٢,٤٧١ أسيرا من مختلف الجنسيات، سخروا لحفر أنفاق لمصانع صواريخ وغيرها من الأسلحة فى ظروف لا إنسانية أدت إلى وفاة أغلبهم.

أكثر تعقيدا من مجرّد وقف إطلاق للنار، فحتى هذا، كان بمثابة دعوة للانتحار، إذ سينتقم سكان الدول المحتلة على الفور من الجنود الألمان المنهارين، ليفتكوا بهم وهم ينتشرون بين أراضيهم. كان عليه أن يواجه مشكلة استعادة القوّات المنتشرة فى دول البلطيق، فقد كان معروفا أن ظروف حياة أسرى الحرب فى روسيا هى الأسوأ بين الجميع. كما أن نزوح جحافل المدنيين ناحية الغرب، فى حماية قوّات منهكة تستنزفها معارك استفزازية من القوات الروسية، لم يكن بالمشكلة الهيّنة.

كانت المشاكل المتراكمة أمام دونيتز بلا حصر. أولاها، الاعتراف به رئيسًا للدولة، فاستدعى إلى مقر قيادته الجنرال هيملر، الذى كان يصبو إلى المنصب، ليحصل على اعترافه. ثانيها، ضمان ولاء قيادات الفيرماخت واللوفتفافة لتجنّب التمرّد والفوضى. ثالثها، تشكيل حكومة تتولى حل المشكلات التى يمكن إيجاد حلول لها. رابعها، تجهيز عسكريين أكفاء يحسنون إدارة مسئولية المناورات البسيطة التى قد تتطلبها عمليات الانسحاب.

تمكن فى الأربع والعشرين ساعة الأولى من حل المشاكل الثلاث الأولى. أما بالنسبة للمشكلة الرابعة فلم يجد بدا من الاحتفاظ برجلى ثقة هتلر على رأس القيادة العامة للقوات المسلحة: المشير كايتل والجنرال جودل، حيث عجز عن التوصل، وسط فوضى وارتباك تلك الفترة، إلى المشيرين فون بوك وفون ماشتاين. لم يكن

هذا بالقرار المتوافق مع سير الأمور، حيث كان للأخيرين ثقل عسكرى يقدره المنتصرون، ولم يكن الأولان ليحظيا بنفس القدر من التقدير، لارتباطهما بنظام هتلر.

تلقى دونيتز شارة البدء يوم ١ مايو، فى تمام الساعة ١٨,١٥. فقد خرجت من بونكر المستشارية البرقية التى تؤكد منصب الرئاسة له بتوقيع جوبلز وبورمان: «توفى الفوهرر أمس فى تمام الساعة الثالثة والنصف عصرا. وصية يوم ٢٩ أبريل، توكل لك رئاسة الرايخ».

لم تسنح الفرصة لدونيتز بالتأمل فى وضعه الحرج. فى ٢ مايو توغل البريطانيون فى اتجاه الشرق، بعد أن خرجوا من معقلهم بإلبا. انتصر مونتجمرى فى الشمال على دفاعات الألمان الضعيفة ووصلوا إلى لوبيك. فعل الأمريكان نفس الشىء فى الجنوب وبلغوا ميونخ. كان دونيتز فى حاجة إلى وقف إطلاق فورى للنار فى الغرب، وليكسب بعض الوقت لينسحب من الشرق. وصلته، يوم ٢ مايو، برقية من المشير كيسلرينج، قائد قوّات الجنوب، يبلغه فيها باستسلام قوّاته فى إيطاليا ويطلب منه السماح بالتفاوض على تسليم منطقته. أعطاه الرئيس موافقة فورية، حيث كان ذلك يعنى مشكلة أقل، بالنسبة له، إذ ستستسلم تلك القوّات الكبيرة لحلفاء الغرب.

فى نفس يوم ٣ أرسل وفدا يضم القائد فون فرايدبورج والجنرال زينسال إلى مقر قيادة مونتجمرى.

تفهم المشير البريطانى الوضع الحرج الذى يمر به محدّثوه الذين عرضوا عليه انسحاب قواتهم من القطاع الشمالى، ورجوه أن يسمح بتراجع الجنود والمدنيين فى اتجاه الغرب، فوافق. كما لم يعترض على انسحاب القوّات العسكرية من هولندا والنرويج، مما أزاح هما كبيرا من على صدر دونيتز، فقد كان ذلك يعنى له أن تظل قوّات الاحتلال فى تلك البلدان. نحو نصف مليون جندى. مع كل ذلك، وضع شروطًا لانسحاب الجنود ناحية الغرب: أن يقتصر ذلك على الجنود المشتتين وليس الوحدات المتماسكة. كما لم يعط أية ضمانات لسلامة المدنيين، حيث كان الأمر يتعلق بانسحاب عسكرى، وأجبر الكرايجسمارين أن تسلّم سفنها.

كانت شروط المشير البريطانى تعنى مشكلتين كبيرتين لدونيتز. مصير المدنيين، وبصفة خاصة مصير البحرية، كان بحاجة لتلك السفن لينقل بها فلوله من سواحل الشرق. فى هذه اللحظة من المباحثات قال مونتجمرى للقائد فون فرايدبورج: «أنا لست وحشا غير إنسانى» فى إشارة إلى جرائم النازية التى كانت تتكشف يوما بعد يوم (فى اليوم السابق للمفاوضات، كان الأمريكان قد أزاحوا اللثام عن فظائع معسكر داشو) وفى انتقاد ولوم للألمان، إلا أن العبارة جاءت مثل مسمار مشتعل تمسك به دونيتز المهموم اليائس.

دفع القائد بالمدنيين للعودة فى خطوط سير تقترب من القوات البريطانية، التى تغاضت بدورها وتركتهم يتراجعون فى اتجاه الغرب. أما بالنسبة للكرايجسمارين، فقد تمكن من إقناع رؤساء السفن بعدم تدميرها، وأن يسلموها للبريطانيين عندما يصلون بها إلى الموانئ الألمانية. ولجأ لحيلة أن يواصلوا الإبحار فى بحر البلطيق لنقل الجنود والمدنيين إلى سواحل الدانمارك فى طريق عودتهم. كانت تلك هى الطريقة الوحيدة لضمان عدم التسليم الفورى لتلك السفن لبريطانيا. استطاع بهذه الخطة إنقاذ حياة ٣٠٠,٠٠٠ ألمانى فى الشرق، تمكنوا لاحقا، أن يبلغوا الأراضى الألمانية التى كان حلفاء الغرب يحتلونها.

وقع فون فرايدبورج اتفاق انسحاب ألمانيا عسكريا من شمال الشرق، مع مونتجمرى، فى يوم ٤ مايو. كان ذلك فى الساعة ١٨,٢٠. بينما كان وقف النار قد سرى بداية من الساعة الثامنة من صباح نفس هذا اليوم. فى نفس الوقت، طار كل من فون فرايدبورج وزينسال إلى بروكسيل. حينما بلغا العاصمة البلچيكية، أقلّتهما سيارتان عسكريتان، تابعتان للجيش الأمريكى، إلى مقر القيادة العامة لآيزنهاور فى رايمز.

كانت التعليمات التى أعطيت لفون فرايدبورج هى محاولة كسب الوقت. قد يكون أسبوع واحد كافيا، لسحب القوّات من تشيكوسلوفاكيا والبلقان والانتهاء من عمليات النقل فى بحر

البلطيق. غير أن شعلة الأمل، سرعان ما انطفأت. فقد وصل إلى رايمز منهكا ومؤرقا. كان الأمريكان قد استقروا فى مبنى متواضع لمدرسة من الآجر الأحمر. هناك استقبله الجنرال بادل سميث، رئيس هيئة أركان حزب آيزنهاور. بمجرّد أن انتهى من التحية البروتوكولية الباردة، وضع بادل سميث بين يدى القائد الألمانى وثيقة طلب منه توقيعها تقضى بانسحاب جميع القوّات الألمانية فورا وبلا أية شروط من نقاط وجودها أمام جيش الحلفاء الذى يواجهها.

تضمن رد فون فرايدبورج الحديث عن الخطر الكبير الذى يحدق بقواته منزوعة السلاح، وبتشرّد مدنييه وضرورة حمايتهم، وارتكز على الاتفاق الذى كان قد وقعه قبل يوم مع مونتجمرى. أوضح له بادل سميث أن اتفاق بريطانيا كان تكتيكيا ويقتصر على شمال ألمانيا، أما الآن، فالوضع يتعلّق بالاستسلام العام، وهو ما يطلبه آيزينهاور، ثم سأله إن كانت لديه صلاحيات توقيع ذلك.

رد فون فرايدبورج بالنفى، إذ لم يكن قد توجه إلى رايمز ليوقع استسلام الرايخ الثالث. شعر موفد دونيتز فى قرارة نفسه بالارتياح، بعد أن تراءت له فرصة إمكانية كسب الوقت معتمدا على طلبات الحلفاء. استأذن فون فرايدبورج من بادل سميث فى أن يرسل الجنرال زينسال إلى مقر قيادة دونيتز فى فليسنبورج، حيث كان قد انتقل حديثا إلى تلك البلدة الصغيرة على الحدود مع

الدانمارك، وهى مدينة صيد يسكنها نحو ٥٠٠,٠٠٠ نسمة وبها حى قوطى بديع. سجل دونيتز فى مذكراته وصول رسول فون فرايدبورج إليه:

«وصل الجنرال زينسال صباح يوم ٦ مايو ليطلعنى على مجريات المفاوضات مع آيزنهاور. أخبرنى أن موقفه يتسم بالتعنت التام. لن يقبل، تحت أى ظرف، الاستسلام الجزئى. علينا أن ننسحب فورا وبلا شروط من جميع الجبهات، حتى جبهة روسيا. لابد أن تسلّم القوّات سلاحها، فى حالة سليمة أينما وُجدت، وأن يعتبر الجنود أنفسهم أسرى حرب لدى الحلفاء. لابد أن تتولى القيادة العامة للفيرماخت مسئولية الاستسلام، على أن يشمل ذلك سلاح البحرية العسكرية وبحرية النقل».

الاستسلام الأخير

بعث دونيتز إلى ريمز بالجنرال جودل ومعه تفويض بالتوقيع وتعليمات بالمقاومة، بأقصى ما يمكن، على أن يحرص على احتواء رد فعل الأمريكان. كان جودل رجلا ذكيا، وباردا أيضا. كان مقتنعا أن خلافا لابد واقعا بين الحلفاء وروسيا وأن خدمته الطويلة، بالقرب من هتلر، لن تكون فى صالحه باعتباره طرفًا مفاوضًا. غير أن دونيتز لم يكن لديه جنرال آخر جدير بأن يرسله إلى مقر قيادة الأمريكان. خرج قاصدا رايمز فى يوم ٦ مايو. عندما بلغها، لم يجد

سوى الإحجام من جانب بادل سميث. مع فجر يوم ٧ مايو أرسل البرقية التالية إلى دونيتز:

«يصر الجنرال آيزنهاور على أن نوقع اليوم. لو لم يتم ذلك فستغلق جبهات الحلفاء فى وجه أولئك الجنود ممن سيستسلمون منفردين وسيتم وقف جميع المفاوضات. هناك خيار واحد: الفوضى أو التوقيع. إنه يطلب التأكيد الفورى، عن طريق الراديو، بأن لدىّ جميع صلاحيات توقيع الاستسلام، عندها فقط سيدخل وقف إطلاق النار حيّز التنفيذ. سيكون ذلك مع بداية ساعات يوم ٩ مايو بتوقيت ألمانيا الصيفى».

مع ذلك، قدّم بادل سميث، ذو المظهر البارد، الكثير للألمان، مما لم يكن لجودل، الجليدى، أن يتوقع. فقد سعى رئيس هيئة أركان حرب الأمريكان إلى أن يطلب من آيزنهاور أن يسمح بمهلة يومين لإتمام الانسحاب إزاء ما لمس من قلق فون فرايدبورج وتفهمه هو لصعوبة سحب قوات بهذا الحجم، على مسافة بهذا الاتساع وفى ظروف اتصالات سيئة وغير كافية. وافق آيزنهاور على استمرار انسحاب قوّات ألمانيا فى اتجاة الشرق، دون أن تمسهم قوّات الحلفاء بسوء، وذلك حتى الساعة الثانية عشرة من منتصف ليل يوم ٩ مايو. كل ذلك بشرط أن يوقع الموفدون الاستسلام بصورة فورية. طلب جودل موافقة دونيتز، الذى أبرق بموافقته إلى رايمز، فى الساعة الواحدة من يوم ٧ مايو.

فى الساعة الثانية و٤١ دقيقة، دخل الوفد الألمانى إلى غرفة تملؤها خرائط لمختلف الجبهات. كان ممثلو الحلفاء برئاسة آيزنهاور موجودين بداخلها. كانت المراسم باردة. لم يزد خلالها آيزنهاور على السؤال عن توافر الصلاحيات معهم وعن موافقتهم على شروط التسليم. بما أن الألمان وافقوا، فقد وضعوا المستندات أمامهم. وقّع الجنرال جودل والقائد فون فرايدبورج والرائد أوكسينيوس ممثلين عن الفيرماخت والكرايجسمارين واللوفتفافة، على التوالى.

نقل المترجم رسالة آيزنهاور لجودل، فى حين قام هو بحركة تحقيرية:

«سيادتك مسئول، على المستوى الشخصى والرسمى عن الالتزام بتنفيذ بنود الاستسلام وتسليمها للسوفيت، وعليه فإن القائد الأعلى الألمانى لابد أن يوجد فى برلين فى الوقت الذى تحدده قيادة السوفيت العليا».

كان ألفريد جودل، فى الخامسة والخمسين من عمره، وكان ضابط أركان حرب منذ عام ١٩١٤. وكان مستشار هتلر العسكرى فى أيام المجد وفى أيام الهزيمة. فى ذلك الموقف، لم يسعفه الأسلوب التقليدى الذى خبره فى مدارس الحرب على أن يفهم حيوية الجنرال الأمريكى، الأصغر منه والأقل منه تميزا من وجهة

النظر العسكرية. من ثم سعى لأن يلتزم قواعد الذوق الكلاسيكى الأوربى، فهب واقفا ووجه حديثه إلى القائد المنتصر:

«أيها الجنرال، بهذا التوقيع، تم تسليم شعب ألمانيا وقوّاتها المسلحة للمنتصر، من أجل حفظ سلامتها وتقليص خسارتها. لقد دامت هذه الحرب خمس سنوات، عانى كلاهما، مثلما لم يعان أحد فى العالم. فى هذه اللحظة، لا يسعنى سوى الوثوق بشهامة المنتصر».

لم يهتم آيزنهاور بالرد عليه، ربما مدفوعا بشعوره بالأهمية. وهنا لابد أن نذكر أن تاريخ القرن العشرين سيكون له أكثر من تحفظ عليه، فلم يكن سوى قائد عسكرى ذى إمكانات محدودة، وكان سياسيا بلا رؤية وكانت تصرفاته تميل إلى الإيذاء. لن تذكره ألمانيا بأى امتنان، ولا حتى أوربا الغربية.

على الرغم من إذلال رايمز، كان دونيتز قد تحصل على جزء من الوقت الذى كان بحاجة إليه. كانت كل العمليات قد توقفت على الجبهات، فى حين كانت قواته المنهكة تعود أدراجها فى اتجاه الغرب ومعها جحافل من المدنيين. لا يمكن حصر التجاوزات التى وقعت، عند بلوغهم الخطوط الأمريكية، التى غالبا ما كانت تُغلق فى وجههم، لمنع عبور الهاربين من مواجهة الجيوش السوفيتية، وهو ما كان له بالغ الأثر فى تشكيل ألمانيا التالية، والتى سيستمر انقسامها حتى عام ١٩٨٩.

كان لا يزال على حكومة الشبح تلك أن تقوم بمهمة أخيرة: الاستسلام الرسمى أمام المنتصرين. كان على «حكومة الأوبريت» تم حسب عبارة ألبرت سبير، أحد وزرائها - أن تشكل وفدا على مستوى الحدث. بينما انشغلت الحكومة بأكملها - لم يكن لها من موارد سوى ست من آلات الكتابة- فى تبليغ أوامر الانسحاب مع بداية يوم ٩ مايو. عيّن دونيتز ثلاث رتب عسكرية لتوقع على وثيقة استسلام الرايخ الثالث فى برلين: المشير كايتل، ذو الثلاثة والستين عاما، والمستشار العسكرى الأوّل لهتلر، سيترأس الوفد ممثلا عن الفيرماخت وسيرافقه، ممثلا عن الكرايجسمارين سيكون القائد فون فرايدبورج، بمعنوياته المنخفضة وإرهاقه الظاهر وأخيرا، سيرافقهما الجنرال ستامبف، ممثلا عن اللوفتفافة.

وصل الثلاثة إلى برلين عن طريق الجو، واقتيدوا من المطار، مباشرة، إلى مقر قيادة المشير زوكوف بكارلسهورت. كان بانتظارهم هناك: المشير زوكوف (الاتحاد السوفيتى)، وتيدر (بريطانيا)، والجنرالان: سباتز (الولايات المتحدة الأمريكية) ودى لاترديتاسينى (فرنسا). قام ويلهلهم كايتل، الذى كان قد تفاوض على استسلام فرنسا عام ١٩٤٠، فى كامبيان، بتوقيع المستندات التى كانت تمرّر له. عندما وصلت إلى الجنرال الفرنسى، قيل إنه قال فى سخرية: «وأيضا علينا أن نستسلم للفرنسيين؟» لم تدم المراسم أكثر من ٢٠

دقيقة. تم توقيع الوثيقة يوم ٩ مايو فى الساعة الثانية عشرة والربع ليلا.

كان يمكن أن يكون هذا آخر إنجازات نظام دونيتز، غير أن العديد من أعضائه أصروا على استكمال المسيرة. أولهم، شوارين فون كروسيج، الذى كان ذا خلفية قانونية كبيرة، اعتقد أن الحلفاء لابد وأن يطلبوا استسلاما سياسيا، وكذلك، ما لم تتغير قوانين ألمانيا، فقد كانت تلك هى الحكومة الشرعية، حتى لو لم تصدر لها أية تكليفات. وتساءل: عندما تخرج القوّات الأجنبية. من سيتولى حكم البلاد؟ كانت الإجابة واضحة: الحكومة القائمة، حكومة الرئيس دونيتز. لم يكن هذا الأخير مقتنعا تماما، غير أنه لم يكن فى إمكانه ألا يسمع لرأى فقيه فى السياسة مثل شوارين فون كروسيج، الذى كان وزيرا على مدى أربع حكومات متتالية. بطبيعة الحال، لم يكن دونيتز ولا مساعدوه على دراية باتفاق يالتا: المصير الذى ينتظر ألمانيا، ولا بفاتورة الحساب العسير التى سيقدمها الحلفاء لمسئولى النازية والحرب العالمية الثانية.

ثانى من كانوا يعيشون فى الخيال، هو الجنرال جودل، الذى رأى أن الحلفاء سرعان ما «سيتناحرون فيما بينهم» وأن الأمريكان والبريطانيين سيعتمدون عليهم فى قتال السوفيت. من جهتها كانت لندن تروّج لتلك النظرية: لم يكن تشرشل يرغب فى أن تتراجع

قوّات الحلفاء فى الغرب حتى الحدود المقررة فى يالتا، بسبب اعتقاده بتعدّى السوفيت على قرارات ذلك المؤتمر.

فى النهاية، أدت الفوضى التى تعيشها ألمانيا والصعوبات التى كانت تواجه الحلفاء فى حلّها، إلى خلق حالة من الوهم فى فلونسبورج بشأن صعوبة الاستغناء عنهم. فى الواقع استعان الإنجليز والأمريكان بنصائح "وزراء" التموين، لتوفير المواد الغذائية للشعب؛ والنقل، لحل مشكلة الطرق العويصة. بلغت درجة اقتناعهم بجدية وزارتهم أن وزراء فلونسبورج قرروا فتح تحقيقات ومحاكمة المسئولين عن مذابح معسكرات التعذيب، وهو الموضوع الذى لم يبد أنه كان مجهولا من جانب أى من مساعدى دونيتز.

غير أن تلك الخيالات لم تكن لتدوم طويلا. كانت الصحافة الروسية تسلط الضوء عليها وتصفها بالفضيحة، إذ كيف لحكومة ألمانية أن توجد فى فلونسبرج وتضم مساعدين سابقين لهتلر. إنها فضيحة تخدم مصالح معيّنة، فقد كانت قوّات السوفيت المحتلة، تبحث وسط الألمان عن الشيوعيين منهم، ليتمكنوا من تشكيل حكومة شيوعية. مع ذلك، استجاب الرئيس الأمريكى الجديد، هارى س. ترومان، الذى لم تكن له دراية سياسية، لضغوط موسكو، وأمر بحل حكومة فلونسبرج. لم تجد مقاومة لندن مع حليفتها نفعا.

فى ٢٢ مايو، طلبت لجنة الضبط الاجتماع مع دونيتز وجودل وفون فرايدبورج بمقرها الذى كان عبارة عن سفينة تدعى" الوطن" ترسو على ميناء فلونسبورج. هذا ما سطره الرئيس عن آخر مشهد فى فترة رئاسته:

«عندما صعدت على متن الوطن، كان كل شىء قد تغيّر. لم يستقبلنى أى ضابط بريطانى ولا استعرض الحرس أسلحتهم. فى المقابل، كان هناك الكثير من المصوّرين. طلبوا منا اتخاذ مجلسنا على جانب من الطاولة، فى مواجهة أعضاء لجنة الضبط: روكس، الجنرال الأمريكى، وفوورد، البريطانى، وتروسكوف، السوفيتى قرأ علينا الجنرال روكس مستندا يقضى، بناء على قرار من آيزنهاور، بأن يتم إلقاء القبض علىّ أنا وأعضاء الحكومة وقيادة الفيرماخت العليا. علينا أن نعتبر أنفسنا أسرى حرب منذ تلك اللحظة. سألنى بعدها فى تردد إذا ما كان لدى ما أرد به. رددت:

- أى كلمات سأنطق بها، لن يكون لها أى معنى».

خرجوا من السفينة. كانت الشوارع تمتلئ بالتعزيزات الأمنية. كان الجنود البريطانيون يلقون القبض على أعضاء «حكومة الأوبريت» الذين كانوا قد غادروا بيوتهم وهم يحملون حقائبهم. طلب فون فرايدبورج السماح له بالعودة إلى منزله لأخذ بعض حاجاته، وكان له ذلك. دخل غرفته وحبس نفسه وقضم كبسولة سيانيد.

شهدت تلك المدينة، التى عايشت على مدى أسبوعين وجودًا قويا للحلفاء، حركة نشاط غير عادية، كانت فيها القوّات فى حالة استنفار. كان الجنود ببنادقهم المشهرة معهم وحدات بزى تمويهى تجوب الشوارع وتسجل العقارات. وعلى نواصى الشوارع، كانوا يتبادلون مواقع الرشاشات والدبّابات بمحركات تدور وأسلحة على وضع الاستعداد.

عقد وزراء وموظفون حكومة دونيتز ممن لم يحضروا اجتماع الوطن، اجتماعا هزيلا برئاسة فون كروسيجك، لا يختلف كثيرا عما سبقه. فجأة، اقتحم قاعة الاجتماع مجموعة من الجنود تحمل أسلحة رشاشة. صاح العقيد قائد المجموعة:

ارفعوا أيديكم.

استيقظ هؤلاء الرجال فجأة من سباتهم العميق الذى استغرقوا فيه من بداية شهر مايو، غير أنهم لم تتح لهم فرصة السيطرة على الوضع، حيث جاءهم الأمر الثانى:

أنزلوا سراويلكم.

قام الجنود بتسجيل دقيق لكل ما شاهدوا، حتى العورات. فعلوا الشىء نفسه مع كل من كان بالقاعة من طاولات عمل وحقائب وملابس. كان الإنجليز مرعوبين، وكانوا على حق: فقد أفلت هيملر

من بين أيديهم منتحرا، حتى قبل أن يصله إخطارهم، وفى تلك اللحظة كان القائد فون فرايدبورج ينهى حياته هو أيضا. بعد أن أنهوا عملية التسجيل وحصر عشرات الأسلحة، أجبروهم على الخروج إلى الشارع، على هيئتهم تلك، بالمنامات أو الملابس الداخلية. كانت تلك نهاية مهينة للرايخ الثالث يمكن أن يتصورها خيال.

وصف سبيير فى مذكراته ما كان يلاقيه باقى الموظفين الألمان الذين تم حشدهم فى المدينة:

«جلسنا على الأرائك الخشبية بحذاء الجدار تحيط بنا حقائب تحوى متعلقاتنا الشخصية. كان مظهرنا يشبه المهاجرين الذين ينتظرون السفينة التى ستقلّهم. كان الجو مشحونا بالتوتر. كنا ندخل واحدا تلو الآخر إلى غرفة يتم فيها تسجيل كل شىء. كان السجناء يخرجون حسب الحال: متضايقين، أو مكتئبين، أو مهانين. عندما حان دورى، شعرت بالاشمئزاز من ذلك الكشف الذى تعرضت له».

بعد ذلك يأتى الانتظار الطويل فى البهو. هناك صورة تسجل تلك النهاية المهينة التى جاءت كأبعد ما يكون عن ملاحم فاجنر النازية: تحت تهديد السلاح، ثلاثة رجال منكسى الرأس، ينتظرون مصيرهم: إنهم دونيتز، وجودل، وسبيير.

بعد مرور ستة أشهر، وفى تمام الساعة العاشرة والربع من صباح يوم ٢٠ نوفمبر ١٩٤٥. فتحت قاعة محكمة قصر العدالة بنورمبرج أبوابها. دلج إلى بهو القاعة الفسيح الذى كان لها شكل حرف (T) هيئة المحكمة الدولية التى ستتولى الحكم على الجرائم التى ارتكبتها النازية. مثل داخل قفص الاتهام ٢١ شخصية كانت لها أكبر الصلاحيات فى ألمانيا من ذوى الأسماء الرنّانة التى كانت تهتز لها ربوع أوربا أجمع. لم يعد رجال الدولة هؤلاء، فى خريف ١٩٤٥. يتمتعون بذلك المظهر المتعالى، الذى كان لهم فى وهج النازية. بدا عليهم النحول وأحاطت بأعينهم الهالات السوداء، ووشى مظهرهم بالكرب والرهبة. كانت ملابسهم متواضعة تكاد تكون متكلّفة، مثلما كان جورينج، إلا أنهم كانوا قد فقدوا بريقهم وهم يواجهون ضخامة المسئوليات التى عليهم أن يتحملوها.

غير أن ذلك لم يكن بجديد عليهم. فقد تعامل معظمهم مع حقيقة أن قراراتهم ستكون محل أحكام، خاصة فى آخر عامين، عندما بدأت بوادر الهزيمة المؤكدة تظهر. كان من المعروف لدى الجميع، أن الدول التى احتلتها ألمانيا قد اجتمعت فى لندن، وذلك لبحث موضوع المئسولية. حضر الاجتماع ممثلون عن بلچيكا وتشيكوسلوفاكيا والدانمارك وفرنسا واليونان وهولندا ولوكسمبورج

والنرويج وبولندا ويوغسلافيا. وقد انتهى الاجتماع بإصدار هذا البيان:

«بعد أن تضع الحرب أوزارها، ستقوم حكومة الحلفاء بمعاقبة المسئولين عما تم ارتكابه من جرائم، أو من شارك فى ارتكابها. إن الحكومات الموقِّعة مصممة على ما يأتى:

١ - ملاحقة جميع المجرمين، أيا كانت جنسيتهم، وتسليمهم للعدالة لتتم محاكمتهم.

٢ - تنفيذ جميع الأحكام».

بعد مرور عام، مع بدايات خريف عام ١٩٤٣. كتب تشرشل، رئيس وزراء بريطانيا: «ستتعقب قوات الحلفاء جميع المجرمين، حتى آخر حدود الكرة الأرضية وسيتم تقديمهم للعدالة لتتم محاكمتهم». تسرّب تصريح تشرشل هذا حول المصير الذى كان ينتظر مسئولى النازية، فى حالة خسارة الحرب، إلى داخل الطبقة الحاكمة فى ألمانيا، إلا أنها لم تعرف شيئا عما حدث فى نوفمبر ١٩٤٣. تحديدا خلال قمة طهران. ففى العاصمة الإيرانية، وأثناء إحدى مآدب العشاء التى حضرها الثلاثة الكبار -الرئيس الأمريكى، فرانكلين روزفلت ورئيس الوزراء البريطانى، ونستون تشرشل وسكرتير الحزب الشيوعى الروسى، جوزيف ستالين- حدث أن وقف ستالين ورفع للمرة العاشرة، كأس الفودكا الخاصة به وقال: «أشرب نخب قرارنا المشترك بإعدام مجرمى الحرب

الألمان، بلا استثناء واحد. سيكونون قرابة ٥٠,٠٠٠ مجرم». تجرّع الزعيم الروسى كأسه على رشفة واحدة أمام نظرات روزفلت الغامضة المرحبة بالقرار، وغضب تشرشل وبدا عليه ذلك من تأثير الأدرينالين أكثر من تأثير الكحول: «أفضل الموت على أن ألوّث شرفى أو شرف وطنى بمثل هذا العار».

صمتت الأصوات وتوقف قرع الكئوس والزجاجات. وران على المكان صمت مطبق. لم يقطعه سوى لسان الرئيس الأمريكى اللاذع وفكاهته السمجة: «لابد أن نتوصل لاتفاق. يمكن أن نتنازل عن رقم ٥٠,٠٠٠ ونتفق على رقم آخر ٤٩,٥٠٠ مثلا».

ضحك الجميع باستثاء تشرشل، الذى غادر القاعة بعد أن قام بحركة غاضبة. اضطر ستالين ووزير خارجيته أن يخرجا ليعيداه إلى القاعة. كانت كرامة رئيس الوزراء البريطانى تمنعه من الحديث عن انتقام جماعى، غير أنه كان موافقا مثلهما تماما، مع نهاية الحرب ستتعيّن محاكمة المسئولين عن النزاع والجرائم التى ارتكبت خلاله.

من ثم، فقد كان أول ما فعل الرئيس الأمريكى، هارى ترومان، الذى دخل البيت الأبيض فى ١٢ أبريل ١٩٤٥. بعد وفاة روزفلت، أن كلّف رئيس المحكمة الأمريكية العليا، روبرت جاكسون، بأن يعد بكل دقة، لمحاكمة دولية لزعماء النازية. بعد ثلاثة أسابيع من التكليف، توجه جاكسون - الذى لقب بالأب الروحى لمحاكمات نورمبرج - إلى

ألمانيا، بعد أن كان قد أجرى اتصالات، مع وزارات العدل فى دول الحلفاء ليقوموا بتعيين قضاتهم. وكذا مع وزارات الدول المشتركة فى الحرب، حتى يتم القبض على جميع المسئولين النازيين من السياسين والعسكريين.

كان عملا هينا فى ظاهره، على الرغم من الفوضى التى كانت تعم ألمانيا، بعد وقف إطلاق النار. كان أكثر من ستة ملايين نازح يجوبون أنحاء البلاد. فى البداية، قرّر الحلفاء أن تتم محاكمة مليون شخص، ما بين أعضاء الحزب والجستابو وقوّات الأس أس وقوّات الأس أى والمسئولين الإداريين. بعد ذلك، وفى قرار صادر عن هيئة الأمم المتحدة، زاد الرقم إلى ستة ملايين فى صيف ١٩٤٥. أما الواقع فلا يتحدث سوى عن مائة ألف تمت محاكمتهم فى المحاكم المختلفة.

فى محاولة لهم لتنظيم المحاكمات، حاول الحلفاء أن تكون أولويتهم الأولى، فى شهر مايو، وبمجرّد انتهاء الحرب، هى القبض على كبار مسئولى النازية: زعماء الحزب والحكومة والجيش والصناعة، نحو ٥٠ اسما. كان بعضهم قد وقع فى قبضتهم أو تحت سيطرتهم. فى فلينسبورج، ألقوا القبض على دونيتز وسبير وجودل وكايتل. كما كانوا على وشك أن يضعوا يدهم على هيس، الذى كان قد قضى فى السجن أربعة أعوام، بالضبط بعد أن كان قد طار إلى بريطانيا مثل رسول السلام الحالم، وعلى جورينج، مشير القوّات

الجوية وأقوى رجل فى ألمانيا، بعد هتلر. كان جورينج قد سلّم نفسه طواعية للقوات الأمريكية، وهو يتنفس الصعداء، بعد أن كان بين يدى رجال الأس أس الذين كان لديهم أمر بإعدامه.

تم إلقاء القبض على فون بابن، المستشار السابق، خلال شهر مايو فى معسكر صيد بمنطقة ويستفاليا، حيث كانت الجستابو تراقبه. استقبل الأمريكان كما لو كانوا من سيحرره. كان هخالمارن، رئيس بنك الرايخ، يمثل عبئا سياسيا، منذ اعتداء يوليو ١٩٤٤. وكان سيتم إعدامه من قبل النازية فى معسكر تعذيب فلوسينبورجن لو لم تصل القوّات الأمريكية قبل المتوقع. لم يطلق الأمريكان سراحه، إلا أنه لم يعد يخشى على حياته.

الكثير من زعماء النازية تمكنوا من الإفلات، وكان من الصعب تعقبهم. فى ٦ مايو فى جبال الألب البافارية، تمت مباغتة هانز فرنك: «سفاح بولندا» الذى حاول أن ينتحر، بقطع شرايين معصمه الأيسر بموسى حلاقة. كتب فى إحدى مذكراته التى وجدوها: «تم إدراج أسمائنا جميعا فى لائحة مجرمى الحرب الخاصة بالسيّد روزفلت. ولى الشرف أن أكون الأوّل». فى نفس هذا اليوم، تمكن الفرنسيون من إلقاء القبض على كونستانتين فون نوراث، حامى رايخ بوهيميا ومورافيا. أما فى اليوم التالى، فقد قام الكنديون بأسر آرثر سايس إنكارت، النازى النمساوى الذى كان ضليعا فى خطة الأنشلوس، والذى كان لا يزال قنصلا فخريا للرايخ الثالث فى

هولندا. فى ١١ مايو، استطاع الروس أن يقبضوا على وزير اقتصاد الرايخ، والتر فرانك. بعد مرور أربعة أيام، فعل الأمريكان نفس الشىء مع إرنست كالتنبرونر، الذى كان مختبئا بمكان ما بجبال الألب النمساوية. فى نفس تلك الفترة، تم القبض على وزير العمل، فريتز ساوكل، وعلى ملك الصناعة الثقيلة والحرب الألمانية، جوستاف كروب.

كان روبرت لأى، وزير جهاز العمل، قد انتحل شخصية طبيب ريفى فى جبال بافاريا. لم يخضع للمحاكمة، إذ انتحر فى ٢٥ أبريل ١٩٤٥. أى قبيل بداية محاكمات نورمبرج بخمسة أسابيع. أما ألفريد روزنبورج، أحد مفكرى النازية ووزير الرايخ لشئون الأراضى المحتلة، فقد تم القبض عليه، بأحد مستشفيات هولستين، بعد أن انكسر كاحله، بينما كان الإنجليز يطاردون هيملر. أما جوليوس سترايخر، أحد كبار معاديى السامية، فقد انتحل شخصية رسّام فى ميونخ وقد قبض عليه أحد الرقباء من اليهود الأمريكان.

بدأ الحلفاء يتوترون مع اقتراب شهر مايو من نهايته، وكانو لايزالون يفتقدون الكثير من الأسماء الأساسية: مارتين بورمان، سكرتير هتلر، وظله الملاصق، على مدار آخر ثلاث سنوات وهيملر رئيس الأس أس ورئيس كل النظام التعذيبى فى ألمانيا. لن يتمكنوا أبدا من إيجاد الأول، فقد كانت هناك دلائل قوية وشهود ثقات يؤكدون مقتله أثناء محاولته مغادرة برلين فى ليلة الأول من مايو.

أما الثانى، فقد قبض عليه الإنجليز فى لونيبورج وهو يحاول أن يعبر إحدى نقاط التفتيش بهوية مزورة وبلاصق جلدى أسود على إحدى عينيه. انتحر ليلة ٢٣ مايو، بعد أن ابتلع كبسولة سيانيد بوتاسيوم كان يخفيها فى فمه.

فى ٥ يونيو، قام بلادور فون شيراخ، رئيس جماعة شباب هتلر، بتسليم نفسه، بعد أن اعتقد الجميع أنه قد مات. بعد ذلك ببضعة أيام، تمكّن بعض الجنود البلچيك من أن يقبضوا، فى هامبورج، على جواكين فون ريبتروب، وزير خارجية الرايخ الثالث، وأحد أهم المسئولين عن تلك الحرب. كان يحاول أن يستعيد عمله القديم فى تجارة الخمور، غير أنه قد تم الإبلاغ عنه. فى النهاية وفى ٢٣ يونيو، قبض الروس على القائد إيريخ رايدر، الذى أقاله هتلر من عمله باعتباره رئيسًا للبحرية، عام ١٩٤٣. والذى كان يعيش، منذ وقتها، فى برلين فى هدوء، دون أن يزعجه أحد.

تم تجميع المقبوض عليهم فى عدة أماكن بفرنسا ولوكسمبرج، حتى منتصف نوفمبر ١٩٤٥. إذ تم نقلهم إلى نورمبرج بعد أن تمت تهيئة المكان.

مدينة تعبق بالذكريات

«هل هناك أية مدينة ألمانية ما زال بها قصر عدالة يحوى ما لا يقل عن ثلاثين مكتبا، وسجنا، ووسائل تأمين جيدة، وفنادق كافية

تستوعب إقامة نحو ألف شخص ما بين قضاة ومحامين وشهود وصحفيين؟ وجه القاضى جاكسون فى يونيو ١٩٤٥ هذا السؤال إلى الجنرال لوشيوس لأى، الذى كان يعسكر بمقر قيادته بفرانكفورت. بعد ساعتين وصله الرد إلى واشنطن عن طريق الهاتف: " نعم، هناك مدينة تستوفى هذه الشروط: نورمبرج».

تنفس جاكسون الصعداء ارتياحا. نورمبورج، مدينة الأبهة النازية ومدينة قوانين معاداة السامية. إنها اختيار سيرضى جميع الأطراف. إنها مقر رمزى يعادل برلين، عاصمة الرايخ الثالث، التى كان الروس يقترحونها ويماثل ميونخ، مهد النازية، التى كان يقترحها البريطانيون.

كانت نورمبرج مدينة غنية وجميلة، يقطنها ٤٠٠,٠٠٠ نسمة، وكان بها الكثير من الآثار التاريخية - كانت تدعى مدينة الألف برج - يمر بها نهر بوجناز ليشطرها إلى شطرين متساويين تقريبا مكونة بذلك أربع جزر تتصل فيما بينها بأربعة عشر جسرا - أحدها خلاّب يبلغ طوله ٣٢ مترا وتحت قوس واحد. فيها وُلد ألبرت دوريرو، أحد أهم عباقرة الرسم عبر التاريخ، وكذلك ريجيومونتانو، عالم الفلك، وبيكلمان عالم الدراسات الإنسانية وأحد أشهر المفكرين الألمان.

اشتهرت المدينة وتقدمت بسبب إعجاب هتلر بها منذ بدايات مسيرته السياسية. هناك كانت تقام احتفالات النازية وعروضها

العسكرية بمشاعلها الشهيرة، وفيها كان يلقى خطبته المطولة القويّة وسط بذخ اللافتات والقمصان البنية. وأخيرا شهدت المدينة صياغة القوانين المعادية للسامية التى تحمل اسم المدينة، والتى قضت بحرمان اليهود من حقوقهم المدنية والمهنية، وجرّدتهم من جنسيتهم ومنعت عنهم حقهم، حتى حقهم فى الحياة.

عندما بدأت المحاكمة الكبيرة ضد وجوه النازية الرئيسيين فى نوفمبر ١٩٤٥. لم يتبق من المدينة التاريخية الثرية إلا فقط ١١٠ مبانٍ سليمة. فقد هدم قصف الحلفاء جميع مظاهر النازية، بل وأتى أيضا على كل ما اجتمع فى تلك البقعة من مبان تاريخية وفنية على مدى قرون تاريخية. الكنائس، القلاع، المتاحف، والمعاهد، كلّها أضحت أنقاضا. ومن المبانى الكبيرة التى ظلت صامدة كان قصر العدالة، ذو الطوابق الثلاثة، سرداب، وأروقة شديدة الاتساع؛ كما سلم من القصف أيضا الجزء الغربى منه، الذى على هيئة نصف قطر، ويضم زنزانات حجز المتهمين.

بطبيعة الحال، كان المبنى يعانى بعض الضرر، وقد تم اختيار ٦٠٠ من أسرى الحرب الألمان، بعناية كبيرة من بين أصحاب المهن المتخصصة، ليقوموا بأعمال الإصلاح والصيانة على مدى شهرين كاملين. ثم أحيط المبنى بالأسلاك الشائكة ووقفت الخيول الهولندية لتمنع المرور فى الشوارع الجانبية المحيطة به. وأصبحت عربات الشرطة العسكرية الأمريكية تجوب محيط المبنى ليل نهار.

وقفت لحراسة البوّابة الخارجية مدرعة خفيفة وعربة چيب واثنا عشر جنديًا. عند مدخل المبنى، كانت هناك قوة احتياط من خمسة جنود مسلّحين بالرشاشات يقفون خلف أجولة من الرمال فى مواجهة البوّابة. أما البهو الداخلى الذى يفضى إلى منطقة الاحتجاز فقد خصصت مدرعة خفيفة لتولى الحراسة واثنتا عشرة نقطة مراقبة بها جنود يحملون رشّاشات يراقبون أضلاع المبنى الأربعة التى تضاء ليلا عن طريق الأنوار العاكسة.

تم تعيين العميد باردون س.أندريس، من سلاح الخيّالة بالجيش الأمريكى، مديرا لمجمع الحجز الذى تم تنظيمه على الفور، وفق العقلية الأمريكية. كانت زنزانات الحبس موزعة بتطابق على طابقين، بحيث تفرغ زنزانة بين كل اثنتين مشغولتين لمنع التواصل بين زعماء النازية. تتم إضاءة مصباح أحمر على الزنزانة المشغولة، وتطفأ عندما تصبح شاغرة.

فى أحد أطراف الطابق السفلى، كانت تقع الزنزانة رقم ٢٤ التى خُصصت لفرانز فون بابين، نائب المستشار مع هتلر عند بداية دخوله المستشارية، ثم أصبح سفير ألمانيا لاحقا لدى فيينا وأنقرة؛ إلى جواره زنزانة فارغة؛ ثم تليها الزنزانة رقم ٢٣ التى خُصصت لأدولف هيس، نائب هتلر، الذى طار فجأة إلى إنجلترا محاولا الاتفاق على هدنة بين برلين ولندن؛ بجوارها زنزانة شاغرة، تليها زنزانة رقم ٢٢. التى كانت تأوى الجنرال ألفريد جودل، رئيس هيئة

أركان حرب الفيرماخت، تعقبها أخرى شاغرة، ثم دونيتز... وهكذا حتى إجمالى ٢٢ زنزانة، حيث إن بورمان لم يتمكنوا من العثور عليه، وكان كروب يحتضر فى مكان ليس بالبعيد تحت حراسة الشرطة العسكرية الأمريكية.

كانت مساحة الزنزانة صغيرة نوعا ما، ثلاثة أمتار فى أربعة، وتجهيزاتها متواضعة: سرير عليه مرتبة، وسادة، وأربعة أغطية عسكرية، حيث كان برد الشتاء هناك قارسا جدا. لم يكن بالزنزانة المزيد من الأثاث باستثناء كرسى، وحوض، ومرحاض بلا باب. كان بمقدور السجين أن يقضى حاجته بشىء من الخصوصية، إذ كان محظورا على الجنود الذين كانوا يراقبونهم ليل نهار، متابعتهم أثناء ذلك. كانت أضواء الزنزانة تضاء ليل نهار، بحيث لا يغيب السجين عن أعين الشرطى أبدا.

كانت الزنزانة شبه خالية: لم تكن بها أية دعامات خشبية للسقف، ولا كلابات، ولا مشاجب، ولا أية أداة قد تستخدم فى الانتحار. كان الزجاج قد تم استبداله بورق السيلوفان، ولم يكن مسموحا للمساجين باستخدام المناظير لتجنب أن يتم استخدام زجاجها فى قطع الشرايين (مثلما فعل فرانك، فى شهر مايو، عندما ألقى القبض عليه) ولا بارتداء الحلى خشية أن يبتلعوها. كما لم تكن تعطى لهم قطع الملابس، وإن كان يُسمح باستبدالها كثيرا. وطبعا لا حمّالات، ولا أحزمة، ولا رباط عنق. كان النظام يقضى

بتفتيش الزنزانة مرتين فى اليوم الواحد، كما تتم تعرية السجناء بحثا عن كبسولات السيانيد الشهيرة، أكثر ما يخشاه الحلفاء، بعد أن ضيّعت من بين أيديهم كلاً من القائد فون فرايدبورج والجنرال هيملر.

أثناء فصل الصيف وحتى بدايات الخريف، تم التحقيق مع السجناء عشرات المرّات. تعيّن عليهم، أيضا أن يردوا على عدد لانهائى من الاستبيانات التى كانت تسعى للتوصل إلى الحقيقة، فيما بين ثنايا تناقضاتها. وكان عليهم أن يجيبوا عن عشرات من مستندات الاختبار التى حاولت سبر أغوار شخصياتهم. خلال الشهرين اللذين أقاموهما فى حجز محكمة نورمبرج، وقبل بداية المحاكمة، لم يكن للسجناء أية أنشطة أخرى غير ذلك. خضع بعضهم لاختبارات ذكاء، لم تعكس ارتفاع مستوى أخلاقيات زعماء النازية، لكنها فسرّت سبب صعودهم إلى السلطة. فقد فاق الجميع المستوى المتوسط. فلو كان متوسط معدل ذكاء الفرد العادى يتراوح ما بين ٩٠ و١٠٠. فقد حصل المصرفى شاخت على ١٤٣. وسايسذإيكارت على ١٤١. وجورينج على ١٣٨ . أقل المعدلات حصل عليها كالتنبرونر بـ١١٣. وسترايخر بـ١٠٦.

كان يحق للمتهمين أن يقرأوا وتصلهم الكتب وقتما شاؤوا. كما يسمح لهم بالكتابة، وكان لديهم الورق اللازم. غير أن أقلام الرصاص أو الحبر، كانت تسحب منهم فى نهاية اليوم، لتجنب

احتمال استخدامها فى إيذاء أنفسهم. أما الطعام، فلم يكن يختلف كثيرا عما كان المدنيون يحصلون عليه فى الخارج. كانت الوجبات تدخل لهم عن طريق النافذة الصغيرة ويتناولونها بمفردهم باستخدام فقط الملاعق، والآنية مستديرة بلا مقابض، وتحت نظر شرطى المراقبة. أما أثناء المحاكمة، فقد كان يسمح لهم بأن يأكلوا مع بعضهم، إذا ما رغبوا فى ذلك. فى تلك الفترة لاحظوا تحسن نوعية الطعام، حيث علّق العقيد أندريس ساخرا: «إن هذا أفخر وجبة فى أوربا». ثلاث وجبات فى اليوم تتكون: من الحبوب المغلية فى الإفطار، حساء وخضروات ولحوم وقهوة فى منتصف النهار، وبيض وخضروات وخبز فى المساء.

كانت نظافة الزنزانة تقع على عاتق السجناء أنفسهم، ومن ثم كانوا ينشغلون بمهامها وينعزلون عن العالم الخارجى الذى كان يمنع عليهم مخالطته، بما فيه رجال الشرطة الأمريكان. كان حلاّق ألمانى، من أسرى الحرب يقوم بحلاقة ذقونهم، يوميا بماكينة أمواس، فى وجود شرطى وضابط يراقبون الأمواس، حتى لا تختفى إحداها.

على الرغم من كل هذه الاحتياطات، أفلت من قبضة أيديهم، لأى، مسئول جهاز العمل. فقد أصيب، السكير-كما يلقبه فى تحقير جورينج - بالاكتئاب، وكان يقول إنه لا يهتم لو تم إعدمه على الفور، لكنه لا يريد أن يقف أمام القاضى مثل باقى المجرمين ممن ارتكبوا

الجرائم الوحشية. كان لأى، يعانى من عدم اتزان، ازداد سوءا بإدمانه الكحول. لاحظ حارسه، ليلة ٢٥ أكتوبر، بحالة هياج شديد ألّمت به، راح على إثرها يلوى يده وهو يتحدث مع نفسه: «كل هؤلاء الموتى من اليهود، ملايين، ملايين، ملايين، لا أستطيع أن أنام». بدا بعدها، أنه قد هدأ وتوجه ناحية المرحاض. أطلق الحارس صفارة الإنذار، عندما وجد ساقيه على نفس الوضع أكثر من خمس عشرة دقيقة. مات لأى. كان قد ملأ فاه بمجموعة من الخرق وعلق نفسه بمنشفة ملفوفة على ماسورة السيفون ليصاب بإسفكسيا بطيئة وهو جالس على مقعدة المرحاض.

مع بداية المحاكمة، تحسنت ظروف الإقامة فى الحجز. سُمح لمن يرغب بحضور قداس الأحد فى كنيسة القصر الصغيرة. لكن لم يكن يذهب إليه سوى فون بابين وسايس إنكارت يتبعهم، على مسافة قصيرة، شرطيان عسكريان. كما كان يسمح لهم بنزهتين بالفناء الخارجى، يوميا - فى صف واحد دون أن يسمح لهم بتبادل الحديث - وإذا كان الجو ممطرا كانوا يذهبون إلى قاعة الجيمنازيوم المغطاة. كانت هذه القاعة عبارة عن قاعة واسعة يعلوها الغبار، تم تجميع الأجهزة الرياضية فى أحد أركانها، غير أن أكثر ما يلفت النظر هناك، كان كومة كبيرة من الأوراق: ٢٠ طنا من مستندات المحاكمة مصنفة ومقسمة إلى حزم.

مسؤلون أمام القانون

أخيرا، حل يوم ٢٠ نوفمبر ١٩٤٥ وفُتحت القاعة الكبرى -التى كان لها شكل حرف (T) - أبوابها بقصر العدالة بنورمبرج، وهى التى عرفت باسم قاعة ٦٠٠. تم نقل الواحد والعشرين متهما إلى هناك لتتم محاكمتهم أخيرا. لم يكن بينهم بورمان، الذى ستتم محاكمته غيابيا، ولا كروب الذى كان قد تجاوز الثمانين، وتم إعفاؤه من المحاكمة كما تقدم.

امتلأت القاعة عن آخرها بالحضور. ١٥٠ صحفيا -من بينهم الروائى الشهير جون دوس باسوس، وآلان بولوك الذى سيكون أفضل مؤرخى سيرة هتلر- مصورين، ومحامين، نحو مائة موظف من النيابات الأربع التى تشكل ادعاء المحاكمة - على رأسهم القاضى الأمريكى، جاكسون - مترجمين، نحو٥٠٠ شخص فى الإجمال. جميعهم كانوا ينظرون بتبجح إلى المتهمين. فى تمام الساعة ٠٣:١٠ وصل القضاة الثمانية إلى القاعة، أربعة رئيسيون وأربعة نوّاب. كل قاض ونائبه يتولى نظر قضية واحدة من القضايا الأربع الكبيرة، انهالت أضواء فلاشات الكاميرات كالمطر، فى الساعة ١٠,١٥ أجبر القاضى البريطانى جيوفرى لورانس الجميع بالتزام الصمت: «فُتحت الجلسة».

اجتمع عدد من كبار النازية هناك بعد مرور وقت طويل لم يلتقوا فيه. كان هذا حال رودولف هيس، الذى سُجن لأربعة أعوام فى

إنجلترا وتم نقله إلى نورمبرج عندما حان موعد المحاكمة. من كان نائبا لهتلر قد أصابته لوثة، حسبما أكد الأطباء النفسيون، وكان قد فقد ذاكرته أو بدا ذلك. عندما شاهد هيس جورينج يجلس على كرسى الاتهام، وأثناء إنعقاد المحكمة الدولية، باغته فى حبور: «لا تقلق يا سيّدى المشير، عندما نقشع هؤلاء الأشباح، سيتم تعيينك فوهررًا للرايخ».

رنت بعض الضحكات الهستيرية الخفية على مقاعد المتهمين، لكنها سرعان ما تبددت مع بدء مداخلة القاضى جاكسون، الافتتاحية:

«لابد أن تأخذ العدالة مجراها وتطول هؤلاء الرجال الذين تمتعوا بسلطات واسعة وأساءوا استغلالها واشتركوا فيما بينهم للإتيان بكارثة لم تترك بيتا، فى هذا العالم إلا وأصابته. إن الطريقة الوحيدة التى تمنع وقوع الحروب المتكررة وتجعلها مستحيلة، من دون تجاوز القوانين الدولية، هى جعل الساسة مسئولين أمام هذه القوانين».

كان القاضى الأمريكى يرسى مبدأ محاكمة رجال السياسة على الحروب التى يتسببون فيها. لم يقل، مع ذلك، إن المسئولية تقع على من يخسر الحرب، ولكن فى الواقع لم تتم محاكمة من انتصر. كانت نورمبرج، وإن قامت، بالطبع، على الفظائع التى ارتكبتها النازية،

فإنها كانت محاكمة نصبها المنتصرون لمحاكمة المهزومين. فمثلا، لم يتمكن الدفاع من الحصول على اعتراف بالاتفاق الذى وقعته ألمانيا مع روسيا عام ١٩٣٩. عندما كانت المحكمة تنظر احتلال بولندا. والأمثلة كثيرة: تم اتهام الكثير من البحارة الألمان بعدم إنقاذهم لكثير من الغرقى، واتهم أيضا الطيّارون بإطلاقهم النار على الطيارين الذين فقدوا طائراتهم وكانوا ينزلون بالمظلات، وهو ما فعله العديد من البحارة والطيارين من الحلفاء.

تم اتهام زعماء النازية بارتكاب تجاوزات فى حق المدنيين، ولم تتم محاكمة أحد على التدمير الممنهج لمدن ألمانيا، ولا على القصف الذى كان يستهدف عن قصد سكان المدن، مثلما هى حال مدينة دريسدن؛ لم يجلس السوفيت فى مقاعد الاتهام بعد أن قتلوا كاتين فى بولندا، أو بسبب توغلهم الوحشى فى غرب ألمانيا. لم يخضع التشيك للمحاكمة بعد إبادتهم شعب السوديت واعتداءاتهم على الجنود والمدنيين الألمان ممن قُبض عليهم بعد انسحاب الفيرماخت. ولا حكم على تيتو بسبب قمعه مدن كرواتيا وسلوفانيا.

من أجل تجنب مثل هذه التناقضات، عُقدت فى لندن، فى شهر يونيو ١٩٤٥، قمّة للمحلفين ممثلين عن القوّات المنتصرة، غير أن قرارتهم لم تنشر إلا بعد أعوام:

١ - ستتم فقط الأفعال التى قام بها المتهمون ولن تناقش سواها.

٢ - سيتم إلغاء أى تدقيق يتعلّق بكون كل اتهام به انتهاك للقانون الدولى. ببساطة، كان القانون الدولى يصاغ حسب الموقف لتكون الانتهاكات مسئولية المتهمين.

٣ - حتى يتم تجريم المتهمين شخصيا على قرارت الرايخ الثالث أو تلك التى لم يشتركوا فيها بصفة مباشرة بدعوى نظرية: «التحريض»: قد يكونون لم يعطوا الأمر المباشر أو أنهم لم يكونوا فى مركز القرار، غير أنهم «كانوا داخل المحور» شكلوا جزءا من «المؤامرة» ومن ثم فهم مسئولون بشخصهم...

أرسى ذلك المؤتمر، الذى أقر اختيار نورمبرج مقرًا للمحاكمة الكبرى، قواعد قانون المحاكمة، وقرّر فى حسم أن عام ١٩٤٥ لن يشهد تكرارا لما حدث عام ١٩٢١، حول مسئوليات الحرب الكبرى، ومن ثم لن يخضع للمحاكمة سوى المنهزم، وسيكون ذلك وفق قواعد سد الثغرات القانونية.

عندما يرد ذكر محاكمة نورمبرج، تأتى الإشارة إلى الحكم على ٢٢ من مسئولى النازية (الحكم على بورمان غيابيا) الذين صدر عليهم الحكم مسبقا وبلا محاكمة. مع ذلك، شهدت نورمبرج ثلاث عشرة قضية متوالية، تم الحكم فيها على ١٩٩ من أهم مساعدى

هتلر. هنا لا يُذكر سوى القضية الأولى التى ضمت أعيان الرايخ الثالث، والتى جمعت ممثلين عمّن يمكن محاكمتهم واتهامهم فى شموخ من جانب القضاء:

أ - قيادات الحزب: جورينج، صديق وخليفة هتلر ووزير الطيران؛ وروزنبورج، فيلسوف الحزب؛ وسترايخر «اكبر أعداء اليهود» وريبنتروب، سبع سنوات على رأس وزارة الخارجية؛ وشيراخ، رئيس جماعة شباب هتلر وقائد فيينا؛ سايس إنكارت، وريث النازية على هولندا وصاحب لقب «سفاح هولندا» وأخيرا، رودولف هيس، نائب هتلر، حتى عام ١٩٤٢.

ب - عسكريين: دونيتز، قائد ورئيس البحرية وخليفة هتلر؛ رايدر رئيس البحرية حتى ١٩٤٣. كايتل، مشير وقائد الفيرماخت الأعلى؛ جودل، العقيد الجنرال رئيس هيئة أركان حرب القيادة العليا للفيرماخت.

ت - موظفين: شاخت، رئيس بنك الرايخ ووزير الاقتصاد ووزير بلا وزارة حتى وقوع كارثة ١٩٤٣. فون بابن، الذى ساند هتلر، فى رحلة صعوده إلى المستشارية وكان نائبه وسفيره؛ سبيير، مهندس هتلر ورئيس الإنتاج الحربى؛ فريتشى، رئيس الإذاعة بوزارة الإعلام ومساعد جوبلز؛ وفونك، وزير الاقتصاد ورئيس بنك الرايخ.

ث - قتلة ومبيدين: كالتبورنر، رئيس الجستابو وأحد المسئولين عن «الحل الأخير[1]»- فريك، حامى بوهيميا-مورافيا، الذى أودع كل اليهود معسكرات الإبادة؛ فرانك، حاكم بولندا المسئول عن إبادة نحو ٦ ملايين يهودى وبولندى؛ وسوكيل، مسئول الرايخ فى تورنغن الذى قام بتسخير ٥ ملايين عامل بالقوة والقسوة؛ وفون نوراث، الحامى الأول لبوهيميا-مورافيا، وهو المنصب الذى أجبر على الاستقالة منه لافتقاره إلى الشّدة والحسم.

كان الحلفاء يتطلعون لمجموعة أخرى: رجال الصناعة الذين اشتركوا فى المجهود الحربى النازى. من ثم تم القبض على كروب، ذى الثمانين عاما، غير أن تدهور حالته الصحية، لم تمكنهم من جلوسه على مقاعد المتهمين. كما لاحقوا أبرز رجال الصناعة ومفكريها ومهندسيها، لضمهم إلى اقتصادهم بلادهم أو استعانوا بهم لإنعاش اقتصاد ألمانيا.

---

(١) الحل الأخير: خطّة ألمانية تهدف لإنهاء مشكلة اليهود أثناء الحرب العالمية الثانية. كانت الخطة تقتضى الترحيل القسرى المنظم لليهود إلى معسكرات الأعمال الشاقة بهدف القضاء عليهم وإبادتهم. عقد القادة النازيون اجتماعًا فى العاصمة برلين فى ٢٠ يناير ١٩٤٢، لبحث خطة «الحل الأخير»، فيما عرف لاحقا باسم «الهولوكوست». مع نهاية الحرب العالمية الثانية، عثر الحلفاء على محاضر الاجتماعات واستخدمت باعتبارها أدلة دامغة فى إدانة قادة الرايخ الثالث أثناء محاكم نورمبرج.

استوجب على الواحد والعشرين متهما ممن حضروا محاكمة نورمبرج أن يتحملوا ٢٥١ يوما، المدة التى دامتها المحاكمة، وأن يواجهوا سلسلة من الاتهامات تم ضمها فى أربع مجموعات:

- جرائم ضد السلم: الإعداد والدخول فى الحرب.

- جرائم حرب: سوء معاملة المدنيين والأسرى.

- جرائم ضد الإنسانية: إبادة جماعية، استعباد واستغلال المدنيين.

- التآمر: الإعداد والتجهيز لارتكاب الجرائم السابقة.

شملت تعليمات المحاكمة القبض على المتهمين ونقلهم إلى نورمبرج. خلال تلك الشهور تمت عشرات التحقيقات، بينما كانت فرق من المحققين تجمع مئات من أطنان المستندات من مكاتب الرايخ الثالث. مع حلول نوفمبر، وبداية المحاكمة، كان كل اتهام يحمل ما يدعمه من الأسانيد والمستندات، ومن ثم كان إيقاع المحاكمة سريعا، مع الأخذ فى الاعتبار عدد المتهمين وضخامة الاتهامات.

امتدت المحاكمة حتى مارس ١٩٤٦، واستمر الدفاع حتى يوليو. شهد يوم ٣١ أغسطس، نهاية الجلسات وصدور الأحكام ضد منظمات النازية. اتفق القضاة على الأحكام فى ٣٠ سبتمبر، وأُبلغت للمتهمين فى ١ أكتوبر.

كان جورينج أول من سمع الحكم عليه: «الإعدام شنقا». خرج المشير الضخم المختال من القاعة منكس الرأس وراح يهمهم: "الإعدام... الإعدام". سمع الواحد وراء الآخر، على مدار ساعة ونصف الساعة، ما تقرر عليهم من أحكام. نال ثلاثة منهم البراءة وأطلق سراحهم: فون بايبن، وفريتشى، وشاخت. تم الحكم على دونيتز بالحبس لمدة عشرة أعوام؛ وعلى نورات بخمسة عشر عاما؛ وعلى سبير، وسيراخ بعشرين عاما؛ وعلى هيس، ورايدر، وفوك بالمؤبد؛ وعلى الباقين الإعدام شنقا: جورينج، وبورمان(الغائب)، وريبنتروب، وكايتل، وكالتنبرونر، وروزنبورج، وفرانك، وفريك، وسترايخر، وساوكيل، وجودل، وسايس-إيكارت.

نلاحظ أن أقسى العقوبات جاءت من نصيب أهم زعماء النازية: جورينج، وبورمان، وريبنتروب، وروزنبورج، وسترايخر وسايس-إيكارت؛ وضد أقرب العسكريين لهتلر: كايتل، وجودل؛ وضد المسئولين المباشرين عن القتل الجماعى والنفى والقمع: كالتنبرونر، وفرانك، وفريك، وساوكيل. كما كان الموظفون الأوفر حظا: براءة لفون بابين، وفريتشى، وشاخت؛ وعشرين عامًا لسبير؛ والمؤبد لفونك.

أحكام الإعدام

استأنف المحكوم عليهم ضد الأحكام الصادرة ضدهم. غير أنهم خسروا مساء يوم ١٥ أكتوبر: يجب تنفيذ أحكام الإعدام على الفور.

لم يتم إعلام المتهمين. مر بهم أسبوعان من التوتر حول مصير استئنافهم. كانوا متشائمين بخصوص مصيرهم، وكانوا يعرفون أنهم يقتربون من نهايتهم: لاحظوا تكثيف إجراءات المراقبة، وإضاءة الأنوار طوال الليل، وتواتر دوريات الحرّاس. لاحظوا أيضا، وجوها جديدة بين العاملين بالسجن وسمعوا جلبة وضجيجا - يصعب عدم التعرف عليها- لنجارين ينصبون سقالات الإعدام.

ذهبت تكهنات المتهمين إلى أن الأحكام الكبرى سيتم تنفيذها يوم ١٤ أكتوبر، حيث عاشوا أكثر أيامهم توترا، يوم ١٥ أكتوبر. فى الساعة العاشرة مساء كان الجميع على أسرّتهم يحاولون أن يجدوا للنوم سبيلا. فى الساعة ٢٢,٤٥ لاحظ الحارس المختص بمراقبة السجناء، عن طريق نافذة الباب الصغيرة، ارتجافا زائدا فى يد جورينج، مما دفعه لإطلاق صافرة الإنذار. عندما وصل الضابط، أدرك أن جورينج كان يحتضر وعندما وصل الطبيب، لم يسعه سوى إعلان وفاته: تناول كبسولة سيانيد، يبدو أنه كان يخفيها فى غليونه.

ألقى انتحار زعيم النازية بظلاله السوداء على مراسم الإعدام التى كانت تجرى، وأدى بأحد المسئولين الأمريكان لأن يخشى على مستقبله، ولم يتم إبلاغه لا بالموعد ولا بخطة التنفيذ. بعد منتصف الليل بربع ساعة، يوم ١٦ أكتوبر، مر مدير السجن العقيد آندريس، من جيش القوات المسلحة الأمريكية مع نائبه وشاهدان ألمانيان

وحرس مسلّح، ليبلغ المحكوم عليهم بالإعدام بأن استئنافهم لم يُقبل.

قبيل الواحدة فجرا، دخل رجلا شرطة من الأمريكان، زنزانة فون ريبنتروب وطلبوا منه أن يرافقهم إلى السقّالة. أكد جميعهم أنه قال وهو ينهض:

«أثق فى دم الحمل الذى يغسل خطايا العالم».

دخل السجين إلى قاعة الجيمانزيوم، يرافقه شرطيان عسكريان قويا البنية، يرتديان حمائل بيضاء وخوذات حرب فضية. ربط مساعدا الجلاّد ساعدى السجين برباطين من الجلد الأسود وساعداه على صعود درجات السقّالة الثلاثة عشر. عندما بلغ آخرها سألوه:

- ما اسمك؟

- يواقيم فون ريبتروب.

- هل تود أن تقول شيئا؟

- ليحمى الله ألمانيا! آخر ما أتمنى هو أن تعيش ألمانيا متحدة وأن يتم التوصل لتفاهم بين الشرق والغرب.

ألبسوه قلنسوة سوداء غطت رأسه ووجهه. قام وودز، الجلاّد، بإحاطة رقبته بحبل الشنق وأحكمه عليها، ودون أن ينتظر ولو ثانية

أخرى، شد الرافعة التى كانت تفتح فتحة الأرض التى كان ريبنتروب وزير خارجية الرايخ الثالث يقف عليها. سقط جثة هامدة. كانت الساعة تشير إلى الواحدة والربع من فجر يوم ١٦ أكتوبر ١٩٤٦: لقد بدأ إعدام كبار مسئولى النازية، حسب الأحكام التى صدرت عليهم من المحكمة الدولية التى انعقدت فى نورمبرج.

التالى، فى الصعود إلى سقّالة الإعدام كان ويلهلم كايتل، تلاه كالتنبرونر، ثم روزنبورج، الوحيد الذى رفض المراسم الدينية. وبعده فريك، الذى بعد أن فُتحت الأرضية، قفز إلى الخلف وأصيبت رقبته بقطع غائر بعد أن اصطدم بالحافة. ثم فرانك، وستراخر،الذى رفض أن يسير حتى السقّالة، فتم حمله مستلقيا على الأعناق، ومات وهو يصرخ دون توقف «هايل هتلر، هايل هتلر!». التالى كان ساوكيل، ثم جودل، وأخير سايس-إنكارت، الذى وصل إلى السقّالة فى الساعة الثالثة إلا الربع وقال قبل أن توضع القلنسوة السوداء على رأسه: «أتمنى أن يكون هذا الإعدام هو آخر فصول مأساة الحرب العالمية الثانية وأن يكون درس هذه الحرب مفيدا لتحقيق السلام والتفاهم بين الشعوب». وبعد أن وقف على فتحة الأرضية، صرخ قائلا: «أؤمن بألمانيا» تم تسجيل موته فى الساعة: ٣:٥٧.

انتهى تنفيذ عمليات الإعدام. قال وودز السيّاف مفتخرا: «عشرة رجال خلال ١٠٣ دقائق، يا له من إنجاز سريع». بعد ذلك بقليل، تم

نقل جثمان جورينج إلى الجيمانزيوم ووضعه إلى جوار العشرة الباقين. هناك، قام أحد المصورين الأمريكان بتصويرهم، بملابسهم مرة، وبدونها مرّة أخرى.

فى الرابعة فجرا، خرجت النعوش الأحد عشر من قصر العدالة، تنقلها سيارتا نقل كبيرتان وتسبقهما درّاجتان بخاريتان وعربتان عسكريتان إلى معسكر داشو، بالقرب من ميونخ، حيث تم حرقهم بأحد أفران الحرق الذى تم تشغيله خصيصا لهذه المرة الأخيرة. تم جمع الرماد ونثره على نهر إيسار. كل هذه الإجراءات تمت فى سرية تامة، ولم تنشر التفاصيل، سوى فى الثمانينيات.

حاول الثلاثة الذين أطلق سراحهم أن يعودوا لحياتهم الطبيعية، غير أن ذلك لم يكن بالأمر اليسير: أولا، كان الحكم على الثلاثة فى ألمانيا وحكم عليهم بالأشغال الشاقة: رجل الاقتصاد: هخالمار، استعاد حريته عام ١٩٤٨، وأنشأ بنكه الخاص عام ١٩٥٣. مات فى ميونخ عام ١٩٧٠ عن عمر يناهز الثالثة والتسعين، بعد أن تحوّل إلى أحد أهم رجال «معجزة الاقتصاد الألمانى» ومستشارا كبيرا لعدد من حكومات أمريكا اللاتينية. أما فرانز فون بابن، فقد أطلق سراحه عام ١٩٤٩ . عاش بعدها لفترة فى تركيا، حيث كتب مذكراته التى نشرها عام ١٩٥١. مات عام ١٩٦٠. فى بادن، بعد أن بلغ التسعين من العمر. وأخيرا هانز فريتشى الذى أُطلق سراحه عام

١٩٥٠. عمل بعدها بإحدى شركات الدعاية، ثم لم يلبث أن توفى عام ١٩٥٢. متأثرا بمرض السرطان.

سبعة سباندو

ظل السبعة الذين حُكم عليهم بالسجن فى حجز نورمبرج حتى صيف ١٩٤٧ . فقد كان عليهم أن ينتظروا الانتهاء من أعمال تجهيز سجن سباندو، الذى يقع غرب برلين، والتى انتهت فى شهر يوليو وتم نقل المساجين إليه يوم ١٨ يوليو. تناوب الروس والأمريكان والبريطانيون والفرنسيون الحراسة عليهم شهريا.

كان روتينهم اليومى فى السجن كما يلى:

- ٦,٠٠ الاستيقاظ، ثم الاغتسال وارتداء الملابس.

-٦,٤٥ إلى ٧,٣٠ الإفطار.

- ٠٧,٣٠ إلى ٨,٠٠ ترتيب الأسرة وتنظيف الزنزانة.

-٨,٠٠ إلى ١١,٤٥ تنظيف الممرات وأعمال الحدائق، حسب حالة المساجين الصحية وحسب حال الجو.

-١٢,٠٠ إلى ١٢,٣٠ الغداء.

- ١٢,٣٠ حتى ١٣,٠٠ الراحة والقيلولة.

- ١٣,٠٠ حتى ١٦,٤٥ أعمال داخلية أو بستانية، حسب حالة الجو وأوامر القائد.

-١٧,٠٠ العشاء.

-٢٢,٠٠ نهاية اليوم وإطفاء الأنوار.

هذا هو الروتين الذى عاشه السجناء السبعة تحت حراسة مجموعة من الجنود، ويخدم الجميع أربعون شخصا حتى عام ١٩٥٤ . فى هذا العام تم الإفراج عن كونستانتين فون نوراث، بعد أن اشتد عليه المرض وبلغ الثمانين من العمر وتوفى عام ١٩٥٦ . فُتحت أبواب سباندو أيضا لاثنين آخرين من المحكوم عليهم بالسجن المؤبد: إيريك رايدر، والاقتصادى والتر فونك. الأول كان يعانى من شدّة المرض وكان قد بلغ التاسعة والستين، وقد أُفرج عنه عام ١٩٥٥ . أما الثانى، فقد حصل على الإفراج عام ١٩٥٧ وهو فى الخامسة والستين وكانت صحته معتلة.

فى عام ١٩٥٦. وبعد أن أتم عقوبة السنوات العشر التى حكم عليه بها فى نورمبرج، خرج من سجن سباندو، القائد دونييتز: كان فى الخامسة والستين من عمره وكانت صحته جيّدة، وهو ما سمح له بكتابة مذكراته وإعطائه الكثير من المحاضرات. توفى عام ١٩٨٠ عن تسعة وثمانين عاما.

اجتمعت الظروف على أنه مع نهاية ١٩٥٧. لم يعد فى سجن سباندو، الذى يتسع لـ٦٠٠ سجين، من النزلاء سوى آخر ثلاثة ممن ينفذون أحكام نورمبرج: هيس، وسبير، وشيراخ. السجناء الذين كانوا يحملون أرقام سبعة، وخمسة، وواحد على التوالى حسب

ترقيم السجن. فى واقعة طريفة، حدث أن قامت السلطات الإنجليزية، التى كانت تتولى مراقبة السجناء، باستفتاء بين الحرّاس أسفر عن جهلهم جميعا بهوية المساجين الثلاثة ولم يستطيعوا التعرف على أسمائهم. حدث ذلك فى الخمسينيات.

أنهى ألبرت سبيير، وبالدور فون شيراخ، عقوبة العشرين عاما المفروضة عليهما وغادرا سباندو، عام ١٩٦٦. كتب كلاهما مذكرات هامة للغاية. توفى شيراخ عام ١٩٧٤ عن السابعة والستين، بينما توفى سبيير عام ١٩٨١ وهو فى السادسة والسبعين. لم يبق وحيدا فى سباندو، سوى رودولف هيس، الذى حاول الانتحار مرارا، وأخيرا نجح فى ذلك فى أغسطس ١٩٨٧. كان قد بلغ الثالثة والتسعين من عمره، وكانت حراسته فى مسئولية البريطانيين. قالت الرواية الرسمية للأحداث؛ إن هيس حاول خنق نفسه بسلك كهربائى. عُثر عليه قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة وتم نقله إلى المستشفى العسكرى البريطانى فى برلين وهناك توفى. كان سجين سباندو الوحيد على مدى ٢١ عاما. فشلت جميع المساعى الإنسانية، على مدى عقدين من الزمان، من أجل إطلاق سراحه، نتيجة تعنت السوفيت ورغبتهم فى أن يقضى حياته فى السجن تخليدا لذكرى بشاعة النازية، وانتقاما منها. مات بعد هتلر باثنين وأربعين عاما، وبموته اختفى، رفيق دربه فى إرساء النازية و «تابعه الأمين» فى معاركه الانتخابية بحانات ميونخ وسكرتيره ومساعده فى صياغة كتاب الماين كامبف.

المراجــع

- آرتولا، ريكاردو: الحرب العالمية الثانية. آليانثا إيديتو ريال، مدريد، ١٩٩٥.

- إسبينار جاييجو، رامون وآخرون: تأثير الحرب العالمية الثانية على أوربا وإسبانيا. آسامبليا دى مدريد، مدريد، ١٩٨٦.

- إيرفينج، دافيد: حرب هتلر. بلانيتا ، برشلونة، ١٩٨٨.

- باستور بوتى، دومينجو: التجسس: الحرب العالمية الثانية وإسبانيا. بلاثا أى خانيس، برشلونة، ١٩٩٠.

- بالفور، آلان: برلين،سياسات النظام، (١٧٣٧-١٩٨٩). ريتزولى، نيويورك، ١٩٩٠.

- باور، إيدى: التاريخ المعكوس للحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥). ريال، مدريد، ١٩٧٦.

- بوتلر، إ. ويونغ، ج. : مشير بلا مجد، حياة وممات هيرمان جورينج. ثيركولودى ليكتورس، برشلونة، ١٩٨١.

- بولوك، آلان: هتلر، بروغيرا، برشلونة، ١٩٧٢ .

- ----- : هتلر وستالين، حياتان متوازيتان. ١، بلاثا أى خانيس، ثيركولودى ليكتورس، برشلونة، ١٩٩٤.

- بيرتين، كلود: الحرب العالمية الثانية. دائرة أصدقاء التاريخ، مدريد، ١٩٧٦.

- بيرد، يوجين ك: سجين سباندو. ثيركولودى ليكتورس، برشلونة، ١٩٧٥.

- باتاكو، أرّيجو: الحرب العالمية الثانية. أرماندو كورتشو إيديتورى، روما، ١٩٧٨.

- باين، روبرت: حياة وممات أدولف هتلر. بروغيرا، برشلونة، ١٩٧٤.

تريفور - روبر، هـ.ر.: آخر أيام هتلر. لوس ليبروس دى نويسترونتيمبو، برشلونة، ١٩٤٧.

- ثوروالد، جورجن: بدأ فى فيستولا وانتهى فى إلبه، لويس جى كيرالت، برشلونة، ١٩٦٧.

- جاييجو، فيرّان: من ميونخ إلى أوشفيتز، تاريخ النازية، ١٩١٩-١٩٤٥. بلاثا أى خانيس، برشلونة ٢٠٠١.

- جورينج، إيميى: جورينج، زوجى. لويس دى كارالت، برشلونة، ١٩٧٢.

- جيزفيوس، هانز بيرنارد: هتلر. بلاثا أى خانيس، برشلونة، ١٩٧٤.

- داهمس، هـ.ج.: الحرب العالمية الثانية. بروغيرا، برشلونة، ١٩٧٢.

- دولارو، چاك: الجستابو. بروغيرا، برشلونة، ١٩٧١.

- راجير، هيلارى: «الحرب الأهلية بعينى جوبيلز». هيستوريا ١٦, ١٥٣ (١٩٨٩).

- رودج فريدريك: در سيكريج. هيريرو، المكسيك، ١٩٦٥.

- ريكاردى، أندريا: قرن الشهداء. بلاثا أى خانيس، برشلونة، ٢٠٠١.

- زياجلر، چان: الذهب النازى. بلانيتا، برشلونة، ١٩٩٧.

- زينتينر، كورت: المقاومة فى أوربا. ثيركولودى ليكتورس، برشلونة، ١٩٧٠.

- سولار خ. دافيد: «آخر أيام هتلر». هيستوريا ١٠٧،١٦ مدريد، (١٩٨٥).

- ---------: احتضار ألمانيا. كوروم إديثيونس إيبير وأمريكاناس، مدريد، ١٩٨٧.

- ---------: هزيمة ألمانيا. كوروم إديثيونس إيبيروأمريكاناس، مدريد، ١٩٨٧.

- ---------: «استسلام ألمانيا». هيستوريا ١٦, ٢٤٥ مدريد، (١٩٩٥).

- ---------: «الذكرى الخمسين لمحاكمة نورمبرج». هيستوريا ١٦ 245 مدريد، (١٩٩٦).

- ---------: هتلر، بورتريه وردى. لا أفينتورا دى لا هيستوريا، رقم ٣٨، ديسمبر، ٢٠٠١.

- سبير، ألبرت: مذكرات. ثيركولودى ليكتورس، برشلونة، ١٩٧٠.

- ستاينر، مارليس: هتلر. خافيير فيرغارا ، بوينس آيريس، ١٩٩٦.

- سيبمسون، ويليام : هتلر وألمانيا. آكال، مدريد، ١٩٩٤.

- جرافارد، سلفى وتريستان ليو: تلاميذ الإنجيل والنازية (١٩٣٣-١٩٤٥). تيريسياس، باريس، ١٩٩٧.

- فوللر، ج.ف.ث.: المعارك الحاسمة للعالم الغربى. الجزء الثالث، إيخرثيتو، مدريد، ١٩٧٩.

- فيست يواقيم: هتلر. نوغير، برشلونة، ١٩٧٤.

- فون بايبن، فرانز: ذكريات. إسباسا كالبى، مدريد، ١٩٥٢.

- كارتييه، ريموند: هتلر والسطو على السلطة. آرغوس فيرغارا، برشلونة، ١٩٧٨.

- كتّاب متعددون : «تاريخ القرن العشرين، زلزال النازية». هيستوريا ١٦، مدريد، ١٩٨٤.

- كتّاب متعددون: «بولونيا: هكذا بدأت المأساة». هيستوريا ١٦،١٦٢ مدريد، ١٩٨٩.

- كتّاب متعددون: «تاريخ القرن العشرين، الحرب البرق». هيستوريا ١٦، مدريد، ١٩٨٤.

- كتّاب متعددون: «تاريخ القرن العشرين، نهاية الحرب العالمية الثانية». هيستوريا ١٦٢, ١٦ مدريد، ١٩٨٥.

- كتّاب متعددون: «تاريخ القرن العشرين، هزيمة النازية». هيستوريا ١٦، مدريد، ١٩٨٤.

- كتّاب متعددون: برلين (١٩١٩-١٩٣٣). آليانثا، مدريد، ١٩٩٣.

- كتّاب متعددون: تاريخ الهولوكوست. ليبسا، مدريد، ٢٠٠٢.

- كتّاب متعددون: مراجعة تاريخية للقرن العشرين، الحرب العالمية الثانية. كوروم/هيستوريا ١٦، مدريد، ١٩٨٦.

- كوبيزيك، أوجست: هتلر، صديق شبابى. خابيير فيرغارا، بوينس آيريس.

- كورنوِيل، چون: البابا الخاص بهتلر، القصة الحقيقية لبيو الثانى عشر. بلانيتا ، برشلونة، ٢٠٠٠.

- كوينكا، توريبيو وخوسيه مانويل: تاريخ الحرب العالمية الثانية. إيسباسا -أ ونيرفرسيداد، مدريد، ١٩٨٩.

- كيرشاو: هتلر، (١٨٨٩-١٩٣٦). بينينسولا، برشلونة، ١٩٩٩.

- ---: هتلر، (١٩٣٦-١٩٤٥). بينينسولا، برشلونة، ٢٠٠٠.

- لوجينيش مانويل: سنوات العار. تيماس دى أوى، مدريد، ١٩٩٥.

- لويس، دافيد: الحياة السرية لأدولف هتلر. ديانا، المكسيك، ١٩٩٠.

- ماشتان، لوثار: سر هتلر. بلانيتا، برشلونة، ٢٠٠١.

- مانفيل، روجر وفراينكيل هاينريخ: الجريمة الكاملة. شهود من عصرنا. باريس، ١٩٦٨.

- ---: هاينريخ هيملر، دائرة القرّاء، برشلونة، ١٩٧٢.

- هانزر، ريتشارد: بوتش، (كيف قام هتلر بالثورة). بلاثا أى خانيس، برشلونة، ١٩٧٢.

- هايديكر جووليب جوهانز: محاكمة نورمبرج. بروغيرا، برشلونة، ١٩٩٤.

- هتلر، أدولف: كفاحى. لوثن إيديثيونس مودرناس، بوينس آيرس، بلا تاريخ طبعة.

- هوفمان، هاينريخ: كنت صديقا لهتلر. لويس دى كارالت، برشلونة، ١٩٥٥.

- هيلغروبر، أندرياس: الحرب العالمية الثانية. آليانثا أونيفرسيداد، مدريد، ١٩٩٥.

- هينيار هـ.س.: الرايخ الثالث. بلاثا أى خانيس، برشلونة، ١٩٧٢.

- هيوتن برنارد ج.: هيس، الرجل والمهمة. بلاثا أى خانيس، برشلونة، ١٩٧٠.

- ويرث، ألكسندر: روسيا فى الحرب. بروغيرا، برشلونة، ١٩٧٢.

- يونج، دزموند: روميل، ثعلب الصحراء. ثيركولودى ليكتورس، برشلونة، ١٩٦٩.

المؤلف فى سطور

- هو صحفى، وكاتب اسبانى. وُلد عام ١٩٤٣، ببلدية نوخا (إقليم كنتابريا بشمال إسبانيا).

- حصل على ليسانس علوم الإعلام وعمل كاتب حوار ببرنامج «التقرير الأسبوعى» الذى يذيعه التليفزيون الإسبانى مساء كل يوم سبت منذ عام ١٩٧٤.

- تعاون مع فريق إعداد برنامج «اليوم لليوم» الذى تبثه رذاعة «سير».

- يكتب بصفة مستمرة، فى جريدة «الموندو» حول موضوعات تاريخية وسياسية معاصرة.

- فى عام ١٩٧٦، أنشأ مجلة «هيستوريا ١٦» التى تعتنى بالدراسات التاريخية.

- فى عام ١٩٩٨، أسس مجلة «مغامرة التاريخ التى تولى إدارتها حتى وقت قريب، وعمل من خلالها على تقريب الدراسات التاريخية المتعمقة إلى الجمهور العريض من القراء.

المترجمة فى سطور

- أستاذ الأدب الإسبانى والترجمة المساعد بكلية الألسن، جامعة عين شمس.

- لها العديد من الترجمات الأدبية والنقدية بالعربية والإسبانية.

- ومن بين من ترجمت لهم: بارجس يوسا، بويرو باييخو، خوليو كورتاثر، خوسيه ماريا مرينو، خابيير طوميو، دومينجو باديا، كارمن رويث، على منصور.

- لها نحو عشر دراسات بالعربية والإسبانية نشرت بمصر والخارج.

المراجع فى سطور:

- أستاذ اللغويات بكلية الألسن، جامعة عين شمس.

- شغل منصب المستشار الثقافى ورئيس المركز العربى فى تشيلى بأمريكا اللاتينية.

- له العديد من الدراسات نشرت بمصر والخارج.

- قام بمراجعة العديد من الأعمال الأدبية واللغوية.

المصحح اللغوى: وجيه فاروق
الإشراف الفنى: محسن مصطفى

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

"لا يزال الفوهرر حيًا ويقود الدفاع في برلين".
لم يعد لدى الفوهرر ما يقوده وأصبح موته في حكم المقرّر. تداعت إلى ذهنه ذكريات علاقته بموسولليني الذي كان يخشاه ويكرهه عندما قُتل دولفوس، وعاد وقدره عندما قام بدعمه في ميونخ أثناء مشكلة السوديت. كم رغب في شنقه، عندما عرف أنه على اتصال بالفرنسيين والإنجليز مع بداية الحرب! لكنه عاد وشكر له استمرار وفائه للمحور وامتناعه عن فتح جبهة ثانية عليه. ثم شعر بالسخط عليه عندما ظهر ضعف الجيوش الإيطالية في حرب اليونان وشمال أفريقيا! إلا أنه تعاطف معه، عندما تم إقصاؤه عن السلطة واحتجازه بجبال الغران ساسو.

عندما بدأت محاكمة وجوه النازية في نوفمبر **1945**، لم يتبق من المدينة التاريخية الثرية إلا **110** مبنىً سليمًا. فقد هدم قصف الحلفاء جميع مظاهر النازية، وأتى على كل ما اجتمع في تلك البقعة من مبانٍ تاريخية وفنية على مدى قرون تاريخية. لكن هناك مبانى ظلت صامدة، مثل قصر العدالة ذى الطوابق الثلاثة، وأروقة شديدة الاتساع؛ كما سلم من القصف أيضًا الجزء الغربي منه، الذي على هيئة نصف قطر، ويضم زنزانات حجز المتهمين.

تصميم الغلاف: نسرين كمال